

التفسير الكبير

مجلد اول

الجزء الأول

سورة الفاتحة



التفسير الكاشف

مُحَمَّدٌ حَوْلَهُ مَغْنَمَاتُهَا

النَّفْسِ الْكَاشِفُ

المجلد الخامس

من سورة الأبرار

إلى آخر سورة الشعراء

مُحَمَّدٌ حَوْلَهُ مَغْنَمَاتُهَا

إلى آخر سورة الشعراء

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net



جميع حقوق الطبع محفوظة و مسجلة للناسر

الكتاب : التفسير الكاشف (ج ٥)

المؤلف: العلامة محمد جواد مغنية (ره)

الناسر: مؤسسة دار الكتاب الاسلامي

الطبعة: الرابعة ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م

المطبعة: مطبعة سائر

عدد النسخ: (٢٠٠٠) دوره

الترقيم الدولي للمجموعة : ٩ - ٠٨٥ - ٤٦٥ - ٩٦٤ - ٩٧٨

الترقيم الدولي (ج ٥): ٣ - ٠٩١ - ٤٦٥ - ٩٦٤ - ٩٧٨

قم - ميدان معلم - شارع سمية ٢٢ - رقم ٢٦

تليفون: ٧٧٤٤٩٧٠ - ٧٧٣٠٩٩٤

فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

الجزء الخامس عشر

سورة الأشرار

سُورَةُ الْأَسْرَاءِ

مكية ، وعدد آياتها ١١١ إلا ٥ وقيل إلا ٨ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاسراء الآية ١ :

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى
الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *

اللفظ والإعراب :

سبحان منصوب على معنى أصبح تسيحاً ، ومعنى التسيح التنزيه ، وفيه معنى التعجب ، والاسراء يكون بالليل ، وليلاً ظرف لأسرى ، وجيء به هنا للتوكيد ، وقيل : للإشارة إلى ان الاسراء كان في بعض الليل ، لا في كله ، والمراد بعبده محمد (ص) ، والمسجد الحرام البيت العتيق بمكة ، وقال صاحب روح البيان وغيره : « أصبح الروايات ان الاسراء كان من بيت ام هاني أخت علي بن أبي طالب ه . والمسجد الأقصى هيكل سليمان ، وسمي مسجداً لأنه محل للسجود ، وهو أقصى لبعده عن مكة . وحوله ظرف لباركنا ، وهو محفوف بركات الدين والدنيا ، أي بموطن الأنبياء ، وبالأنهار والأشجار . وضمير انه هو السميع البصير يجوز ان يعود الى الله تعالى على معنى انه يعلم من يؤمن ومن يكفر بحديث الاسراء ، ويجوز ان يعود الى محمد (ص) على معنى انه يعلم جلال الله وعظمته . أما زمن

سورة الاسراء

الاسراء فقيلاً : انه ليلة ٢٧ من رجب ، وقبل : ليلة سبع عشر من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة .

الاسراء بالروح والجسد :

يطلق كثير من العلماء كلمة الإسرائء على رحلة النبي (ص) من المسجد الحرام في مكة الى المسجد الأقصى في بيت المقدس ، ويطلقون كلمة المعراج على رحلته من بيت المقدس الى السموات العلى ، لأن كلمة المعراج تسمى الى الارتقاء والصعود.. والبعض منهم لا يفرق بين الكلمتين ، فيستعمل الاسراء في الصعود الى السماء ، والمعراج في الإسرائء الى بيت المقدس .

وقد اتفقوا على وقوع الاسراء والمعراج لوجود النص عليهما في الكتاب والسنة ، واختلفوا : هل كان ذلك بالروح دون الجسد أو بهما معاً ، ونحن مع الذين قالوا : انه بهما معاً ، وتكلم هنا عن الاسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، أما المعراج إلى السماء فيأتي الحديث عنه في سورة النجم . واستدل القائلون بأن الاسراء كان بالروح والبدن بالأدلة التالية :

١ - ان الاسراء بالبدن ممكن عقلاً ، وقد دل عليه ظاهر الوحي ، حيث قال تعالى : اسرى بعبده ، ولم يقل بروح عبده ، وكلمة العبد تطلق على مجموع الروح والبدن ، كما قال تعالى : « أرايت الذي ينهى عبداً إذا صلى - ١٠ العلق » . ومن الأصول المقررة في الاسلام ان كل ما دل عليه ظاهر الوحي ، ولم يعارض بحكم العقل وجب الإيمان به .

٢ - لو كان الاسراء بالروح فقط لما كان فيه أي شيء من العجب ، ولم يبادر المشركون الى تكذيبه ، فلقد جاءت الروايات ان أم هانسي قالت للرسول الأعظم (ص) : لا تخبر قومك بذلك ، فأخشي أن يكذبوك .. ولكنه لم يسمع لتخوف أم هانسي ثقة منه بالحق الذي جاء به ، وصارح قومه بما رأى ، فدهشوا وأنكروا ، ولو كان مناماً لما دهشوا وأنكروا .

٣ - ان الاسراء بالروح والبدن يرمز إلى أن على الانسان أن يعمل لحياته

المادية والروحية ، لا لاحدهما دون الأخرى .

٤ - اشتهر عن الرسول (ص) انه قال : اسري بي على دابة يقال لها البراق . ومن الواضح ان الاسراء بالروح فقط لا يحتاج إلى الدابة ولا إلى غيرها . وهذه المناسبة تشير إلى مقال نشرته جريدة « الجمهورية » المصرية لمحمد فتحي أحمد بعنوان « المضمون العلمي للاسراء والمعراج » جاء فيه :

« امتطى الرسول الكريم راحلة يقال لها البراق، وهي على ما ذكر الحديث دابة فوق الحمار ودون البغل ، وفي ذلك تلقين إلهي لنا بوجود التعلق بالأسباب ، فلم يكن عزيزاً على ربنا أن ينقل رسوله من مكة إلى القدس دون وسيلة من وسائل النقل بحيث يمجّد الرسول نفسه فجأة على أبواب المسجد الأقصى ، ولكنه جلت حكمته قضى بأن يجري كل شيء على قوانين لا تتبدل ولا تتحول .. وفي استخدام هذه الراحلة التي قطعت المسافة الطويلة في سرعة مذهلة تحريض للعقول على النظر في ابتداء وسائل جديدة تقطع المسافات البعيدة في مدة وجيزة .. ثم نسأل الذين يعلمون : ما هي أقصى سرعة تجري في كون الله طبقاً لما انتهى إليه العلم ؟ . وبأيتنا الجواب بلاتردد انها على وجه اليقين سرعة الضوء، وهي ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية الواحدة .. والبراق الذي امتطاه الرسول كان ينطلق بسرعة ضوئية لأن كلمة البراق مشتقة من البرق .. ومن خلال المحاولات العلمية في دراسة الفضاء توصل الانسان إلى معرفة كثير من الأسرار ، واستطاع بسلطان العلم أن ينفذ من أقطار الأرض إلى عجائب الملكوت ، ولكن العلم المادي وحده ينسي الانسان خالق الكون ، وحادث الاسراء والمعراج يعطينا درساً بأن المادة والروح متلازمان فقد كان الرسول بعروجه إلى الملأ الأعلى على هيئته بشراً من مادة الكون وقبساً من روح الخالق الأعظم ، وكان جبريل يمثل الدليل الأمين ، ولا مانع من أن نرسم إليه في الرحلة بسلطان العلم الذي يجب أن بقودنا في رحلتنا بهذه الحياة إلى خالق الأكوان . »

وأغرب ما قرأته في هذا الباب قول من قال : ان لإسراء النبي (ص) كان بروحه ، لا بجسده الشريف مستدلاً بما روي عن عائشة ان جسد النبي لم يفارقها تلك الليلة .. مع العلم بأن عائشة كانت صغيرة حين الاسراء، ولم تكن زوجة لرسول الله (ص) .. فالرواية تكذب نفسها بنفسها .

بن المسجد الحرام واسجد الأقصى :

المسجد الأقصى يشبه المسجد الحرام من وجوه :

١ - أنهما في الشرق .

٢ - يرجع تاريخ كل منهما إلى عهد قديم إلا أن المسجد الحرام أقدم وأعظم ، لأنه أول بيت وضع للناس ، وقد أوجب الله حجه على من استطاع إليه سبيلاً : « أن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدياً للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً » - ٩٧ آل عمران .

٣ - أن كلا من الكعبة ومدينة القدس التي فيها المسجد الأقصى قد أسسها وأنشأها العرب أو شاركوا في بنائها أو تأسيسها ، أما الكعبة فقد بناها إبراهيم وولده إسماعيل (ع) : « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود - إلى قوله - وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل - ١٢٧ البقرة » . والمعروف أن إسماعيل أول نبي تكلم باللغة العربية خلاف لغة أبيه ، وإليه تنتسب قريش وغيرها من العرب ، وبلغتها نزل القرآن الكريم ، أما القدس فقد نزح إلى أرضها قبيلة اليوسيين ، وهي من القبائل الكنعانية العربية ، وقد حطت رحالها على الجبل المعروف باسم صهيون سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد بزعامة شيخها سالم اليوسبي ، وهذه القبيلة العربية هي التي وضعت أول لبنة لمدينة القدس التي أصبحت فيما بعد قبلة العالم .. وبعد أن فتح المسلمون القدس بنوا مسجد عمر ، ومسجد قبة الصخرة داخل الحرم القدسي ، والأول أسسه عمر ابن الخطاب ، والمسجد الثاني بناه عبد الملك بن مروان ، وكان المسلمون لا يبيحون لغير المسلم أن يطأ أرضهما .

٤ - أن المسلمين يقدمون كلا من المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، حيث توجهوا إليه في صلاتهم ثلاثة عشر عاماً بمكة وبضعة أشهر بالمدينة ، وإذا أضفنا

لأن ذلك اسراء النبي (ص) اليه لم يكن عجباً ان يتخذهُ المسلمون مكاناً مقدساً لهم وان يكون عندهم بالمتزلة الثانية من الحرم المكي والمدني من حيث القداسة والصيانة والرعاية .

وقد جاء في كثير من الروايات ان رسول الله قبِدَ البراق بالصخرة المقدسة حين بلغ به الإسراء الى بيت المقدس وحتى الآن يسمى الجدارُ الغربي للحرم القدسي بجدار البراق ، وجاء في الروايات أيضاً ان النبي (ص) صلى على أطلال هبكل سليمان اماماً لابراهيم وموسى وعيسى ، وانه عرج الى السماء بعد ذلك متخذاً من صخرة يعقوب مركزاً لمعرجه الى السماء . ومن أجل هذا وغيره كانت مأساة القدس سنة ١٩٦٧ م. على أيدي الصهيونية والاستعمار الأمريكي والانكليزي هي مأساة المسلمين والمسيحيين أيضاً .. فلقد لوثت تلك الأيدي القذرة الأماكن المقدسة عند الديانة الاسلامية والمسيحية، واستهانت بها ، فأجبت فيها الليالي الحمراء مع الفاجرات ، وأقامت حفلات الرقص والحلاعة .

وغريبة الغرائب ان يدعي الامريكان والانكليز انهم حماة الأديان وأعداء الالحاد.. وفي نفس الوقت يناصرون الصهاينة الذين لا يؤمنون بالقيم ، ولا يحترمون الأخلاق، ولا يقيمون وزناً لدين من الأديان ، ولا يعترفون بحق من حقوق الانسان . لقد ناصر الامريكان والانكليز اسرائيل وأمدوها بالمال والسلاح ، وآزروها في الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، وشجعوها على انتهاك المقدسات الدينية عند المسلمين والمسيحيين ، وتحذوا بموقفهم هذا العالم بأسره .. ولسنا نشك في ان دائرة السوء ستدور على المستعمرين وحلفائهم الصهاينة بأيدي الثائرين الأحرار ، تماماً كما دارت الآن على رؤوس الأمريكان بيد الفيتناميين ، ودارت من قبل على اليهود بيد مختصر الرومان والنبي (ص) والخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، وهذه الصحف والاذاعات في الشرق والغرب لا تخلو يوماً من أخبار المقاومة الفلسطينية وعملاتها الفدائية التي جعلت كل اسرائيلي يعيش في كابوس من الخوف والرعب .

الدرس العملي في الاسراء :

ان هذا القرآن المكتوب الذي نتلوه ونستمع اليه هو دروس ألقاها الخالق ،

سورة الاسراء

جلت عظمته ، على رسوله الكريم ليلبثها بدوره الى الناس كافة ، وهذه الدروس على انواع ، منها في الأحكام ومعركة الحلال والحرام ، ومنها الأمر بالجهاد في سبيل الله والاخلاص والمثابرة والصبر على الشدائد من أجل الحق ، وأهمها جميعاً الإيمان بالله وعظمته إيماناً صحيحاً مبنياً على العلم ، لا على التقليد ، وقال ويقول ، ولا على الأوهام والشطحات .. وقد أرشد سبحانه الى طريق العلم واليقين به ، وهو التفكير في خلق الكون بأرضه وسماؤه ، وما فيها من تدبير وإحكام وتنسيق بين أجزائه وكنياته : « أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق - ٨ الروم » .

وبعد أن أوحى الله الى عبده ورسوله بتلك الدروس في عظمة الكون وخلق السموات والأرض - خصه من دون الخلق أجمعين برحلة أرضية من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، ورحلة سماوية من المسجد الأقصى الى السموات العلى.. أما الغرض من هاتين الرحلتين فهو ان يتلقى الرسول الكريم (ص) درساً عملياً بعد أن تلقى درساً نظرياً في الكون ، وان يشاهد من عوالمه وعجائبه ما لا تدركه العقول ، ولا تبلغه الأوهام .. وهذه هي الطريقة المثبتة في التربية الحديثة ، حيث يهيئ الأستاذ لتلاميذهم الرحلات ونحوها من الدروس العملية بعد الدروس التي يتلقونها في المدارس والمعاهد .. وبالتالي ، فإن الدرس البليغ في رحلتي الرسول الأرضية والسماوية هو حضن العقول على النظر في ملكوت السموات والأرض للتعرف على قدرة الخالق وعظمته : « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء - ١٨٥ الأعراف » .. وقال الامام علي (ع) : عجبت لمن شك في الله ، وهو يرى خلق الله !.

وآتينَا موسى الكتاب الآية ٢ - ٣ :

وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا تَنَحَّضُوا مِنْ
دُونِي وَكَيْلًا * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا *

الإعراب :

ان لا تتخذوا (ان) بمعنى أي مفسرة لما في الكتاب كما لو قلت : كبت اليه ان افعل كذا ، وتتخذوا تتعدى إلى مفعولين : الأول وكيلاً ، والثاني دوني، ومن زائدة اعزأباً أي لا تتخذوا وكيلاً غيري . وذرية منادى أي يا ذرية من حلنا .

المعنى :

(وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل الا تتخذوا من دوني وكيلاً) . المراد بالكتاب التوراة ، وباسرائيل يعقوب بن اسحق بن ابراهيم (ع)، والمعنى ان الله أنزل التوراة على موسى ليهتدي بها بنو اسرائيل إلى الحق والصواب، وليتكلوا على الله وحده، ولا يتخذوا من دونه ولياً ولا نصيراً . ولكنهم حرفوا كلام الله ، وعبدوا العجل ، وقتلوا الأنبياء ، وملأوا الدنيا شراً وفساداً، وسخروا لهذه الغاية جميع ما يملكون من طاقات .

(ذرية من حلنا مع نوح) . حل نوح معه في السفينة أولاده الثلاثة ، وهم حام وسام ويافث ، ونسأهم، ومنهم تناسل الناس بعد الطوفان، ومنهم الاسرائيليون في عهد موسى ، وفي هذا النداء تذكير لبني اسرائيل بأنعم الله التي جعدوها وكفروا به وبها. (انه كان عبداً شكوراً) . ضمير انه يعود إلى نوح (ع) أي كونوا أيها اليهود شاكرين ذاكرين كما كان نوح .. ولكن لا يشكر النعمة إلا أهل الصدق والوفاء، وما عرف الاسرائيليون منذ كانوا إلا الكذب والفدر والحياة . وروي عن الإمام جعفر الصادق (ع) ان نوحاً كان اذا أصبح أو أمسى قال : اللهم اني اشهدك ان ما أصبح وأمسى بي من نعمة في دين أو دنيا فهو منك / شريك لك ، لك الحمد ، ولك الشكر بها عليّ حتى ترضى .

وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ
وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا
أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ
رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ
نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ
الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلُوا تَنْبِيرًا * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتْنَا
وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا *

اللغة :

للقضاء معانٍ ، منها فصل الأمر ، ومنها الخلق والاحداث كقوله تعالى :
ففضاهن سبع سموات ، ومنها الانجاب كقوله : وقضى ربك ألا تعبدوا إلا لىاه ،
ومنها الإخبار والاعلام ، وهو المراد بقوله : وقضينا الى بني اسرائيل . والمراد
بالعلو هنا الطفيان . والجوس خلال الديار وطأها والردد بينها . والكرة العودة
والرجعة . والمراد بالتبیر هنا العدد من الرجال . والتبیر الاهلاك ، والتبار الهلاك .
والحصير يستعمل في البساط والسجن ، وكل من المعنيين جائز في الآية .

الإعراب :

قضينا تضمنت معنى الإنهاء ، ولذا تعدت بلى . واللام في لتفسدن جواب

قسم محذوف أي والله لتفسدن . ومرتين نائبة مناب المفعول المطلق ، أي افساداً بعد افساد ، أو افسادتين . والوعد هنا اسم مفعول أي الموعود . وخلال ظرف مكان متعلق بجاسوا . وكان وعداً اسم كان ضمير مستتر يعود الى الجوس ووعداً خبر . ونقراً تمييز . فإذا جاء وعد الآخرة جواب إذا محذوف دل عليه جواب إذا الأولى أي فإذا جاء وعد الآخرة بعثناهم عليكم . وليسوءوا واو الجماعة عائد الى المبعوثين ، ويسوءوا منصوب بان مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك بمرور بها ، ويتعلق ببعثنا المحلوفة . وأول مرة منصوب على الظرف . وما علوا (ما) مفعول ليتبروا أي يهلكوا ما غلبوا عليه من البلاد .

المعنى :

المعنى الجملي لهذه الآيات ان الله أخبر بني اسرائيل انهم يفسدون في الأرض أولاً ، فيسلط عليهم من يسلطهم بالقتل والأسر والسلب والنهب ، ثم يستردون قوتهم ، ولكن يعودون الى الافساد ثانية ، فيسلط عليهم أيضاً من يضرهم الضربة الثانية ، وفيما يلي التفصيل :

١ - (وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب) . المراد بالقضاء هنا الاعلام والالغاء ، لا القضاء بمعنى الحكم والأمر لأن الله لا يقضي بالفساد : « قل ان الله لا يأمر بالفحشاء - ٢٨ الأعراف » ، والمراد بالكتاب التوراة التي انزلت على موسى بدليل قوله تعالى : (وآتينا موسى الكتاب) . والمعنى ان الله سبحانه أخبر بني اسرائيل ان خلفهم سيفسدون في الأرض مرتين .

٢ - (لنسندن في الأرض مرتين) . وليس المقصود بافسادهم هنا الافساد بمعناه العام الذي يشمل الكفر والكذب وأكل الربا ، وتدمير المؤامرات ونحوها .. فان هذا هو دينهم ودينتهم في كل عصر وجيل ، وكل طور من أطوار حياتهم ، فلقد قال تعالى فيما قال عنهم : « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا - الى قوله - كلما أودعوا ناراً للحرب أطفاها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين - ٦٤ المائدة » . ليس المقصود بالافساد العام ، وانما المقصود

سورة الاسراء

الافساد الخاص ، وهو الحكم والسيطرة ، وان حكمهم هو الافساد بالذات بدليل قوله تعالى غاطباً بني اسرائيل :

٣ - (ولتعلنّ علواً كبيراً) . والقرآن الكريم يستعمل علو في الطفيان والافساد قال تعالى : « ان فرعون علا في الأرض - ٤ القصص » . وقال : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين - ٨٣ القصص » . والمعنى انكم يا بني اسرائيل ستحكمون مرتين ، وتدخلون الحكم وسيلة للفساد الكبير الخطير الذي لا يقاس به أي فساد.. فتستبيحون المقدسات ، وتنتهكون الحرمات ، وتستهيئون بالقيم والاخلاق ، وبكل حق لله وللانسان .

ولم ينص القرآن الكريم على مكان وزمان افسادهم الكبير بسبب الحكم مرتين ، ولكن المؤرخين وجاعة من المفسرين قالوا : ان بني اسرائيل أغاروا على فلسطين بعد التيه بقيادة يوشع بن نون خليفة موسى بن عمران ، واحتلوها واستولوا على جميع ما فيها من خيرات وثروات بعد أن أبادوا معظم أهلها الكنعانيين ، واستعبدوا من بقي منهم ، وكانت سيرتهم مع يوشع تماماً كسيرتهم مع موسى : العصيان والعناد .. وهذه هي المرة الأولى ، أما المرة الثانية فن قال : انها لم تقع بعد ، وانها ستقع في المستقبل على أيدي العرب والمسلمين في فلسطين ، ويأتي البيان ، ومن قال : انها وقعت ومضى أمدها . وهذا القول هو الأرجح .

وفي كافة الأحوال فان القرآن الكريم ينص صراحة على ان بني اسرائيل اذا حكموا وسيطروا طغوا وبغوا وأفسدوا في الأرض وعلوا علواً كبيراً .. اذن ، فلا بدع أن تقرر الدولة الصهيونية الاستعمارية بطون الحبالى في فلسطين ، وتدفن الشباب أحياء ، وتطلق النار على المساجين ، وتلقي قنابل النابالم على الأمنين ، وتهدم البيوت على أهلها ، وتكسب الأفواه بالأموال والضغط العنيف .. ثم تتباكى وتنظم من الاعتداء عليها .. نقول هذا مع العلم بأن القرآن لا يشير اطلاقاً الى هذه العصاة المرتزقة التي باعت نفسها لكل من قاد ويقود قوى الشر والاستعمار .. ولكن جاءت الاشارة اليها لأن هذه العصاة تحمل اسم اسرائيل ، وتدعي الانتهاء إلى بنيه مسخرة القرود والخنازير .

(فإذا جاء وعد أولاهما) . ضمير أولاهما يعود إلى المرتسين من افساد بني

اسرائيل ، والوعد هنا بمعنى الموعود أي إذا جاء الوقت الموعود لإفساد بني اسرائيل في المرة الأولى (بعثنا عليكم عبداً لنا أولي بأس شديد) . الخطاب في عليكم لبني اسرائيل ، وبعثنا سلطاناً ، ولا يشرط في العباد أن يكونوا مؤمنين - كما زعم البعض - بل قد يكونون كافرين بدليل قوله تعالى : « يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون - ٣٠ يس » ، وأولي بأس شديد أصحاب شوكة وقوة ، وهم البابليون بقيادة مختصر أو أبيه سنحاريب ، الذين قتلوا اليهود ، وأحرقوا التوراة ، وسبوا منهم عدداً كبيراً رجالاً ونساءً وأطفالاً ، وكان ذلك سنة ٥٨٦ قبل الميلاد ، وقيل : ٥٩٦ (فجاسوا خلال الديار) لم يأت في القرآن لفظ جاسوا إلا في هذه الآية ، والجوس طلب الشيء بالاستقصاء والتردد أي ان أولي الأس كانوا يترددون وسط ديار اليهود ذهاباً وإياباً يبحثون عن اليهود ليقتلوهم (وكان وعداً مفعولاً) نافذاً لا خلف فيه ، ولا مرد له .

وخلاصة المعنى من مجموع هذه الآية ان بني اسرائيل حين أفسدوا في المرة الأولى بعث الله عليهم قوماً أقوياء أشداء قتلوا وأسروا وشردوا رجالهم ، وسبوا نساءهم ، ونهبوا أموالهم ، وخربوا ديارهم .. ونخلص من هذا ان الافسادة الأولى وضربتها من الله على يد قوم أشداء قد مرت قبل الاسلام .

(ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً) . الخطاب لبني اسرائيل ، والضمير في عليهم للبابليين ، والمعنى ان بني اسرائيل يكرّون ويتحررون من أسر البابليين وإذلالهم .. والمعروف ان بني اسرائيل لم يحاربوا البابليين في ديارهم ، ولم ينتصروا عليهم ، ولكن في سنة ٥٣٨ قبل الميلاد فتح ملك الفرس بلاد بابل ، وحرر من فيها من الأسرى الاسرائيليين ، وعليه تكون الكرة من بني اسرائيل على البابليين بواسطة ملك الفرس ، قال أبو حيان الأندلسي في تفسيره « المحيط » : « إن ملكاً غزا أهل بابل ، وكان مختصر قد قتل من بني اسرائيل أربعين ألفاً ، وأبقى منهم بقية عنده يبابل في الذل ، فلما غزاهم ذلك الملك ، وغلب على بابل تزوج امرأة من بني اسرائيل ، فطلبت منه أن يرد قومها إلى بيت المقدس ، ففعل »^١ .

١ ويشهد هذا الزواج على اليهود بأنهم منذ القديم يتوصلون الى غاياتهم عن طريق الرقيق الأبيض .

سورة الاسراء

ولما عاد بنو إسرائيل إلى فلسطين أمدّهم الله بالمال والبنين، وجعلهم أكثر عدداً مما كانوا ، ولكن ما ان استردوا قوتهم حتى عادوا إلى أسوأ مما كانوا عليه من الافساد والانحراف عن الدين، وقتلوا زكريا ويحيى، وهتوا بقتل السيد المسيح (ع) .
 (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) . وفي هذا المعنى قوله تعالى :
 « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد - ٤٦ فصلت » .
 وقوله : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت - ٢٨٦ البقرة » .

(فإذا جاء وعد الآخرة) . بعد أن مضى الافساد الأول من بني إسرائيل ، ومضت محنتهم الأولى جاء الافساد الثاني ، وحل محله وقت المحنة الثانية ، فبعث الله على بني إسرائيل قوماً (ليسوءوا وجوهكم) الخطاب لبني إسرائيل ، وضمير يسوءوا راجع إلى المبعوثين لكي يتزلوا المحنة بالاسرائيليين .. ومساءة الوجوه كناية عن محنتهم وإذلالهم ، لأن الأعراض النفسية يظهر أثرها في الوجه فرحاً كانت أو حزناً ، ومثله قوله تعالى : « سيئت وجوه الذين كفروا - ٢٧ الملك » .

(وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبرأوا ما علوا تتبأً) . المراد بالمسجد هنا مدينة القدس ، لأن فيها هيكل سليمان ، وسمي مسجداً لأنه محل للسجود ، والمراد بالتبشير الاهلاك ، وما علوا أي ما أخذه الفاتحون وتعلبوا عليه ، والمعنى ان بني اسرائيل حين أفسدوا في المرة الثانية ساط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، ويجعل مصيرهم في هذه المرة تماماً كمصيرهم في المرة الأولى من القتل والامر والتشريد والتخريب والتدمير .. ونخلص من هذا ان الافسادتين والمحتنتين قد مضتا جميعاً قبل الاسلام .

وفي مجمع البيان ان الذي أغار على بني اسرائيل أولاً ، وخرّب بيت المقدس هو مختصر ، والذي أغار عليهم ثانية هو ملك الروم ، فخرّب بيت المقدس وسبى أهله ، ويتفق هذا مع ما نقله المراغي عن تواريخ اليهود ، وقال : كان بين الاغارتين نحو من خمسة سنة .

(عسى ربكم ان يرحمكم) على شريطة أن تتوبوا وترحوا ، لأن من لا يرحم لا يرحم ، كما جاء في الحديث الشريف (وان عدتم) إلى الافساد والتعالي والاستكبار على أمر الله (عدنا) إلى عقابكم وإذلالكم ، وقد عادوا وأفسدوا ،

فكذبوا محمداً (ص) ، وهما يقتله ، كما هما يقتل المسيح (ع) من قبل ، فسلط الله عليهم المسلمين ، فقتلوا بني قريظة ، وأجلوا بني النضير ، واستولوا على خيبر ، وطرّدوا اليهود من الجزيرة العربية .

(وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً) . قيل : الحصار هنا بمعنى البساط، وقيل : بمعنى الحصر والحبس ، ومهما يكن فإن المراد ان جهنم محبطة بهم ، ولا رجاء لهم بالخلاص منها ، تماماً كقوله تعالى : « أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً - ١٢١ النساء » .

قضاء الله ودولة اسرائيل :

في كانون الثاني « يناير » من هذا العام ١٩٦٩ دار نقاش هادئ على صفحات جريدة الأخبار المصرية حول قضائه تعالى : « الى بني اسرائيل لتفسدن في الأرض مرتين الخ » . واشترك في هذا النقاش عدد كبير من أهل العلم والرأي الغيورين على الحق ، واستمر الحوار والجدال أمداً غير قصير ، ونشرته الجريدة في أربعة أعداد ، وهي أعداد أيام الجمعة من الشهر المذكور ، وقد انقسم المشتركون في هذا الحوار إلى فريقين :

الفريق الأول يقول : ان أولى الضريبتين على بني اسرائيل وقعت بيد المسلمين أيام عمر بن الخطاب لأنه فتح القدس ، وجاس هو والمسلمون خلال الديار الفلسطينية ، وفسر هذا الفريق المفسلة الثانية من بني اسرائيل بما فعلته عصابة الصهاينة في حزيران سنة ١٩٦٧ وما تفعله الآن ، وفسر الضربة الثانية بأن الله سيمكّن في المستقبل العرب والمسلمين من رقاب الصهاينة، فيسرجعون منهم الأرض السليبة التي وثبوا عليها في حى الاستعمار .. وقال هذا الفريق : ان هذا المعنى هو المراد من قوله تعالى : « وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » أي ان العرب والمسلمين يحررون المسجد الأقصى في المستقبل من اسرائيل الحالية كما حرره المسلمون من قبل .

ولا مصدر لهذا التفسير إلا العاطفة والتنبؤات التي يجب تنزيه القرآن عنها ، لأنه كتاب علم ونور من الله يكشف عن السنن والقوانين الكونية التي لا تتغير ولا

سورة الاسراء

تبدل ، ونطرد في جميع الكائنات من الذرة الصغيرة الى المجرات الكبيرة .. وفي الوقت نفسه يحمل القرآن كل فرد مسؤولية العمل والجهاد والحساب عليه أمام الله والضمير والناس أجمعين .

أما الفريق الثاني فيقول : إن الافسادتين من بني إسرائيل قد مضتا ، ومضت معها الضربتان قبل الاسلام ، وإن الضربة الأولى سبقت ظهور الاسلام بنحو ألف عام وإنها كانت بيد ملك بابل يختصر أو أبيه سنحاريب الذي دمر القدس ، وأحرق الهيكل ، وقتل من اليهود مقتلة عظيمة : وساق من بقي منهم رجالاً ونساء وأطفالاً سبياً ذليلاً إلى بابل .

أما الضربة الثانية فيقول هذا الفريق : أنها وقعت على بني إسرائيل سنة ٧٠ للميلاد بيد تيطس الروماني الذي حاصر مدينتهم ، ودك أسوارها ، ثم دخلها فخرّب منازلها ، ودمر هيكلها ، وقتل مليون نسمة على ما قرره يوسيفوس الذي شهد الواقعة بنفسه ، عدا من باعه رقيقاً في الأسواق ، وهام الباقون على وجوههم مذعورين إلى شتى أنحاء الأرض .

وأيضاً قال هذا الفريق : إن النص القرآني لا يشير من قريب أو بعيد إلى العصابة الموجودة الآن على أرض فلسطين ، والتي تحمل اسم إسرائيل، لأنها ليست طائفة دينية ، ولا هيئة سياسية ، ولا دولة حقيقية ، وإنما هي في واقعها عدو جديد للعرب والمسلمين ، وهو الاستعمار الصهيوني ، أو الصهيونية الاستعمارية التي تلبس أثواب داود ، عليها الخريطة المشتهاة ، والمسجلة في التوراة الموضوعة المحرفة « من النيل إلى الفرات » . والغرض الأول والأخير هو أن يقضي الاستعمار الجديد بقيادة الولايات المتحدة على الكيان العربي والاسلامي ، ويستنزف موارد الشعوب تحت ستار اليهود .

ونخلص من هذا ان القرآن الكريم لم يشير إطلاقاً إلى إسرائيل الحالية ، وإن الآيات التي تحدثت عن بني إسرائيل إنما عنت الاثني عشر سبطاً من نسل يعقوب ابن اسحق بن ابراهيم الذين كانوا في عهد موسى وهارون .. وهؤلاء الذين اقتحموا

١ من كلمة البهي الخولي . «الأنباء المصرية ٣١ - ١ - ١٩٦٩ .

أرضنا بأسلحة الاستعمار ، وأموال الصهيونية ليسوا من نسل إسرائيل بن اسحق ، ولا على دينه ودين موسى ، وإنما هم مخلوق جديد .. عجيب غريب .. لم يسبق له مثيل ، لأنه مكون من أشنات لا يربط بينها رابط ، ولا يجمعها جامع من وطن أو لغة ، أو أي مبدأ إلا مبدأ العالة لقوى الشر والاستعمار .

هذا ، إلى أن تفسر قوله تعالى : ه وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ه تفسره بأن الله قضى وقدر بطرد الصهاينة من فلسطين يؤدي بنا من حيث نريد أو لا نريد إلى التواكل وطرح أسباب النصر الطبيعية التي بيّنها الله في كتابه ، وعلى لسان نبيه ، وحثنا عليها بكلمة الجهاد تارة ، والتعاون تارة ، وإعداد العدة أخرى ، وعدم اليأس حيناً ، والصبر والمثابرة أحياناً ، وبذل المال واسترخاض كل غال في سبيل الذود عن الدين والوطن، تماماً كما فعل محمد وصحابة محمد(ص) والذين اتبعوهم باحسان ، وكما يفعل القذافيون الآن .

وبعد ، فإن الله لا ولن يتولى عنا حرب إسرائيل ، ولا حرب الاستعمار والصهيونية ، وإن صلينا له ورجوانه ، لأن أفضل أنواع العبادة عنده هي التضحية بكل القدرات والطاقات ضد الظلم والظفیان ، والفساد والعدوان .. ونحن نملك القدرة الكافية الوافية على طرد العدو من أرضنا السلية ، نملك هذه القدرة بعددنا وديننا وتراثنا ومواردنا ، وما علينا إلا أن نستعملها .. ولا بد أن نستعملها في يوم من الأيام إن عاجلاً أو آجلاً ، لأن حب البقاء يحتم ذلك .. فلقد وضعنا الاستعمار والصهيونية أمام أمرين لا ثالث لهما : إما الموت ، وإما الحياة .. ولا أحد يفضل الموت على الحياة ، والاستعباد على الحرية ، والهوان على الكرامة .

القرآن يهدي للتي هي أقوم الآية ٩ - ١٢ :

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا

لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَيَذَعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَانَا تَفْصِيلًا *

اللغة :

مبصرة أي تبصر بها ، مثل ليل نائم أي نائم فيه . ومحونا طمسنا .

الإعراب :

للي هي أقوم أي للملة التي . والمصدر من ان لهم أجراً بمرور بياء محذوفة أي يبشر المؤمنين بأن لهم . وان الذين معطوف على ان لهم . واعتدنا أصلها أعددنا . ودعائه قائم مقام المفعول المطلق أي يدعو بالشئ دعاءً مثل دعائه بالخير . وكل شيء مفعول لفعل محذوف دل عليه الموجود أي وفصلنا كل شيء فصلناه .

المعنى :

(ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجراً كبيراً) . للتي هي أقوم أي للملة أو الطريقة التي هي أقوم ، ومعنى يهدي يرشد ويوجب ، وكلمة أقوم تعني الأصلاح والأنفع ، وهي بتعميمها تشمل الأصلاح في كل شيء ، وفي كل زمان ومكان ، ولكل انسان من غير استثناء .

وهذه الآية دعوى صريحة وواضحة يسجلها القرآن ، ويؤمن بها كل مسلم ..

الجزء الخامس عشر

وملخصها ان الاسلام هو خير الأديان كلها ، أما الدليل على صحة هذه الدعوى وصدقها فهو القرآن بعقيدته وشريعته وسائر تعاليمه بالإضافة الى سيرة صاحب الرسالة محمد بن عبدالله (ص) الذي ملأ الأرض علماً وإيماناً وبراً وعدلاً بعدما ملكت جهلاً وكفرأ وفساداً ، وقد أثبت العلماء هذه الحقيقة : ووضعوا لذلك مئات الاسفار في تفسير كلام الله ، وحديث رسول الله وسيرته ، وفي العقيدة والشريعة والأخلاق الاسلامية ، وفيما حققه الاسلام في شتى الميادين ، وذكرنا طرفاً من ذلك في المجلدات السابقة من هذا التفسير . وفيما يلي نشير الى بعض المبادئ على سبيل المثال :

الاسلام دين الفطرة :

١ - ان كل أصل من عقيدة الاسلام ، وكل فرع من شريعته ، وكل حكم من أحكامه - يرتكز على الفطرة النقية الصافية : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون - ٣٠ الروم » . فهذه الآية تقرر بصراحة ووضوح ان الاسلام يستجيب لمطالب الفطرة الانسانية ، ويبسط ذراعيه لكل جديد مفيد ، سواء أ جاء من الشرق أو الغرب . قال الإمام علي (ع) : « الحكمة ضالة المؤمن ، فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق » وقال : انظروا الى القول ، لا الى من قال ، وفي هذا المعنى كثير من الأحاديث .

إيمان الاسلام بالعلم :

٢ - يؤمن الاسلام بالعلم ، ويتركز الحياة عليه في شتى مظاهرها ، قال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم - ٣٦ الإسراء » : « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين - ١١١ البقرة » : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون - ٤٣ النحل » . وقال الرسول الأعظم (ص) : « مداد العلماء يوزن يوم القيامة بدم

سورة الاسراء

الشهداء . وقال الإمام علي (ع) : العلم دين يداين به . ومعنى الإيمان بالعمل بالآيمان بالتطور ، وبالعامل من أجل حياة أفضل وأكمل .

اطلاق العقل :

٣ - الاسلام يدعو العقل الى التأمل والتفكير والملاحظة لهذه الطبيعة باحثاً ومنقّباً عن أسرارها وفوائدها ومنافعها ، وعن علاقتها بالخالق وبالانسان ، ويدعو الى تركيز الدين والعلم والفلسفة على هذه المشاهدات والمعرفة الحسية التي سار عليها المسلمون من قبل، والتي انتقلت منهم الى الأوروبيين ، فكانت أساس العلم التجريبي عندهم : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء - ١٨٥ الأعراف » .

حرية الفكر :

٤ - لقد أطلق الاسلام الحرية في القول والتفكير إلى حدٍ سمح الله فيه لعبيده الملائكة أن يراجعوه ويقولوا له : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء - ٣٠ البقرة » . وأيضاً سمح لآبراهيم (ع) أن يجادله في قوم لوط، كما في الآية ٧٤ من سورة هود ، بل سمح لابليس أن يحتج لديه ويقول : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين - ١١ الأعراف » .

الشمول والعموم :

٥ - كل تعاليم الاسلام تقوم على الشمول والعموم لا تختص بفرد ولا فئة ولا بعنصر : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .. كلكم من آدم ، وآدم من تراب .

الجهاد :

٦ - فرض الاسلام الجهاد بالنفس والمال ضد الظلم والفساد على كل قادر ،

قال تعالى : « انفروا خفافاً وثقالاً » وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون - ٤١ التوبة . ويقول الإمام علي (ع) : « والله لولا ما أخذ الله على العلماء من الميثاق ألا يقاروا على كفة ظالم، ولا سغب مظلوم لألقيت حبليها على غاربها . ولست أيت آخرها بكأس أولها ولألقيتم دنياكم هذه عندي أهون من عطفة عز »^١ . قال الأستاذ محمد سعاد جلال في مجلة «الكاتب» المصرية عدد ٦٣ معلقاً على هذا القول ما نصه بالحرف :

« ومراد الإمام انه لولا عهد الله على العلماء أن لا يقبلوا بين الناس التفاوت الفاحش في أكل لقمة العيش بحيث يتختم بعضهم ليجوع البعض الآخر لما جاهد في الابقاء على حقه الثابت في الخلافة التي هي أداة لتحقيق العدل المانع من التفاوت المذكور ، فما كان جهاده لأجل شهوة الحكم ، ومنفعة نفسه ، وإنما كان ممن أجل تنفيذ حكم العدالة الاجتماعية في توزيع الثروة بين المسلمين بحيث لا يبقى فيهم مترف متختم ، ولا كادح سغب » .

المال لله :

٧ - كل ما في الكون هو ملك لله ، والانسان وكيل على ما في يده ، وعليه أن لا يتصرف إلا بإذن الأصيل وأمره : « له ما في السموات وما في الأرض وما بينها وما تحت الثرى - ٦ طه » : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه - ٧ الحديد » . أنظر تفسير الآية ١٨٠ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢١٧ .

الاسلام مع الحياة :

٨ - الاسلام يستهدف أن يعيش الانسان في ائزان وتناسق كامل مع نظام الكون ومتطلبات الحياة : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما

١ ألا يقاروا أن لا يوافقوا والكفة هي الشيع لحد الصخرة . والسغب شدة الجوع . وعطفة عز بعض حشائشها أو ما تنثره من أنفها .

يحييكم - ٢٤ الأنفال . أنظر ج ٣ ص ٤٦٥ . وصدر كتاب جديد بقلم ويلفريد سميث . جاء فيه « إن المسلمين قادرون بحسب دينهم على التكيف الحضاري مع متطلبات العلم الحديث ، والاسهام في خلق مجتمع يسوده التقدم الاجتماعي والعدل والكرامة » .

(وان الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذاباً أليماً) . لا فرق بين من كفر بالله ، ومن كفر باليوم الآخر ، لأن الكفر بإعادة الخلق بعد فثائه معناه ان الله عاجز عن ذلك ، وهذا عين الكفر بالله . قال الإمام علي (ع) : عجبت لمن شك في الله ، وهو يرى خلقه ، وعجبت لمن أنكر النشأة الآخرة ، وهو يرى النشأة الأولى .

(ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير) . في هذه الحياة حزن وفرح ، ولذة وألم ، ولا شيء منها بدائم ، ومن هنا قيل : الدهر يومان : يوم لك ويوم عليك . ولكن بعض الناس إذا تألموا من شيء انهارت أعصابهم ، وظنوا أنهم في مشكلة لا تُحل ، فيدعون بالشر على أنفسهم ، كما يدعون لها بالخير .. وهذا ضرب من الجهل والحمق ، ولو صبروا قليلاً لذهبت آلامهم مع الأيام (وكان الانسان عجولاً) في دعائه بالشر على نفسه من غير صبر وتروء . وتجدر الاشارة إلى أن المراد بالانسان بعض أفراده . وفي نهج البلاغة : « لا تستعجلوا ما هو كائن مرصداً ، ولا تستبطنوا ما يجيء به الغد ، فكم من مستعجل بما أدركه ود أنه لم يدركه » .

(وجعلنا الليل والنهار آيتين) داليتين على وجود الله ، لأن تناسقهما وتعاقبهما وفقاً لقوانين ثابتة ، ونظام دائم ، من ألوف السنين لا يختلف سنة عن سنة ، كل ذلك وما اليه دليل قاطع على وجود مدبر حكيم ، ومهندس عليم . وتجدر الاشارة الى أن الله سبحانه يدعو العلماء وأهل الفكر الى الإيمان به عن طريق التدبر والتفكر في خلق السموات والأرض ، وما فيها من نظام ودقة واحكام ، كتعاقب الليل والنهار وغيره من المظاهر الكونية ، أما البسطاء السذج فيدعوهم إلى الإيمان عن طريق التذكير بنعمته وأفضاله عليهم ، كقوله تعالى : « وليعبدا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » - قریش . نقول هذا مع علمنا بأنه لا مانع من الجمع .

الجزء الخامس عشر

(فحونا آية الليل) . إضافة الآية الى الليل بيانية ، مثل نفس الشيء ، والمسجد الجامع أي الآية التي هي الليل ، والمسجد الذي هو الجامع .
وتسأل : الظاهر من كلمة المحو هو الذهاب والازالة من الأساس ، مع العلم بأن الليل موجود بالتحس والعيان ؟ .

الجواب : المراد بالمحو هنا عدم الأثر من حيث العمل ، لأن الناس تسكن فيه ولا تعمل على عكس النهار . قال تعالى : « وجعل الليل سكناً » ٩٦ الأنعام . وقال : « وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً » ١١ النبا .

(وجعلنا آية النهار مبصرة) نيرة تكشف كل شيء للأبصار (لتبتغوا فضلاً من ربكم) .. الليل للسكون والراحة ، والنهار للعمل وطلب الرزق بكد اليمين وعرق الجبين ، لا بالغش والاحتيال ، ولا بالخيانة والعالة لتبتغوا فضلاً من ربكم ، لا من السفارات ومكاتب الاستخبارات .. وفضل الله مبذول لكل طالب وراغب ، وهو خير وأبقى ، واطهر وأزكى .. اللهم اغثنا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عن سواك .

(ولتعلموا عدد السنين والحساب) . تكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٣٦ من التوبة ، فقرة الأشهر القمرية هي الأشهر الطبيعية ج ٤ ص ٣٩ (وكل شيء فصلناه تفصيلاً) . فأبان لنا سبحانه الحلال والحرام ، وأقام علينا الحجة بالدلائل والمواظ ، والسعيد من نزع عن شهوته ، وقع هوى نفسه .

طائره في عقه الآية ١٣ - ١٥ :

وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * إقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا * مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَنْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا *

اللغة :

المراد بالطائر هنا عمل الانسان من الخير والشر ، وكان العرب يسمون بالطير السائح ، وهو الذي يأتي من جهة اليمين لأن الرامي يتمكن من رميه ، ويشاءمون بالطير البارح ، وهو الذي يأتي من جهة اليسار ، لأن الرامي لا يتمكن من رميه ، فاستعير الطائر لعمل الخير والشر . وفي عنقه كناية عن انه لازم له لزوم القلادة لجيد الفتاة . والكتاب صحيفة العمل . والوزر الانم والذنب .

الإعراب :

وكل انسان مفعول لفعل محذوف أي الزمنا كل انسان الزمناه . وبنفسك الباء زائدة اعراباً ، ونفسك فاعل كفى . واليوم ظرف منصوب بكفى . وحسيباً تمييز .

المعنى :

هذه الآيات الثلاث تختلف في اللفظ ، وتشابه في المعنى ، فقوله تعالى : (وكل انسان أَلزمناه طائره في عنقه) كناية عن انه وحده المسؤول عن عمله . وقوله : (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً) معناه ان الانسان غداً لا يملك اخفاء شيء من عمله : « يوم تجدد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه أمداً بعيداً - ٣٠ آل عمران » . انظر ج ٣ ص ٤٤ .

(اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) . فلا يحتاج الانسان غداً إلى شاهد أو حسيب ، لأنه هو يشهد وبحاسب نفسه بنفسه ، قال الطبرسي : « وانما جعله محاسباً لنفسه لأنه إذا رأى أعماله يوم القيامة كلها مكتوبة ، ورأى جزاءها مكتوباً أيضاً بالعدل لم ينقص من ثوابه شيء ، ولم يزد على عقابه شيء أذعن عند ذلك وخضع واعترف ، ولم تنهياً له حجة ولا انكار ، وظهر لأهل المحشر انه لا ظلم ، قال الحسن : يا ابن آدم لقد أنصفك من جعلك حسيب نفسك » .

(من اعتدى فلانما يهتدي لنفسه ومن ضل فلانما يضل عليها) . تقدم نظيره في سورة الأنعام الآية ١٠٤ ج ٣ ص ٢٣٨ ، وفي سورة هود الآية ١٠٨ ج ٤ ص ١٩٩ (ولا تزر وازرة وزر أخرى) . تقدم في سورة الأنعام الآية ١٦٥ ج ٣ ص ٢٩٣ (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) . أنظر فقرة وقبح العقاب بلا بيان ، في ج ١ ص ٢٤٧ .

أمرنا مترفيها ففسقوا فيها الآية ١٦ - ٢١ :

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلًّا نُمِيتُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَِّلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا *

اللغة :

المترفون الذين يتمتعون كما يشاءون . وأمرناهم أي بالطاعة . وفسقوا عصوا ونمردوا . وفحق عليهم أي وجب لهم العذاب . والتدمير الاهلاك . والقرون جمع

سورة الاسراء

قرن ، ويعبر به عن أهل عصر انقضى أكثرهم . والعاجلة دار الدنيا . ويصلها يقاسي حرها . ومدحوراً مطروداً . ومحظوراً ممنوعاً .

الإعراب :

كم هنا خبرية : ومحلها نصب بأهلكتنا . ومن القرون تبيين لابهام (كم) وتمييز لها . وبربك الباء زائدة إعراباً وربك فاعل ، وخيراً بصيراً تمييز ، وبدنوب عباده متعلق بخير أو ببصير . ولئن نريد بدل من الضمير في (له) مع إعادة حرف الجر . وجملة يصلها حال من الضمير في (له) وليس من جهنم كما قال أبو البقاء في كتاب « الاملاء » . ومذموماً حال من الضمير المستتر في يصلها . وكلاً نمد (كلاً) مفعول مقدم لنمد . وهؤلاء بدل من (كلاً) ، والمعنى نمد كل واحد من هؤلاء وهؤلاء . وكيف مفعول لفضلنا ، وليس لأنظر ، لأن الاستفهام لا يعمل ما قبله فيه .

الترفون :

حين بلغت بالتفسير إلى قوله تعالى : « أمرنا مترفيها الخ » تذكرت سؤالاً وجهته إليّ أحد خطباء العراق قائلاً : لماذا نصب جام غضبك على المترفين في كتاباتك ومؤلفاتك ؟ فقلت له : ولماذا أنت تدافع عنهم ؟. ألا أنك منهم ، أو لأنهم أولياء نعمتك ؟. فراجع عن سؤاله واعتذر .. وهذا ما دعاني أن أعرض تفسير الآية على النحو التالي :

- ١ - وردت كلمة المترفين ومشتقاتها في القرآن بثنائي آيات - كما في المرشد - وجاءت في نهج البلاغة في العديد من الموارد .. هذا عدا عن كلمة الغنى ، وما يتفرع منها ، وما ذكرت كلمة الترف في كلام الله وأوليائه إلا مقرونة بالذم .
- ٢ - قال أهل اللغة : ترف الرجل تنعم ، وأترفه الماك أبطره وأفسده ، واستترف بغى وتغطف . هذا هو تعريف المترفين في اللغة ، أما صفاتهم كما

جاءت في كتاب الله وغيره فغفلة عن الله ، وبغي على عباد الله ، واستكبار على أمر الله : وحرب لأوليائه الله .. حديثهم التكاثر والتفاخر ، وطبعهم الجفاء والتهاثر .. إلى كثير من ألقاب الذم .. إلا من رحم الله ، ورحم نفسه .

٣ - (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) . المأمور به مخوف أي أمرنا مترفيها بالعدل والطاعة ، وذكر أهل التفسير أربعة أقوال في معنى هذه الآية ، أرجحها ان الله سبحانه أطلق كلمة المترفين على جميع أهل القرية ، من باب استعمال الجزء في الكل: ومثل هذا الاستعمال كثير في كلام العرب إذا كان الجزء عضواً رئيسياً في الكل ، كالعين بالنسبة إلى جسم الانسان ، فقد استعملوها في طليعة الجيش ، لأن للعين مزية على سائر أعضاء الجسم ، ولما كان المترفون أقدر وأسرع إلى الفسق ، وأجراً على المعصية من غيرهم ، وهم في الوقت نفسه متبوعون تقلدهم العامة فيما يفعلون ، لما كان كذلك - صح إطلاق كلمة المترفين على جميع أهل القرية كما صح إطلاق كلمة العين على الانسان .

وعلى هذا يكون معنى الآية ان الله لا يهلك أهل قرية إلا إذا استحقوا الهلاك والدمار ، وهم يستحقون ذلك بعد ان تقوم عليهم الحجة بارسال الرسل ، بأمرهم بالخير ، وبنهوتهم عن الشر ، ويحذروهم من المخالفة والعصيان ، فإذا فسقوا وخرجوا عن الطاعة حقت عليهم كلمة العذاب : وأنزل الله بهم الهلاك والدمار.

ومع العلم بأن هذا المعنى يحتمه اللفظ ، ولا يباه العقل فإننا نذهب في تفسير الآية مذهباً آخر ، وهو ان أي مجتمع يوجد فيه مترفون بالمعنى الذي ذكرناه فهو مجتمع يعيش في ظل نظام فاسد جائر ، لأن وجود المترفين فيه تماماً كوجود السرطان في الجسم ، والمسؤول الأول عن وجود الفاسدين في المجتمع هو المجتمع بالذات ، حيث لم يقف منهم موقف المقاوم ، أو المستخف بشأنهم - على الأقل - بل أضفى عليهم ألقاب الشرف والسيادة ، وأحاطهم بالتكريم والتعظيم ، ومنحهم ثقة أيام الانتخاب ، واختارهم لمنصب الحكم والقيادة ، وبهذا يكون المجتمع الذي عبر عنه سبحانه بالقرية - شريكاً للمترفين الفاسقين في جميع جرائمهم وآثامهم ، ومستحقاً للهلاك والدمار تماماً كالمترفين .. فقد جاء في الحديث الشريف: «الراضي

سورة الاسراء

بالظلم كفاعله .. الساكت عن الحق شيطان أخرس ، فكيف إذا كان مناصراً للباطل ؟ وقال السيد الافغاني : « أيها الفلاح الذي تشق الأرض بمحراثك، لماذا لا تشق به قلب من يستعبدك ؟ » . انظر ما قلناه عند تفسير الآية ١١ من سورة الرعد : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وتجدر الإشارة إلى ان الهلاك على أنواع، فيكون بالطوفان أو الخسف والزلازل والصواعق ، وأيضاً يكون بالاذلال وتسلط الأشرار ، وهذا أوجع وأقطع . وقد عاقب الله به أمة محمد (ص) لما تركوا الجهاد ، وتغاضوا عن أهل الشر والفساد، ورضوا لأنفسهم المذلة والهوان ، قال الإمام علي (ع) : « ان في سلطان الاسلام عصمة لامركم ، فاعطوه طاعتكم .. والله لنفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الاسلام، ثم لا ينقله اليكم أبداً حتى يارز - يرجع - الأمر الى غيركم » . أي إذا اطعنا الاسلام عشنا في حصن حصين من المناعة والكرامة، والا انتقل عنا الحكم والسلطان الى اعدائنا ، ثم لا يرجع الينا أبداً .. وما قرأت هذا الانذار إلا اعترفتي رعدة هزني من الأعماق .

(وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) . هذا تهديد ووعيد للذين كذبوا محمداً (ص) بأن الله سبحانه قادر أن يجعل مصيرهم كمصير الذين كذبوا أنبياءهم في القرون الخالية كعاد وثمود : « أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون-١٩٨ الأعراف» . قال الإمام علي (ع) : « ان رضا الله فيها بقي واحد، وسخطه فيها بقي واحد ، واعلموا انه لن يرضى عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم ، ولن يسخط عليكم بشيء رضىه ممن كان قبلكم » ... (وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً) بإساءة من أساء فيعاقبه بما يستحق . قال رسول الله (ص) لأبي ذر : « ان المؤمن يرى ذنبه تحت صخرة يخاف ان تقع عليه ، وان الكافر يرى ذنبه كأنه ذبابة تمر على أنفه » .

(من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) . ليس المراد ان كل ما يطلبه الانسان يحققه له الله .. كلا ، فإننا نريد أشياء وأشياء ، ولا نرى منها شيئاً ، بل في كثير من الأحيان لا نرى بعض ما نريد ، وإنما المقصود من الآية ان من يعمل للدنيا فقط غير مؤمن بشيء إلا بمنفعته فإنه يستثمر نتيجة عمله

وجهدده .. هذا مع مشيئة الله وإرادته ، وإلا فإن العبد لا يصل إلى شيء إذا أبى الله ذلك حتى ولو عمل ليله ونهاره .. إن الله لا يعطي ما أردنا إلا إذا أراد ، وهذا معنى قوله تعالى : « ما نشاء لمن نريد » .. (ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً) لأنه لا يؤمن إلا بمصلحته ، ولا يهتم إلا بنفسه ، ولا يعمل إلا لها .

(ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً) . وسعى لها سعيها أي أراد الخير وقطعه وآمن به لا لشيء إلا لوجه الله والخير ، وهذا هو الذي يستحق الدرجات العلى عند الله وعند الناس ، أما من يعمل للربح والتجارة فإن له نار جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . قال الرسول الكريم (ص) : « من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . ونخلص من هذا أن للإسلام منهجاً يوجه الإنسان إلى فعل الخير وهجر الشر لذاتيهما ، فيلتزم الصدق - مثلاً - لأنه يجب أن يلتزم ، ويلتزم اجتناب الكذب لأنه يجب أن يجتنب ، وهكذا سائر الفضائل والذائل ، وقد عبّر الرسول الأعظم (ص) عن هذا المنهج بأبلغ تعبير ، حيث قال : « إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . ومن الواضح أن الخلق لا يكون كريماً إلا إذا كان خالصاً من كل شائبة .

(كلاًّ نمدّ هؤلاء وهؤلاء) إشارة إلى كلٍّ من الفريقين ممن يعمل لنفسه وحدها ، وممن يعمل لوجه الله والخير (من عطساء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً) . وعطاء الله للإنسان يتبدى بخلقه وإيجاده الذي لا يُعطى إلا منه ، ثم بأسباب بقاءه ونموه ، وهذا العطاء يعم الصالح والطالح ، أما عطاؤه في الآخرة فيختص بالصالحين المتقين .

(أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) . إن الله سبحانه لا يتسم الناس إلى طبقات ، ولا يعطي امتيازاً في الحقوق الإنسانية لفرد ، دون فرد ، أو فريق دون فريق ، كيف وهو القائل : إن أكرمكم عند الله أتقاكم ؟ . وعلى هذا يكون التفضيل بين الناس في الدنيا في غير الحقوق الإنسانية ، كالصحة ، والعمر ، والرزق عن طريق العمل أو الأثر أو غيره ، من الأسباب التي أحلها الله سبحانه ، أما

سورة الاسراء

الثروات التي تأتي بالغش والاحتيال والسلب والنهب فهي من الشيطان ، ولا يجوز نسبتها اليه تعالى بحال .

(وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً) . بعد أن ذكر سبحانه ان الناس يتفاوتون في الدنيا قال : انهم كذلك في الآخرة أيضاً .. ولكن الفرق كبير وعظيم بين تفاوتهم هنا ، وتفاوتهم هناك ، فالصفات التي يفترون بها في الدنيا هي الغنى والفقر ، والعلم والجهل ، والصحة والمرض ، والعمر الطويل والعمر القصير ، ثم ينتهون جميعاً إلى الموت الذي يساوي بين الجميع ، حتى بين الأشرار والأخيار ، أما الصفات التي يفترون بها في الآخرة فهي الحريق بنار السموم ، والخلود في النعمة والمصرة ، وأين تلك من هذه ؟ .

فلا تقل لها اف الآية ٢٢ - ٢٥ :

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا * وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَٰهَهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا *

اللغة :

مخذولاً أي غير منصور . وقضى أمر وأوجب . وأف كلمة تدل على التضجر .

وخفض الجناح كتابة عن التواضع والتذلل . والأوآب الراجع الى الله في شؤونه وأمره .

الإعراب :

فتتعد منصوب بأن مضمرة بعد الفاء لأنه جواب للنهي . وقضى ربك أن لا تعبدوا. أي بأن لا تعبدوا وبالوالدين عطف عليه. أو متعلق بمحذوف أي وبأن تحسنوا للوالدين احساناً . وإما مركبة من كلمتين: ان الشرطية، وما الزائدة . وأف اسم فعل لا محل له من الإعراب ، والمعنى لا تقل لها : كفاً . وكما ربياني الكاف بمعنى مثل قائمة مقام المفعول المطلق أي ارحمها رحمة مثل رحمة تربيتها . وصغيراً حال .

المعنى :

(لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتتعد مذموماً مخذولاً) . الخطاب هنا للانسان ، كل انسان ، وليس للنبي (ص) بدليل قوله تعالى : « اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، ومعلوم ان النبي (ص) عاش يتيم الأبوين . (وقضى ربك الا تعبدوا إلاّ إياه) أي أمر بالاخلاص في العبادة اليه وحده ، وليس المراد بالعبادة مجرد الصوم والصلاة ، فكل من أطاع انساناً في معصية الله فقد عبده ، قال رسول الله (ص) : من أصغى الى ناطق فقد عبده ، فان كان الناطق عن الله عز وجل فقد عبد الله ، وان كان الناطق عن الشيطان فقد عبد الشيطان .

البر بالوالدين :

(وبالوالدين احساناً اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لها أف ولا تنهرهما وقل لها قولاً كريماً واخفض لها جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) . قرن الله سبحانه شكر الوالدين بشكره ، وأوجب

سورة الاسراء

البر بهما والاحسان اليهما . وجاء في الحديث : « ان رجلاً جاء الى النبي (ص) يستأذنه بالجهاد معه ، فقال له : أحيان والداك ؟ . قال : نعم . قال : ففيها جاهد » .

وقوله تعالى : كما رباني صغيراً يشير الى انهما عند صغره آثراه على أنفسهما ، فسهر الليلي كي ينام ، وجاعا كي يشبع . وتعرياً كي يكتسي ، وهذا دين في عتقه ، عليه أن يفي به حين يقوى ويضعفان ، وان يعاملهما عند كبرهما تماماً كما عاملاه عند صغره ، ولها فضل سبق والتقدم .

قال الإمام زين العابدين (ع) يدعو لوالديه: « يا إلهي أين طول شغلها بربيني؟ وأين شدة تعبها في حراستي؟ وأين إقتارهما على أنفسهما للتوسعة عليّ؟ هيهات ما يستوفيان مني حتهما ، ولا أدرك ما يجب عليّ لهما ، ولا أنا بقاخص وظيفة خدمتهما » .

يضحي كل من الأب والأم بالنفس والنفيس في سبيل الولد ، ثم لا يتغني منه جزاء ولا شكوراً ، وكل ما يتمناه أن يكون ولده شيئاً مذكوراً .. وقد ابتلاني الله بأن أكون أباً ، ولكن أبوي لم يتلبسا بي ، لأنني عشت يتيم الأب والأم ، وأقول : ابتلاني لأنني لا أرى السعادة في شيء من أشياء هذه الحياة إلا في هناء ابني وابنتي .. فابتسامة واحدة من أحدهما تعادل عندي الدنيا بما فيها ، وما تألم أحدهما إلا أحسست بأن يداً تنتزع نفسي من بين جنبي .

(ربكم أعلم بما في نفوسكم ان تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً) . ان الله سبحانه يعلم النوايا تماماً كما يعلم الأقوال والأفعال ، ويجازي كلاً حسب نيته، ومن أساء ثم تاب وأناب فإن الله غفور رحيم ، وهذا تحذير من الله سبحانه لمن عق والديه ، وكان وجودهما ثقيلاً عليه ، كما انه تحذير على ترك الاخلاص في جميع الأقوال والأفعال .

الوصايا العشر الآية ٢٦ - ٣٩ :

وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ

الْمُبْذَرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِذَا
تُعْرِضْنَهُنَّ عَنْهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا *
وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا
مَحْشُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ
خَبِيرًا بَصِيرًا * وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كُمْ
إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا * وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ قَارِجَةً
وَسَاءَ سَبِيلًا * وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ
مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا *
وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا
بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا * وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا
بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا *
وَلَا تَمْسَسْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ
طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا * ذَلِكَ يَمَّا أَوْحَىٰ
إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ
مَلُومًا مَّدْحُورًا *

اللغة :

التبذير وضع المال في غير موضعه قليلاً كان أو كثيراً . والمراد باخوان الشياطين من سلك طريقهم . والميسور السهل اللين . والمغلولة المقيدة والمراد بها هنا الامساك عن الانفاق ، وضدهما البسط فيه . والمحسور المنقطع الذي لا شيء عنده . والخطء كالانهم لفظاً ومعنى . والفاحشة الفعلة القبيحة . والاسراف تجاوز الحد . والمراد بالسلطان هنا التسلط . والقسطاس المستقيم العدل . ولا تقف لا تتبع . والمرح بفتح الراء اليكبر . والمدحور المبعد من رحمة الله .

الإعراب :

اما تعرضن (اما) كلمتان ان الشرطية وما الزائدة إعراباً . وابتغاء مفعول من أجله . وجملة ترجوها صفة لرحمة أو حال من فاعل تعرضن . وكل البسط مفعول مطلق لأن كل مضافة اليه . وملوماً محسوراً حال، وخشية إملاق مفعول لأجله . وساء سيلاً فاعل ساء ضمير مستتر أي ساء سبيل الفاحشة ، وسيلاً تمييز ، ومثله تأويلاً . وكل مبتدأ، والخبر كان عنه مسؤولاً ، وأولئك في محل جر باضافة كل ، ويشار بها إلى العقلاء وغيرهم . ومرحاً مصدر في موضع الحال أي لا تمش في الأرض متكبراً ، مثل جاء زيد ركضاً أي راكضاً، ومثله طولاً . وملوماً مدحوراً حال .

المعنى :

١ - (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً) . نقل الطبرسي في مجمع البيان عن السدي ، وهو من كبار المفسرين ان المراد بذوي القربى قرابة الرسول (ص) ، ونقل أبو حيان الأندلسي عن الإمام علي بن الحسين (ع) انه قال : هم قرابة رسول الله (ص) أمر الله بإعطائهم حقوقهم من بيت المال . وقال أبو بكر المعافري المالكي في أحكام القرآن : « ويدخل في

ذي القربى قرابة الرسول دخولاً متقدماً وبطريق أولى من جهة ان الآية للقرابة الأدين بالرجل ، فأما قرابة رسول الله فقد أبان الله على الاختصاص حقهم ، وأخبر ان محبتهم هي أجرة النبي على هداة لنا .

وقيل : المراد بذى القربى القريب الذي له حق النفقة والميراث . والمسكين المحتاج ، وابن السبيل المتقطع في السفر ، ولا يملك نفقة العودة إلى بلاده، ولهذين الحق في الزكاة لقوله تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل - ٦٠ التوبة » .

(إن المبشرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً) . عبر سبحانه عن المبشرين باخوان الشياطين لأن التبذير مكروه عند الله ، وكل ما هو مكروه عند الله فهو محبوب عند الشيطان .. ولا يختلف اثنان في ان التبذير هو اتفاق المال في غير وجهه ، ووضعه في غير موضعه قليلاً كان أو كثيراً، وبتعبير أهل المنطق ان التبذير من مقولة الكيف ، لا من مقولة الكم .

وتسأل : ان قولك : في غير وجهه ، وغير موضعه ، أشبه بالكلام المبهم الذي يحتاج إلى التحديد والتوضيح ، فما هو وجهه وموضعه ؟ .

الجواب : ان كل من أففق شيئاً من ماله فيما يعود عليه بالضرر، أو لا يعود عليه بأية منفعة فهو مسرف وسفيه عرفاً وشرعاً - وعلى الهامش الا المال الذي يبذل ثمناً للتدخين - وأشرنا إلى السفية والتحجير عليه في التصرفات المالية عند تفسير الآية ٥ من سورة النساء ج ٢ ص ٢٥٣ و ٢٥٦ .

أين العلول ؟ :

سؤال ثانٍ : رجل أففق من ماله على شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، وما إلى ذلك من المحرمات التي تعود عليه بالنفع العاجل والضرر الآجل ، فإن كثيراً من الناس لا يرون هذا مبذراً وسفياً ، فهل توجب الشريعة الاسلامية التحجير عليه في التصرفات المالية لأنه مسرف ؟ .

الجواب : ان للانسان العاقل أن يتصرف في أمواله دون معارض، مؤمناً كان

سورة الاسراء

أو كافرين ، فاسقاً أو عادلاً ، قال تعالى : « فان آتستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم - ه النساء » ، ولم يقل : فإن آتستم منهم ديناً أو عدلاً ، وتواتر عن الرسول الأعظم (ص) انه قال : « الناس مسلطون على أموالهم » ولم يقل : المؤمنون أو العادلون ، فالشرط الوحيد لصحة هذا التصرف هو الرشد في المال ، لا في الدين ، ولو كانت العدالة والرشد شرطاً لصحة تصرف الانسان في ماله لاختل النظام ، وتعطلت الحياة : لأن أهل الأرض كما نعلم وتعلمون ، فن أين نأتي بأهل الدين والعدالة .

وعلى رأينا هذا الحنفية والمالكية والحنابلة ، أما الشافعية فقد ذهبوا إلى أن الرشد هو الصلاح في الدين والمال (المغني لابن قدامة) .

(واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً) . ضمير عنهم يعود الى ذي القربى والمسكين وابن السبيل ، والقول الميسور هو القول السهل اللين ، والمعنى إذا سألك واحد من هؤلاء الثلاثة شيئاً من المال ، ولم تجد ما تعطيه ، ودعوت الله ان يغنيه ويغنيك من فضله ورحمته ، إذا كان كذلك فقل له قولاً سهلاً ليناً ، وذلك بأن تعده عدة حسنة تبعث في نفسه الأمل والرجاء .. وفي الحديث : ان لم تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم . ويقول انشاعر : فليسعد النطق ان لم يسعد الحال .

الاسلام ونظرية الاخلاق :

٢ - (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتفقد ملوماً محسوراً) . التوازن والتعادل أساس كل شيء في الاسلام ، عقيدة وشريعة وأخلاقاً .. لا الحاد ، ولا تعدد آله .. لا الغاء ملكية ، ولا ملكية طاغية .. لا دكتاتورية للفتات والأفراد ، ولا حكم لكل من شاء وأراد .. لا رهبانية ، ولا اندفاع مع الشهوات . « وكل شيء عنده بمقدار - ٨ الرعد » . وقوله : وكل شيء يشمل الخلق والايجاد ، ويشمل التحليل والتحريم ، وقوله : بمقدار أي بتقدير ونظام موافق للحكمة والمصلحة ، ليس فيه افراط ولا تفريط ، ولا جزاف ولا

خلل .. كل شيء له حدود عند الله ، وعلى الانسان ان يقف عندها ولا يتعداها .
- وعلى سبيل المثال - حدود الحكم والسلطان العدالة والكفاءة ، وحدود الملكية
عدم الاضرار بالأفراد والجماعة ، وحدود الانفاق عدم التقدير والاسراف ، وهكذا
سائر الأفعال والانفعال أيضاً .

وعبر سبحانه عن التقدير بقول اليد لأن المقتَر يقبض يده عن الانفاق ، والغُل
أيضاً يمنعها عن التصرف ، وقوله : ولا تبسطها كل البسط أراد به اليد التي لا
تمسك شيئاً في قبال التي تمسك كل شيء .. ونهاية هذه وتلك واحدة ، وهي
الحسرة والملامة ، فالمسرف بعض يد الحسرة والندامة ملوماً عند الله والناس ،
وعند نفسه أيضاً حين يصبح صفر اليدين ، والبخيل مذموم على كل لسان ،
وحسرتة غداً أشد وأعظم من حسرة المسرف ، وخير الأمور الوسط .

وتسأل : هل معنى هذا ان الاسلام يقر مذهب سقراط في الأخلاق، ونظريته
القائلة : كل فضيلة وسط بين رذيلتين ، فالشجاعة وسط بين التهور والجبن ،
والكرم وسط بين الاسراف والتقتير ، والتواضع وسط بين الخجل وعدم الحياء ،
وهلم جرا ؟.

الجواب : كلا ، فإن الاسلام يحدد الفضيلة ويشرع الأحكام على أساس مصلحة
الفرد والجماعة ، فكل عمل به تقوم الحياة ، وتنمو وتتقدم فهو فرض عين على
القادة ، وفرض كفاية على الأفراد ، وكل ما فيه فقع بجهة من الجهات فهو
فضيلة ، بل عبادة واجبة على كل قادر أو مستحبة على مقدار ما فيها من النفع ،
قال تعالى : « وما ما ينفع الناس في الأرض ١٧ الرعد » . وقال الرسول
الكريم (ص) : خير الناس من انتفع به الناس ، وأوضح الأدلة على هذه الحقيقة
قوله تعالى : « النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم
بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم
إصرهم والاعلال - ١٥٧ الأعراف » .

وهذا المبدأ القرآني ، وهو المصلحة ، قد يلتقي مع نظرية الوسط ، كما في
الأشياء التي لها وسط ، مثل الكرم بين التقدير والاسراف ، ويفرق عنها في الأشياء
التي لا وسط لها ، كالأمانة فإنها ضد الخيانة ، ولا ثانية لها كي تتوسط الأمانة

سورة الاسراء

بينها .. وتكلمنا عن الأخلاق عند تفسير الآية ٥٤ من سورة المائدة ج ٣ ص ٧٩ .
(إن ربك ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر - أي يُضيق - انه كان بعباده خبيراً بصيراً) . كل شيء بيده تعالى الارزاق وغير الارزاق لأنه مالك الملك .. ولكن شاءت حكمته وقضت ارادته أن لا يبرزق إلا بالأسباب الكونية التي خلقها ووضعها سبيلاً لكسب المال .. أنظر تفسير الآية ٦٦ من سورة المائدة ج ٣ ص ٩٤ .
والآية ١٠٠ من سورة المائدة أيضاً ج ٣ ص ١٣١ . وتفسير الآية ٢٦ من سورة الرعد .

٣ - (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ان قتلهم كان خطئاً كبيراً) . تقدم مثله في الآية ١٣٧ و ١٥١ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٧١ و ٢٨٣ .

٤ - (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلاً) . وما فشا في مجتمع الا كان مصيره الى الانحلال ، بالاضافة الى اختلاط الأنساب، وكفى بالزنا قبيحاً انه من أقدر صفات الشتم والذم .

٥ - (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق) . تقدم مثله في الآية ٣٢ من سورة المائدة ج ٣ ص ٤٧ (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل انه كان منصوراً) . كل من قتل دون أن يأتي بجناية تستوجب القتل فقد قُتل ظلماً، وأولياء القتل هم أقرباؤه من أبيه ، وعند عدمهم الحاكم الشرعي، وعدم الاسراف في القتل ان لا يقتل اثنين بإزاء واحد ، كما كانوا يفعلون في الجاهلية ، والمنصور المعان ، والمعنى ان لأولياء المقتول ظلماً للحق في قتل القاتل أو أخذ الدية منه، كما في الحديث الشريف : « من قتل قتيلاً فأهله بن خيرتين : ان احبوا قتلوا ، وان احبوا أخذوا الدية » . وبما ان لأولياء الحق في ذلك فعلى الحاكم وكل مسلم أن يكونوا عوناً لهم على استيفاء هذا الحق . وسبق الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ١٧٨ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٧٤ .

٦ - (ولا تقربوا مال اليتيم الا با لتي هي أحسن حتى يبلغ أشده) مرّ بالحرف الواحد في الآية ١٥٢ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٨٣ .

٧ - (واولفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولاً) . وكل ما أمر الله به ،

ونهى عنه فهو عهد بحب الوفاء به ، ومنه عقود البيع والاجارة ونحوها . أنظر تفسير الآية ١ من سورة المائدة ج ٣ ص ٦ .

٨ - (واوفوا الكيل اذا كلم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً) . أي مآلاً من آل يؤول ، وإيفاء الكيل والوزن واجب شرعاً وعرفاً ، ولا يختص يدين دون دين ، ولا بعرف دون عرف . وقد حث سبحانه على إيفاء الكيل والميزان بأساليب شتى منها « وزنوا بالقسطاس المستقيم » أي العدل ، ومنها « اوفوا الكيل والميزان » ، ومنها « ولا تنقصوا » ، ومنها « لا تطغوا » . والسر أن الحياة الاجتماعية لا تنتظم الا بذلك .

القول بغير علم :

٩ - (ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) . تقول العرب : قفوته اذا اتبعت أثره ، وقافية كل شيء آخره ، ومن أسماء النبي (ص) المقفى لأنه آخر الأنبياء وخاتمهم .. والقول بلا علم قبيح ، حتى عند من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، وذكر سبحانه السمع والبصر والفؤاد ، وأراد صاحب هذه الأدوات الثلاث ، وانه تعالى يسأله عنها ، ويعاقبه اذا أسند اليها ما لا تعلم ، كما لو قال : سمعت دون أن يسمع ، ورأيت وهو لم ير ، واعتقدت وعزمت ، وهو لم يعتقد ولم يعزم ، أو عزم على الباطل .. ولا فرق بين من يتعمد الكذب ، ومن يسرع الى القول من غير تثبيت وروية ، فإن القول بالظن والشبهة قول بغير علم ، قال تعالى : « ان الظن لا يغني من الحق شيئاً » - ٣٦ يونس . وقال : « ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » - ١١٧ الأنعام . والخراص الافتراء ، وقد ساوى الله بينه وبين الظن .. ويتفرع عن هذه الآية المسائل التالية :

أ - بطلان التقليد ونحرجه على الكفو القادر على استنباط الأحكام من مصادرها حيث ترك علمه ، وعمل بعلم غيره . وعلى هذا الرأي الشيعة الإمامية والزيدية والمعتزلة وابن حزم والشيخ محمد عبده والشيخ شلتوت وغيرهم ، وتكلمنا عن التقليد مفصلاً عند تفسير الآية ١٧٠ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٥٩ .

ب - تحريم العمل بالقياس والاستحسان ، واستخراج الاحكام الإلهية منها .. والقياس هو الحاق أمر - في الحكم - غير منصوص عليه بآخر منصوص عليه لاتحاد بينهما في العلة المستنبطة ، ومثال ذلك ان ينص الشارع على ان الجدة لأم تراث ، ويسكت عن الجسدة لأب ، فلحق هذه بتلك في الميراث قياساً لأن كليهما جدة .

والاستحسان المحكي عن أبي حنيفة هو الحكم بما يستحسنه المجتهد بغير دليل إلا استحسانه هو أي حدسه وهجسه (كتاب اللع في أصول الفقه لأبي اسحق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزبادي ص ٦٥ طبعة سنة ١٩٣٩) . ومثل له صاحب الكتاب المذكور بمن قال : ان فعلت كذا (فأنا) يهودي ، فيحث هذا القائل ، ونجب عليه الكفارة استحساناً لأنه بمنزلة من قال : والله ان فعلت كذا فهو يهودي .

ج - ان كل من تصدى للافتاء ، وبيان الحلال والحرام ، وهو غير كفؤ فقد كذب وافتى على الله ورسوله ، وكان من المعنيين بقوله تعالى : « تالله لتسألن عما كنتم تفترون - ٥٦ النحل » ، وقول الرسول الأعظم (ص) : « من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . فان الكذب على الله ورسوله كما يكون بالرواية عنها يكون أيضاً بنسبة الحلال والحرام اليها .. وقد كثر في زماننا المفتونون المفترون على الله ورسوله الذين اتخذوا من سمة الدين وسيلة للارتزاق ، وستاراً للخيانة والعبالة .. ومنهم من ألف المنظمات والأحزاب تعمل بوحى من الصهيونية والاستعمار، وفي الوقت نفسه تحمل اسم الاسلام والمسلمين للخداع والتضليل.

سألني أحد الشيوخ عن زوجتي هابيل وقابيل ابني آدم ، هل هما من حور الجنة ، أو من غيرهن ؟ قلت : هذه مسألة تعرف بالنقل ، لا بالعقل ، والنقل في مثلها لا يعمل به إلا إذا كان نصاً في القرآن أو السنة المتواترة ، ولا نص فيها على ذلك فعلياً السكوت عما سكوت الله عنه ورسوله . قال : كيف ؟ وهل تقف موقف العاجز اذا سئلنا ؟ قلت : وهل يُطلب منا ان نعلم كل شيء لأننا معصومون ؟.

١٠ - (ولا تمش في الأرض مرحاً انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال

طولاً) . قد يزهو الجاهل ويتعاضم إذا ملك شيئاً من حطام هذه الحياة ، كالجاه والمال ، ولكن ان عرض له عارض من المخبات والمفاجآت وهن وحرار لا يدري ماذا يصنع .. والعاقِل من عرف قدره ، وتفكر واعتبر ، ولم يحذ عن قصد السبيل .. وقوله تعالى : (ولا تمش في الارض مرحاً) نهى عن التكبر ، وأمر بالتواضع ، وقوله : (انك لن تحرق الارض ولن تبلغ الجبال طولاً) كتابة عن عجز الانسان ، وانه أضعف من أن يبلغ ما يريد بالجاه والمال ، كما انه أضعف من أن يبلغ الجبال بحجمه ، ويحرق الأرض بقدمه .

(كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً) . ذلك اشارة الى ما تقدم ذكره مما أمر الله به ، ونهى عنه ، والمراد بسيئه ما نهى عنه خاصة ، والمعنى ان كل هذه الأشياء التي نهى عنها مكروهة عند الله ، وفاعلها ممقوت يستحق العذاب والعقاب (ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة) . أيضاً ذلك اشارة الى ما تقدم ذكره من الأوامر والنواهي ، والحكمة وضع الشيء في محله ، وليس من شك ان جميع احكامه تعالى في محلها ، وان من أخذ بها فقد أخذ بالحق والخير والعدل (ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً) . تقدم تفسيره في الآية ٢٢ من هذه السورة .. وقد ابتدأ سبحانه بالنهي عن الشرك ، وختم به لأن التوحيد هو البداية والغاية للإسلام دين الله الحق ، ولأن جميع الأحكام تناط به وحده ، فلا حلال الا ما حلل ، ولا حرام الا ما حرم .

افاصفاكم ربكم بالبنين الآية ٤٠ - ٤٤ :

أَفَاصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ تَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا * قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا * تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ

السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا*

اللغة :

أصفاكم خصكم . وصرفنا بيتنا . وليذكروا ليتدبروا . ونفورا بعداً . ولا تفتوا
طلبوا . لا تفقهون لا تفهمون .

الإعراب :

مفعول صرفنا محذوف أي صرفنا المواظ . وليذكروا أصلها يتذكروا فأدغمت
التاء بالذال لقرب مخرجها . وعلواً أي تعالياً . وإن من شيء (ان) نافية .
ومن زائدة وشيء مبتدأ أي ما شيء .

المعنى :

(أفاصفاكم ربكم بالبينات واتخذ من الملائكة اناثاً) . يُعتبر القرآن حجة لا تقبل
الجدل في كل ما قاله وسجله عن العصر الجاهلي، وتسجل هذه الآية على المشركين
بأنهم كانوا يعتقدون ان لله بناتاً من نوع الملائكة .. وأيضاً كانوا يعتقدون بأن
الذكر أفضل من الانثى بدليل قوله تعالى : « وإذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه
مسوداً وهو كظيم - ٥٧ النحل » ومع هذا نسبوا الافضل لانفسهم ، والادنى
اليه تعالى .. فوبخهم سبحانه على هذا الجهل وقال : (انكم لتقولون قولاً عظيماً)
لانه تعالى لا شريك له ولا شبيه ، ولو كان له ولد لكان ولده وارثاً له وشيهاً
به ، ولو كان له والد لكان والده شريكاً له في العز ، بل أعز لانه علة وجوده .
وغير بعيد عن منطق الجاهليين أن يكون السر الذي دعاهم الى ان ينسبوا

الاناث الى الله والذكور إلى أنفسهم - ان الله تعالى لا يخاف الفقر لكثرة العيال ، ولا العار من وجود الاناث .

(ولقد صرفنا في هذا القرآن ليعلموا وما يزيدهم إلا نفوراً) . أقام سبحانه الدلائل والبيانات على وجوده ووحدانيته ، وأوضحها بضرب الامثال ، وأساليب متنوعة ليفهموها ويدركوها ، ولكنهم استمسكوا بالآوهام والتقاليد ، وازدادوا بعداً وعناداً . قال الرازي : وانما أكثر الله سبحانه من ذكر الدلائل في القرآن لانه تعالى أراد من المشركين فهمها والإيمان بها ، وهذا يدل على أنه تعالى يفعل أفعاله لأغراض حكيمة ، ويدل على انه تعالى أراد الإيمان من الكل ، سواء آمنوا أم كفروا .

وهذا القول من الرازي يناقض ما صرح به مراراً من ان أفعال الله لا تعلل بالأغراض ، وأنه سبحانه أراد الكفر من الكافر ، كما هو مذهب الأشاعرة .. ولكن أبى الله ألا ان ينصر الحق ويظهره ، حتى على لسان جاحديه من حيث لا يشعرون .

(قل لو كان معه آلهة كما يقولون لإذا لبثوا الى ذي العرش سبيلاً) . ذكر أهل التفسير لهذه الآية معنيين : الأول انه إذا فرض ان مع الله آلهة فلا تعدو أن تكون هذه الآلهة كوكباً أو انساناً أو جاداً أو أي شيء آخر ، وهذه كلها مخلوقات لله تعبدوه وتتقرب اليه ، فعليكم أيها المشركون ، وهذه هي حال معبودكم ، ان تعبدوا الله انتم كما يعبدونه من تدعونه من دون الله .

المعنى الثاني أو التفسير الثاني ، وهو الأرجح ، انه لو كان فيها آلهة غير الله طلبت هذه الآلهة طريقاً الى النزاع والشجار مع الله ليصفو لها الملك .. وما من شك ان نزاع الرؤساء يؤدي الى الفوضى والفساد ، كما قال تعالى : « لو كان فيها آلهة الا الله لفسدنا - ٢٢ الأنبياء » . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٤٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٤٤ (سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً) نزه عز وجل نفسه عن قول الظالمين والمشركين من ان له شركاء وأولاداً .

كل شيء يسبح بحمده :

(تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده) .

أجل ، كل شيء يسبح بحمد الله تعالى ، ما في ذلك رب ، وتسبح الشيء يختلف باختلاف صفاته وخصائصه ، فالعاقل يسبح الله بلسان المقال ، وغيره يسبحه بلسان الحال ، وبكلام آخر يسبحه بدلالة وجوده وصورته واحكامه على وجود المصور الحكيم ، تماماً كما يدل الرسم الجميل على وجود الرسام ومهارته ، ولسان الحال أقوى وأبلغ في الدلالة من لسان المقال ، لأن هذا يحتاج الى دليل ، أما الحال فهي بذاتها دليل يؤدي حتماً الى العلم واليقين ، وتقدم الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ١٤ من سورة الرعد .

(ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليماً غفوراً) لا يفقه الملحدون والمشركون تسبيحهم للانصراف عن الله وعظمته في خلقه ، أو لقصر النظر عن ادراك ما في الكون من عجائب وأسرار ، قال ابن عربي في الجزء الرابع من الفتوحات المكية ما تلخيصه وتوضيحه : ان لله آيات متنوعة ، منها ما يدرك بالعقل ، ومنها ما يدرك بالسمع ، ومنها ما يدرك بالبصر ، وعلى الانسان أن يستعمل هذه الأدوات لمعرفة آيات الله التي ذكرها في كتابه ، ومضى علم وآمن بها وعمل بموجبها كان من أهل القرآن ، وأهل الله وخاصته .. ثم قال ابن عربي: خذ الوجود كله على انه كتاب ناطق بالحق عن الحق .. وهذا كقول أحد العارفين : ان لله كتابين : أحدهما ينطق بلسان المقال ، وهو القرآن ، والآخر ينطق بلسان الحال ، وهو الكون .

واذا قرأت القرآن الآية ٤٥ - ٤٨ :

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا * وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ

الظَّالِمُونَ إِنَّ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا* أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ
الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا*

اللغة :

الوقر بفتح الواو الصسم ، وبكسرهما الثقل . والأكنان جمع كنان ، وهو
الغطاء . ونفوراً بعداً . مسحوراً محبوس العقل .

الاعراب :

مستوراً اسم فاعل بصيغة اسم المفعول أي ساتراً ، وقد تأتي ايضاً صيغة اسم
الفاعل بمعنى المفعول مثل ماء دافق أي مدفوق . والمصدر من ان يفقهوه مفعول
من اجله لجعلنا أي كراهة ان يفقهوه . وفي آذانهم وقرأ عطف على جعلنا أي
وجعلنا في آذانهم وقرأ . ووحده حال أي منفرداً غير مقرون بذكر آلتهم .
ونفوراً مصدر في مكان الحال اي نافرين ، ويجوز ان يكون مفعولاً مطلقاً
لأن ولوا بمعنى تفروا فيكون مثل جلست قعوداً . واذا الأولى ظرف يستمعون ،
واذا الثانية بدل من الأولى . ونجوى خبر لهم بمعنى « متناجون » ويجوز أن يكون
الخبر محذوفاً اي اصحاب نجوى . وكيف مفعول ضربوا .

المعنى :

(واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً
مستوراً) أي ساتراً .. وفي تفسير هذه الآية اقوال ، ارجحها ان جماعة من
المشركين كانوا - اذا قرأ محمد (ص) القرآن - يتصدون له بالأذى ،
ويحاولون منعه عن تلاوته ، فقال سبحانه لنبيه الكريم : امض في قراءة القرآن

سورة الإسراء

والدعوة الى الله ، ولا تكثر بهم ، فنحن نحرسك منهم ، ونمنعهم عنك .
(وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقراً) . هذا كناية عن
تمرد المشركين على الحق وعنادهم له ، اما نسبة الاكنة والوقر الى الله فقد تكلمنا
عنها مفصلاً عند تفسير الآية ٢٥ من الأنعام ج ٣ ص ١٧٦ ، وهي نظير هذه
الآية نصاً ومعنى .

(واذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على ادبارهم نفوراً) . كان
المشركون اذا سمعوا رسول الله يقول : لا اله الا الله ، ونحو ذلك ، يعرضون عنه
مدبرين ، ويقولون : « أجعل الآلهة لها واحداً ان هذا لشيء عجاب . وانطلق
الملا منهم ان امشوا واصبروا على آنتكم - ٥ ص . » ولا سر لهذا النفور والاعراض
إلا لأن كلمة التوحيد تنطوي على المبدأ القائل : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .
لا طبقات ولا امتيازات .

(نحن اعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون ان تنبئوا إلا
رجلاً مسحوراً) . ضمير به يعود الى (ما) وهي هنا اسم موصول بمعنى
الشيء .. وتفسير الآية ان الله سبحانه بعث ان قال : « وفي آذانهم وقراً »
قال : نحن اعلم يا محمد انك حين تلو القرآن لا يستمع اليك المشركون بقلوب
واعية وآذان صاغية ، بل يستمعون اليك بروح الحقد والكراهية ، والعناد
والمكابرة ، ثم يقول بعضهم لبعض وللناس ايضاً : ان محمداً ساحر ومسحور
تأبسته الجن ، ونطقت على لسانه هذه الحكمة والبلاغة ، وإلا فن اين مثله ،
وهو الأمي أن يأتي بهذا الاعجاز ؟ . وفوق هذا لا كثر له من ذهب أو
فضة ، ولا جنة من تخيل واعتاب ..

وهكذا ذهب بهم التفكير الطبقي الى ان صاحب المال وحده هو صاحب
المناصب الشريفة ، دينية كانت او زمنية : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل
من القريتين عظيم - ٣١ الزخرف » .. اما العقل والصدق والامانة فكلام فارغ .
(انظر كيف ضربوا لك الامثال) استكثروا على محمد (ص) أن يكون
رسولاً لله ، وان ينطق بلسان الله فضربوا له الأمثال بمجعله مجنوناً تارة ، وساحراً
تارة ، ومرة كاهناً ، وحيناً شاعراً .. محمد الذي بعث ليتم مكارم الأخلاق
ساحر مجنون ... فكيف بغيره من الطيبين الأخيار ؟ .. ولماذا محمد ساحر

ومجنون ؟ .. لأنه نطق بالحق ودعا اليه ، ولم يستجب لأهواء المبطلين ، وشهوات
المفسدين .. وفوق ذلك لا خيل لديه ولا مال .. ونخلص من هذا الى ان ارباب
الأغراض والشهوات تنحصر مشاعرهم واحاسيسهم في جانب واحد تحده الاهواء
والمصالح الخاصة .. فلا يعقلون ولا يسمعون ولا يبصرون إلا من خلالها حتى
استحالوا بجميع ما فيهم الى الاهواء والشهوات .. وهذا وحده نجد تفسير عنادهم
للحس والعيان ، وموقفهم من اهل الصلح والاخلاص في كل زمان ومكان ،
وبالتالي نجد فيه تفسير قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى
ابصارهم غشاوة » وتفسير كل ما جاء بهذا المعنى في كلامه جل وعلا (فضلوا
فلا يستطيعون سبيلاً) الى تكذيب المحققين إلا الافراء والبهتان ، والتضليل
والعدوان ، والدس والمؤامرات ، وشراء الذم والرشاوى .

الذات كنا عظاماً ورفاتاً الآية ٤٩ - ٥٢ :

وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا لَمَبْسُوتُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ
كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ
مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ
وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ
فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا *

اللفظ :

الرفات هو الذي بلي حتى صار فتاتاً. وفسينغضون اليك رؤوسهم أي يحركونها
استهزاء .

الاعراب :

أثذا كلمتان : هزة الاستفهام ، واذا ، وهي ظرف متعلق بمحذوف أي أنبعث في ذلك الوقت . والذي فاعل لفعل محذوف أي قل يعيدكم الذي فطركم . واسم عسى ضمير مستتر يعود الى الوقت الذي دل عليه سياق الكلام . وبمحذوف في موضع الحال أي فتستجيون حامدين . وجملة تظنون خبر لمبتدأ محذوف أي وأنتم تظنون ، والجملة من المبتدأ وخبره حال من فاعل فتستجيون . وان نافية بمعنى ما .

المعنى :

(وقالوا أثذا كنا عظاماً ورفائاً أثنا لمبعوثون خلقاً جديداً) . هذه هي حجة من ارتاب بالبعث تديماً وحديثاً : كيف يعود الانسان الى الحياة بعد ان يصبح هباء منثوراً ؟ . والجواب هو : من قدر على خلق الشيء واجاده فبالأولى ان يقدر على جمعه بعد تفرقه . وقد ذكر سبحانه شبهة التكرين هذه ، وجوابها هذا في العديد من الآيات ، بعبارات شتى ، منها الآية ٧٨ من يس : « قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحياها الذي انشاها اول مرة وهو بكل خلق عليم » . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً في ج ١ ص ٧٧ و ج ٢ ص ٣٩٦ و ج ٤ عند تفسير الآية ٥ من الرعد ، فقرة « الماديون والحياة بعد الموت » .

(قل كونوا حجارة او حديداً او خلقاً مما يكبر في صدوركم) . يقول سبحانه لمنكري البعث : لو كنتم حجارة او حديداً ، او ما هو اكبر عندكم من ذلك - لخلقنا منكم انساناً حياً مثلكم ، ومن يخلق من الحجارة والحديد ومما هو اصلب واصعب انساناً حياً فبالأولى ان يعيد الحي بعد موته الى ما كان عليه من قبل ، لأن جمع الشيء بعد تفرق اجزائه ايسر من ان يخلق منه طبيعة جديدة مباينة لطبيعته الأولى .. واختصاراً ان احياء الانسان بعد موته ايسر من جعل الحديد انساناً ، فن قدر على هذا فبالأولى ان يقدر على ذلك .

(فيقولون من يعيدنا) الى الحياة بعد ان نصبح هباء منثوراً ؟ . وهذا السؤال يحمل جوابه معه وهو (قل الذي فطركم اول مرة) . فالجواب هو المبدىء ،

ونسبة البدء والاعادة اليه واحدة ، بل الاعادة بطبعها أيسر لأنها ارجاع ما كان الى ما كان ، اما البدء فخلق وإيجاد .. نقول هذا مع علمنا بأن الله يخلق القليل والكثير ، والعظيم والحقير بكلمة « كن فيكون » .

(فسينفضون اليك رؤوسهم) يحركونها استهزاء وتكديفاً (ويقولون متى هو) هذا البعث ؟ . ومرادهم من السؤال الاستبعاد والاستنكار (قل عسى ان يكون قريباً) والمراد بالقرب هنا التحقق والوقوع لأن كل آت قريب .

(يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) . المراد باليوم يوم البعث ، وبالسدعاء النفخ في الصور والاستجابة هنا كناية عن خروجهم من القبور ، وبحمده أي طائعين متقادين : « ونفخ في الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون - ٥١ يس » (وتظنون ان لبثتم إلا قليلاً) حين يخرج الناس من القبور بظنون انهم ما اقاموا في دار الدنيا إلا يوماً أو بعض يوم : « قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم - ١١٣ المؤمنون » .

وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن الآية ٥٣ - ٥٧

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْتَحِمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا * وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى

رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيْهِمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ تَحْذُورًا *

الغلة :

يتزغ يُفسد . والزبور الكتاب على وزن فعول اسم مفعول أي مكتوب ، وغُلِّبَ على الكتاب الذي انزل على داود (ع) . والمراد بالوسيلة هنا القربة الى الله . وتحذوراً من العذر ، وهو الخوف اي يحذره العاقل ويحترس منه .

الاعراب :

يقولوا مجزوم بلام الامر المحذوفة أي ليقولوا . والتي هي احسن اي الكلمة التي هي احسن . واولئك مبتدأ ، والذين يدعون صفة او عطف بيان ، ويتغنون خبر . وايهم مبتدأ واقرب خبر .

المعنى :

(وقل لعبادي يقولوا التي هي احسن) . امر سبحانه نبيه الكريم بأن يأمر المؤمنين او الناس اجمعين بأن ينطقوا بالحسنى ، ويقولوا كلمة الحق والعدل أياً كان الثمن . انظر تفسير الآيتين ٢٤ و ٢٦ من ابراهيم : « ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة ... ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة » . (ان الشيطان يتزغ بينهم) يتلمس عثرات اللسان ليتخذ منها وقوداً لنار العداوة والبغضاء بين الناس.. ولا تنحصر عثرات اللسان بالسب والهجاء ، بل تكون ايضاً بالمدح والثناء في غير موضعه ، وفي الفاظ الفسق والفجور (ان الشيطان كان للانسان عدواً مبيناً) . وقد صرح هو بهذه العداوة حيث قال : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم

لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمالهم - ١٧ الاعراف .
 (ربكم اعلم بكم ان يشأ برحمتكم او ان يشأ يعذبكم) . الله عالم وعادل
 وحكيم : يعلم احوال عباده : ما يصلحهم وما يفسدهم ، ويعاملهم بعدله
 وحكمته ، فيرحم من يستحق الرحمة ، وهو من يمثل ويطيع ، ويعذب من
 يستحق العذاب ، وهو من يعصي ويتمرّد : هذا بعد ان يلقي غايه الحجة بتبليغ
 الحلال والحرام بلسان النبي الكريم (وما ارسلناك عليهم وكيلاً) بل مبلغاً وكفى :
 » فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب - ٤٠ الرعد .

(وربك اعلم بمن في السموات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض
 وآتيناهم زبوراً) الله يعلم اهل السماء والارض ، ويعلم مؤهلات كل واحد
 منهم ، وعلى اساسها يصطفي من الملائكة رسلاً الى انبيائه كجبريل (ع) ،
 ويبعث من البشر رسلاً مبشرين ومنذرين ، وكما فضل بعض الملائكة على بعض
 فقد فضل ايضاً بعض الانبياء على بعض .

وتسأل : ان الاسلام يقوم على مبدأ المساواة ، فما معنى هذا التفضيل ؟ . ثم
 كيف يتحقق التفضيل ويتصور بين الملائكة ، وبين الانبياء ، مع العلم بأن الجميع
 عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ؟ .

الجواب : اجل ، لا تفضيل على اساس الطاعة والعصمة والولاية من حيث
 هي ، بل من حيث وصفها تماماً كالذهب .. فانه ثمين بشئى افراده ، ولكن
 بعضها اثنى من بعض ، وهكذا سائر الأشياء الحسنة الجميلة فانها تتفاوت في
 مقدار الجمال ودرجاته ، لا في كنهه وحقيقته ، ومن هنا قيل : نور على نور..
 وخير على خير .

سؤال ثان : لماذا افرد الله داود بالذكر ، وقال : وآتيناه داود زبوراً . مع
 انه آتى موسى التوراة وعيسى الانجيل ومحمداً القرآن ؟ .

الجواب : افرد داود بالذكر للرد على المشركين الذين قالوا : كيف يكون
 محمد نبياً ، وقد عاش يتيماً فقيراً ؟ . ووجه الرد أن المعنى انه سبحانه يجعل
 رسالته عند من يستحقها سواء اكان المستحق يتيماً فقيراً كمحمد ، ام كان غنياً
 كداود .. وفي كثير من كتب السير والتاريخ يعبر عن داود النبي بداود الملك .
 (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً) .

سورة الإسراء

قال كثير من المفسرين : ان هذه الآية والتي بعدها نزلتا في الذين عبدوا الملائكة وعيسى وعزيراً ، وان عبدة الاصنام غير مقصودين لأنه تعالى وصف المعبودين بأنهم (يتغنون الى ربهم الوسيلة) وابتغاء الوسيلة اي القرية اليه لا يلبق بالاصنام ، وعليه يكون المعنى قل يا محمد لمن عبد الملائكة وعيسى وعزيراً : اذا اصابك الضر كالفقر او المرض فاسأل معبودك ان يكشفه عنك ، ثم انظر : هل يقدر على دفعه او تحويله الى غيرك ؟ .. وما من شك في عجزه لأنه لا يملك ذلك لنفسه فكيف يملكه لغيره .

(أولئك الذين يدعون يتغنون الى ربهم الوسيلة) . اولئك اشارة الى الذين اتخذهم المشركون ارباباً ، والمعنى ان الذين تعبدونهم ايها المشركون يتوسلون الى الله بالطاعة لا يستكبرون عن عبادته ويسبحون له ويسجدون ، فكيف تعبدونهم ؟ . (ايهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) اي ان كلاً من الملائكة وعيسى وعزير يمجّد ويحتشد في عبادة الله والاخلاص له ليكون قريباً من عفوه ورحمته ، بعيداً من سخطه وعذابه . ذلك (ان عذاب ربك كان محذوراً) تحذره الانبياء والاولياء ، فكيف بغيرهم ، وكل عاقل يحذر ويخاف من العواقب ، ويعد لها العدة مهما كانت مترلة ومقدرته ، وبخاصة اذا كان الطالب والمحاسب يعلم السر وأخفى .

وان من قربة الآية ٥٨ - ٦٠

وَإِنْ مِنْ قَرْبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مَهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً * وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً * وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ

الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَتُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ★

اللفظة :

الناقة مبصرة اي دلالة واضحة عند من يبصرها ، فالابصار وصف لمن يراها حقيقة ، ولها مجازاً . فظلموا بها اي فكفروا بها ، والقرآن يُطلق الظلم على الكفر في كثير من الآيات .

الاعراب :

ان من قرية (ان) نافية ، ومن زائدة اعراباً ، وقرية مبتدأ اول ، ونحن مبتدأ ثان ، ومهلكوها خبر المبتدأ الثاني ، والجملة منه ومن خبره خبر الأول . والمصدر من ان نرسل مجرور بمن محذوف ، والمصدر من ان كذب فاعل معنا . ومبصرة حال من الناقة . وتخويفاً مفعول من اجله ليرسل . واذا قلنا (اذا) متعلقة بفعل محذوف اي واذا ذكر اذا قلنا . وفتنة مفعول ثان لجعلنا . وفاعل يزيدهم ضمير مستتر يعود الى التخويف المفهوم من نخوفهم . وطغياناً مفعول ثان ليزيدهم كما في مجمع البيان .

المهدي المنتظر :

(وان من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً) . ظاهر الآية يدل على ان الناس كلهم يقنون قبل يوم القيامة ، بحيث يأتي ذلك اليوم ، ولا انسان على وجه الأرض اطلاقاً .. وان هذا أمر قد خُط بالقلم في كتاب القضاء والقدر الذي لا مفر منه ولا محيص عنه ، ولكن بعض المجتمعات يفنيهم الله بالموت الطبيعي ، وبعضهم بالسذاب الشديد ، ولم يبين سبحانه وصف هؤلاء ، ولا اولئك .. هذا هو ظاهر الآية ،

سورة الإسراء

ولكن المفسرين قالوا: ان المجتمع الصالح يفنى بالموت الطبيعي، والفساد بالعذاب، وقولهم هذا لا يتفق مع قولهم في تفسير قوله تعالى في اول سورة الحج : « يا ايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى » .

والذي نراه أن المراد بالقرية في قوله تعالى: « وان من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة » الخ . المراد خصوص القرية الظالم اهلها أي المجتمع الفاسد فقط، وانه يهلك هذا المجتمع او يعذبه قبل ان تقوم الساعة ، اما المجتمع الصالح فيستمر في الوجود والبقاء الى يوم القيامة حيث تذهل كل مرضعة عما ارضعت ... وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، وبهذا يتحقق الجمع بين ما جاء في اول الحج ، وبين الآية التي نحن بصدددها ، ويكون معناها ان الله سيحوي المفسدين والظالمين من وجه الأرض قبل القيامة ، ولا يبقى إلا الصالحون الطيبون ، يعيشون جميعاً في طاعة الله مؤمنين آمنين على انفسهم وجميع اشيائهم ، وفي ذلك احاديث كثيرة عن رسول الله (ص) .

منها ما جاء في سنن ابي داود السجستاني ، وهو احد الصحاح الستة عند السنة ج ٢ طبعة سنة ١٩٥٢ ص ٤٢٢ وما بعدها : « قال رسول الله (ص) : لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً من اهل بيتي يواطىء اسمه اسمي ، واسم ابيه اسم ابي بملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً » . ومحل الشاهد بملأ الأرض قسطاً وعدلاً .

ومنها ما جاء في كتاب السنن لابن ماجة ، وهو احد الصحاح الستة ايضاً ج ٢ طبعة ١٩٥٢ الحديث رقم ٤٠٨٣ : « قال رسول الله يكون في امتي المهدي تنعم فيه امتي نعمة لم تنعم مثلها قط » .

والثورات والانتفاضات في كل مكان للتحرر من الظلم والفساد ، والجهل والفقر تدل بصراحة ووضوح على ان هذا كائن لا محالة في المستقبل القريب أو البعيد . (وما معنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) . اقترح مشركو قريش على رسول الله (ص) أن يأتيهم بالخوارق التي يريدون ، وقالوا له فيما قالوا : فجر لنا من الأرض ينبوعاً ، واتنا بالله

والملائكة ، وأنزل علينا من السماء كتاباً نقرأه .. واجابهم سبحانه في هذه الآية بأنه قد سبق في قضائه وقدره ان يستأصل بالعذاب كل قوم كذبوا بآية جاءت وفق ما طلبوا واقترحوا ، فلقد اقترحت ثمود من قبل على نبيها صالح ناقة خارقة ، ولما جاءتهم على الوصف الذي اقترحوه كفروا بها وعقروها ، فاخذتهم الرجفة وكانوا من المالكين . وسبق التفصيل في سورة الاعراف الآية ٧٣ و ٧٩ ج ٣ ص ٣٥٠ .

وقد سبق في قضاء الله وقدره أن لا يستأصل قريشاً التي اقترحت ما اقترحت على رسول الله ، لأن رجالاً منها سيتوبون ويؤمنون ، وآخرين يولد لهم من يجاهد في الله حق جهاده ، وفوق هذا فان الله سبحانه قضى وقدر أن تبقى امة محمد (ص) وشريعته الى يوم يبعثون ، ولهذا وغيره من الأسباب لم يستجب سبحانه الى مقترحات قريش (وما نرسل بالآيات إلا تحويلاً) . فاما من آية ظهرت أو تظهر على يد نبي من الانبياء إلا والغاية منها العظة والزجر والتخويف من عذاب ليس له دافع ولا رافع .. فاما بالهم يقترحون الخوارق ويستعجلونها ، وهي نقمة عليهم وعذاب .

(واذا قلنا لك ان ربك احاط بالناس) . سبق أن المشركين اقترحوا الخوارق على رسول الله (ص) وأن الله أوحى اليه انه لو استجاب لهم وعصوا هلكوا.. ولكن هذا الجواب لم يقنع المشركين ، وقالوا لرسول الله لو كنت نبياً لجئتنا بما اقترحنا .. ولما بلغ الأمر بهم الى هذا الحد خاطب سبحانه نبيه الكريم بقوله : (واذا قلنا لك ان ربك احاط بالناس) أي امض في دعوتك ، ولا تكثر بمن يعاند ويكابر ، فنحن اعلم بالناس وما يقولون ويفعلون ، وهم جميعاً في قبضتنا نصدهم عنك وعن ابدالك ، وفي هذا المعنى قوله تعالى : « والله يعصمك من الناس » .

(وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) . ذكر سبحانه أنه قد أرى نبيه رؤيا في منامه ، وانها فتنة للناس ، ولكنه لم يبين ما هي هذه الرؤيا ، ولا المراد من الفتنة : ومن هنا اختلف المفسرون في معناها ، وذكر الرازي في تفسيره الكبير ، وابو حيان الاندلسي في البحر المحيط ، وعبد بن احمد الكلبي في كتاب التسهيل ، ذكروا وغيرهم ايضاً اقوالاً في تفسير الرؤيا والفتنة، منها أن النبي(ص)

سورة الإسراء

رأى أنه سيدخل مكة مع الصحابة، ولكنه لما قصدها عام الحديبية صده المشركون، فشك من شك من المسلمين في رؤيا النبي وقال له : ألم تخبر بأننا ندخل المسجد الحرام آمين ؟ . قال : أجل ، ولكن هل قلت : ندخله هذا العام ؟ . قال : لا . قال النبي (ص) : لندخله ان شاء الله . فدخلوه في العام المقبل .

ومن الأقوال في تفسير الرؤيا كما جاء في التفسير التي اشرنا اليها : ان النبي (ص) رأى بني امية ينزون على منبره نزو القروذ ، فسأه ذلك، واغتم به ، ولم يُر ضاحكاً . وذهب الى هذا التفسير جماعة من الصحابة ، منهم سعيد ابن المسيب وابن عباس كما في تفسير الرازي ، وسهل بن سعد كما في تفسير البحر المحيط . وفي صحيح البخاري ج ٩ كتاب الفتن - أن النبي (ص) قال : « هلاك امتي على يدي اغلطة سفهاء من قريش » . وهذه الرواية تدعم تفسير الرؤيا ببني امية ، وعليه يكون المراد بقوله تعالى : (والشجرة الملعونة في القرآن) هم بنو امية بالذات . وفي تفسير الرازي ان من المفسرين جماعة يقولون : « ان الشجرة الملعونة في القرآن هم اليهود » . وقد اثبتت حوادث التاريخ قديماً وحديثاً أن اليهود مصدر الفتن وأصل الفساد .

(ونخوفهم فما يزيدهم - التخويف - إلا طغياناً كبيراً) . انفسر الله المشركين وخوفهم بشئ الأساليب ... ولكن لا حياة لمن تنادي ، بل زادهم الانذار والتخويف تمادياً في الغي والضلال ، لأنهم لا يتحركون إلا بوحى المصالح والمنافع ، أما الحجج الدامغة والأخلاق والقيم فكلام وأحلام .

فسجدوا إلا ابليس الآية ٦١ - ٦٥

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَاخْتَنِكُنْ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ أَذْهَبَ فَنَنْبِعُكَ

مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْرِزْ مَنْ اسْتَطَاعَتْ
مِنْهُمْ بَصُوتُكَ وَاجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَئِنْ
لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا *

اللغة :

لاحتكن أي لا تؤذوهم مأخوذ من تحريك الدابة إذا شد على حنكها الأسفل
بحبل يقودها به . وموفوراً تاماً . والاستفزاز الاستخفاف . واجلب من الجلبة
وهي الصباح .

الاعراب :

طيناً حال ، وقيل : تمييز . وأرأيتك الكاف حرف خطاب لا محل له من
الاعراب مثل الكاف في ذاك ، وجاءت لتأكيد تاء المخاطب ، ومعنى أرأيتك
عرفني . وهذا مفعول لأرأيتك . والذي نعت لهذا أو عطف بيان . وجزاء منصوب
على المصدر والعامل فيه جزاؤكم أو تجزون محذوفة . وبربك الباء زائدة اعراباً ،
وربك فاعل كفى ، ووكيلاً تمييز .

لمعنى :

(واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس قال أسجد لمن خلقت
طيناً) تقدم مع التفسير في الآية ٣٤ من البقرة ج ١ ص ٨٢ ، والآية ١١ من
الاعراف ج ٣ ص ٣٠٧ .

تقديم الأفضل على المفضول :

(قال أرايتك هذا الذي كرمّت عليّ) ابليس يحتجّ بصلف ووقاحة ، ويقول للعلي الأعلى : من هو هذا الذي فضّلته عليّ ؟. وبأي شيء جعلته أكرم وأكمل ؟. بل العكس هو الصحيح « انا خير منه خلقتني من نار » وخلقته من طين - ١٢ الأعراف .. برر الخبيث منطقاً بأمر أرسله إرسال المسلمات ، وهو أنه أفضل وأكمل ، وإذا كان ابليس أفضل فكيف يسجد للمفضول أي لمن هو دونه.. أليس معنى الأمر بالسجود لآدم ان المفضول مقدم عند الله على الأفضل ، وغير الأكمل على الأكمل ؟ .

وقد غالط ابليس في منطقته هذا لأنه ليس أفضل من آدم ، بل العكس هو الصحيح ، بل لا فضل له ولا فيه على الإطلاق ، وعليه فإن الله لم يقدم المفضول كما زعم ابليس .. وأي عقل يحجز على الله أن يقرب الأبعد ، ويبعد الأقرب ؟. وقد خفيت هذه الحقيقة على المعتزلة والأشاعرة ، حيث قالوا : يجوز تقديم المفضول على الأفضل (المواقف ج ٨ ص ٣٧٣) .

وقال الأشاعرة : ان العقل يحجز على الله أن يعاقب الطبع ، ويشيب العاصي لأنه لا يقيح منه شيء ، ولا يجب عليه شيء (المواقف ج ٨ ص ١٩٥) . أما الشيعة الامامية فقالوا : ان العقل لا يحجز على الله ان يعاقب المحسن ، ويججز عليه العفو عن المسيء ، تماماً كما يجوز لصاحب الحق أن يعفو عنه كلاً أو بعضاً . وقالوا أيضاً : لا يحجز العقل تقديم المفضول لأنه في رتبة ادنى ، والأفضل في رتبة أعلى بحسب الترتيب الطبيعي ، فجعل الأعلى أدنى ، والأدنى أعلى مخالف لمنطق العقل والطبيعة .

(لئن اخترتني الى يوم القيامة لاحتكن ذريته إلا قليلاً) . ابليس يهدد بالانتقام لنفسه من ذرية آدم لا لشيء إلا لأن الله كرمه عليه ، ينتقم منهم بأن يقودهم معه الى معصية الله ، كما تناد الدابة بمنكها إلا القليل منهم ، وهم من آمن واخلص.. ثم يطلب ابليس من الله أن يمهله ويمد في حياته ليغوي ويفسد ، فاستجاب الله لطلبه و (قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً) . لما هدد ابليس باغواء الآدميين هده الله ومن اتبعه من الغاوين ، وقال له : افعل

الجزء الخامس عشر

ما شئت ولتبعك في الضلالة والغواية من أراد ، فاني لا أكره أحداً على طاعة ولا معصية .. وأزود الجميع بالقدره والعقل والارادة ، وأبين لهم طريق الخير وطريق الشر ، أنهى عن هذا وأمر بذلك ، فمن امتثل وأطاع فان الجنة هي المأوى ، ومن تمرد وعصى فان جهنم مثنى للعاصين يُجزون فيها جزاء تاماً ، لا نقصان فيه عما يستحقون .

(واستغفر من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك) . استغفر استخف واستنفض ، والجلبة الصياح .. ولا جنود حقيقة لابليس ، بعضهم راكب ، وبعضهم راجل ، وانما هذا كناية عن المفسدين وأرباب الأهواء ، والخائنين والعملاء . وفي نهج البلاغة ، « احذروا ان يستغفركم الشيطان - بندانه وأن يجلب عليكم بخيله ورجله ، فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد وأغرق لكم بالزرع الشديد » . وقال الشيخ محمد عبده معلقاً على ذلك بقوله : « يستغفركم يستنفضكم لما يريد ، فان تباطأتم عليه اجلب عليكم بخيله ورجله ، والمراد بهم اعوان السوء » . وتقدم نظير ذلك في سورة الاعراف ، الآية ٨٤ وما بعدها ج ٣ ص ٣٠٨ . واجبتا هناك عن ثلاثة تساؤلات ، وهي : هل خاطب الله ابليس مباشرة او بالواسطة ؟ . وهل الغواية من الله أو من ابليس ؟ . ولماذا امهله الله وهو يعلم أن في امهاله فساداً وإفساداً ؟ . فراجع . (وشاركهم في الاموال والأولاد) . المشاركة في الأموال كناية عن كل مال يؤخذ من غير حق ، كالسلب والنهب والربا والغش وثمن الخيانة والعمالة ، أو ينفق في غير وجهه ، كالاسراف وفي الخمر والميسر والمظاهر الفارغة ، أما المشاركة في الأولاد فهي كناية عن الزنا وقتل الأولاد خوف فقر والنار ، وتربيتهم تربية فاسدة (وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) . ووعد الغرور هو لباس الباطل ثوب الحق ، والخطأ لباس الصواب ، مثل أن يوسوس الشيطان لمن يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويقول له : لا تخف من المعصية فان الله كريم وغفار .. وما زلت في مقتبل العمر ، وغداً تستغفر وتتوب .. وفي بعض الأخبار أن ابليس وسوس لعابد من بني اسرائيل أن يذنب ويتوب ليقوى على العبادة . (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً) . تقدم مع التفسير في سورة الحجر الآية ٤٢ .

يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ الْآيَةَ ٦٦ - ٦٩ :

رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا تَجَاكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا * أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَفِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا * أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُبْعِدَكُمُ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا *

اللفظ :

يُزْجِي يُجْرِي . قال تعالى : هـ والفلك التي تجري - ١٦٤ البقرة ، . وضل هنا بمعنى غاب وذهب . ويخفف بغيث ، والمراد انه تعالى قادر على ادخالهم في الأرض احياء بحيث يغرقون بها تماماً كما يغرقون في الماء . والحاصب من حصبه بالحجارة أي رماه بها . والقاصف الكاسر . والنتيج المطالب بالدم ونحوه .

الاعراب :

ربكم مبتدأ والذي خبر . والمراد بآياه الله جل وعلا ، ومحلّه النصب على الاستثناء المنقطع أي ذهب كل معبود إلا الله . والمصدر من أن يخفف مفعول آمنتم . وجانب مفعول يخفف . وتارة ظرف متعلق بباعدكم أي وقتاً غير الوقت الأول .

المعنى :

(ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله انه كان بكم رحيماً) . السفينة تجري على وجه البحر بالأسباب الطبيعية ، ما في ذلك ريب ، ولكن هذه الأسباب تنتهي اليه تعالى لأنه خالق الكون بما فيه ، ومن هنا صح أن يسند جريان السفينة اليه تعالى ، والحكمة في ذلك أن يكون الانسان دائماً على ذكر بأن الله هو الفاعل المتصرف في الكون ، وليس الطبيعة . أما الغرض من الفلك فهو تسهيل المواصلات (واذا مسكم الضر في البحر ضل - أي ذهب - من تدعون إلا إياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفوراً) . تقدم نظيره مع التفسير في سورة يونس ، الآية ٢٢ وما بعدها ج ٤ ص ١٤٧ .

(افأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً) . الناس كلهم في قبضته تعالى ايها كانوا ، حتى ولو تحصنوا في بروج مشيدة ، فان كانوا في البحر اهلكهم بالغرق ان شاء ، أو في البر خسف بهم الأرض أو أمطر عليهم حجارة من السماء ، وان كانوا في قلعة محصنة هدمها على رؤوسهم .. ولا يأمن العواقب إلا جهول .

(أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيفرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً) . ضمير فيه يعود الى البحر ، والقاصف من الريح هو الهواء الذي يكسر السفينة ويحطمها ، والمراد بالتبيع المطالب بالدم ونحوه ، والمعنى لنفرض انه لا وسيلة للهلاك إلا البحر ، فان الله سبحانه قادر على أن يعيدكم اليه ، ويفرقكم فيه بريح عاصفة قاصفة ، ولا أحد يتبعه ويطلبه بما يفعل بكم .

ويتلخص معنى الآيات أن الجاهل ان خاف دعا الله مضطراً ، وان أمن أعرض عنه مغترأ ، مع أن الله سبحانه قادر على نفعه وضره في شتى احواله ، أما المؤمن العاقل فيتعظ بالضراء والسراء معاً : يخافه في هذه ، ويرجو عونه في تلك .

كرمنا بني آدم الآية ٧٠ - ٧٢

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ

الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا * يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ
 أَنَسٍ بِأَمَامِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ يَمِينُهُ فَأُولَئِكَ يَفْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا
 يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ
 سَبِيلًا *

اللغة :

بامامهم أي بمن اتبعوه واثموا به . وفتيلاً أي لا يُنقصون شيئاً ، والفتيل
 ما كان في شق النواة ، والتفريق النقطة في ظهر النواة ، والقمطير القشرة عليها .
 والمراد بالأعمى أعمى البصيرة .

الأعراب :

يوم متعلق بفعل محذوف دل عليه قوله تعالى لا يظلمون اي لا يظلمون يوم
 ندعو كل اناس ، أو متعلق بأذكر محذوفة . وفتيلاً قائم مقام المفعول المطلق أي
 ظلماً مقدار فتيل . وسبيلاً تمييز مثل أقبح فعلاً .

بماذا كرم الله بني آدم ؟

وقبل أن نجيب عن هذا السؤال نبين معاني الفاظ الآية :

أ - (ولقد كرمنا بني آدم) . ان الله سبحانه كرم ابن آدم بما زوده به من
 مؤهلات تجعله محترماً مكرماً . وسندكر طرفاً من هذه المؤهلات بعد تفسير
 ألفاظ الآية .

ب - (وعلماهم في البر والبحر) . هذا الحمل بعض ما كرم الله به بني
 آدم ، ومن الواضح أن تيسير المواصلات من دعائم الحياة الانسانية .

ج - (ورزقناهم من الطيبات) . وكل ما يجلب للانسان نفعاً بجهة من الجهات ، أو يدفع عنه ضرراً كذلك فهو طيب وخير وحسن ، مادياً كان أو معنوياً .

د - (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) . قال كثير من المفسرين : ان المراد بكثير في الآية الجميع ، ورتبوا على ذلك تفضيل الانسان على الملائكة ، واستغرقت هذه المسألة الصفحات الطوال من التفاسير ، مع العلم بأنه لا أثر عملي من اثارها وتحقيقها إلا تكثير الكلام .

والصحيح أن الآية بعيدة كل البعد عن التفضيل بين الملائكة والانسان ، وان المراد بكلمة (كثير) المعنى الظاهر منها ، اذ لا موجب لتأويلها والتصرف بدلالاتها . بل العلم يحتم بقاءها على ظاهرها لأن الكشف العلمية قد أبطلت النظرية القائلة : ان الأرض هي مركز الكون ، والانسان هو سيد الكون بكامله ، وأكدت هذه الكشف ضالة الانسان بالنسبة الى الكون من حيث الضخامة وكثير غيرها من الصفات ، وهذه الكشف يقرأها ويعترف بها القرآن ، فلقد جاء في الآية ٥٧ من غافر قوله تعالى : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون » بأن هذا الكوكب الأرضي الذي يعيشون عليه إن هو إلا واحد من ملايين ملايين الكواكب التي لا يعرف العلم الحديث عددها على الرغم من انه اكتشف ابعاداً لا نهاية لها .. هذا ، اني أن كثيراً من العلماء يقولون : ان هناك كواكب تسكنها كائنات عاقلة ربما أعقل وأرقى من الانسان ..

وبالتالي فان الانسان سيد كريم ، ما في ذلك ريب ، ولكنه ليس سيد المخلوقات كلها ، بل واحداً من السادات .. ولا شيء أدل على ذلك من جهل الانسان بأكثر الكائنات علاوة عن ضعفه وعجزه عن التصرف فيها ، بل هو جاهل بأكثر الكائنات الأرضية زيادة على جهله بالكائنات العلوية التي تتكون من بلايين المجرات .. وبدية أن أول شرط للسيد قدرته على التصرف في المسود .. وبعد أن شرحنا ألفاظ الآية الكريمة نشير فيها يلي الى طرف من الخصائص التي كرم الله بها بني آدم :

١ - خلق الله سبحانه الانسان ، فأحسن خلقه وصورته ، قال تعالى :

سورة الإسراء

« وصوّركم فأحسنُ صورَكم - ٦٤ غافر ، . وقال : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم - ٤ التين » .

٢ - العقل ، ولولاه لم يكن الانسان شيئاً مذكوراً ، بل لولا العقل ما عرف الخالق .. فيه نعرف عظمة الله ، وعظمة الكون ، وعظمة العقل ايضاً .. قال أحد العقلاء : « اذا كان في الكون نجوم تلمع فان في العقل نجوم تلمع وتبهر ، واذا كانت الأكوان المحيطة بنا اجساماً مشتعلة مترابطة بقوانين دقيقة فان العقل اعظم وأروع ، واذا كان علماء الفلك يرون في دقة الكون وعظمته دليلاً على عظمة الخالق فان تكوين الانسان اكبر دليل على عظمة الله ، واذا كان النظر الى السماء يجعل الانسان يشعر بضآلته فان تأمل الانسان في نفسه يجعله يشعر بعبقريته ، وبعظمة الذي خلقه : وخلق الأكوان كلها » .

فالكون عظيم ، والعقل عظيم .. والكل لا شيء أمام عظمة الحقيقة الكبرى .. والطريق الوحيد لمعرفة هذه العظمة ، عظمة الله والكون والانسان هو العقل .. (ولا تنس أن العقل ليس وقفاً على الانسان وحده) .

٣ - الانسان مستودع حافل بالغرائز والاسرار : علم وجهل . دين وكفر . حب وبغض . حلم وغضب . خوف وجراءة . بخل وكرم . تواضع وعظمة . أمانة وخيانة . ثبات وتقلب .. الى ما لا نهاية .. ولست أدري هل بالغ من قال : « ليس الانسان كائناً واحداً ، وانما هو ملايين الكائنات العاقلة والمجنونة ، والمتحضرة والمتوحشة » .

٤ - يتطلع الانسان باستمرار الى حياة افضل ، حتى ولو كان في حياة فاضلة ، وفي الحديث : « لو كان للانسان جبل من ذهب وجبل من فضة لتمنى لها ثالثاً » . واذا كان هذا مثلاً لطمع الانسان فانه يصلح ايضاً مثلاً لطموحه الى أعلى .

٥ - للانسان شريعة وقيم ، عليه أن يخضع لها ، ويعمل بها ، وعلى أساسها يسأل ومحاسب ، ويكون شريفاً أو رضيعاً .

٦ - يتأثر الانسان بمن مضى ، ويؤثر فيمن يأتي ، ويتفاعل مع أهل عصره ، يؤثر بهم ، ويتأثرون به .. ومن هنا كان له تاريخ وتراث وآثار ، دون كثير من الكائنات .

٧ - للانسان حياة اخرى هي ساحة الحكم والجزاء على ما قدمه في حياته الأولى .. الى غير ذلك من النعم التي أشار اليها سبحانه بقوله : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها -- ٣٤ ابراهيم » .

(يوم ندعو كل انسان بأمامهم فن اوتي كتابه بيمينه فاولئك يقرأون كتابهم).
الامام من يؤتم به ، ويؤتمر بأمره وحياً كان أو انسان أو عقلاً أو هوى ، وفي الحديث : « يدعى الناس يوم القيامة بأمام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبئهم » .
والمراد بالكتاب في الآية كتاب الأعمال ، وأصحاب اليمين هم أهل الطاعات والحسنات ، وأصحاب الشمال هم أهل المعاصي والسيئات ، والمعنى أن المنادي ينادي يوم القيامة : اين اتباع الانبياء والمصلحين ؟ أين العاملون بروحي العقل والدين ؟ . فيأتون ويأخذون كتاب الحسنات وثوابها بأيامهم فرحين متبشرين ، ينادي المنادي وايضاً : أين اتباع الظلمة الطغاة وأعوانهم ؟ أين الخائثون والمفسدون ؟ . فيأتون ويأخذون كتاب السيئات وعقابها بشمالهم اذلاء خاسئين (ولا يظلمون فتيلاً) . الفتل تعبير عن الشيء الحقير التافه ، والمعنى أن الله يجزي كلاً بعمله ، لا ينقص من ثواب من أحسن ، ولا يزيد في عقاب من أساء.

(ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً) هذه اشارة الى الدنيا ، والأعمى فيها عند الله سبحانه هو الذي يتخبط في الجهالة والضلالة ، وأبلغ وصف له ما قاله الامام علي (ع) : « جائر عن القصد مشغوف بكلام بدعة ، ودعاء ضلالة ، فهو فتنة لمن افتتن به ، وضال عن هدى من كان قبله ، مضل لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته » . ويتلخص معنى الآية بأن من ساء عمله في هذه الحياة ساء مصيره في الآخرة . وتدل هذه الآية دلالة واضحة على أن كل ثواب أو عقاب في الآخرة يرتبط ارتباطاً كلياً ووثيقاً بالعمل في الحياة الدنيا ، ومن هنا قيل : الدنيا مزرعة الآخرة ، وكفى دليلاً على ذلك قول الرسول الأعظم : « يحشر الناس على نبأهم » . انظر تفسير الآية ١٤٢ من آل عمران ج ٢ ص ١٦٥ .

وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَ مِنْهُ وَإِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ
وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خِيَلًا * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ
شَيْئًا قَلِيلًا * إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ
لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا * وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ
مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ
مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا *

اللفظة :

كادوا قربوا . ليفتنوك ليصرفونك . لتفترى لتخدع . لا يلبثون لا يبقون .
وتحويلاً تبديلاً .

الاعراب :

ان مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف أي انه ، وجملة كادوا
خبر ان ، وجملة يفتنونك خبر كاد ، واللام في ليفتنوك هي اللام الفارقة بين
ان المخففة وان النافية . واذأ حرف جواب وجزاء . واللام في لا تأخذوك واقعة
في جواب قسم محذوف أي والله اذا لا تأخذوك . والمصدر من أن ثبتناك مبتدأ
وخبره محذوف أي لولا تثبيتنا اياك كائن أو حاصل . وجواب لولا لقد كدت .
وشئاً مفعول مطلق أي شيئاً من الركون . ولأذقناك متضمن معنى لعذبناك ،
وضعف مفعول مطلق لأنه مضاف الى كلمة عذاب محذوفة ، أي لعذبناك ضعف
عذاب الحياة ، وضعف عذاب المات . وليخرجوك منصوب بأن بعد اللام ، ولم

ينصب لا يلبثون بالعطف على ليخرجوك لوجود اذاً . وخلافك ظرف منصوب بلا يلبثون لأنها بمعنى بعدك أو بعد إخراجك . وقليلاً صفة لمحدوف أي إلا زمناً قليلاً . وستة مفعول مطلق لفعل محذوف أي سن الله سنة .

المعنى :

(وان كادوا ليفتنونك عن الذي اوحينا اليك لتفري علينا غيره اذاً لا تخذوك خليلاً) . ضمير كادوا ويفتنونك يعود الى المشركين ، فلقد حاولوا أن يساموا رسول الله (ص) في أن يستجيبوا له ، ويتخذوه ولياً وصديقاً لبعض ما يريدون ... من ذلك أن يتمسح بأهنتهم ، كما في بعض الروايات ، أو يترك التنديد بها - على الأقل - ولكن النبي لم يستجب لطلب المشركين لأنه معصوم، والمعصوم لا يسام على دينه ورسالته .

وتسأل : ان قوله تعالى : (كادوا ليفتنونك) يدل على انه هم واوشك أن يستجيب لمساومتهم ؟ .

الجواب : ان هذه الآية تتصل اتصالاً وثيقاً بالآية التي تليها بلا فاصل ، وهي قوله تعالى : (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً) ولولا حرف امتناع تدخل على جملتين ، وتربط امتناع الجملة الثانية بوجود الأولى ، والجملة الممتعة هي لقد كدت ، والجملة المانعة هي ثبتناك أي عصمتك ، وعليه يكون المعنى انك يا محمد لولا عنايتنا بك بالعصمة عن الذنب لأوشكت أن تركن الى المشركين ، وتستجيب لهم ، فالعصمة هي التي منعتك عن الاستجابة .. وهذا تماماً كقول القائل : لولا فلان هلكت . وتقدم نظيره في ج ٤ ص ٣٠٣ عند تفسير الآية ٢٤ من سورة يوسف : « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » .. هذا الى ان التفكير بالفعل شيء ، ومباشرته شيء آخر ، وقد تواتر عن النبي انه قال : « وضع عن امتي ما حدثت به نفسها ما لم تفعل أو تتكلم » أي ان مجرد حديث النفس لا اثر له ، وفي رواية ان المشركين حين عرضوا على النبي ما عرضوا سكت عن جوابهم .

(اذاً لا ذقتك ضعف الحياة وضعف المات) . ضعف الشيء ما زاد عليه

بمقداره ، والمعنى لو ركنتم الى المشركين يا محمد لعذبتك بمثل عذاب غيرك في الدنيا والآخرة لو فعل ذلك ، لأن عقوبة العطاء تكون على مقدار عظمتهم ومكانتهم ... هذا مجرد فرض ، وفرض المحال ليس بمحال (ثم لا تجد لك علينا نصيراً) يدفع عنك العذاب . وفي نهج البلاغة : « يؤتى يوم القيامة بالامام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر ، فيلقى في جهنم ، يدور فيها كما تدور الرحى ، ثم يربط في قعرها » .

(وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها واذ لا يلبثون خلافاً إلا قليلاً) . لما عجز المشركون عن استدراج النبي (ص) الى المساومة حاولوا أن يستخفوه ويزعجوه بكل وسيلة لكي يخرج من مكة ، ولو اخرجوه لأهلكهم الله بعد خروجه بزمان قليل .

وتسأل : من المعلوم ان المشركين اتفقوا على قتل النبي حتى اضطر الى الخروج من مكة خائفاً يترقب ... ذكرنا ذلك في ج ٣ ص ٤٧٢ .

الجواب : المراد ان المشركين لو اخرجوا النبي عنوة وقسراً بحيث يصبح شريداً طريداً لا يلدي أين يتجه لعجل الله في هلاكهم .. ولكن النبي حين خرج من مكة انما خرج منها بأمر الله الى قوم يفدونه بالأنفس والمال والعيال . (سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لستنا تحويلاً) . لقد سبق في حكم الله وقضائه ان أي قوم يُخرجون نبيهم من دياره قسراً وعنوة أن يعجل في هلاكهم ... وهذي هي سنته في خلقه لا تتغير ولا تتبدل ، بل تطرد في كل زمان ومكان .

أقم الصلاة لدلوك الشمس الآية ٧٨ - ٨١

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً * وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي

مُخْرِجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلَ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا * وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ
وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا *

اللغة :

لدوك الشمس زوالها . وغسق الليل ظلمته . وقرآن الفجر صلاة الصبح .
والهجوم النوم ، والتهجد ترك النوم والسهر للصلاة لأن صيغة التفعّل تأتي للترك
مثل التأم ترك الأثم . والنافلة الزيادة . والزهوق المضمحل .

الاعراب :

اللام في لدلوك لام التعليل أي بسبب زوال الشمس . أو بمعنى عند مثل كتبه الخمس
خلون منه .

وقرآن الفجر معطوف على اقم الصلاة أي واقم قرآن الفجر . وتهجد به نافلة
الضمير في به ، يعود إلى القرآن ، ويجوز أن تكون تهجد بمعنى صل ، وعليه تكون
نافلة مفعولاً به ، ويجوز أن تكون بمعنى تنفل ، وعليه تكون نافلة مفعولاً
مطلقاً ، ويجوز أن تكون نافلة حالاً بمعنى « متنفلاً » . وعسى نامة ، والمصدر
من أن يبعثك فاعل عسى . ومقاماً حال على حذف مضاف أي ذا مقام ، وقال
صاحب البحر المحيط : « الظاهر أنه معمول ليعثك لأنه مصدر من غير لفظ
الفعل لأن يبعثك بمعنى يقيمك » . ومدخل مصدر بمعنى الإدخال ، وكذا مخرج
بمعنى الإخراج ، وكل منها مفعول مطلق .

المعنى :

الآية الأولى والثانية هما من آيات الأحكام ، حيث نزلتا لبيان أوقات الصلاة ،
وللفقهاء في ذلك أقوال تشير إلى مجملها فيما يلي :

سورة الإسراء

- ١ - (أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل) . اللام للتعليل أي بسبب دلوك الشمس ، او بمعنى عند ، مثل كنيته لخمس خلون من شهر كذا . واختلفوا في المراد من الدلوك ، قيل : هو غروب الشمس ، وقيل : بل زوالها عن كبد السماء ، وهو قول الأكثر ، أما غسق الليل فهو سواده وظلمته ، وعن الامام جعفر الصادق (ع) انه انتصاف الليل ، وفي تفاسير السنة والشيعة ان هذه الآية تشمل الصلوات الخمس : الظهر والعصر ، ويدخلان في دلوك الشمس ، والمغرب والعشاء ، ويدخلان في غسق الليل ، اما صلاة الصبح فهي قرآن الفجر كما يأتي . قال الطبرسي - من الشيعة - في مجمع البيان : « هذه الآية جامعة للصلوات الخمس فصلانا لدلوك الشمس هما الظهر والعصر ، وفصلانا غسق الليل هما المغرب والعشاء الآخرة ، والمراد بقرآن الفجر ، صلاة الفجر فهذه خمس صلوات » . وقال الرازي - من السنة - « اقم الصلاة أي أدمها من وقت زوال الشمس الى غسق الليل ، فتدخل الظهر والعصر والمغرب والعشاء - ثم قال - اجمعوا على ان المراد من قرآن الفجر صلاة الصبح » . وتجدر الإشارة الى أن الفقهاء يبدؤون في كتبهم بالكلام عن صلاة الظهر تبعاً لقوله تعالى : « اقم الصلاة لدلوك الشمس » حيث بدأ سبحانه بوقتها .. بالإضافة الى ما جاء في الروايات من ان الظهر اول ما فرض من الصلاة في الاسلام ثم غيرها على الترتيب ، وكان ذلك بمكة ليلة الاسراء قبل الهجرة بسنة . واتفقت المذاهب الاسلامية على ان الصلاة لا تجوز قبل دخول وقتها ، وعلى ان الشمس اذا زالت دخل وقت الظهر ، ولكن اصحاب المذاهب اختلفوا في مقدار هذا الوقت ، والى متى يمتد ؟ .
- قال الامامية : تختص صلاة الظهر من عقب الزوال بمقدار ادائها ، وتختص صلاة العصر من آخر النهار بمقدار ادائها ، وما بين الأول والآخر مشترك بين الصلاتين . وظاهر الآية معهم لأن الله قال : « لدلوك الشمس الى غسق الليل » ولم يفصل كما في المذاهب الاخرى .
- وقال غيرهم : يبتدىء وقت الظهر من الزوال الى أن يصير ظل كل شيء مثله ، فاذا زاد عن ذلك ذهب وقت الظهر : ودخل وقت العصر .. والتفصيل في كتابنا : الفقه على المذاهب الخمسة .
- ٢ - (وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهوداً) . اتفقوا على أن المراد

بقرآن الفجر ما يقرأ في صلاة الفجر أي الصبح ، وايضاً انفقوا على أن وقتها يتبدى من طلوع الفجر الصادق الى طلوع الشمس إلا المالكية فأنهم قالوا : للصبح وقتان : اختياري ، وهو من طلوع الفجر الى توارف الوجوه ، واضطراري ، وهو من توارف الوجوه الى طلوع الشمس .. ومن الطريف قول بعض الصوفية : ان المراد بالفجر انفجار القلب .

واجمع المفسرون بشهادة الطبرسي والرازي على أن المراد بقوله تعالى : (مشهوداً) ان ملائكة الليل والنهار يجتمعون ليشهدوا صلاة الصبح استناداً الى رواية رواها البخاري عن ابي هريرة في ج ٦ ، فصل سورة بني اسرائيل .. ونحن في شك من هذه الرواية ، ونفسر (مشهوداً) بحضور الحواس لأن الانسان عند الصباح يكون حاضر الحواس بعد أن أخذت قسطاً من الراحة بالنوم ، وبقيت امداً بلا عمل ، ولذا قيل : ما انقضى النوم لغزائم اليوم.

٣ - (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) . تهجد اسهر ، والخطاب خاص بمحمد (ص) وحده ، وضمير به للقرآن ، والنافلة الزيادة ، ولك اللام للاختصاص ، والمعنى أن الله قد فرض عليك يا محمد صلاة اخرى تصليها في الليل زيادة على الصلوات الخمس المفروضة عليك وعلى غيرك . قال تعالى : « يا ايها المزمل قم الليل إلا قليلاً » - أول المزمل . وقال : « ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً » - ٢٦ الدهر .. وتسمى هذه الصلاة صلاة الليل ، ووقتها من نصف الليل الى الفجر ، وهي واجبة على النبي (ص) كما قلنا ، ومستحبة لغيره . (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) . عسى تدل على الرجاء في كلام المخلوق ، وعلى الوجوب والحتم في كلام الخالق ، والخطاب في يبعثك لمحمد (ص) .. ولا شيء فوق محمد ، ومقام محمد ، وآل محمد إلا السذي ليس كمثل شيء : وفي بعض الأحاديث ان النبي (ص) فسر المقام المحمود في هذه الآية بالمقام الذي يشفع فيه غداً لأمة .

(وقل رب ادخلي مدخل صدق واخرجني مخرج صدق) . امر الله نبيه الكريم أن يدعو بهذا الدعاء .. وصدق المدخل والمخرج كناية عن الحق والاخلاص في العقيدة والقصد والأفعال وجميع الحركات والسكنات ، وما من شك أن من تسلك بالحق ، واخلص لله وحده ثبته الله بالقول الثابت ، وامده بالحجة الدامغة ،

سورة الإسراء

ويمكن له في القلوب البريئة الطاهرة (واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً) وأي نصر وسلطان اعظم من ذكر النبي العظيم مقروناً باسم الله خمس مرات في الاذان وفي كل صلاة واجبة ومستحبة ؟ . واية قوة وقداسة اعظم من هذه القوة والقداسة التي منحها الله لكلام محمد ، حيث قال عز من قائل : وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا - ٧ الحشر .

(وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً) . الحق هو رسالة محمد عقيدة وشريعة ، وكل ما عداها باطل وهباء في الواقع وعند الله ، حتى ولو آمن به اهل الأرض جميعاً . وقال المفسرون : المراد بالحق هنا الاسلام ، وبالباطل الشرك ، وان النبي (ص) لما فتح مكة دخل الكعبة ، وكان فيها ٣٦٠ صنماً ، فجعل يطعنها ويقول : جاء الحق ، وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقاً .

قوة الحق وقوة الباطل

وتسأل : ان ما نراه ونشاهده في احيان كثيرة أن اهل الباطل هم الغالبون ، واهل الحق مغلوبون ، ويتنافى هذا مع ظاهر قوله تعالى : « ان الباطل كان زهوقاً » ؟ .

الجواب : ان للحق قوة ذاتية لا تنفك عنه بحال ، وهي تفعل فعلها ، وتؤثر أثرها في القلوب النقية الزاكية .. وكثيراً ما يبلغ هذا الأثر من النفوس الطيبة حدّاً لا تقوى على مقاومته سيوف الجلادين ، ومشائق الطغاة الجائرين .. وقد حدثنا التاريخ عن شهداء العقيدة : كيف اقدموا على الاستشهاد بوجوه باسمة ، ونفوس راضية ، بل حصل ذلك في عصرنا بفيتنام وكوريا وفلسطين وغيرها ، اجل ان هؤلاء قليلون شأن كل كريم وثمين ، ولو كانوا الأكثر عدداً أو كثيرين - نسبياً - لامتلات الأرض قسماً وعدلاً ، وما كان للظلم والجور فيها عين ولا اثر ، ولسنا نشك ان الانسانية تسير في هذا الطريق وان طال ، مادام الصراع قائماً بين المحقين والمعتدين .

أما الباطل فلا حول له ولا طول ، وانما يستمد قوته وبقائه من الرشوات

الجزء الخامس عشر

وشراء الذم ، ومن الظلم والطغيان بالتقتيل والتشريد ، ومن المؤامرات والدسائس ، وهذه تزول مع الأيام ، وتبديل مع الظروف ، أما قوة الحق فهي هي في شئ الأحوال لأنها تستمد من ذات الحق ، من طبيعته وهويته .. ومن أجل هذا نقول مرة ثانية : أنا نؤمن إيماناً لا يشوبه ريب بأن العقبي والكلمة العليا للحق وحده .

القرآن شفاء ورحمة الآية ٨٢ - ٨٥

وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ
إِلَّا خَسَارًا*وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ
كَانَ يُوَسْوِسُ* قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى
سَبِيلًا* وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ
مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا *

اللمعة :

نأى بَعُدَ ، وجانب الانسان احد شقيه اليمن أو اليسار ، ونأى بجانبه كناية
عن استكباره وتعاضله . وشاكلة الانسان طريفته ومذهبه ، ولكن المراد بها هنا
النية ، ويأتي البيان .

المعنى :

(ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) . القرآن رحمة لمن طلب

الرحمة ، وارادها لنفسه ، وشفاء من الكفر والاحاد ، ومن الجهل والفساد ، ومن كل رذيلة لمن اخلص لله والحق. قال الامام علي (ع) في وصف القرآن : « انه الحبل المتين ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، والري الناقص ، والعصمة للمتمسك ، والنجاة للمتعلق » . ومن خالف حكماً من احكام القرآن فما هو منه في شيء بل هو من الظالمين الخاسرين (ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) . القرآن رحمة للمؤمنين ، ونقمة على الظالمين والمفسدين لأنهم كلما عصوا حكماً من احكامه ازدادوا اثماً وعذاباً .

(واذا انعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر كان يؤسفاً) . ويتلخص معنى هذه الآية بقول الامام علي (ع) في وصف الانسان : « ان استغنى بطر وفئت ، وان افتقر قنط ووهن » . وتقدم نظيره في سورة يونس الآية ١٢ ج ٤ ص ١٣٩ والآية ٩ من هود ج ٤ ص ٢١٢ .

(قل كل يعمل على شاكلته فربكم اعلم بمن هو اهدى سبيلاً) . قال المفسرون : « الشاكلة الطريقة والمذهب ، ومعنى الآية أن كلاً من المؤمن والكافر يعمل على طريقته وخليقته » . أما نحن فنشرح الآية - كما فهمناها - بما يلي :

١ - ان كلمة كل تدل على استغراق الأفراد ، فأية قضية تعلق الحكم فيها بكلمة « كل » فإنها تنحل الى قضايا بعدد ما شملت من الأفراد - مثلاً - اذا قلت : كل انسان يفهم هذا فكأنك قلت : زيد يفهمه وبكر وهند الخ . أما اذا قلت : جميع الناس يفهمونه فالقضية واحدة ، والحكم واحد تعلق بالمجموع ، لا بكل فرد فرد ، وعليه يكون المعنى أن لكل فرد من افراد الانسان شاكلة تخصه وحده تماماً كبصمة ابهامه .

٢ - روي عن جعفر الصادق (ع) انه فسر الشاكلة بالنية ، ويدل على صحة هذا التفسير قوله تعالى بلا فاصل : « فربكم أعلم بمن هو اهدى سبيلاً » أي ان الله اعلم بمن يبتغي الهداية ، ويسلك سبيلها مجرداً عن كل قصد إلا وجهه الكريم . وعليه يكون المعنى ان كل انسان يعمل على نيته ، وان الله سبحانه يعامله بحسبها ان خيراً فخيراً ، وان شراً فشراً ، فمن تظاهر بالخير ليخدع الناس ، ويبتغي بعمله مآرب شريرة فهو عند الله من المجرمين الأشرار ، ومن سرق رغيماً ليقيم

به الأود بعد ان انسدت عليه المسالك والمذاهب فهو عند الله بريء لا يستحق العذاب والعقاب .

الروح من أمر ربي

(ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا) للروح معان ، والمراد بها هنا الحياة ، وقد سئل النبي (ص) عن حقيقتها ، فأمره الله ان يقول للسائلين : ان الروح من الاشياء التي يوجدها الله بأمره ، وهو قوله للشيء « كن فيكون » . وبتعبير اوضح ان الاشياء على نوعين : النوع الاول يوجده الله عن طريق اسبابه الطبيعية كجسم الانسان وغيره من الماديات . النوع الثاني يوجده الله بمجرد الأمر ، وهو كلمة « كن » والروح من هذا النوع ، والآية صريحة في ذلك ، لان كلمة الامر في قوله تعالى : « قل الروح من امر ربي » اشارة الى الامر الذي في قوله : « انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون » - ٨٢ يس .

وقد اثبت التجارب هذه الحقيقة ، وآمن بها الذين تخصصوا وتفرغوا السنوات الطوال للبحث عن اصل الحياة ، آمنوا بهذه الحقيقة بعد ان تبين لهم ان السبب المباشر للحياة لا يمت الى المسادة بصلة ، ولو كان من نوع المسادة لاستطاعوا ان يصنعوا الحياة في مصانعهم ومختبراتهم وقد حاولوا فاخفقوا . (وما اوتيتم من العلم الا قليلا) أي مهما اخرجت مصانعكم من عجائب المخترعات فانها ليست بشيء اذا نسبت الى خلية من خلايا الذبابة فضلا عن الذبابة نفسها « يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب - ٧٢ الحج . وتكلمنا عن ذلك عند تفسير الآية ٩٥ من الانعام ج ٣ ص ٢٣٢ .

الله وعلم الخلايا

ونشاء الصدف ان اقرأ - وانا افسر هذه الآية - مقالا في مجلة روز اليوسف

سورة الإسراء

المصرية عدد ٧ نيسان «ابريل» ١٩٦٩ جاء فيه :

« يتألف جسم الانسان من بلايين الخلايا ، ولا تُرى الخلية لشدة صغرها الا بالميكروسكوب ، ومنذ اعوام قليلة كان محالاً ان ينشأ علم الخلايا لان العلماء لا يستطيعون ان يفتحوا الخلية ، او يحقنوها بمادة معينة ، لان هذه العملية تحتاج الى جراح ، له اصعب تبلغ من الدقة بمقدار جزء من ألف من المليمتر ، وايضاً تحتاج حقنة هذه الخلية الى ابرة تبلغ من الدقة بمقدار جزء من مليون من المليمتر .. واخيراً اهتدى العلماء الى فتح الخلية عن طريق الضوء تماماً كما فعل عندما نشعل سيجارة من ضوء الشمس بواسطة زجاجة تجمع الاشعة في نقطة صغيرة تحرق طرف السيجارة ، وهذه الطريقة وحدها امكن فتح الخلية ، وتبين للعلماء انها مجتمع مشحون بعشرات من المخلوقات المختلفة لكل مخلوق منها سمات خاصة ، وادوار يقوم بها وعلاقات تربطه بغيرها من سكان الخلية ، ويحتاج فهم هذه الادوار والعلاقات الى سنوات من البحث ، وربما الى اجيال .. وهكذا نشأ علم الخلايا ، واصبحتنا الآن نعرف ان الخلية لها اعضاء وجسيمات واغشية وخيوط وغير ذلك مما يحير العقول »

« وقد ظهر من خلال الأبحاث أن كرات الدم مجتمع من الخلايا السابحة يبلغ عددها عشرة اضعاف عدد البشر ، وهي تؤلف اجيالاً تتجدد كل اربعة اشهر ، ومع ذلك تحافظ الأجيال على العدد ذاته ، بحيث يكون عدد الجيل الآتي بمقدار عدد الجيل الذاهب لا يزيد ولا ينقص ، ولا يعاني مجتمع الخلايا ما تعانيه المجتمعات الانسانية من انفجار السكان .. وهنا العجب ، ولا عجب أن يتولد من خلايا النخاع العظمي أنواع من كرات الدم مختلفة متفاوتة شكلاً ونوعاً ووظيفة .. حمراء وبضياء .. مقاتلة ومسالمة .. فكيف تنشأ اجناس متعددة من جنس واحد ؟ . كيف يمكن أن تنجب الزرافة جيلاً بعضه ثعالب ، وبعضه أفيال ، وبعضه تماسيح ؟ . وباختصار شديد أصبحت الخلية الآن نجم البحث العلمي وطريقه الجديد ، وربما الوحيد لفهم اسرار الحياة » .

١ نظمت اوقاتى على هذا النحو : ساعة ونصف قبل الظهر لقراءة الصحف وشراء لوازم البيت ، وساعة ونصف من الليل لقراءة الجديد من البحوث العلمية والاجتماعية ، وما عدا ذلك للتأليف .

أرأيت الى هذا الاعجاز ؟ .. مخلوق بلغ من الصغر الى حد لا يرى إلا بمكبر يضاعف الحجم الف مرة أو أكثر ، ويستحيل فتحه وشقه إلا بمشرط ضوئي أي بأشعة الضوء لأن نسبة الشعرة اليه كنسبة القيل الى الذرة ، ومع ذلك لهذا المخلوق الذي لا تراه العين اعضاء وعروق وأغشية وغيرها تماماً كما للانسان.. ثم تؤلف افراد هذا المخلوق العجيب مجتمعاً يستوطن جسم الانسان ، وهي تعد بالبلايين ، وتعيش بمجموعها اربعة اشهر ، ثم يأتي بعدها مجتمع عدد افراده بمقدار عدد السابق ، لا تزيد واحداً ، ولا تنقص واحداً ، ثم غيره وغيره وهكذا دواليك .. فهل هذا صدفة ؟ .. وهل تتكرر الصدفة بلايين المرات ؟ .. وهل جاءت الأعضاء والخيوط والأغشية منظمة منسقة صدفة ؟ .. وهل عدم زيادة العدد ونقصانه صدفة ؟ .. وهل تولدت الأشياء المتباينة من شيء واحد صدفة ؟ .. كل هذه الأسئلة وغيرها كثير تطلب اجوبتها .

أبدأ ، لا جواب .. لا تفسر إلا بوجود عليم قدبر خلق الكون والحياة بكلمة « كن فيكون » .. وبعد ، فكلمة خطأ العلم خطوة الى الأمام تنابت الدلائل ، وتضافرت الشواهد على وجود من له الخلق والأمر .. تبارك الله رب العالمين الذي قال : وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً .

لئن شئنا لنذهبن الآية ٨٦ - ٨٩

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا * إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا * قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا *

اللغة :

الظهير المعين . والمراد بصرفنا هنا بيننا أو كررنا . والكفور الجحود .

الاعراب :

لئن اللام للقسم وان شرطية . وإلا رحمة (رحمة) مفعول مطلق لفعل محذوف
أي إلا أن يرحمك الله وقيل : مستثنى منقطع . ولا يأتون مرفوع لأنه جواب
القسم وساد أيضاً مسد جواب الشرط في « لئن » .

المعنى :

(ولئن شئنا لنذهبن بالذي اوحينا اليك) . قال الرازي : لما بسين تعالى في
الآية السابقة انه ما آتاهم من العلم إلا قليلاً بين هنا انه لو شاء ان يأخذ منهم
هذا القليل لقدرة عليه ، وذلك بأن يمحو حفظه من القلوب ، وكتابته من الكتب
(ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً) تعتمد عليه في رد ما اخذناه منك (إلا رحمة
من ربك) فهو وحده القادر على رد ما يأخذ منك وارجاعه اليك (ان فضله
كان عليك كبيراً) يا محمد بما اعطاك من العلم والسيادة على الناس اجمعين .

(قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون
بعثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) . تكلمنا عن ذلك مفصلاً في ج ١
ص ٦٦ عند تفسير الآية ٢٣ من البقرة .

(ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) فيما يعود الى العقيدة
والشريعة والاخلاق ، واقنا البراهين القاطعة ، والأدلة الواضحة (فأى أكثر
الناس إلا كفوراً) ونفوراً من الحق لأنه مرّ وثقيل لا يصبر عليه إلا المتقون .

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجَرَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ
تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا *
أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زُغَمَتْ عَلَيْنَا مِثْلَ آبٍ أَوْ تَأْتِيَنَا بِالسَّمَاءِ مَلَكًا
فَقِيلَ * أَوْ يَكُونُ لَكَ يَمِينٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَعُ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ
نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا يَقْرُوهُ قُلُوبُ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ
كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ
الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا * قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ
مَلَائِكَةٌ يَنْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا *
قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا *

اللغة :

الينبوع عين الماء . وكسفا بكسر الكاف جمع كسفة ، وهي القطعة من
الشيء . والقبيل المقابل أي تأتي بهم مقابلين لنا وجهاً لوجه . والزخرف الذهب
أو الزينة . وترقى تصعد .

الاعراب :

حتى هنا بمعنى إلا ، وتفجر منصوب بأن مضمرة بعدها . أو تكون عطف
على تفجر . وكسفا حال من السماء . وقبيلًا حال من الملائكة . والمصدر من

سورة الإسراء

أن يؤمنوا بحرور بمن محذوفة . والمصدر من أن قالوا فاعل منع . ومطمئنين حال من الملائكة . ومفعول كفى محذوف ، وبالله الباء زائدة اعراباً وشهداً تمييز . والتقدير كفاك الله من شهيد .

حب الذات

كلنا نحب أنفسنا وذواتنا رجالاً ونساء ، شيوخاً واطفالاً ، اتقياء واشقياء .. وأي انسان لا يحرص على حياته ، ويدافع عن وجوده وكيانه ؟ . ولولا هذا الحب لما استمر وجود الحياة ، ولا نمت وتقدمت .. ابدأ لا فرق في حب الذات بين انسان وانسان ، وانما الفرق في نوع هذا الحب :

فنه القائم على اساس القطرة والعقل والوجدان .. ويستدل على وجود هذا الحب المذهب بتخلف الانسان عن حق غيره ، وقناعته بما كُتب له من كد اليمين وعرق الجبين ، وبالتعاون مع كل من يأمل فيه الخير والنفع للناس بجهة من الجهات ، بل وبالايثار وبالتضحية ايضاً لأن من يعطي ويضحى لوجه الله والحق فقد احب نفسه ، وعمل لها من حيث يريد أو لا يريد ، لأن الله لا يضيع اجر من احسن عملاً ، وكذلك المجتمع فانه يمجّد ويعظم من يضحى من اجله . ومن حب الذات ما يطنى على العقل والدين والوجدان .. ويستدل على هذا الحب المنفوس بالطمع والجشع الذي لا يري صاحبه هماً غير همه ، ولا نفعاً غير نفعه ونفع ذويه ، وهذا لا يجدي معه أي منطق حتى الحس والمشاهدة والعيان ، تماماً كما قال تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم اذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بلى هم اضل اولئك هم الغافلون - ١٧٨ .. الاعراف » وهؤلاء موجودون في كل زمان ومكان ، ومنهم الذين اشار اليهم بقوله : ١ - (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً) . اقترح المترفون من المشركين على رسول الله ان يفجر لهم لا لغيرهم - لنا - انهاراً أو عيوناً ليزدادوا مكاسباً وأرباحاً وتحكماً بالمعوزين والمستضعفين ، فقد روي أن عتاة قريش ومترفها قالوا : يا محمد ان ارض مكة ضيقة فأزح جبالها ، وفجر لنا عيوناً لننتفع بالأرض .

٢ - (أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها - أي بينها - تفجيراً) . وإذا لم تفجر الأرض لنا عيوناً ففجرها لك - على الأقل - كي تكون كفؤاً للمناصب الشريفة العالية ، أما ويدك فارغة من المال فعليك أن تسمع لأهل المال وتطيع .. وهكذا ذهب بهم التفكير المالي الى أن المال وحده هو الذي يجعل صاحبه كفؤاً لتولي القيادة والسيادة .. ولم يدركوا أن رسالة محمد (ص) هي ثروة الانسانية وحياتها وعظمتها ، وان محمداً رحمة مهداة الى أهل الأرض لينقذهم من الفقر والجهل ، والظلم والطغيان .. واننى لعبدة المال وصرعى المطامع أن يدركوا الرحمة والحق والخير ؟ .

٣ - (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالهالة والملائكة قبلاً) . اقترحوا عليه أن يفجر الأرض ينبوعاً لهم او له ، فان لم يكن هذا أو ذاك فليأتهم بالعذاب من السماء أو بالله والملائكة يشهدون له بالنبوة والرسالة .. وهذا ايضاً من وحي تفكيرهم في ان المنصب الشريف حق للاغنياء دون الفقراء ، والدليل على هذا التفكير أنهم علقوا ايمانهم بمحمد على امر يرونه محالاً .. ومن الواضح ان التعليق على المحال معناه الاصرار وعدم التنازل عن طلبهم لتفجير الأرض ينبوعاً ، تماماً كما لو قلت : لا افعل هذا حتى يلج الجمل في سم الخياط .

٤ - (او يكون لك بيت من زخرف) مبني من الذهب ، او مزين ومنقوش به .. وهذا ايضاً من التفكير المالي (او ترقى في السماء) وهو من التعليق على المحال ايضاً بزعمهم ، ومعناه الاصرار على ان المال هو المسبر الوحيد لتولي المنصب الشريف كما اشرنا .

(ولن تؤمن لرقيبك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه) . قال بعض المفسرين الجدد ، معلقاً على هذا بقوله : « وتبدو طفولة الادراك والتصور كما يبدو التعتن في هذه المقترحات الساذجة » . كلا ، ليست هذه بطفولة ، ولا هي بساذجة ، وانما هي من وحي الترف الفاسد ، والامتيازات الجائرة ، والسلب والنهب ، وعبادة المال ، ولا شيء ادل على ذلك من اقتراحهم وشرطهم لاتباع الرسول ان يكون له من بيت من ذهب .. معبودهم الاول ، ومثلهم الأعلى (قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولاً) يأتمر بأمر من ارسله ، ويتتهي بنهيه : « وما كان لرسول ان يأتي بآية الا باذن الله - ٣٨ الرعد » .

سورة الإسراء

(وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا ابعث الله : بشرا رسولا) . نظر المفسرون ، ومنهم الطبرسي والرازي ، نظروا الى هذه الآية على انها مستقلة عما تقدمها من الآيات ، وقالوا في تفسيرها : ان مشركي قريش لم يؤمنوا بمحمد (ص) لانهم كانوا يعتقدون بان الرسول يجب ان يكون من جنس الملائكة ، لا من جنس البشر .. وهذا تفسير بعيد عن الآية لوجوه :

« منها » : ان مشركي قريش كانوا يعتقدون بنبوة ابراهيم ، وبأنهم من نسله « ملة ابيكم ابراهيم - ٧٨ الحج » .

و « منها » ان قول المشركين لن تؤمن لك حتى تفجر الخ يدل انهم كانوا يؤمنون برسالة البشر ، ولكنهم يشترطون في النبي ان يكون من الاغنياء : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - ٣١ الزخرف » . ومرادهم بالرجل العظيم الوليد بن المغيرة من زعماء مكة ، او عروة بن مسعود من زعماء الطائف .

و « منها » : انه لو كان معنى الآية ما قاله المفسرون لكان المشركون معذورين في انكارهم نبوة محمد (ص) لانهم فعلوا ما يعتقدون ، مع ان الله سبحانه وصفهم في اكثر من آية بأنهم يبدون غير ما يخفون : « بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل - ٢٨ الانعام » « وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا - ١٤ النمل » .

ونخلص من هذا الى ان المعنى الصحيح لتفسير الآية ان المشركين لما قامت الحجة عليهم بنبوة محمد (ص) وعجزوا عن ردها لجأوا الى التضييل وتمويه على الجاهلاء والبسطاء شأن المبطل العاجز ، وقالوا في مكر وخداع : ان الله لا يبعث للناس رسولا من البشر ، بل من الملائكة ، قالوا هذا ، وهم يعلمون بأنهم لكاذبون ، ولذا قال سبحانه : (الا ان قالوا) ولم يقل الا ان ظنوا ونحسره اشعارا بان انكارهم انما هو مجرد عناد وقول من غير اعتقاد .

(قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئين - أي لو كانوا من اهل الارض يسعون فيها كالآدميين - لتزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) . لقد شاءت حكمته سبحانه وتعالى ان يبعث رسله الى خلقه من جنس المرسل اليهم ، فان كانوا بشرا فرسلهم منهم وإليهم ، وان كانوا ملائكة فكذلك ، لان الجنس الى الجنس اميل : « لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم - ١٦٤ آل عمران » . والمشركون يعرفون ذلك ، ولكنهم يمكرون ويخادعون . وتقدم

نظير هذه الآية في سورة الانعام الآية ٩ ج ٣ ص ١٦٤ .

وتسأل : ان جبريل ملك ، ومحمد بشر ، ومع هذا كان جبريل رسولا من الله الى محمد ؟

الجواب : ان بين الاثنين تجانسا وتشابها من حيث ان كلا منهما رسول من عند الله .. ولا تجانس بين الملك والامة من وجه .

(قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم انه كان بعباده خبيرا بصيرا) الله يشهد لمحمد بما اظهر على يده من خوارق العادات ، والتاريخ يشهد له بما اسداه للانسانية من الخبرات ، ورسالته تشهد بانه رحمة للعالمين .. وما جهة من سيرة محمد الا وهي حجة كافية بالدلالة على صدقه وعظمته .

ومن يهد الله الآية ٩٧ - ١٠٠

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَبِهِدِّ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ
وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمُقًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ
جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا
وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَافًا أَوْنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ
يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّوا * قُلْ لَوْ
أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ
الْإِنْسَانُ قَتُورًا *

اللغة :

الخبو السكون . والقتر التضيق .

الاعراب :

من يهد ومن يضل (من) اسم شرط لفظها خاص ومعناها عام ، والضمير في يهد ويضل يعود الى من على اللفظ ، وضمير لهم ونحشرهم يعود اليها على المعنى . ومن الأولى مفعول يهد ، ومن الثانية مفعول يضل . وعيا حال . والذي خلق السموات صفة لله . وقادر خبر . وانتم فاعل محذوف يفسره الفعل الموجود ، والأصل لو تملكون ، فحذف تملك وانفصل الضمير وهو الواو فصار انتم ، هذا ما قاله بعض المفسرين ، وليس بجيد لأن المعنى يكون على هذا لو تملكون . والأرجح ان يكون (انتم) اسما لكان ، ثم حذفت وانفصل الضمير ، والتقدير لو كنتم تملكون . واذا حرف جواب وجزاء . ومفعول امسكن محذوف أي لأمسكن الأموال . وخشية مفعول من أجله .

المعنى :

(ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن نجد لهم أولياء من دونه) . هذا تحديد للمهتدي الصالح بأنه من كان كذلك عند الله ، لا من يقول الناس عنه : انه من أهل الهداية والصلاح ، وكذا الضال ، وفي الحديث : الظاهر للناس ، والباطن لله ، وفي نهج البلاغة : « الفنى والفقر بعد العرض على الله » .. وليس لأهل الضلالة والفساد من ناصر ولا شفيع عند الله .. وتقدم نظيره في الآية ١٧٨ من الأعراف ج ٣ ص ٤٢٣ . أما عقاب الضالين المضلين فقد اشار اليه سبحانه بقوله : (ونحشرهم على وجوههم غيباً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً) . هذا كناية عن أليم العذاب وشدته على من انكر الحساب والعقاب ، حتى يعرف ما انكر : « ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به

تكذبون - ٢٠ السجدة هـ (ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا) بالرغم من وضوحها على وقوع البعث ، جحدوا وانكروه لا شيء إلا للمجرد الاستبعاد :
(وقالوا انذا كنا عظاما ورفانا أينا لمبعوثون خلقا جديدا) . تقدم بالحرف الواحد مع التفسير في الآية ٤٩ من هذه السورة .

(او لم يروا ان الله الذي خلق السموات والارض قادر على ان يخلق مثلهم وجعل لهم اجلا لا ريب فيه فابى الظالمون الا كفورا) . المراد بأجل هنا اجل البعث والنشر ، وانه كائن لا محالة ، وقد انكروه ، وهم يرون خلق السموات والارض ، ويعترفون بان الله هو الذي خلقها وأبدعها واتقنها بقدرته ، ولكنهم قالوا : لا يعيدها بعد الفناء لان ذلك صعب عسير .. فقال الله لهم : من قدر على ايجاد الشيء من لا شيء فهو على جمع اجزائه بعد تفرقها اقدر .. وتقدم هذا المعنى في العديد من الآيات ، انظر فقرة : الماديون والحياة بعد الموت ج ٤ ص ٣٧٩ .

وتعال معي لنقرأ هذا الاحتجاج المفحم ، والالزام الدامغ لشكري البعث باروع اسلوب .. ثم قل : ويل للمكذبين :
(قالوا انذا متنا وكنا ترابا وعظاما أينا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآبائنا هذا من قبل ان هذا إلا أساطير الاولين) .
(قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون) .
(سيقولون لله)

(قل افلا تذكرون)

(قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم) .

(سيقولون لله)

(قل افلا تتقون)

(قل من بيده ملكوت كل شيء . وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون) .
(سيقولون لله) .

(قل فأتى تسحرون ، أي تخدعون . - المؤمنون ٨٢ - ٨٩) .

وهذا شاهد عيان بأن عقيدة الاسلام تقوم على العلم ، وحرية العقل والرأي ..
انظر ج ٣ ص ١٦١ فقرة لا دكتاتورية في الأرض ولا في السماء .

(قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربي اذا لامسكنم خشية الانفاق) .
 رحمة الله من حيث هي تم الادراك والصحة والاموال وجميع النعم ، ولكن
 المراد بها هنا المال بالخصوص بدليل قوله تعالى ، «لامسكنم خشية الانفاق» اي
 التفاد .. ولهذا الآية ٩٠ ، وهي «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض
 ينبوعا» . وبيان الصلة ان الله سبحانه أمر نبيه ان يقول للمحترفين : طلبتم
 ان يزيد الله في اموالكم وثرائكم بتفجير الارض انهارا وعيونا ، وهو يعلم انكم
 لو ملكتم خزائن السموات والارض التي لا تفاد لها لبقيت على الشح والتقتير خوف
 التفاد .. وهذا يؤكد ما قلناه من ان المترفين لا يفكرون الا من خلال المال
 (وكان الانسان قتورا) من التقتير والتضييق . وعند تفسير الآية ٩ من هودج ٤
 ص ٢١٣ قلنا : ان القرآن لا يريد بمثل هذا الوصف التحديد لحقيقة الانسان
 وطبيعته التي تشمل جميع الافراد ، وانما يذكر هذا الوصف تفسيرا لسلوك الانسان
 في بعض مواقفه . فراجع .

آتينا موسى تسع آيات ١٠١-١٠٤

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَأَسَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ
 فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ
 مَا أَزْجِلُكَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ
 يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا * فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِيزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ
 مَعَهُ جَمِيعًا * وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا
 جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا *

اللفظة :

مسحورا اسم مفعول لفظاً وامم فاعل معنى اي ساحرا ، ويجوز ان يكون اسم مفعول لفظاً ومعنى أي أعطيت علم السحر . ومثبورا هالكا . وبصائر دلائل يبصر بها الناس . والمراد يستفهم من الارض يخرجهم منها . وجثنا بكم لفيها اي جمعا من اخلاط شتى ، او ملتفين كما تلتف اغصان الشجر وينضم بعضها الى بعض .

الاعراب :

اذ جاءهم (اذ) ظرف بمعنى حين متعلق بآتيانا . وهؤلاء اشارة الى الآيات التسع أي هذه الآيات . وبصائر حال من هؤلاء . والمصدر من ان يستفهم مفعول ارد . وجميعا ، ولفيها حال .

المعنى

(ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) . تقدم الكلام في العديد من الآيات عن موسى (ع) وقومه ومعجزاته ، وعن فرعون وملأه وطغيانه .. وقد تكون المناسبة هنا في الاشارة الى معجزات موسى ان الله سبحانه لما ذكر مقترحات المشركين على محمد (ص) عقب بالاشارة الى ما اقترحه فرعون على موسى ، وان مجيئها كان وبالاً عليه .. ونفس الشيء كان يحصل لو استجاب الله الى مقترحات المشركين على رسول الله (ص) لانهم يكفرون بها لو جاءهم ، تماماً كما كفر فرعون ، ويهلكون كما هلك .. فعدم الاستجابة - اذن - خير لهم واصلاح ، والله اعلم بما يصلح العباد ويفسدهم .

ولموسى (ص) آيات ومعجزات كثيرة ، منها ما كان لتيسير رسالته كحل العقدة من لسانه ، ومنها للإنعام والتفضيل على بني إسرائيل كإخراج الماء من الحجر ، وانزال المن والسلوى ، او تخويفهم كاظلال الجبل ، ومنها ليعتبر

سورة الإسراء

فرعون وقومه يؤمنوا ، او جزاءً على عنادهم وعتوهم ، وهي الآيات التسع المشار إليها في الآية ، واطهرها انقلاب العصا حية ، واليد البيضاء ، ثم اغراق الكافرين بالبحر ، أما الست الباقية فقد اشارت الى خمس منها هذه الآية : « فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم - ١٣٣ الاعراف ج ٣ ص ١٨٥ . السادسة الطمس على الاموال : « ربنا اطمس على اموالهم » الى قوله « قال قد اجيبت دعوتكما - ٨٨ يونس ج ٤ ص ١٨٦ .

(فاسأل بني اسرائيل) الخطاب لمحمد (ص) ، والمراد ببني اسرائيل من آمن به منهم كعبدالله بن سلام واصحابه ، والغرض من السؤال والجواب ان يظهر لليهود وغير اليهود صدق الرسول الكريم في كل ما جاء به من عند الله (اذ جاءهم) الضمير في جاء يعود الى موسى ، وضمير (هم) يعود الى بني اسرائيل لان الله ارسل موسى (ع) لامور ، منها ان يحرق بني اسرائيل من ظلم فرعون الذي كان يسومهم سوء العذاب .. وطلب موسى من فرعون ان يؤمن بالله ، ويرسل معه بني اسرائيل (فقال له فرعون اني لاظنك يا موسى مسحورا) اي ساحرا بدليل الآية ١٠٩ من الاعراف : « قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم » . قالوا هذا بعد أن شاهدوا العصا تتحول الى ثعبان مبین ، واليد السمراء الى بيضاء من غير سوء .

(قال لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر واني لاظنك يا فرعون مشورا) . هؤلاء اشارة الى الآيات التسع ، ومعنى بصائر دلائل تُبصَّرُك وتُعرف بصدقي ونبوتي .. لما قال فرعون لموسى : اظنك ساحرا أجابه موسى انت تعلم علم اليقين صحة الآيات والمعجزات التي اتيت بها ، وانها دلائل من الله واضحة ، وبراہین ظاهرة تُبصَّرُك انت وجميع الناس بانني رسول من عند الله ، ولكنك تعاند وتكابح حرصا على عرشك ومنصبك .. واذا ظننتني ساحرا يا فرعون فاني اظنك هالكا جزاء تكذيبك للحق الصريح ، ومن يمش يراً .. وكل من عاند الحق واستثقل ان يقال له فهو من حزب فرعون وعلى ملته . (فأراد ان يستفزهم من الارض) . الضمير المستتر في اراد يعود الى فرعون ، وضمير الجمع في يستفزهم يعود الى موسى وقومه ، والمعنى ان فرعون اراد ان يخلي ارض مصر من بني اسرائيل بالقتل والاسر والتشريد ، فدارت عليه دائرة

السوء كما تدور على كل طاغية (فاغرقناه ومن معه جميعاً) . أغرقهم الله بعد ان اعذر اليهم بحجج واضحة ، ودلائل ظاهرة ، فأبوا الا تماديا في الكفر والطغيان . (وقلنا من بعده - اي بعد فرعون - لبني اسرائيل اسكنوا الارض) . لقد اتسعت الارض لبني اسرائيل بعد ان اتسع لهم الامن بهلاك فرعون .. وخبرهم الله في ان يقيموا اين شاءوا من الارض .. وكان المفروض ان يشكروا الله على هذه النعمة .. ولكنهم طغوا وبغوا ، فعبدوا العجل من دون الله ، وقالوا : يد الله مغلولة ، وهو الفقير ، وهم الاغنياء ، وقتلوا الانبياء ، واكلوا السحت والربا ، وحرفوا التوراة ، وحاولوا قتل السيد المسيح (ع) ، ورموا امه بالفجور .. الى غير ذلك من المفاصد التي سجلها الله في التوراة والانجيل والقرآن ، وسجلها الناس في كتب التاريخ القديم والحديث .. وكفى بالصهيونية شاهداً على حقيقة هذه الفئة الباغية ؛ وانها شر ووبال على الانسانية كلها .

(فإذا جاء وعد الآخرة جثنا بكم لفيفاً) . الخطاب لبني اسرائيل ، والآخرة يوم القيامة ، ولفيفاً مجتمعين مختلفين ، والقصد هو الانذار والوعيد على ما سيكون من بني اسرائيل من اثاره الفتن والافساد في الأرض .. هذا هو الظاهر من لفظ الآية . ولو جاز تفسير القرآن بالرأي لقلنا : ان كلمة لفيف تشير في الآية الى تجمع اليهود والصهيانية في ارض فلسطين من هنا وهناك ، وان الله سبحانه سيسلط عليهم اولي بأس شديد يسوفوا وجوههم ، وكان وعداً مفعولاً .. والحق ما قلناه عند تفسير الآية ٤ وما بعدها من هذه السورة فراجع .

وبالحق انزلناه الآية ١٠٥ - ١١١

وَبَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبَالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا *
وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكُتٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا * قُلْ
آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ
يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ

رَبَّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا * قُلِ
ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا
تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * وَقُلِ الْحَمْدُ
لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ
لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا *

اللغة :

فرقناه أي ما انزلناه دفعة واحدة ، بل آية آية وسورة سورة ، ويدل على
ذلك قوله تعالى : « لتقرأه على الناس على مكث » أي تمهل وتأن . ويخرون
يسقطون ، والأذقان جمع ذقن .

الاعراب :

قرأنا مفعول لفعل محذوف أي وفرقناه قرأنا فرقناه ، وعليه تكون جملة فرقناه
مفسرة لا محل لها من الاعراب . وعلى مكث متعلق بمحذوف حال أي لتقرأه
على الناس متهملاً شيئاً بعد شيء . واللام في للأذقان بمعنى على . وسجداً مصدر
في موضع الحال ساجدين . وان كان (ان) مخففة ، واسمها ضمير الشأن
محذوف أي انه . وإيأماً مؤلفة من كلمتين أولاهما أي وهي مفعول تدعوا وتدعوا
محذوم بها ، و (ما) الزائدة اعراباً .

المعنى :

(وبالحق انزلناه وبالحق نزل) . للمفسرين اقوال في بيان الفرق بين هاتين

الجزء الخامس عشر

الجمليتين ، وارجحها ما قاله الطبرسي والرازي ، ويتلخص - مسع شيء من التصرف بقصد التوضيح - بان المراد من قوله : (وبالحق انزلناه) ان القرآن متضمن للحق ، والمراد من (وبالحق نزل) ان الله اراد من نزول القرآن أن يؤمن ويعمل به الناس ، وقد حصل ذلك ووقع ، حيث آمن به المسلمون ، وعمل به المخلصون منهم .

ونحن مع الرازي والطبرسي في تفسير الجملة الأولى ، أما الجملة الثانية فالذي نراه في تفسيرها ان كل ما كان عليه الناس قبل انزال القرآن ، وما يكونون عليه بعد انزاله فان القرآن يقرهم عليه اذا كان حقاً وخيراً وصلاحاً ، وبكلام آخر : ان الله سبحانه بعد ان قال في الجملة الأولى : نزل القرآن بالحق والخير والصلاح قال في الجملة الثانية : ويقر القرآن ايضاً كل ما هو حق وخير وصلاح من أي كان ويكون تقدم على نزول القرآن أو تأخر عنه . وفي هذا المعنى قوله تعالى : « وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض - ١٧ الرعد » . وقوله : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر - ١٨٥ البقرة » . وقال الامام جعفر الصادق (ع) : كل ما فيه صلاح للناس بحجة من الجهات فهو جائز . (وما ارسلناك إلا مبشراً ونذيراً) . تبشر بالجنة من اطاع ، وتنذر بالنار من عصي ، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ، ومن شاء فليكفر : « ان ربك هو اعلم بمن يضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين - ١١٧ الانعام » .

هل نزل القرآن نجوماً ؟

(وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً) لم ينزل القرآن على محمد (ص) جملة واحدة ، بل نزل نجوماً يتابع احياناً ، ويبطئ احياناً اخرى حسب المصالح والوقائع التي تحدث آنأ بعد آن ، أما قوله تعالى : « انا انزلناه في ليلة القدر » فعناه ان ابتداء النزول كان في هذه الليلة ، ثم استمر الى وفاة الرسول الأعظم (ص) .. وكان بين أول نزوله وآخره ثلاثة وعشرون عاماً ، وقد بين سبحانه الغاية من ذلك بقوله : « لتقرأه على الناس على مكث »

سورة الاسراء

أي على تمهل آية آية ، ليسهل فهمه وحفظه .. وهذه الآية دليل على وضوح على خطأ من قال : نزل القرآن على محمد جملة واحدة ، وبلغه هو على دفعات ، وقد رد سبحانه على من قال هذا بقوله : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة كذلك لنثبت به فؤادك - ٣٢ الفرقان » أي لنقوي قلبك على ادراك معاني القرآن واسراره .. هذا بالإضافة الى كثير من الآيات التي حكى قصة الحوادث المتجددة أو بينت احكامها كقصة بدر وأحد والأحزاب وحنين ، وقصة نصارى نجران ، ويهود المدينة ، وكحادثة ازواج النبي ، والمرأة التي جادلته في زوجها الى غير ذلك .

وقال الشيخ المفيد : نزل القرآن على الأسباب الحادثة حالاً بعد حال ، ويدل على ذلك ظاهر القرآن ، والتواتر من الأخبار ، واجماع العلماء .
(ونزلناه تنزيلاً) . في كتب اللغة تنزل أي نزل على مهل ، وعليه تكون هذه الجملة تفسيراً وبياناً لما قبلها .

(قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ان الذين اوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولاً) ويخرون للأذقان سيكون ويزيدهم خشوعاً) . الضمير في (به) للقرآن ، والخطاب في آمنوا او لا تؤمنوا للمشركين الذين قالوا لمحمد (ص) : لن نؤمن لك حتى تفجر الخ .. اقرأ الآية ٩٠ وما بعدها من هذه السورة ، والضمير في قبله للقرآن ، ويخرون للأذقان أي يسجدون على وجوههم ، وذكر السجود مرتين لأن الأول كان تعظيماً لله ، والثاني لتأثير القرآن في نفوسهم ، أما الذين اوتوا العلم من قبل القرآن فالمراد بهم المنصفون من اهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد (ص) ، واصحاب الفطرة الصافية من غيرهم كالحنفاء الذين نشروا الى بعضهم في الفترة التالية :

الحنفاء

الحنفاء جمع الحنيف ، وهو الذي ترك الباطل ، واتبع الحق ، والحنيفية

الطريقة المستقيمة ، وكان في الجاهلية افراد تمردوا على عصرهم وبيتهم ، وادركوا بفطرتهم الصافية أن لهذا الكون خالقاً قديراً واحداً ، وان بعد الموت بعثاً وحساباً وثواباً وعقاباً ، وان عبادة الأصنام جهالة وضلالة ، ومن اشعار بعضهم كما في الجزء الثالث من الأغاني ، والأول من سيرة ابن هشام طبعة سنة ١٩٣٦ .

أرباً واحداً أم الف رب ادين اذا تقسمت الامور
ولكن اعبد الرحمن ربي ليغفر ذنبي الرب الغفور
تري الأبرار دارهم جنان ولكفسار حامية سعي

قال ابن هشام في الجزء الأول من السيرة النبوية : اجتمعت قريش في عيد لهم عند صنم كانوا يعظمونه ، فاعتزل منهم اربعة ، وهم ورقة بن نوفل ، وعبد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو ، وقال بعضهم لبعض : والله ما قومكم على شيء ، لقد اخطأوا دين ابيهم ابراهيم ؟ . ما حجر نطيف به ، لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ؟ .

أما زيد بن عمرو فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، فارق دين قومه معتزلاً الأوثان والميثة والدم والذبايح التي تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل المؤودة ، وكان يقول لأبيها : لا تقتلها ، انا اكفيك مؤونتها ، وكان يجاهر قومه بغيب ما هم عليه ، ويقول : انا اعبد رب ابراهيم .. يا قوم ما اصبح منكم احد على دين ابراهيم غيري .. اللهم لو اني اعلم اي الوجوه احب اليك لعبدتك به ، ولكني لا اعلمه ، ثم يسجد على راحته .

ومضى زيد يسفه قريشاً وما يعبدون ، ولما ايقنوا خطره طلبوا من عمه الخطاب ابي عمر بن الخطاب ان يمنعه ويردعه ففعل ، ولكن زيدا ظل على دعوته ، فأذاه عمه واغرى به سفهاء قريش وشبابها ، من بينهم ابنه عمر ، وقال لهم : اطردوه ، ولا تركوه يدخل مكة ، فخرج منها هائماً في الأرض يطلب دين ابراهيم (ع) ، وما يرح طريداً شريداً ينتقل من بلد الى بلد ، حتى اعرضته جماعة من لحم فقتلوه .. فابتهجت قريش لقتله ، اما صديقه ورقة ابن نوفل فذرف عليه الدموع ، ورثاه بابيات ، منها :

سورة الاسراء

رشدت وانعمت ابن عمرو وانما تجنبت تنوراً من النار حاميا
يدينك رباً ليس رب كمشله وتركك اوثان الطواغي كما هيا
وقد تترك الانسان رحمة ربه ولو كان تحت الأرض سبعين واديا

قتل زيد قبل ان يبعث رسول الله (ص) ، ولكن ابنه آمن بالرسول الأعظم (ص) ، وسأل هو وابن عمه عمر بن الخطاب الذى كان يؤذي عمه من قبل ، سأل رسول الله : انستغفر لزيد ؟ . قال : نعم ، انه يُبعث امة واحدة .

وأما عبد الله بن جحش فبقي حتى بعثه الرسول (ص) ، واسلم وهاجر هو وزوجته ام حبيبة بنت ابي سفيان الى الحبشة ، ومات فيها بعد ان ارتد الى النصرانية .. وتزوج النبي (ص) بعده ام حبيبة .

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم وتنصر ، وكان يقال له البطريق ، ومات بالشام ، سمه احد ملوك الفساسنة ، ولا عقب له .

أما ورقة فعاش في مكة كالرهبان ينهى قومه عن عبادة الأوثان ، وهو ابن عم خديجة زوجة الرسول (ص) ، وحين نزل الوحي على زوجها انطلقت به الى ابن عمها ورقة ، فقال له : يا ابن اخي ماذا ترى ؟ . ولما اخبره رسول الله قال له ورقة : هذا هو الناموس الذي نزل على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً - شاب - ليتني اكون حياً اذ يخرجك قومك . فقَالَ الرسول (ص) : اوخرجني هم ؟ . قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وان يدركني يومك انصرك نصرأ مؤزراً .

لقد نطق ورقة بوحي من فطرته الصافية ، فطرة الله التي فطر الناس عليها .. وكل انسان يرجع الى فطرته هذه يؤمن بمحمد (ص) وينصره نصرأ مؤزراً اذ لا تبدل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون - ٣٠ الروم » لأن الأهواء تختم على فطرتهم . وتنحرف بها عن طريقها القويم .

(قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن ايا ما تدعوا فله الاسماء الحسنی) . كان للمشركين اصنام شتى ، سموها باسماء ما انزل الله بها من سلطان ، وما كانت كلمة الرحمن من هذه الاسماء ، ولذا لما دعاهم الرسول الاعظم (ص) الى عبادة الرحمن قالوا : وما الرحمن : « واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن

٦٠ الفرقان . اي ما هذا الوصف الذي لا اثر له عند آلهتنا ؟ . وقوله تعالى : «ادعوا الله او ادعوا الرحمن» يصلح جواباً لاستنكارهم ، لان معناه ان الاسماء والالفاظ ان هي الا وسيلة للتعبير ، والعبرة بالمسمى ، فادعوا الله بما شتم من اسمائه ، فكلها حسنة ، لانها تعبر عن احسن المعاني ، وهي على مستوى واحد في الحسن . والله الاسماء الحسنى فادعوه بها - ١٨٠ الاعراف . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير هذه الآية ، فقرة هل اسماء الله توقيفية او قياسية ج ٣ ص ٤٢٥ . (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً) . لا تجهر بصلاتك اي بالقراءة في صلاتك ، والجهر رفع الصوت ، والمخافتة الإسرار ، وعن الامام جعفر الصادق (ع) انه قال في تفسير الآية : الجهر بها رفع الصوت ، والمخافتة ما لم تسمع اذنيك ، واقرأ قراءة بينها .

(وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً) نحمد الله على عظيم احسانه ، ونير برهانه ، وننتزه عن الولد لأنه غني عن كل شيء ، ولان الولد يشبه اباه ويرثه ، ولا شبهة لله ولا وارث ، وننتزه عن الشريك لانه دليل العجز : «وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الارض انه كان علياً قديراً - ٤٤ فاطر» . وكل قوي عنده ضعيف ، وكل عزيز لديه ذليل . وبالتالي فان الله اكبر شأنًا ، واعلى مكاناً من ان يصف عظمته الواصفون ، ويؤدي حقه الشاكرون .

سُورَةُ الْكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

انزل على عبده الكتاب الآية ١-٨

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قِيمًا
لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ
أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَا كَثِيرٌ فِيهِ أَرْبَاءٌ * وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا
اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ
مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا * فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ
إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً
لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا
جُرُزًا .

اللغة :

العوج بفتح العين يختص بالاعيان ، وبكسرهما بالمعاني ، تقول : في ساقه عوج

بالفتح ، وفي رأيه عوج بالكسر . والقيم المستقيم المعتدل . والبأس هنا العذاب . ومن لدنه من عنده ، والضمير يعود اليه تعالى . ويخج نفسه انهكها وكاد يهلكها من الغم والغضب . على آثارهم اي بعدهم . والصعيد هنا التراب . والجرز الارض التي لا نبات فيها .

الاعراب :

الحمد مبتدأ وخبر والجملة مفعول لفعل محذوف اي قولوا الحمد لله . قيا مفعول لفعل محذوف اي بل جعله قيا ، او حال من الكتاب اي انزل على عبده الكتاب قيا ولم يجعل له عوجا . ولينذر منصوب بان مضمرة بعد اللام ، والمصلر المجرور باللام متعلق بقيم او بأنزل . وماكثين حال ضمير (لهم) . وابدأ ظرف منصوب بماكثين . ومن علم (من) زائدة اعرابا وعلم مبتدأ مؤخر ، ولهم به خبر . وفاعل كبرت محذوف يدل عليه (قالوا اتخذ الله ولدا) او كلمة ، والتقدير كبرت المقالة كلمة او كبرت الكلمة كلمة . وكذبا صفة لمفعول مطلق محذوف اي قولا كذبا . وأسفا مفعول من اجله لبأخع . وإيهم مبتدأ ؛ واحسن خبر ، وعملا تمييز .

المعنى

(الحمد لله الذي انزل على عبده - محمد - الكتاب ولم يجعل له عوجا : قيا - اي بل جعله مستقيما - لينذر باسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا حسنا ماكثين فيه ابدا) اي خالدين في ذلك الاجر ، وهو الجنة لا ينتقلون عنها بحال ..

ذكر سبحانه القرآن في العديد من آياته ، ووصفه بالحق والهدى والنور ، وهنا وصفه بالاستقامة وعدم الاعوجاج ، وانه يبشر الصالحين والمصلحين بالثواب والنعيم الدائم ، وينذر الفاسدين والمفسدين بالعذاب والجحيم الخالد ، والغرض من ذلك ان يبين سبحانه انه انزل القرآن لنسب على منهجه ، لا لنحفظ آياته وكلماته ،

سورة الكهف

ونحسن تجويدها وتفسيرها فقط ، كما هو شأننا .. قال الرسول الاعظم (ص) ، ونحن المعنيون بما قال : « يأتي على الناس زمان لا يبقى من الايمان الا رسمه ، ولا من القرآن الا درسه » . واقسم ما قرأت هذا الوعيد والتهديد من نبي الرحمة الا اقمع جسمي .. واي تهديد ووعيد اعظم من ان نكون المقصودين بهذا الوصف ؟ .. لا شيء فينا من الايمان الا الاسم ، ومن الاسلام الا الرسم ، ومن القرآن الا الدرس .. لقد طعن في القرآن من طعن ، وكفروا به من الاساس ، وآمنا به نحن ، ولكن خالفنا احكامه وتعاليمه جهارا نهارا .. والفرق بيننا وبين من طعن وجحد تماما كالفرق بين يقول : انا لا ارى هذا حقا ، ولو علمته حقا لعملت به ، وبين من قال : اما انا فاعتقد انه الحق الذي لا ريب فيه ، ومع ذلك لا التزم به ولا احترمه .

(وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم) . وينذر الذين معطوف على لينذر بأسا شديدا ، والانذار الاول عام لكل من عصي واستحق العقاب ، والانذار الثاني خاص بمن نسب الولد الى الله تعالى علوا كبيرا ، وكثيرا ما يعطف الخاص على العام للتنبيه على ان الفرد المعطوف افضل من بقية الافراد ، مثل الملائكة وجبريل ، او اقبح مثل العاصين والقائلين ان الله ولدا .. لان هذا القول اقبح انواع المعصية . قال الرازي : الذين قالوا هذا ثلاث طوائف « الاولى كفار العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله . والثانية النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله . الثالثة اليهود الذين قالوا : العزيز ابن الله » . والمراد بقوله : ما لهم به من علم انهم لا يعتمدون في هذا القول على دليل ، بل قام الدليل على العكس ، اما قوله : ولا لآبائهم فهو مبالغة في الذم ، تماما كما تقول : جاهل ابن جاهل ، وملعون ابن ملعون .

(كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون إلا كذباً) . لا شيء اعظم من الكذب ، واعظمه الكذب على الله ، ونسبة التحليل والتحريم اليه من غير دليل ، واعظم الكذب عليه نسبة الولد اليه .

(فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث اسفاً) . على آثارهم أي على بعدهم وإعراضهم ، والمراد بالحديث هنا القرآن بالاتفاق ، وفي وصف القرآن بالحديث دليل على فساد قول من قال : ان القرآن قديم .. وما

من شك أن النبي (ص) يريد الخير والهداية لكل انسان بلا استثناء ، تماماً كما تريدها انت لولدك ، وأريدها أنا لولدي .. وكان النبي يتألم ويحزن اذا سلك مسالك سبيل الهلاك والضلال ، كما يتألم الوالد لهلاك ولده .. وفي هذه الآية عاتب الله سبحانه نبيه الكريم على وجده وحسرتة المهلكة من اجل اعراض من أعرض عن الهداية واتباع الحق ، وقال له : لا تحزن عليهم .. ان الينا اياهم ثم ان علينا حسابهم .

(إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً) . الزينة تعم الجاه والمال والأولاد ، وكل ما يتهالك عليه الناس ، ويتطاحنون من اجله .. وهذه المغريات هي المحك الذي يميز الخبيث من الطيب ، فن قنع منها بنصيبه ، وعاش بكده وجده فهو طيب كريم ، ومن حاول أن يحتكر كل شيء لنفسه ، ويعيش على حساب غيره بكل طريق ، ولو باثارة الحروب والفتن فهو معتد اثم ، ومعنى ابتلاء الله الناس بزينة الأرض أن تظهر بسببها وتبرز الى الوجود افعالهم واعمالهم التي يستحقون بها الثواب والعقاب . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٩٤ من المائدة ، فقرة معنى الاختبار من الله ج ٣ ص ١٢٦ . (وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرماً) . ضمير عليها يعود للارض ، والصعيد التراب ، والجرم الأرض التي لا تنبت شيئاً ، والمعنى كل من عليها فان ، والسعيد من أطاع الله ، والشقي من اغتدع لهواه .

اصحاب الكهف والرقم الآية ٩ - ١٢

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا *
إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ
لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا *
ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا *

سورة الكهف

اللغة :

المغارة المحفورة في الجبل يقال لها كهف ان كانت كبيرة ، وإلا قيل لها : مغارة وغار . والرقم بمعنى المرقوم من الرقم ، ومن معانيه الكتابة ، قال تعالى : « كتاب مرقوم - ٩ المطففين » أي مكتوب ، والمراد بالرقم هنا اللوح الذي كتبت فيه أسماء أصحاب الكهف . والفتية جمع الفتى من الفتوة والشباب . وضربنا على آذانهم أي انماهم نومة عميقة لا تنبههم معها الأصوات .

الاعراب :

أم حسبت (أم) هذه منقطعة أي بل أحسبت . وسنين ظرف والعامل فيه ضربنا . وعددأ صفة لسنين أي معدودة أو ذوات عدد . وقيل : مصدر أي تعدها عدداً . واي الحزين مبتدأ ، واحصى خبر ، وامداً مفعول لأحصى مثل أحصيت الأيام وعددت الشهور ، ولا يصح جعله تمييزاً لأن التمييز في مثله بمعنى احسن وجهاً ، واكثر مالاً أي حسن وجهه وكثر ماله ، والأمد لا يحصى نفسه .

المعنى :

نفس المعنى الظاهر من الآيات المتعلقة بأصحاب الكهف ، في ضوء ما دلت عليه بالدلالة الصريحة ، أو بدلالة الاقتضاء وطبيعة الحال^١ ونطرح ما عداها من المصادر أو الأساطير ، فلقد ذكرنا أكثر من مرة أن الحوادث التاريخية وامثالها لا تثبت إلا بنص القرآن أو بحديث متواتر ، وان اخبار الآحاد ليست بشيء وان صحت اسانيدها إلا في الأحكام الشرعية .
(أم حسبت أن اصحاب الكهف والرقم كانوا من آياتنا عجباً) . الكهف

١ الدلالة الصريحة مثل أسأل أهل القرية ، ودلالة الاقتضاء مثل أسأل القرية ، فان الكلام لا يصح إلا بتقدير أهل القرية .

المغارة الكبيرة ، والرقيم اللوح الذي رُقَّت فيه أسماء اهل الكهف ، وطريف قول من قال : ان الرقيم اسم كلهم .. والمعروف عند الرواة ان اسمه قمطر .. ومهما يكن فقد جاء في الكتب القديمة قصة اصحاب الكهف ، وتعجب الذين قرأوها أو سمعوها : كيف ظلوا نائمين السنين الطوال ، وبقوا احياء بلا غذاء . فقال سبحانه في هذه الآية لكل من تعجب واستغرب : لا تعجب من ذلك ، فكل آيات الله عجب بحير العقول .. ان الذي أوجد اصحاب الكهف والكون بما فيه من لا شيء بهون عليه أن يُبقي فتية في النوم امدأ طويلاً ، ثم يبعثهم كما كانوا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

(اذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهي ء لنا من امرنا رشدا) . يشير سبحانه في هذه الآية واللتين بعدها الى قصة اهل الكهف على الاجمال ، ثم يشرع بالتفصيل .. تقول هذه الآية : كان فيما مضى فتية تركوا كل شيء في هذه الحياصة وآووا الى الكهف ، وطلبوا من الله ان يرحمهم ، ويدبر شؤونهم ، وهم في الكهف .

ولم يشر سبحانه في هذه الآية الى السبب الذي دعاهم ان يتركوا كل شيء ، ويلوذوا بالكهف ، وطلبوا من الله ان يدبر امورهم .. والذي نفهمه من طبيعة الحال ، وما تشير اليه الآيات الآتية هو ان هؤلاء الفتية اهتدوا بفطرتهم السليمة الى ان يجتمعهم على ضلال في عبادة الاصنام ، وانهم رفضوا ان يعبدوا ما يعبد آباؤهم ، فحاول المترفون - كما هو ديدنهم - ان يقتلوا الفتية او يفتنهم عن دينهم ، ولما انسدت على الفتية جميع المسالك ، ولم يجدوا اية وسيلة الا اللجوء الى الكهف آووا اليه ، وقالوا لله : لقد أودينا فيك حتى بلغ بنا الأمر الى ما ترى ، ونحن في اشد الحاجة الى عونك ورحمتك ، فايالك نسترحم ، وبك نستعين . (فضرنا على آذانهم في الكهف سنين عددا) انماهم نوماً لا ينبههم معه شيء . وبقوا كذلك سنين معدودة ، ويأتي الكلام عن عدد هذه السنين في الآية ٢٥ (ثم بعثناهم) ايقلناهم من نومهم (لنعلم اي الحزبين احصى لما لبثوا امدا) . عرف الناس قصة اهل الكهف ، وهم ما زالوا غارقين في سباتهم ، وتداولت اخبارهم الاجيال ، واختلقوا في مدة لبثهم ، فن مقل ومن مكثر ، فايقظ الله اهل الكهف ليعرف الفريقان ان اهل الكهف لبثوا في نومهم امدأ غير قصير

سورة الكهف

فيؤمنوا او يزدادوا ايماناً بقدرة الله على احياء الموتى ، وقوله تعالى : (لنعلم)
معناه ليظهر علمنا للناس بمقدار ما لبث اهل الكهف . تقدم نظيره في تفسير الآية
١٤٠ من آل عمران ج ٢ ص ١٦٢ .

وتسأل : من اين علم الناس مدة لبثهم ، والمفروض انهم كانوا نياماً وحين
استيقظوا تساءلوا وقال بعضهم لبعض لبثنا يوماً او بعض يوم ؟ .
الجواب : لقد عرف الناس مدة مكثهم من الدراهم التي كانت معهم ، فقد
ذهب بها احدهم الى المدينة ليشتري طعاماً ، ولما رآها اهل المدينة تبين انها من
عهد احد الملوك السابقين ، ويأتي البيان في الآية ١٩ .

نباهم بالحق الآية ١٣-١٨

لَحْنُ نَقْصٍ عَلَيْكَ نَبَأُهُم بِالْحَقِّ إِنْهُمْ فِتْنَةُ رَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى *
وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَنْ نَدْعُوًا مِنْ دُونِهِ إلهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا * هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا
مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَإِذْ أَعْرَضْتُمْ عَنْهُمْ وَمَا يَعْبدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى
الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّءْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا *
وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ
تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ
اللَّهُ فَبُهِرَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا * وَتَحْسَبُهُمْ
أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ

ذَرَّاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمْلَمْتَ
مِنْهُمْ رُعباً *

اللغة

النبا الخبير العظيم . وربطنا على قلوبهم قوتنا عزائمهم . والشطط التجاوز عن الحد . والسلطان البين الحجة المظاهرة . والاعتزال التنحي ، والتعزل مثله . والمراد بالمرق هنا كل ما يُستضع به مأخوذ من الربق واللفظ .. وتراور تميل . وتقرضهم تجاوزهم . والفجوة المشع من الارض . والأيقاظ جمع يقظ . والرقود جمع راقد . ومن معاني الوصيد عتبة البيت وفناؤه ، وكل من المعنيين جائز هنا .

الاعراب

اذ ظرف بمعنى وقت ، ومحلها النصب بربطنا . واذأ حرف جواب وجزاء . وشططا صفة لمفعول مطلق محذوف أي قولاً شططا . وهؤلاء مبتدأ وقومنا عطف بيان وجملته اتخلوا خبر . ولو اداة طلب بمعنى هلا . وكذبا مفعول مطلق لافترى لان الكذب والافتراء بمعنى واحد . واذ اعترلتموهم (اذ) متعلقة بمحذوف أي وقال بعضهم لبعض اذ اعترلتموهم . وما يعبدون عطف على مفعول اعترلتموهم اي واعترلتم ما يعبدون . والا الله (الا) بمعنى غير مثل لو كان فيها إلا الله لفسدتا ، وهي وما بعدها بمنزلة الكلمة الواحدة ، ويعرب الاسم الذي يليها بحسب العامل المتقدم ولذا نصب لفظ الجلالة في قوله : وما يعبدون الا الله . وقيل : إن (لا) هنا اداة استثناء ، ولفظ الجلالة بعدها منصوب على انه مستثنى متصل ان كان القوم يعبدون مع الله الها آخر ، ومنفصل ان كانوا يعبدون الاصنام فقط . وتراور اصلها تراور . وذات اليمين وذات الشمال ظرفان لان المعنى جهة اليمين وجهة الشمال .

سورة الكهف

وذراعيه مفعول باسط ، وعمل هنا اسم الفاعل مع انه ماضٍ لانه حكاية حال .
وفراراً مفعول مطلق لان وليّ وفرّ بمعنى واحد . ورعباً تمييز عند الطبرسي ،
ومفعول ثانٍ عند ابي البقاء وابي الحيان الاندلسي .

المعنى

(نحن نقص عليك نبأهم بالحق) . كان الناس قبل رسول الله (ص) يتداولون
قصة اهل الكهف ، وقد دونت في بعض الكتب ، وجاء ذكر اهل الكهف في
الشعر ، فمن قصيدة لأمية بن ابي الصلت :

وليس بها الا الرقيم مجاوراً وصيدهم والقوم في الكهف هُجد
وبالمناسبة كان رسول الله (ص) يسأل رواة الشعر ان يقرأوا له من شعر ابن
ابي الصلت هذا ، فيستمع اليه ويقول : هذا رجل آمن لسانه وكفر قلبه .
وقد انشأ الناس الاساطير حول اصحاب الكهف ، كما انشأوها حول كثير
من الغابرين ، ولذا قال تعالى لنبية الكريم : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » :
الذي لا ريب فيه .. ومن اصدق من الله حديثاً . وبعد ان اجمل سبحانه قصتهم
في الآيات السابقة بدأ بالتفصيل ، وتنقسم قصة اهل الكهف - كما جاءت في
الآيات - الى اربعة فصول : الاول اهتداء اهل الكهف الى الله . الثاني حالهم
مع قومهم وفرارهم الى الكهف . الثالث ايقاظهم من النوم الطويل . الرابع
موتهم والبناء عليهم .. والآيات التي نحن الآن بصددتها تتضمن الفصل الاول
والثاني ، والمقطع الآتي من الآيات يتضمن الفصلين الآخرين .

الفصل الاول

(انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم) . من الشباب من هو
تام وكامل في عقله وتفكيره ، تماماً كما هو قوي وتام في جسمه ونشاطه ، وهذا
النوع وان كان قليلاً نادراً ، ولكنه موجود ، ومنه اهل الكهف ، فقد كانوا
فتية يعيشون في مجتمع وثني فاسد ، ومع هذا رفضوه ولم يهضموه ، واهتدوا

بصفاء فطرتهم الى ان قومهم على ضلال ، وقالوا : كيف تكون الاحجار آله ، وهي لا تفني شيئا ؟ . وكيف تمنح المترفين القوة والغنى ، وتسلبهم على الضعفاء والمعدمين - كما يزعم الاقوياء - وهي لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ؟ .. وانتهى الفتية من هذا الشك والتساؤل الى عقيدة التوحيد والبعث ، ولما علم الله منهم الصدق في النية ، والاخلاص للحق ثبتهم على ايمانهم ، وزادهم بصيرة في امرهم . (اذ قاموا) . لم يبين سبحانه ابن قاموا ، ولذا اختلف المفسرون ، فمن قائل : انهم قاموا بين يدي ملك زمانهم دقيانوس الجبار ، وهو يحاكمهم على ايمانهم بالله ، ومن قائل : انهم قاموا من النوم .. وغير بعيد ان يكون المراد بقيامهم خروجههم على عادات قومهم ، وتمردهم على ما هم فيه من الشرك والفساد .. وهذا هو شعار ثورتهم وتمردهم على عادات قومهم : (فقالوا ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا) .

آمن الفتية بالله الواحد الأحد ، واعلنوا ايمانهم على الملأ ، وقالوا : ان الطغاة من قومهم يفترون الكذب على الله وعلى عقولهم ايضا ، لأنهم اضعفوا على الأصنام صفة الآلهة ، وهم يعلمون انها لا تضر ولا تنفع .. ولكنهم يموهون على البسطاء بأن هذه الآلهة هي التي اختارهم ، ومنحتهم الامتياز والتفوق على الناس ، وان من خالفها في ذلك فلا جزاء له إلا القتل والتعذيب .. بهذا الزعم اراد الطغاة أن يقتلوا الفتية ، لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله ، وكفروا بالأصنام أي بامتياز الطغاة وتفوقهم على المستضعفين .

تنبّهت ، وانا اكتب هذه الكلمات ، الى تفسير ظاهرة غريبة برزت في ايماننا ، وهي هذا الجيش العرمرم من المعتمدين الذين لا يمتنون بسبب قريب أو بعيد الى الدين واهله .. تنبّهت الى أن هناك يدأ خبيثة تعمل في الخفاء ، وتضع التضاميم ، وتخصص الأموال لتجنيد المزيفين عن طريق المأجورين والعملاء ، وحشدتهم أو حشرهم في صفوف اهل العلم ، فيلبسونهم العاثم ، لا لشيء إلا ليحموا مصالح الطغاة والمستعمرين باسم الدين ، تماما كما اضعف عتاة الشرك صفة الآلهة على الأصنام ليقولوا للبسطاء انها هي التي اختارهم ، واعطتهم السلطان والأموال ، وحرمت البؤساء والمستضعفين .

(واذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من امركم مرفقاً) . ضاق بالفتية المؤمنين الطغاة من قومهم ، وحاولوا أن يفتنوه عن دينهم .. فقال بعض الفتية لبعض : لا نجاة لنا من القوم الظالمين إلا بالفرار منهم وما يعبدون ويفعلون . وبعد التداول والتشاور اتفقوا على اللجوء الى الكهف ، حيث لا يملكون مقرأ سواه .. فدخلوه وأوكلوا أمرهم الى الله راضين بما يختاره لهم ، حتى ولو امانهم جوعاً وعطشاً .. وهكذا المؤمن الصادق يبقى مع ايمانه وفياً له ، ولا يبالي بما يحدث وبواجه الصعاب بثقة وامل وحاسة ، ومتى بلغ الانسان من الايمان هذا المبلغ كان الله معه ايئاً يكون ، وجعل له فرجاً عاجلاً ، حتى ولو تظاهر عليه أهل الباء والأرض كما فعل مع اصحاب الكهف بعد ان انسدت امامهم جميع المسالك والمذاهب ، فاختار لهم الراحة والأمن والتحرر من هم الحياة وآلامها ، فأناهم نومة لا ينيهم معها شيء ، ولا يخافون من شيء .

(وترى الشمس اذا طلعت تزاور - أي تنحرف - عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم - أي تعدل عنهم - ذات الشمال وهم في فجوة منه) أي في مكان واسع من الكهف ، فقد كان كبيراً ، وله كوة ينفذ منها الهواء الطيب ونور الشمس ، وكانت الشمس لا تصل الى اجسامهم ، لا عند طلوعها ، ولا عند غروبها ، لأنهم كانوا في مكان من الكهف لا يصل اليه نور الشمس ، أو لأن الله كان يصرفها عنهم بقدرته (ذلك من آياته) ذلك اشارة الى انحراف الشمس عنهم كأنها متعمدة ، والى وضعهم لا ايقاظ يحسون بمرور الزمن وما فيه ، ولا أموات بغير حراك وانفاس .. ولا تفسير لهذا إلا قدرة الله وحكمته . (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) . المراد بمن يهد الله هنا أهل الكهف ، وبمن يضلل من اراد التنكيل بهم . انظر تفسير ١٧٨ من الأعراف ج ٣ ص ٤٢٣ .

(وتحسبهم ايقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) . كانت عيونهم مفتوحة كأنها تنظر الى الامام ، واجسادهم

طرية يجري الدم في عروقها ، يتقلبون من جنب الى جنب ، وكلهم بفناء الكهف أو بيابه باسط ذراعيه يحرسهم كالابواب الأمين (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملت منهم رعباً) لأنهم في وضع عجيب وغريب لا عهد لأحد بمثله .

وكذلك بعثناهم الآية ١٩ - ٢٢

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا * وَكَذَلِكَ أَعَرْضْنَا عَلَيْهِمْ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا * سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا *

اللغة :

الورق بفتح الواو وكسر الراء ، وكسر الواو وسكون الراء ايضاً ، والمراد

سورة الكهف

بها هنا الدراهم المضروبة . ولا يشعرون من الإشعار ، وهو الإعلام . يظهروا عليكم يطلعوا عليكم . واعرثنا عليهم أطلعنا عليهم . والرجم بالغيب القول بغير علم ، ومنه قول الشاعر : « وما هو عنها بالحديث المرجم » . والمراد بالمراء هنا الجدل . والاستفتاء السؤال .

الاعراب :

كم في موضع نصب مفعول مقدم للبتم ، والمميز محذوف أي كم يوماً لبتم . ولينظر الام للطلب وأبها مبتدأ وازكى خبر وطعاماً تمييز . اذ يتنازعون (اذ) متعلقة بليعلموا ، وقيل : يجوز تعلقها باعرثنا . وضمير سيقولون عائداً الى المتنازعين . وثلاثة خبر لمبتدأ محذوف أي هم ثلاثة اشخاص . ورابعهم كلبهم مبتدأ وخبر الجملة صفة لثلاثة ، ومثله خمسة سادسهم كلبهم . ورجماً مفعول مطلق ليقولون لأنه هنا بمعنى يترجمون ، أي هم سبعة اشخاص ، وثامنهم كلبهم مبتدأ وخبر والجملة عطف على ما قبلها ، فان الصفة اذا تعددت يجوز فيها العطف وعدمه ، نقول : هو الرجل العالم العاقل ، وهو الرجل العالم والعاقل .

الفصل الثالث

اشرنا فيما سبق الى أن الآيات المتعلقة بأهل الكهف تنقسم الى اربعة فصول ، وقد تضمن المقطع السابق من الآيات الفصلين الأول والثاني ، وهذا المقطع يتضمن الفصلين الأخيرين الثالث والرابع ، ومن الفصل الثالث قوله تعالى :

(وكذلك بعثناهم ليستاءلوا بينهم) استمروا في نومهم ثلاثمائة وتسع سنين ، كما يأتي في الآية ٢٥ ، ثم ايقظهم الله من هذا النوم الطويل العجيب ، ويدل ظاهر الآية أن الله ايقظهم لئلا يهلكوا عن مدة نومهم ، ومتى انكشفت لهم الحقيقة ازدادوا إيماناً بالله وبالبعث .

وتسأل : قال الله تعالى في الآية ١٦ أن الغرض من بعثهم أن يعلم مدة مكثهم في الكهف الذين تنازعوا في ذلك قبل ايقاظهم ، وقال في هذه الآية : انه

أيقظ أهل الكهف ليتساءلوا هم عن أمد مكثهم ، فما هو وجه الجمع بين الآيتين؟ .
الجواب : لا تصادم بين الآيتين لاحتاج الى عملية الجمع ، فإن الله أيقظ أهل الكهف للأمرين معاً ، أشار الى أحدهما في الآية السابقة ، وإلى ثانيها في هذه الآية ، وعليه يكون معنى الآيتين ان الله أيقظ أهل الكهف ليعلموا هم وغيرهم ان الله قادر على إحياء الموتى ، مهما طال الزمن .

(قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) .
حين استيقظوا قال بعضهم : أتدرون كم لبثنا في الكهف ؟ . فأجابه البعض الآخر يوماً أو بعض يوم ، وفي هذا القول إيماء إلى أنه لم يتغير شيء من ثيابهم وأشعارهم ووظفارهم ووجوههم وأبدانهم وألوانهم على الرغم من طول الأمد ، ولو تغير شيء من ذلك - كما في تفسير الرازي - لظهر للعيان ، ولم يقل قائلهم يوماً أو بعض يوم .. ثم قالوا : دعونا من هذا التساؤل .. لا يعلم كم لبثنا إلا الله .. وجائر أن يكونوا في الظلام لا يرى أحدهم الآخر .

(فابعدوا أحدكم بورككم هذه الى المدينة فليظنر أيها أركى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً أنهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا ابدأ) . المراد بالورق الدراهم المضروبة ، وكان عليها صورة الملك الذي كان في زمانهم ، وقيل : اسمه دقيانوس ، واسم المدينة طرسوس .. استيقظوا فأحسوا بالجوع بعد ذلك الأمد الطويل ، فاختاروا واحداً منهم ليشترى لهم طعاماً شهيأ ، وأوصوه باليقظة والحذر كيلا يشعر أحد بمكانهم ، فيقتلهم الطغاة أو يفتنهم عن دينهم ، وهم لا يدرون أنهم في أمة غير أمتهم ، وعالم غير عالمهم .

الفصل الرابع :

(وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق وان الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لننتخذن عليهم مسجداً) . وكذلك إشارة الى انه كما زدناهم هدى ، وربطنا

سورة الكهف

على قلوبهم وانماهم ثم أيقظناهم أيضاً، اعثرنا عليهم، أي أطلعنا الناس أو أهل المدينة المجاورة. على حقيقة أصحاب الكهف ، والضمير في يتنازعون وفي أمرهم يعودان الى أهل المدينة المجاورة للكهف ، لأنهم اختلفوا : هل أهل الكهف ناثون أو ميتون ؟. وقسح هذا الاختلاف بين أهل المدينة لما رأوا النقود القديمة مع الذي أراد أن يشتري بها الطعام ، وذهبوا الى الكهف ورأوا أجساماً على الأرض لا تتحرك ولا تتكلم . أما قوله تعالى : وقال الذين غلبوا على أمرهم .. الخ فإنه يشير الى أن أهل المدينة انقسموا في شأن أهل الكهف ، فمن قائل : نركهم كما هم عليه . وقائل : بل نسد الكهف عليهم . وقال فريق ثالث : نبني عليهم مسجداً يصل في فيه الناس . وقد غلب هذا الرأي على بقية الآراء .

وبعد بيان المراد من كلمات الآية نبدأ بالتفصيل .. من عادة القرآن الكريم أن يحذف كل ما يمكن فهمه من سياق الكلام ، أو من اللوازم التي لا تنفك عن طبيعة الحادثة ، وعلى هذا الأساس حذف هنا عدداً من الجمل لأنها تعرف من السياق وطبيعة الحال، وتتلخص الجمل المحذوفة بأن أحدهم ذهب الى المدينة لشراء الطعام ، وكان حزيناً كما أوصاه الرفاق ، ولكنه فوجيء بأمر لم يكن في الحسبان وذلك انه حين أعطى الدراهم لصاحب الطعام تأملها هذا ، وقال : هذه النقود قديمة ، وهي من عهد الملك «دقيانوس» كما قيل . ولا أحد يتعامل الآن بها . قال الرجل صاحب النقود : كيف من الأمس الى اليوم ؟. وشاع الخبر بين أهل المدينة ، ولما سألوا عن شأنه وشأن النقود أخبرهم انه خرج وأصحاباً له هرباً بدينهم من الطغاة وآووا الى الكهف ، فقال قائل من الحاضرين : أجل ، سمعت ان جماعة فروا في الزمن القديم بدينهم خوفاً من ملكهم دقيانوس المرسوم على هذه النقود ، ولجأوا الى الكهف ، ولعلمهم هؤلاء ، فهرع الناس الى الكهف بعد أن سبقهم اليه صاحب النقود ، وأخبر أصحابه بما كان .

وخاتمة القصة انه بعد أن انكشف أمرهم تضرعوا الى الله ، كما تضرعوا اليه حين دخلوا الكهف ، وطلبوا منه أن يشملهم برحمته ، ويختار ما فيه لله رضا ، ولهم فيه صلاح ، وما أتموا دعاءهم هذا حتى وقعوا جميعاً أجساماً هامدة ، وانتقلت أرواحهم الطاهرة الى ربهم حيث النعم الخالد ، فاتخذ الناس عليهم مسجداً .

والشاهد في هذه القصة دلالتها الحسية على ما أشار اليه سبحانه بقوله : ولتعلموا ان وعد الله حق وان الساعة لا ريب فيها ، وان الانسان خالد مخلود خالقه ، وانما ينتقل من دار الى دار ، والويل كل الويل لمن ترك دار الباقية الى دار الغائبة ، وهو يجحد الآخرة ، أو وهو لم يعد العدة لها .

(سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجاء بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) . اختلف الناس في مكان الكهف : أين كان ؟ فقيل : كان في فلسطين بالقرب من بيت المقدس . وقيل : في الموصل . وقيل : في الأندلس . من جهة غرناطة ، الى غير ذلك من الأقوال . أيضاً اختلفوا في زمانهم : هل كان قبل السيد المسيح أو بعده ؟ . بل وفي الطعام الذي أوصى أهل الكهف أحدهم أن يشتريه لهم ، هل هو التمر أو الزبيب أو اللحم . بل وفي لون الكلب : هل كان أسمر أو أغمر أي فيه بقع سوداء وأخرى بيضاء ، الى كثير من هذه الخلافات .. اذن ، فلا غرابة اذا وقع النزاع والاختلاف في عدد أهل الكهف .

وفي تفسير الرازي والطبرسي انه لما وفد نصارى نجران الى النبي (ص) جرى ذكر أهل الكهف ، فقال يعقوبية منهم : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم . وقال النسطورية : كانوا خمسة سادسهم كلبهم . فقال المسلمون : بل سبعة وثامنهم كلبهم .. ثم قال الرازي : وأكثر المفسرين على انهم سبعة وثامنهم كلبهم ، وذكر أربعة أوجه لصحة هذا القول ، ثلاثة منها فيها نظر ، والرابع له وجه ، ويتلخص بأن الله سبحانه وصف كلاً من القول بالثلاثة والقول بالخمسة بأنه رجم بالغيب ، دون القول بالسبعة ، فوجب أن يكون هو الحق .

(قل ربي اعلم بعلمهم الا قليل) . بعد أن أشار سبحانه الى اختلاف الناس في عدد أصحاب الكهف ، وان أقوالهم كلها أو بعضها رجس بالغيب . قال لنبية الكريم : ان هذا الاختلاف لم يقع في شيء هام ، وان على الانسان أن يوكل علمه الى الله تعالى ، وأن يعتبر بما جرى لأصحاب الكهف ، ويتخذ منه دليلاً على البعث ، لا أن يجادل في عددهم أو مكانهم أو زمانهم .. فإن الغرض من هذه القصة هو الاعتبار والاعتاظ ، بل ان جميع قصص القرآن

سورة الكهف

تخضع لهذا الغرض الديني ، فهو الأول والأخير : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب - ١١١ يوسف » .

(فلا تمار فيهم الا وراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً) . فلا تمارأي لا تجادل، وضمير فيهم يعود الى أهل الكهف، وضمير منهم يعود الى أهل الكتاب كما في التفسير ، ولا تستفت لا تسأل . والمعنى اذا جادلك يا محمد في عدد أهل الكهف أحد من أهل الكتاب فلا تنهم بشأنه ، ولا تسأل العلماء منهم لتحتج بقوله على من جادل ، فإن هذه المسألة ليست بذات بال ، بل قل للمجادل قولاً ليناً، مثل الله أعلم ، أو لا جدوى من هذا الجدل ، ونحو ذلك .

ان شاء الله الآية ٢٣ - ٢٦ :

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا *
وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا *

الإعراب :

ذلك مفعول (فاعل) . والمصدر من ان يشاء الله مفعول لاسم فاعل محذوف، وهو حال من ضمير لا تقولن أي لا تقولن .. إلا ذاكرأ مشيئة الله . ويهدين الأصل يهديني ، والمصدر من ان يهدين فاعل عسى ، وهي هنا تامة . ورشداً تمييز أي اقرب من الرشداً . وثلاثمئة قرىء بتنوين تاء مئة ، وعليه تكون سنين

بدلاً من ثلاثئة ، وقرىء بإضافة مئة الى السنين على ان تكون سنين في موضع سنة، لأن مئة لا تضاف إلا الى مفرد . وتسعاً مفعول ازدادوا . أبصر به الضمير في (به) يعود الى الله تعالى ، واسمع وابصر للتعجب أي ما أبصره وما أسمعته !.

المعنى :

(ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غداً الا ان يشاء الله) . بعد ان قال سبحانه لنبيه الكريم : « فلا تمار فيهم » أمره ان يعلق كل شيء بمشيئة الله ، ووجه المناسبة بين النهي عن الجدال وبين الأمر بالتعليق على مشيئة الله ان الانسان قد يذهل ، فيفعل ما كان قد عزم على تركه ، او يترك ما كان قد عزم على فعله ، ويجوز هذا حتى في حق المعصوم على شريطة ان لا يكون في الفعل أو الترك معصية لله ، لأن المعصية لا تجتمع مع العصمة بحال ، تماماً كما لا يجتمع العلم بالشيء والجهل به في آن واحد .

المشيئة العليا

ان للظروف تأثيرها ، ما في ذلك ريب ، ولكنها لا تعاكس الانسان في كل شيء ولا تسعفه في كل شيء .. وأي انسان حقق كل ما أراد ، مهما بلغت قدرته ، وامتد سلطانه ؟ . ومن الذي استطاع ان يجعل امرأته أو ولده كما يشاء خلقاً وخلقاً ؟ . واعطف على هذا المثال ما شئت من الأمثلة .. أيضاً ما من أحد عاندته الظروف في كل ما طلب وأراد ، حتى في الكلام والنوم - مثلاً - اذن ، لإرادة الانسان قائمة ، ولها تأثيرها وعملها .

ولكن هذه الارادة محكومة بمشيئة عليا ، وهي تقول للانسان : إذا أردت شيئاً فاطلبه من أسبابه الكونية التي جعلتها طريقاً اليه ، وإياك أن تنسى أو تتجاهل ذكرى ، وانت تسير على طريقي هذا ، فأنا الذي خلقتك وهبأت لك الأسباب ، وأرشدتك اليها ، وأمرتك باتباعها .. وأيضاً لا تنس ان الطريق الذي مهدته لك

سورة الكهف

لا يؤدي بك حتماً وعلى كل حال إلى ما تطلبه وتبتغيه كلا .. حتى ولو اجتهدت وبالفعل لأنني خلقت أيضاً ظروفاً معاكسة تعرقل السر ، وما هي بحسبانك ولا بحسبان سواك ، لأنها في يدي ، وأنا أرسلها وأمسكها ، فلا تجزم بأنك بالغ ما تريد ، وعلق كل شيء على المشيئة العليا .. ما شاء كان ، وإن لم يشأ لم يكن . انظر المخبات والمفاجآت ج ١ ص ٣١٢ .

(واذكر ربك إذا نسيت) . كل انسان معرض للنسيان ، وبالحصوص اذا تراكمت عليه الأشغال والأحزان . بل قيل : « سُميت انساناً لأنك ناسياً » . وقد أمرنا الله سبحانه ان نذكره عند النسيان ، وعلمنا كيف نذكره ، حيث قال عز من قائل : (وقل عسى ان يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً) أي وإن لم يذكرني الله الذي نسيت فإنه يذكر ما هو أصلح وأنفع منه ، وفي نسيان بعض الأمور فوائد جمة .

ولهذه الآية قصة طريفة تعكس تحاسد بعض أهل العلم بالدين ، تماماً كتتحاسد التجار وأرباب المهن .. فقد روي ان المنصور كان يُفضل أبا حنيفة على سائر الفقهاء ، فحسده على ذلك محمد بن اسحق ، وفي ذات يوم اجتمعا معاً عند المنصور ، فسأل محمد أبا حنيفة بقصد إفحامه وتعجيزه ، قال له : ما تقول في رجل حلف بالله ان يفعل كذا ، وبعد ان سكت الخالف أمداً قال : ان شاء الله؟ . قال أبو حنيفة : تصح اليمين ويلزم بها الخالف لأن قوله : ان شاء الله منفصل عن اليمين ، ولو اتصل بها لم تنتقد .

فقال محمد بن اسحق : كيف وعده الله بن عباس جد أمير المؤمنين - يقصد المنصور - كان يقول ، يعمل الاستثناء ، وإن كان بعد سنة لقوله تعالى : « واذكر ربك إذا نسيت » ؟ .

فالتفت المنصور الى أبي حنيفة وقال له : أصحيح هكذا قال جدي ؟ .

قال أبو حنيفة : نعم .

فقال له المنصور : أمخالف جدي يا أبا حنيفة ؟ .

قال أبو حنيفة : ان لقول جديك تأويلاً يخرج على الصحة ، ولكن محمد بن اسحق وأصحابه لا يرونك أهلاً للخلافة ، لأنهم يبايعونك ، ثم يخرجون ويقولون :

ان شاء الله ، ومعنى هذا على مذهبهم انه لا بيعة لك في عنقهم على اعتبار ان الله لم يشأ لك الخلافة . فامتلاً المنصور غضباً ، وقال لجلالوته خذوا هذا مشيراً إلى محمد بن إسحق ، ففعلوا رداه في عنقه ، وجروه الى الحبس .

وبهذه المناسبة نشير الى انه اذا قال قائل : بعثك هذا ان شاء الله ، أو امرأتي طالق ان شاء الله ، أو والله لافعلن كذا ان شاء الله ونحو ذلك ، اذا قال مثل هذا ينظر : فإن أراد مجرد التبرك باسم الله تعالى فعليه أن يلتزم بما قال ، ويكون يبعه أو يمينه أو طلاقه صحيحاً ، لأن الكلام وهذه هي الحال ، يكون في حكم المطلق المجرد عن كل قيد ، وان قصد التعليق حقيقة فلا يلزمه شيء ، ويكون كلامه وعده سواء من حيث الأثر الشرعي ، لأن التعليق من حيث هو يُبطل الشيء المعلق . بل لأن المعلق عليه ، وهو مشيئة الله ، من عالم الغيب لا من عالم الشهادة .
وتسأل : بأي شيء نعلم انه أراد التعليق ، أو أراد مجرد التبرك باسم الله تعالى ؟ .

الجواب : نرجع في معرفة ذلك الى المتكلم نفسه لأن القصد لا يعرف إلا من جهة صاحبه ، وعلى القضاء أن يأخذ بقوله .
(ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) . بعد أن استطرد سبحانه بذكر الآيتين عاد الى أهل الكهف ، وبين أنهم مكثوا في نومهم العميق ٣٠٩ سنوات .

وتسأل : لماذا قال : وازدادوا تسعاً ، ولم يقل ثلاثمائة وتسعاً ؟ .
وأجاب بعض المفسرين بأنه تعالى أشار بقوله : وازدادوا الى أن أهل الكهف مكثوا ٣٠٠ سنة بحساب السنين الشمسية ، و ٣٠٩ بحساب السنين القمرية لأن التفاوت بينها في كل مئة سنة ثلاث سنوات .

(قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض) . أجل ، هو أعلم لأنه خلقهم وهداهم وأنامهم وأيقظهم وأماهم ، وقد أخبر أنهم مكثوا ٣٠٩ سنوات ، وقوله الحق ، وحكمه الفصل (أبصر به وأسمع) أي ما أبصره تعالى لكل ما يرى ، وما أسمع له لكل ما يُسمع ، والغرض ان الله لا يخفى عليه شيء .
(ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً) . ضمير لهم يعود الى

سورة الكهف

الخلق ، وضمير من دونه الى الخالق ، والولي الناصر ، والمعنى لا ناصر لمن خذله الله ، ولا خاذل لمن نصر ، ولا مانع لما أعطى ، ولا معطر لما منع ، لانه وحده لا شريك له ، بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

واتل ما أوحى إليك الآية ٢٧ - ٢٩ :

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا * وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا *

اللفظة :

ملتحداً ملجأ . والغداة والعشي الصباح والمساء . وفرطاً مجاوزاً للحد . والسرادق القسطنطينية . والمهل خثارة الزيت . المرفق المتكأ ، من اتكأ على مرفقه .

الإعراب :

الحق خبر مبتدأ محذوف أي هذا الحق ، أو مبتدأ والخبر من ربكم . وكالمهل

الكاف بمعنى مثل صفة للماء ، وجملة يشوي صفة ثانية . والمخصوص بالذم محذوف أي بشس الشراب هو . ومرتفعاً تمييز .

المعنى :

(وائل ما أوحى اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته) . يقول المولى لنبيه الكريم : بلغ ما أنزلناه اليك فيما يتعلق بأصحاب الكهف وغيرهم مما جاء في القرآن الكريم ، وكن على يقين بما أخبرناك به .. وصدق الله العظيم ، ونبيه الكريم ، فقد أثبتت الأيام والأحداث أن محمداً (ص) رحمة مهداة من السماء لأهل الأرض ، وكلما تقدم الزمان وطال قدّم الشواهد والدلائل على هذه الحقيقة (ولن تجد من دونه ملتحداً) أي ملجأ يمنحك من الله . والخطاب لمحمد (ص)، ومعناه الظاهر أنك مسؤول يا محمد أمام الله ، ولا ينجليك منه شيء ان شككت في حقيقة من حقائق القرآن ، أو قصرت في تبليغها .. وحاشا نبي الرحمة أن يشك أو يقصر ، كيف والله أعلم حيث يجعل رسالته !. وإنما القصد هو التعريض بمن شك في نبوة محمد (ص) ، أو خالفه فيما جاء به من عند الله .

(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) . يقال اصبر نفسك مع فلان أي كن معه . والمراد بالذين يدعون ربهم المؤمنون المخلصون . والغداة والعشي كناية عن مداومتهم على طاعة الله . والمراد بوجهه تعالى مرضاته . ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا معناه لا تحوّل اهتمامك عن أهل الدين الى أهل الدنيا . ومن أغفلنا قلبه هم الكافرون والمجرمون . وكان أمره فرطاً أي تجاوز في أقواله وأفعاله حدود الحق والعدل .

روي ان عُيينة الفزاري - أحد رؤوس المشركين - أتى النبي (ص) فرأى عنده جماعة من فقراء أصحابه ، فيهم سلمان الفارسي ، وعليه شملة قد عرق فيها ، ويده خوص - ورقة النخل - فقال عيينة لرسول الله (ص) : أما يؤذك ريح هؤلاء ، ونحن سادات مضر وأشرافها ، فإن أسلمنا أسلم الناس ، وما يمنعننا من

سورة الكهف

اتباعك إلا هؤلاء ، فتحهم عنك حتى تتبعك ، أو اجعل لهم مجلساً، ولنا مجلساً..
فتزلت الآية .

ونحن لا نعلم مكان هذه الرواية من الصحة سنداً ، ومع هذا نرجحها لأنها
مطابقة لمقتضى الحال ، ونعني به طبيعة المترفين ، وخلقهم الذميم ، والاستعلاء
على الضعفاء والبؤساء ، وقد نص القرآن على ذلك في الآية ٢٧ من سورة هود:
« وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا » .

وقبل أن يجيب الرسول (ص) عينة وأمثاله بلا أو بنعم قال له العلي الأعلى :
كن مع المؤمنين المخلصين ، لأنهم معي وأنا معهم ، واصبر نفسك على ما فيهم
كما ينفر المترفين لأن صبرك عليهم صبر في الله وعنى طاعة الله .. ألا ترى الى
إيمانهم وإخلاصهم لي ولك في كل شيء طلباً لثوابي ومرضاتي ؟. أما الكفرة
القجرة الذين أعمت الأهواء قلوبهم ، ولا يعملون إلا بوحى منها ومن مصالحهم ،
ويرفضون العيش مع غيرهم بالحق والعدل، وبأبواب إلا الكبرياء والاستعلاء متجاوزين
كل حدود الله والانسانية ، أما هؤلاء فلا تصغ الى قولهم ، فإنه الجهل والغرور
والكذب والضلال ، بل عليك أن تجاهدهم ، وتغلظ عليهم بالقول والفعل :
« يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان
الله مع المتقين - ١٢٣ التوبة » .

(وقل الحق من ربكم) . قل خطاب لرسول الله (ص) . وربكم خطاب
للذين أغفل الله قلوبهم ، أو للناس أجمعين ، والمعنى المراد تأكيد لما جاء في
الآية السابقة ، وهو قوله تعالى : « واتل ما أوحى اليك » . (فن شاء فليؤمن
ومن شاء فليكفر) هذا كقوله تعالى : « انا هديناه السبيل إما شاكراً وإما
كفوراً - ٣ الدهر » . وتدل هذه الآية على ان الانسان مخير ، لا مسير ، وردّ
الرازي على من استدل بها بأن مشيئة الانسان ليست من صنعه، بل من صنع الله ،
وعليه فالانسان مسير ، لا مخير .

ونقول في جوابه : ان مشيئة الانسان وليدة الظروف والأسباب المغرية - مثلاً -
يرى الرجل المرأة الجميلة فتصبل إليها نفسه ، وقد أوجب الدين على الانسان في
مثل هذه الحال أن يكبح شهوته ولا يندفع وراءها ، وليس من شك ان هذا في

الجزء الخامس عشر

تملوه : ، وقد عبّر الرسول (ص) عن ذلك بالجهاد الأكبر ، فقد روي انه بعث سرية : فلما رجعوا قال : مرحباً بكم قضاوا الجهاد الأصغر ، وبقي عليهم الجهاد الأكبر . فقبل له : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال : جهاد النفس ، ان أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه .

(انا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً) . هذا تهديد وانذار لمن أثر الكفر على الايمان والباطل على الحق .. والسرادق الخيمة ، والقصد ان العذاب محيط بهم من جميع الجهات ، تماماً كما تظلل الخيمة من فيها من كل جهاته . والمهل خثارة الزيت ، وهو شديد الاشتعال ، والمرفق المتكأ ، والمعنى ان للطاغين شر العذاب ، وبئس المآب .

لا نضيع أجر من أحسن الآية ٣٠ - ٣١ :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا*
أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكَيِّينَ
فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا*

اللغة :

العدن الإقامة ، يقال : عدن في المكان إذا أقام فيه . والأساور جمع أسوار وسوار ، وأصل الجمع أساوير وحذفت الياء للتخفيف . والسندس ضرب من الحرير الرقيق . والاستبرق الغليظ منه . والأرائك جمع أريكة السرير .

سورة الكهف

الإعراب :

ان الذين آمنوا خبر ان الجملة من انّا لا نضيع والعائد محذوف أي منهم .
وعملًا مفعول أحسن أي من عمل الحسن . ومن ذهب متعلق بمحذوف صفة
لأساور ، ومن سندس صفة ثانية للثياب . ومتكئين حال من ضمير يلبسون .

المعنى :

(ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً) . بعد
ان ذكر سبحانه الظالمين وعقابهم ذكر الصالحين وثوابهم ، وبين نوع هذا الثواب
بقوله : (أولئك لهم جنات تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور
من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم
الثواب وحسن مرفقاً) . يحلون من حليت المرأة إذا لبست حليها ، وضمير
فيها للجنة ، والأساور والثياب والأرائك وما اليها تدرج في قوله تعالى : « وفيها
ما تشتهي الأنفس وتلد الأعين — ٧١ الزخرف » ، وقال الامام علي (ع) : كل
نعم دون الجنة محقور ، وكل بلاء دون النار عافية ، وتقدم نظيره مرات ، منها
الآية ٨٢ من سورة البقرة و ٥٧ من سورة النساء و ١٧١ من سورة آل عمران .

وطريف قول بعض الصوفية : ان المراد بالحلي التوحيد ، وبالثياب الخضر
الصفات الموجبة للسرور ، وبالسندس المواهب الذاتية ، وبالاستبرق الاخلاق المكتسبة ،
وبالأرائك أسماء الله .. ولا جراءة على الله أعظم من تفسير مقاصده بالوهم والخيال ،
أو بالهوى والغرض .

بن غني كافر وفقير مؤمن الآية ٣٢ - ٤٤ :

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا

بَنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا * كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ
شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ
أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ
مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ
إِلَى رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ
أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْقَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا *
لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ
قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنِّيًا أَنَا أَقْلُ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا *
فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ
السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَآوُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ
لَهُ طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِشَمْرِهٖ فَاصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهٖ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ
خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ
لَهُ فِتْنَةً يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ
الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ نَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا *

اللغة :

الجنة البستان . واحف به أطاف به ، والمراد هنا نجفناهما ان الله جعل النخل

سورة الكهف

محيطاً بالبساتين . والمحاوراة مراجعة الكلام قال وقلت . والنفر الأنصار والأعوان .
وتبيد تفتي . وقائمة كائنة . والمقلب المرجع . والحسبان السهام والحساب والمراد
به هنا الآفة المهلكة . والصعيد وجه الأرض . والزلق مسا تزلق فيه الأقدام ولا
تثبت عليه . وغوراً ذهب وغار في الأرض . وأحيط بشمره كناية عن الحلاك .
ويقلب كفيه كناية عن الندم . وخاوية خالية أو هاوية . والعروش جمع عرش ،
وهو السقف والمراد هنا ان الكروم سقطت على الأرض . والعقبى العاقبة .

الإعراب :

رجلين على حذف مضاف أي قصة رجلين ، والقصة مفعول أوله لاضرب
ومثلاً مفعول ثان . وضمير لهم يعود الى المشركين . وكلنا مبتدأ ، وجملة آتت
خبر ، وافرد الضمير في آتت مراعاة للفظ كل ، ويجوز كلنا بالثنية حملاً على
المعنى . ومثل آتت لم تظلم في أفراد الضمير ، وشيئاً مفعول تظلم . وخلالها ظرف
لأنه بمعنى وسط أو بين ، وهو منصوب بفجرنا . ومالاً تمييز ، ومثله نقرأ
ومثلاً . ولكننا هو الله ربي الأصل لكن انا هو الله ربي وانا مبتدأ أول ،
وهو مبتدأ ثان ، والله مبتدأ ثالث ، وربى خبر للثالث وهو وخبره خبر للثاني
وهو وخبره خبر للأول . ولولا بمعنى هلا . وما شاء الله (ما) اسم موصول
بمعنى الذي خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر ما شاء الله ، أو مبتدأ والخبر محذوف
أي ما شاء الله كائن . وان ترني الأصل ترني والياء مفعول أول ، وانا تأكيد
لها ، وأقل مفعول ثان . ومالاً تمييز . وهناك ظرف مكان للبعد خبر مقدم ،
والولاية مبتدأ مؤخر ، والله متعلق بمحذوف حالاً من الولاية : والحق صفة لله .
وثواباً تمييز ، ومثله عقي .

خلاصة القصة :

عند تفسير الآية ٢٧ من هذه السورة ذكرنا ان عتاة المشركين اشترطوا لآيمانهم
برسول الله (ص) أن يطرد المؤمنين الفقراء ، أو يعين لكل منها مجلساً ، بحيث

لا يجمعان عند النبي (ص) في مكان واحد ، لأنهم سادة وأمراء ، والناس عبيد لهم وأماء .. وتأتي الآيات التي نحن بصددھا لترسم صورة الأغنياء المتكبرين في شخص غني يملك المال والعقار ، وصورة للفقراء المؤمنين في شخص فقير لا يملك شيئاً ، ولكنه يعتز بخالقه ، والغني يعتز بماله .. ويدور حوار بينهما يعكس الصراع بين الحق والباطل ، وفي النهاية ينتصر الحق ، ويزهق الباطل ، ويصدق الحكيم القائل : من صارع الحق صرعه .

وبتلخص معنى الآيات بأن الذي يعتز بماله من دون الله يملك بستانين عظيمين، فيها زرع كالخنطة وغيرها من الحبوب ، وفيها أيضاً أشجار كثيرة من نخيل وأعناب ، وكل بستان تنفجر في أرضه المياه ، ويغلب الألباب بهجة وجلاً ، ويؤتي ثمره ونتاجه في أوانه كاملاً حبوباً وفاكهة، لا ينقص منها شيء ، أما الذي يعتز بخالقه فلا يملك شيئاً .. فقال الكافر للمؤمن في زهو وغرور : أنا أكثر منك مالاً وجاهاً .. أنظر إلى ما أملك من زرع وأشجار ، وثمار وأنهار .. هذا هو الملك الدائم الذي يبقى للأولاد والأحفاد ، لا اللجنة التي ترعمون أيها المساكين، وهل بعد الموت جنان ونيران ؟. وإن صح الخبر فإن حظي في الآخرة سيكون أوفى منه في الدنيا ، لأن المترف هنا مترف هناك أيضاً .

فقال المؤمن للكافر مفرحاً وموثقاً : أنقول هذا بغياً وكفراً بالذي سواك رجلاً ؟ أتجهل أصلك وفرعك ؟ ألسنت من آدم ، وآدم من تراب ؟. ألم تلك نطفة من مني بمنى ؟.. أما أنا فأؤمن بالله وأوحدّه وأحمده على الهداية إلى صراطه ومرضاته.. ولو كنت من ذوي الرشد والبصيرة لتواضعت لله وشكرته على آلائه ، ولم تأخذك العزة بالآل .. وما الذي جعلك تأمن المفاجآت والمخبات ؟. وإذا أُملي الله للعاصين بحلمه ورحمته فقد يعاجلهم بغضبه ونقمته .

وما أتم المؤمن كلامه حتى سقطت الأشجار ، وغارت الأنهار ، وهلك الزرع وباد كل شيء في جنة الكافر التي نظر إليها وقال معتزاً : ما أظن ان تبید هذه أبداً .. وبعد أن رأى صنع الله ، وانقطع أمله من زرعه وأشجاره قال في حسرة وانكسار : يا ليتني لم أشرك بربي أحداً .. الآن وقد عصيت من قبل وكنت من المفسدين .. هذا ملخص ما جاء في الآيات ، والقصد منها ان يؤمن الانسان

سورة الكهف

قولاً وعملاً بأنه لا حول ولا قوة إلا بالله الواحد القهار ، وانه ، جلّت حكمته ، يحول ساعة يشاء العز الى ذل ، والغنى الى فقر ، والعافية الى اسقام وآلام وبالعكس ، وان ملك المخلوق منها بلغ من العظمة فما هو بشيء إلا إذا تحول عملاً من أعمال الخير . وبعد هذا التلخيص نشرع بالتفصيل وتفسير الآيات ، مع العلم بأن أكثرها واضح لا يحتاج الى تفسير .

المعنى :

(واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً كلنا الجنتين آتت اكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالها نهراً) . الخطاب في اضرب للنبي (ص)، وضمير لم للمشركين الذين قالوا لرسول الله (ص): اطرّد المؤمنين ، أو يعود الضمير لكل مترّف متكبر ، والمراد بالرجلين الغني والفقير اللذان وقع بينهما الحوار الآتي ، والمعروف من طريقة القرآن انه كثيراً ما يضرب الأمثال للأفكار المجردة والمبادئ العامة ، ويشبهها بالأشياء المحسوسة ، كتشبيه الايمان بالنور ، والكفر بالظلمات .. وقد يشبه المحسوس بمحسوس آخر أوضح منه وأبين ، كتشبيه المرتد عن الدين بالكلب اللاهث ، والغاية من ذلك الجلاء والتوضيح بالاضافة الى العبرة والعظة : « وعاداً وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً . وكلاً ضربنا له الأمثال - ٣٩ الفرقان » .

وقد شبه سبحانه هنا حال الطفلة المترفة المتكبر كافر جهول يملك بستانين ، فيها نهر وزرع من الحبوب ، وأشجار تحمل الفاكهة المفضلة آنذاك وهما الرطب والعنب ، وكل من الزرع والشجر يؤولي نتاجه في أوانه كافياً وافياً لا ينقص منه شيء .. وشبه سبحانه المؤمنين بمتواضع مؤمن عارف ، ولكنه فقير لا يملك شيئاً ، وقد وقع بين الاثنين الحوار التالي :

(فقال لصاحبه) . القائل هو الغني الجاحد المتكبر ، وصاحبه المؤمن العارف المتواضع (وهو يحاوره) براجعه في الكلام : (أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً) . وإذا كان أكثر مالاً ورجلاً فهو أعظم وأكمل ، لأن المال والجاه هو مقياس العظمة والكمال ، أما الايمان والاخلاص فكلام بلا معنى .. هذا هو منطق الفسقة

الفجرة قديماً وحديثاً .. فقيمة كل امرئ - عندهم - ما يملك ، لا ما يحسن علماً وعملاً .. هذا هو بالذات المنطق الذي جر على الانسانية الولايات ، وهو الدافع الأول على التفنن بأسلحة الخراب والدمار ، وصرف الملايين على صنعها من أقوات الجائعين .. يسلب الاستعمار مقدرات الشعوب ، ويحولها إلى قنابل وصواريخ لا لشيء إلا ليلقيها على تلك الشعوب بالذات ، الشعوب التي يدمرها المستعمرون بقنابل من أرزاقها وخيراتنا .

(ودخل جنته وهو ظالم لنفسه) لأنه استجاب لاهوائها وشهواتها ، وعرضها للتهلكة ، تماماً كمن يستجيب لطفله فيما يضره ويهلكه (قال ما أظن ان تبید هذه أبداً) . قال الرازي : « كيف قال : ما اظن ان تبید هذه أبداً مع ان الحسن يدل على ان الدنيا بأسرها ذاهبة غير باقية ؟ . قلنا ، ان المراد انها لا تبید مدة حياة صاحبها ووجوده » .

والجواب الصحيح : ان الجهل والغرور أعما صاحب الجنة عن كل شيء حتى عن المحسوسات والمريثات ، قال عز من قائل : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولم أعين لا يبصرون بها ولم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون - ١٧٩ الاعراف » . (وما أظن الساعة قائمة) . ولا يستند هذا الظن إلا الى بطره وغروره ، ووهمه وخياله بأن نعمته خالدة لا يفنيها شيء ، وبهذا نجد تفسير انكار من أنكروا يوم الحساب من الطغاة والمترفين (ولئن رددت الى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً) . لأن المترف هنا مترف هناك وفي كل مكان في منطقهم ومفهومهم قياساً للغائب على الشاهد .. وما درى ان النجاة يومئذ للمتقين ، لا للطغاة والمترفين : « ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه - ٢٨ الحاقة » .

(قال صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً) . قال المؤمن للكافر مفرعاً وموجهاً : أتجمحد خالقك ، ودلائله ظاهرة فيك ؟ . من أين جاءتك الحياة بعقلها وسمعها وبصرها ، ولم تك من قبل شيئاً مذكوراً ؟ . (لكننا هو الله ربّي ولا أشرك بربي أحداً) . أما أنا فقد اهتديت بفطرتي وعقلي الى خالقي وخالق كل شيء وآمنت بأنه هو وحده الخالق الرازق .

سورة الكهف

ثم قال المؤمن مذكراً الكافر بنعمة الله عليه ، وبوجوب شكرها وحمد الله عليها : (ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) . لو كنت من ذوي الرشد والبصيرة لأدركت ان الخير والفضل أن يكثر علمك ، لا مالك ، وان تباهي الناس بأخلاقك لا بجاهك ، وان تعلم انه لا حول ولا قوة إلا بالله الواحد القهار ، فهو وحده الذي يهب العز والجاه ، ويحول الغنى الى فقر ، والفقر الى غنى . ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

(ان ترن أنا أقل منك مالا وولداً فعسى ربى أن يوتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيداً زلقاً أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً) . استطال الكافر على المؤمن ، وتعالى عليه بماله ، فقال له المؤمن : ان الغنى والفقر بعد العرض على الله ، وما يدريك انى لديه أغنى منك وأكرم ، وانه قد ادخر لي في دار البقاء ما هو خير من جنتك هذه التي تفخر بها وتتعاظم ، بل ما يدريك أن يجعلني غنياً، ويجعلك فقيراً بن عشة وضحاها ؟ . انك تزهو وتفخر بمالك لأن الناس يغبطونك عليه ، ولكن هل تدفع عنك غبطتهم هذه ما يجنبه الدهر لك من العواقب ؟ . وهل أنت في مأمن من الله وغضبه ؟ ألا تخشى أن يتزل عليك وعلى جنتك صاعقة من السماء فتصبح أنت وما تملك أثراً بعد حين ؟ .

(وأحيط بشمره فأصبح بقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها) . هلك الزرع ، وهوت الأشجار من كل جانب ، وغار الماء حتى آخر نقطة منه ، وأصبحت الأرض زلقاً لا تثبت عليها قدم .. كأن لم يكن شيء ، وحل الفقر محل الغنى ، والكآبة محل الفرح ، والذل والانكسار محل التعظيم والكبرياء .. وهذه هي ثمرة الكفر والبغي والفساد ، بل وثمره الغفلة والغرور .. حسرة وندامة على الجهود والأموال ، والتفريط والإهمال .

(ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً) . كأنه أراد بهذا القول أن تعود جنته الى روائها وعطائها، ولكن هيئات .. لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً - ١٥٨ الأنعام .

(ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً) . أبداً لا صاحب

ولا عشرة ولا جاه ولا مال.. لا شيء على الإطلاق إلا الله : قل اني لن يغيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً - ٢٢ الجن ، أي ملجأ (هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقباً) . هنالك اشارة الى يوم القيامة ، والولاية بفتح الواو النصرة ، وضمير هو يعود الى الله، والعقبى العقابة، والمعنى ان الاسان اذا وجد في حياته هذه من ينصره ويدفع عنه ، أو يعينه بشيء فإنه يوم القيامة لا يجد حيلة ولا وسيلة ولا ناصر إلا الله وحده ، والله سبحانه مع المتقين ، وقد أعد لهم أجراً كريماً ، وحسن مأب .

زينة الحياة الدنيا الآية ٤٥ - ٤٦ :

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَهَاءُ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً * أَمْالُ الْبُنُونِ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمْلاً *

اللمة :

الهشم النبات اليابس المتكسر . وتذروه تنثره وتفرقه .

الإعراب :

قال أبو البقاء في كتاب الاملاء : يجوز ان تجعل اضرب بمعنى اذكر، فتعلى اضرب الى مفعول واحد ، وهو مثل الحياة ، وكهاء متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ

سورة الكهف

محدوف أي هو كائن كماء ، ويجوز ان تجعل اضرب بمعنى صير وعليه يكون كماء مفعولاً ثانياً .

المعنى :

(واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح) . الدنيا حلوة خضرة في منظرها ، وغرارة ضاربة في غيبرها ، لا خير في شيء من أزوادها إلا التقوى ، كما قال الإمام علي (ع) ، وهذا هو معنى الآية ، حيث شبه سبحانه الدنيا في نضرتها بمطر نزل على الأرض ، فأخصبت وأنبت من كل زوج بهيج ، ولكن ما أسرع أن ذوى وجف يابساً وهشيماً تنثره الرياح ، وهكذا زينة الحياة الخاصة : منظر جميل ، وغنر عليل (وكان الله على كل شيء مقتدراً) . يقدر على إزالة الكون وإفناؤه ، تماماً كما قدس على خلقه وإيجاده .. قال ابن عربي في الفتوحات المكية : « ان الله قادر من حيث الأمر ، ومقتدر من حيث الخلق » يريد ان الله يتصف بالقدر من حيث انه يقول للشيء « كن فيكون » سواء أقال له ذلك ، أم لم يقل ، ويتصف بالاعتدال من حيث انه قال بالفعل ووجد الشيء كذلك .

المال والبنون زينة الحياة

(المال والبنون زينة الحياة الدنيا) . زينة الحياة على نوعين ، عامة وخاصة ، والعامة كسبر المواصلات وبناء السدود ، وما اليه من مشاريع الري ، وكإنشاء الجامعات للعلوم ، والروضات للأطفال ، والمصانع لسد الحاجات ، ونحوها مما ينفع الناس بجهة من الجهات . أما الزينة الخاصة فهي كالدار والسيارة الفارهة ، والولد الناجح المطيع ، والمكانة الاجتماعية وما الى ذلك من المنافع الشخصية ، وهذه الزينة ليست محرمة ، كيف وهو القائل جلت حكمته : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق - ٣٢ الأعراف ، ج ٣ ص ٣٢٠ .

ولكن الزينة الخاصة لا تستأهل أن يعتز بها الإنسان ويفخر، لأن عظمتها لا تقاس بها ، وإنما تقاس بالزينة العامة ، بما ينفع الناس ، ويبقى جيلاً بعد جيل ، وهذه هي التي عنها الله بقوله : (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً) لأن فاعلها ينال في الآخرة ما يأمل ، الى جانب الاحترام وخلود الذكر في هذه الحياة .

والخلاصة ان المال وسيلة ، لا غاية ، فيوزن ويقدر بتأثيره وآثاره، ان خيراً فخير ، وان شراً فشر ، فإذا صُرف في وجوه الشر والفساد كسباق التسلح فهو شر ، وان صُرف في سد الحاجات فهو خير ، والخير على نوعين : فإن دفع عن صاحبه ضرراً أو جلب له نفعاً وكفى فهو خير خاص يزول بزوال وقته ، وان عاد بالنفع على الجميع فهو خير عام ، ومن الباقيات الصالحات .

وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً الآية ٤٧ - ٤٩ :

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاكُمْ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً * وَغَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّ لَنَا نَجْعَلْ لَكُمْ مَوْعِداً * وَوَضِعُ الْكِتَابِ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ إِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً *

اللفظ :

غادر الشيء تركه . والمراد بالكتاب هنا صحيفة العمل التي تُعطى للإنسان غداً يمينه أو بشيئله . ومشفقين خائفين . والويل الهلاك .

الإعراب :

يوم منصوب بفعل محذوف أي واذكر يوم نُسِرَ الجبال . وبارزة حال من الأرض لأنّ ترى هنا بصرية . وصفاً حال أي وحشرناهم مصفوفين . وكما خلقناكم الكاف بمعنى مثل صفة لمصدر محذوف ، وما مصدرية أي جتتمونا بجيئاً مثل مجيء أول مرة ، وأول ظرف منصوب بخلقناكم . وبلى الانتقال من شيء الى شيء ، وليست لإبطال ما قبلها . وإن لن نجعل (إن) مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي انه وما بعدها خبر . ومشفقين حال من المجرمين لأن ترى هنا بصرية . وويلتنا منادى أي يا هلاكنا احضر . وما لهذا الكتاب (ما) استفهامية في محل رفع بالابتداء ، ولهذا الكتاب خبر .

المعنى :

(ويوم نسِرَ الجبال وترى الأرض بارزة) . لهذه الأرض التي نعيش عليها يوم ، ذكره الله سبحانه في العديد من الآيات ، منها هذه الآية ، وقد وصفه تعالى فيها بوصفين : الأول ان الله يقطع الجبال من أماكنها ، ويسيرها في الجو كما يسير السحاب . الوصف الثاني : ان جميع أطراف الأرض وأجزائها تكون ظاهرة بارزة لا يحجبها شيء ، وعندئذ يكون المحشر الذي أشار اليه بقوله : (وحشرناهم فلم تغادر منهم أحداً) يجمع الله سبحانه في ذلك الأولين والآخرين لنقاش الحساب وجزاء الأعمال .

(وعرضوا على ربك صفاً) . ذكرنا فيما سبق ان البعث والحساب والجزاء حق لا ريب فيه ، وأثبتنا ذلك بالأدلة الفاطمة ، وبأساليب شتى عند تفسير الآيات التي تعرضت الى اليوم الآخر ، ومنها الآية ٤ من سورة يونس ، فقرة الحساب والجزاء حتم ج ٤ ص ١٣٢ . وتقول الآية التي نحن بصددتها: ان الغلاتق يُعرضون غداً على الله صفاً ، والمراد بالعرض الوقوف بين يدي الله للحساب ، أما المراد بالصف فقد اختلف المفسرون فيه على أقوال ، فبعضهم أبغى الظاهر على دلالة ، وبعضهم تصرف وحمل اللفظ ما لا يحتمل .

والذي نراه نحن ان الصف هنا كناية عن الترتيب والنظام، وان الخلائق يعرضون على خالقهم بوضع محكم ودقيق .

(لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم ان لن نجعل لكم موعداً) .
 بهذا يبدأ الله سبحانه محاسبة الذين ينكسرون البعث : لقد أخرجناكم من بطون أمهاتكم عراة حفاة عزلاً من كل شيء ، وكذلك أخرجناكم من قبوركم ، ولا فرق إلا في انكم خرجتم أولاً غير مسؤولين عن شيء ، وثانية لتسألوا عما كنتم تعملون وتعتقدون وتقولون .. ومن ذلك قولكم : البعث خرافة وأساطير .. فما ترون الآن ؟ .

(ووضح الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) . بعد أن قال الله لمنكري البعث : « هذا يوم البعث الذي كنتم به تكذبون » أعطى كل واحد منهم صحيفة أعماله ، وقال له : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً - ١٤ الاسراء » . اقرأ صحيفة أعمالك ، وحاسب نفسك بنفسك .. فقرأها ، وهو يرتجف من الخوف الذي لا رجاء معه ولا أمل بالنجاة، ولو خاف عذاب الحريق من قبل ، وابتعد عن طريقه لكان اليوم في أمن وأمان ، ولكنه أمن هناك فخاف هنا .

(ويقولون يا ولينا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها) .
 ومن قبل هذا قالوا : لا كتاب ولا حساب ، ولم يستجيبوا لعقل ولا دين (ووجدوا ما عملوا حاضراً) من غير زيادة أو نقصان ، كيف (ولا يظلم ربك أحداً) لا في ثواب ولا في عقاب بل يضاعف الثواب لمن أحسن ، وقد يعفو عن أساء .

سجدوا لآبليس الآية ٥٠ - ٥٣ :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ
 فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ

سورة الكهف

عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا * مَا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا
خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا * وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا
شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا *
وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنْهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا *

اللفظة :

الفسق الخروج . والمضد ما بين المرفق الى الكتف ، والمراد به هنا النصير
والمعين ، كما يراد ذلك من اليد كثيراً . والوبق الهلاك والوبق المهلك والموبقة
المهلكة . ومواقعوها أي واقعون فيها أو داخلوها . ومصرفاً محولاً ، ومكاناً
ينصرفون اليه .

الإعراب :

كان من الجن الخبر محذوف أي كان أصله من الجن . بئس للظالمين بدلاً
فاعل بئس ضمير مستتر وبدلاً تمييز أي بئس البديل بدلاً ، والمختصرص باللم
محذوف ، وهو إبليس وذريته . ويوم منصوب بفعل محذوف أي واذكر يوم يقول.

المعنى :

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) تقدم في الآية ٣٤
من سورة البقرة و ١١ من سورة الأعراف و ٦١ من سورة الاسراء (كان من
الجن ففسق عن أمر ربه) أي خرج عن طاعة الله ، وقلنا أكثر من مرة :
اننا نؤمن بوجود الجن لأن الوحي يشبهه ، والعقل لا ينفيه ، واننا ندع التفاصيل

لعلام الغيوب (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني) . القرآن ينطق بعضه ببعض ، ويشهد بعضه على بعض : وقد عبّر عن الذين يلبسون الحق بالباطل بأنهم جنود إبليس وأوليأؤه في العديد من الآيات . وقال هنا عز من قائل : (أفتتخذونه وذريته أولياء) فجاز لنا - وهذه هي الحال - ان نقرر ذرية إبليس بجنوده وأعوانه ، وان ذرية إبليس وجنوده وأوليأؤه هم الذين يلبسون الباطل بالكذب والافتراء على الحق.. وليس بعيد أن يكون التعبير عن هؤلاء بذرية إبليس للإشارة الى قوة الشبه بين أعمالهم وأعماله .

ومن الطريف قول من قال : ان لابليس ذكراً في فخذه الأيمن ، وفرجاً في فخذه الأيسر ، فيدخل ذاك بهذا فيأتي النسل والذرية .

(وهم عدو لكم) . وكل من يموه عليك ، ويغريك بالباطل ، أو يثني عليك بما ليس فيك فهو عدو لك ، شعر بذلك أم لم يشعر ، أما من يتدع الأساطير حول إبليس وغيره فهو عدو الله ورسوله والانسانية (بشس للظالمين بدلاً) . والظالمون هم الذين يستبدلون طاعة الشيطان بطاعة الرحمن ، ومنهم الذين يختارون المفسدين لمنصب من المناصب ، ويفضلونهم على الصالحين .

(ما أشهدتهم خالق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً) . ضمير أشهدتهم راجع الى إبليس وذريته . وما أشهدتهم أي ما أحضرتهم حين خلقت الكون وخلقتهم ، والعضد النصير والمعين ، والمقصود بالكلام المعاصون الذين فسقوا عن أمر الله ، والمعنى ان الله سبحانه إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون ، لا يستشير أحداً ، ولا يستعين بأحد لأنه غني عن العالمين ، وحين خلق الكائنات لم تحضر واحد منها ، حتى ولو كان أنقى الأنقياء ، فكيف إذا كان ضالاً مضلاً كإبليس وجنوده ، وما دام الأمر كذلك فكيف يُعصى خالق السموات والأرض ، ويطاع من لا يملك لنفسه نفعا ، ولا يدفع عنها ضرراً ؟ .

(ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوههم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقاً) أي مهلكاً ، والمعنى ان الله يقول غداً لمن يشرك في طاعته : أين الذي أطعته وزعمت انه يجديك نفعا في هذا اليوم العصيب ؟ . ادعه وانظر هسل يستجيب لك ؟ . كلا ، انه في شغل شاغل عنك وعن غيرك .. انه في عذاب

سورة الكهف

الحريق .. وقوله تعالى : نادوا شركائهم .. فدعوههم فلم يستجيبوا هو كناية عن يأس المجرمين وانقطاع آمالهم من كانوا يرجون ويأملون (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً) . المراد بالظن هنا العلم واليقين ، وبالمصرف المكان الذي يتصرفون ويهربون اليه من النار .. والهروب غداً من عذاب الله تماماً كالهروب من الموت في هذه الحياة .

وكان الانسان أكثر شيء جدلاً الآية ٥٤ - ٥٦ :

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأُولَى أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا * وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَتُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا *

اللغة :

المراد بصرفنا هنا ترديد المعنى وتوضيحه بأساليب مختلفة . والمراد بالجدل هنا الخصومة بالباطل بدليل قوله تعالى في الآية التالية : «وتجادل الذين كفروا بالباطل» . وقبلاً بضم القاف والباء المواجهة والمعاينة . والمراد باللدحض الزلق .

الإعراب :

جدلاً تمييز . والمصدر من ان يؤمنوا مجرور بمن تحذوفة . والمصدر من ان

تأتيهم فاعل منع . وقبلًا حال من العذاب . وما انذروا (مسا) اسم موصول في محل نصب عطفاً على آياتي . وهزوا مفعول ثانٍ لاتخذوا .

المعنى :

(ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر شيء جدلاً) . المراد بالانسان هنا أكثر الناس لقوله تعالى في العديد من الآيات : أكثر الناس لا يعقلون .. أكثر الناس لا يعلمون .. أكثر الناس لا يؤمنون . أما القرآن الكريم فهو كتاب الله الى عباده يهديهم بدلائله ومواعظه ، ويمنهم على التمسك بأحكامه وتعاليمه . وقد أوضح سبحانه هذه المواعظ والدلائل بشق الأساليب ، وضرب عليها من أجل ذلك الكثير من الأمثال ، منها الرجلان المذكوران في الآية ٣٢ ، وتشبيه الحياة بالماء في الآية ٤٥ من هذه السورة ، ولكن أكثر الناس لا يعقلون ويخاصمون في أوضح الواضحات ، ويحاولون إبطال الحق ودحضه بالمارة والأكاذيب . (وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا ان تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلًا) . المراد بالهدى القرآن وبيناته الواضحة ، وبالإستغفار التوبة ، وبسنة الأولين الإهلاك كما حدث لقوم نوح ولوط وعاد وثمود . والمعنى ان المشركين لا يحاولون ان يؤمنوا بالله أو يفكروا بالإيمان إلا عندما يوجد احد أمرين ، الأول أن ينزل بهم عذاب الاستئصال كما نزل بمن كان قبلهم ، فيؤمنوا حيث لا يغني الإيمان عنهم شيئاً ، كفرعون الذي آمن بالله لما أيقن بالإهلاك والفرق . الأمر الثاني أن يروا العذاب عياناً وجهاً لوجه .

وبكلام آخر ان الله سبحانه بعد أن يبين في الآية السابقة انه قدّم الدلائل الواضحة ، وأبى أكثر الناس الا الكفر والجدال بالباطل ، بعد هذا قال في هذه الآية : وما تغني الآيات والنذر عند قوم لا يؤمنون الا عند سكرات الموت ، أو حين يهدّدون بالعذاب الذي يرونه بأعينهم ويعتقدون انه نازل بهم لا محالة اذا خالفوا الرسل .

(وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) . هذه هي مهمة الرسل تبشير من أطاع بالنعيم ، وإنذار من عصى بالجهنم . وتكرر هذا المعنى أكثر من مرة .

سورة الكهف

أنظر تفسير الآية ١٦٥ من سورة النساء ج ٢ ص ٤٩٢ (ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنزلوا هزواً) . أوضح الله الحق . وأثبت به بالبينات والدلائل ، ولكن الذين كفروا خاصموه وجادلوا فيه ، وحاولوا إبطاله ودحضه بالمزارة والأكاذيب ، وبالهزء والسخرية ، وليس المراد من الهزء بآيات الله من يسخر بها بلسانه فقط ، بل كل من عرف حكماً من أحكام الله ولم يعمل به فهو من الذين اتخذوا القرآن ودين الله لعباً وهزواً ، قال الإمام علي (ع) : « من قرأ القرآن فات فدخل النار — لأنه لم يعمل بالقرآن — فهو ممن اتخذ آيات الله هزواً » .

ذكر آيات ربه فأعرض الآية ٥٧ - ٥٩ :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ
إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ
إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا * وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ
بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ
مَوْعِدًا * وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمِْلِكِهِمْ مَوْعِدًا *

اللفظ :

أكنة أغطية . والفقه الفهم . والوقر الثقل في السمع . والموئل الملجأ .

الإعراب :

المصدر من ان يفقهوه مفعول من أجله لجعلنا أي مخافة ان يفقهوه . ووقراً

مفعول لفعل محذوف أي وجعلنا في آذانهم وقراً . وإذا حرف جواب وجزاء .
وتلك مبتدأ والقرى عطף بيان ، وأهلكناهم خبر ، ويجوز ان تكون تلك مفعولاً
لفعل محذوف يفسره الفعل الموجود أي وأهلكنا تلك القرى أهلكناهم .

المعنى :

(ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يده) .
أوضح سبحانه الدلائل على وجوده ووجوب طاعته بشئ الأساليب ، وضرب الكثير
من الأمثال على ذلك ، وأمر الانسان بالخير ونهاه عن الشر ، وان يتوب مما
أسلف من الذنوب ، وحذره من مخالفة الأمر والنهي والإصرار على الذنب ،
ولكنه أعرض ونأى بجانبه ، وأهلك نفسه بفساده وعناده (انا جعلنا على قلوبهم
أكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقراً) . تقدم نظيره مع التفسير في الآية ٢٥ من
سورة الأنعام ج ٣ ص ١٧٦ والآية ٤٦ من سورة الإسراء .

(وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً) . وكيف يهتدون ؟ وعلى
قلوبهم أغطية ، وفي آذانهم صمم . وكل من لا ينتفع بالموعظة الحسنة فهو وأعمى
القلب والعين والاصم سواء .

(وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب) . تقدم
نظيره مع التفسير في الآية ٦١ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٢٥ (بل لهم موعد
لن يجدوا من دونه موثلاً) أي ملجأ ، والمراد بالموعد هنا وقت اللقاء عند الله
الذي لا خلف له . ولا مفر عنه ، قال الإمام علي (ع) مخاطباً ربه : « انت
الابد لا امد لك ، وانت المنتهى لا محيص عنك ، وأنت الموعد لا ملجأ منك
إلا اليك ، بيدك ناصية كل دابة ، واليك مصير كل نسمة » .

(وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً) . المراد بالقرى
قرى عاد وثمود وغيرهما من الأمم الخالية ، والمهلك الهلاك ، والمعنى ان الله جعل
لهلاك الظالمين وقتاً معيناً ، فإذا جاء لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ
حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا *
فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا *
قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا
الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا
نَبْغُ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا *

اللفظة :

فتاه صاحبه أو خادمه . لا أبرح لا أزال . والحقب بضم الحاء والقاف ،
وبضم الأولى وسكون الثانية الدهر والزمان . وجمع البحرين المجمع المكان الذي
يلتقي فيه البحرين ، وبصيران بجرأ واحداً ، وفي البحرين أقوال ، منها أنها
البحر الأبيض والبحر الأحمر ، ولو كنت من علماء الجغرافيا لقارنت بين الأقوال
واخترت الصحيح أو الأصح منها . والسرب المسلك . والنصب التعب . فارتدا
على آثارهما قصصاً أي رجعا في طريقهما يتبعان أثرهما الأول .

الإعراب :

لا أبرح من أنحوات كان ترفع الاسم وتنصب الخبر ، واسمها ضمير مستتر
وخبرها محذوف أي لا أبرح سائراً . وحقبا ظرف منصوب بأمضي . وسرباً مفعول
ثان لاتخذ ، أو في البحر يتعلق بمحذوف مفعولاً ثانياً ، وسرباً منصوب على

المصدرية أي سرب الحوت سرباً . وهذا عطف بيان من سفرنا . والمصدر من ان اذكره بدل اشتال من هاء أنسانيه أي مسا انساني ذكرني إياه إلا الشيطان . وعجبا صفة المفعول مطلق محذوف أي اتخذاً عجيباً . وقصصاً منصوب على المصدرية أي يقصان الاثر قصصاً أو في موضع الحال أي مقتصين .

المعنى :

(واذا قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو امضي حقياً فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً) . اختلفوا في موسى بطل هذه القصة : هل هو موسى بن عمران أو غيره ؟ . نقل الرازي عن اليهود انه موسى بن ميثا بن يوسف بن يعقوب ، وهو أقدم من موسى بن عمران واكثر العلماء والمفسرين على انه ابن عمران الشهير ، وهو الظاهر . أما فتاه فالمعروف انه يوشع بن نون ابن اخت موسى بن عمران وتلميذه المقرب وخليفته من بعده على بني اسرائيل ، أما الذي قال له موسى : هل أتبعك على ان تعلمن مما علمت رشداً .. فالمعروف بين الناس انه الخضر ، ولكن الله سبحانه سكت عن اسمه ، واسم فتى موسى ، فيجمل بنا نحن ان نعر عن هذا بفتى موسى ، وعن ذلك بصاحبه .

وقيل : ان الخضر لقب ، أما اسمه فبليا بن ملكان ، واختلفوا : هل هو نبي أو ولي ؟ . وأيضاً قيل : انه من المعمرين الأحياء الى يوم يبعثون ، أما نحن فنلتزم السكوت عن نبوته وحياته إذ لا دليل قاطع لاشك من الكتاب أو السنة على واحدة منها ، ولا يمتان الى عقيدتنا وحياتنا بصلة . وقال البعض : انه من الملائكة . وهذا أبعد الأقوال .

وفي رواية ان سائلاً سأل موسى : أي الناس أعلم ؟ قال : أنا .. فأراد الله سبحانه ان يعلمه التواضع ، وانه فوق كل علم عليم ، فأوحى الله اليه ان في مجمع البحرين رجلاً يعلم أشياء لا تعلمها . فقال له موسى : وكيف لي به ؟ قال : تحمل معك حوتاً لا حياة فيه ، فحيث تفقد الحوت فالعالم هناك ، فحمل موسى الحوت ، واصطحب معه فتاه ، وجداً في السبر حتى بلغا مجمع البحرين

سورة الكهف

إذ أخذت موسى ستة فنام، وفي أثناء نومه انتفض الحوت وقفز الى البحر ، فكانت هذه آية من آيات الله لموسى .

وسواء استند الراوي الى العيان أو الاستنتاج فإن روايته هذه تلقي ضوء على ما ذكرناه من كلام الله بين قوسين في صدر هذا الكلام .

(فلما جاوزا قال - موسى - لفتهآ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً) .
بعد أن استراح موسى وفتهآ قليلاً عند مجمع البحرين استأنفا السبر الى أن أدركهآ التعب ، وأحسا بالجوع ، فطلب موسى من فتهآ الغداء ، وكان القى قد شاهد انتفاضة الحوت وقفزه الى البحر ، ولكنه نسي أن يخبر موسى بأمره ، ولما طلب منه أن يأتي بالغداء تذكر و (قال - لموسى - أ رأيت إذ أوتينا الى الصخرة فإني نسيت الحوت وما انسانيه إلا الشيطان ان اذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً) .
ولما سمع هذا موسى لاحت له دلائل الفوز ببغيته ، و (قال ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصاً) رجع موسى وفتهآ الى المكان الذي قفز منه الحوت الى البحر ، وسارا على الطريق الذي جاء منه يتبعان أثرهما الأول .

موسى يلتقي بصاحبه الآية ٦٥ - ٧٠ :

فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا
عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ يَمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا * قَالَ
إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا *
قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي
فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا *

أن يجعله في حل من صحبتہ ان سألہ ، والمؤمنون عند شروطهم ، فكيف الأنبياء ؟. (قد بلغت من لدني عنراً) . قطعت عليّ كل عذر أتعل به .

٣ - (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية) . قيل : هي انطاكية ، وفي رواية عن الإمام جعفر الصادق (ع) : أنها الناصرة (فاستطعما أهلها) طلبا منهم الطعام ضيافة (فأبوا أن يضيفوهما) . قال المفسرون : انما قال : فأبوا أن يضيفوهما ولم يقل : فأبوا أن يطعموهما - للإشارة الى ان أهل القرية كانوا لثاماً ، لأنه لا يرد الضيف إلا لثيم ، بخاصة اذا كان الضيف غريباً (فوجدوا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه) . ضمير فيها للقرية ، وضمير فأقامه للعبد الصالح ، ويريد هنا بمعنى يكاد ، وكلّ من أراد وكاد . تستعمل بمعنى الثانية ، والمعنى ان موسى وصاحبه رأيا في القرية حائطاً أوشك على السقوط ، فوآه الثاني وأصلحه بلا مقابل ، فعجب موسى من ذلك و (قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً) . أتصلح الجدار بالمجان لقوم أبوا ضيافتنا، ونحن في أمس الحاجة إليها ؟ هلا طلبت أجراً على عملك لتنفقه في ثمن الطعام ؟.

وخرق السفينة ، وقتل الغلام مثلاً على ما يبدو شراً في ظاهره دون باطنه، وإقامة الجدار مثال على العكس .

(قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً) . اشترط العبد الصالح على موسى ان لا يسأل ، وقيل موسى الشرط ، ومع ذلك سأل ، ولما دُكر بالشرط اعتذر ، ولكنه سأل بعد الاعتذار ، ولما دُكر ثانية قطع على نفسه عهداً أن يجعل العبد الصالح في حل من صحبتہ ان سأل بعدها .. ولكنه سأل ، وهو الحريص على ان يتخذ العبد الصالح صاحباً .. وموسى (ع) معذور في كل ما سأل لأن نفسه تصبر على الخير والمعروف ، أما ما تراه منكراً فلا ولن تستطيع عليه صبراً ، حتى ولو أدى ذلك الى مخالفة الوعد والشرط ، وأي وزن للوعود والشروط إذا أدت الى ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.. ان الفرائض النفسية وغيرها لا تصدها وتقاومها إلا قوة أقوى منها وأصلب ، ولا شيء أصلب من الايمان الصحيح .. انه يتقلب على جميع الأهواء والشهوات ، ومن تقلب عليه شيء منها فإهو من الايمان الصحيح في شيء ، وان صلى وصام وحج إلى بيت الله الحرام .

سورة الكهف

هذا فراق بيني وبينك .. لك طريق ، ولي طريق .. هكذا قال لموسى صاحبه .
وقبل ان يفترقا أخبره العبد الصالح بحكمة ما أنكر (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في
البحر فأردت ان اعييها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً) . والعاقلة
يتحمل الضرر لدفع ضرر أكبر ، كما قال الشاعر « تحملت بعض الشر خوف
جميعه » . ومن هنا اتفق الفقهاء على ان الضرر الأشد يُدفع بالضرر الأخف ،
واذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما ، واستخرجوا من
هذه القاعدة الكثير من الأحكام ، منها جواز قطع العضو الفاسد إذا عرض صاحبه
للهلاك .

(وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقها طغياناً وكفراً فأردنا أن
يبدلها ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً) أي أرحم بهما وأبر ، وروي عن
الامام جعفر الصادق (ع) ان الغلام كان في سن البلوغ ، وكان كافراً ، وانه
كان يعمل جاهداً لحمل أبويه على الكفر ، تماماً كما يفعل الآن بعض الشباب من
غلان هذا العصر .. وقد أدركتنا أكثر من واحد من كبار العلماء بالدين كانوا محل
الثقة والتقدير في جميع الأوساط ، حتى إذا بلغ غلانهم هدموا كل ما بنسائه الآباء
في السنن الطوال .. واشتهر عن الإمام علي (ع) انه قال : « ما زال الزبير
معنا حتى أدرك فرخه عبد الله » . ويقول أحمد أمين المصري في كتاب حياتي :
ها أنا ذا في شيخوختي قد أقبلُ ما كنت أرفض ، وقد أتنازل عن بعض
المبادئ التي كنت ألترم ، للواسطة وأحاديث الناس وكثرة الأولاد .. ويعجبني
قول القائل :

عصيت هوى نفسي صغيراً وعندما رماني زماني بالمشيب وبالكبر
أطعت الهوى عكس القضية ليتني ولدت كبيراً ثم عدت الى الصغر

(وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما
صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن
أمرى ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً) . المراد بالأشد الحلم والرشد، ويتلخص
المعنى بأن الجدار هو لصغيرين ، وتحته مال مدفون ، فأراد الله سبحانه أن يحمي

الجزء الخامس عشر

لها هذا المال ، ويحفظه من الضياع ببقاء الجسد قائماً حتى يكبر أو يعقلا ، فيستخرجها المال بأنفسها ، وقد كان أبوهما من أهل الصلاح ، والله يصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده وولد ولده ، فأمرني ربي أن أصلحه ففعلت ، هذا هو تفسير ما ثقل عليك فهمه والسكوت عنه .

ومكان العظة في هذه القصة ان لا يعجب المرء بنفسه ، ولا يبادر الى الحكم على الشيء حكماً مطلقاً ، وهو لا يعرف إلا جهة واحدة من جهاته ، بل لا بد من ملاحظة جميع الجهات بدقة ، ومقارنة بعضها مع بعض ، ثم ملاحظة الأفضل منها ، فإن المصالح والمضار متشابكة .. فإما من أمر نافع إلا وفيه بعض الضرر ، وما من أمر ضار إلا وفيه بعض النفع ، والعبرة دائماً بالأكثر .

اللغة :

الخبر بضم الخاء المعرفة . والذكر البيان .

الإعراب :

تعلمن أصلها تعلمني ، ورشداً مفعول لتعلمن . وخبراً تمييز لأنه بمعنى الفاعل أي لم يحط خبرك به ، أو مفعول مطلق لأن لم يحط بمعنى لم يخبر . وعليه يكون المعنى لم يخبر به خبراً .

المعنى :

(فوجدا عبداً من عبادنا آتينا رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً قال له موسى هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً) . من في قوله تعالى : « من لدنا علماً » للتجسس ، والمراد بالعلم هنا علم الغيب أي آتينا شيئاً من علم الغيب ، ويومئ بذلك الى خرقه السفينة ، وقته الغلام ، ويعتمد الصوفية على هذه الآية لصحة مذهبهم القائل بالعلم اللدني أي العلم تلقائياً وبلا واسطة .

والمعنى ان موسى وفتاه حين وصلا الى المكان الذي كانا فيه وجدا رجلاً من عباد الله الصالحين ، رحمه الله وأنعم عليه بعلم وافر نافع ، فحياه موسى فرد التحية بأحسن منها .. قال له موسى : انت بغيتي ، فهل تصحبنى معك ، وتعلمني ما أسرشد به وانتفع ؟ . وقد استدل القائلون بنبوة هذا الرجل الصالح ، استدلو بقوله تعالى : « آتينا رحمة من عندنا » لأن الرحمة هي النبوة .. ويلاحظ بأن الرحمة أعم من النبوة ، ووجود العام لا يدل على وجود الخاص ، فإذا قلت : أكلت فاكهة فان قولك هذا لا يدل على انك أكلت عنباً ، لأن كلمة الفاكهة تشمل العنب وغيره من الفواكه .

(قال انك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً) . قال الرجل الصالح لموسى : لو صحبتي لرأيت عجباً يشغل عليك السكوت عنه

سورة الكهف

وعدم الاعتراض عليه لأنه منكر في ظاهره ، وواقعه مجهول لديك ، وأنت لا تستطيع صبراً على المنكرات (قال - موسى - ستجدني ان شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً) . استثنى موسى في الصبر بقوله ان شاء الله خشية أن لا يملك نفسه على السكوت وعدم الاعتراض كما حدث بالفعل (قال - صاحب موسى - فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى احدث لك منه ذكراً) . اشترط الرجل الصالح على موسى أن لا يسأله عما يفعل كائناً ما كان ، وقبل موسى الشرط لأنه انطلق معه كما يتضح مما يلي :

فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة الآية ٧١ - ٨٣ :

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا *

وَأَمَّا الْعَلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهَا طُفْيَانًا وَكُفْرًا *
فَارْدَنَا أَنْ يُبْدِلَهَا رَبِّهَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ
فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ
رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا *

اللفظة :

المراد بالإمر هنا بكسر الهمزة المنكر القطيع . ولا ترهقني لا تحملني . والعسر
ضد اليسر ، والمعنى عاملني باليسر . واستطعا طلبا الطعام . ويريد أن ينقض
أشرف على السقوط . وأقامه سواه . والتأويل التفسير . وزكاة طهارة . والمراد
بالرحم هنا الرحمة . والكنز المال المدفون . ويبلغا أشدهما يكبرا وبعقلا .

الإعراب :

عسراً مفعول ثانٍ لترهقني لأنها بمعنى تحملني . وبغير نفس متعلق بفعلت .
وعسراً مفعول بلغت . والمصدر من أن ينقض مفعول يريد أي يريد الانقضاء .
وهذا مبتدأ وفراق خبر ، وبينك بمنزلة الكلمة الواحدة أي فراق بيتنا .
ومساكن ممنوعة من الصرف لأنها على وزن مفاعيل . وغصباً مصدر في موضع
الحال أي يأخذها غاصباً ، أو قائم مقام المفعول المطلق أي أخذاً غصباً . وزكاة
تمييز ، ومثله رحماً ، وقال أبو حيان الأندلسي : إن رحماً مفعول له لأقرب .

الوقوف عند الشبهة :

تدل هذه الآيات أن هناك أموراً ظاهرها الرحمة ، وباطنها العذاب ، وأخرى

سورة الكهف

بالعكس ، وان الحكم فيها هو التوقف عن الحكم إيجاباً وسلباً حتى ينكشف الواقع ، وقد تواتر عن الرسول الأعظم (ص) انه قال : « حلال يبين ، وحرام يبين ، وبينها أمور مشتهات ، لا يلزم كثير من الناس أمن الحلال هي أم الحرام ؟ . فمن تركها استبراء لدينه وعرضه فقد سلم ، ومن واقع شيئاً منها يوشك أن يقع في الحرام » . وفي حديث ثانٍ : « الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة » .

وروي ان لقمان الحكيم دخل على داود ، وهو يصنع الدروع ، ولم يكن قد رآها من قبل ، وهمّ أن يسأله ، ثم رأى الصبر أجمل ، ولما فرغ داود لبس الدرع ، وقال : نعم لباس الحرب . ففهم لقمان ان الدرع وقاية من الطعن والضرب ، فقال : الصمت حكمة ، وقليل فاعله .. وقدم العبد الصالح ثلاثة شواهد على هذه الحقيقة ، وهي :

١ - (فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة خرقها) . سار موسى وصاحبه على ساحل البحر ، ولما وجدا سفينة طلبا من صاحبها أن يحملها معه ، فاستجاب .. ولكن ما ان توسطت في لجة البحر حتى خرقها العبد الصالح في مكان يمكن أن يتسرب الماء منه ، ويتعرض من فيها للغرق ، فذعر موسى من هذا المنكر وقال : أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرأ) أي فظيماً ، وأخذ موسى ثوبه وحشا به الخرق على عهدة المفسرين (قال ألم أقل انك لن تستطيع معي صبراً) . يذكره بالشرط ، وهو أن لا يسأله عن شيء ، فاعتذر اليه موسى و (قال لا تؤاخذني بما نسيت) لأن النسيان لا يقتضي المؤاخذة (ولا ترهقني من أموري عسراً) لا تضيق عليّ في صحبتي لك .

٢ - (فانطلقا حتى اذا لقيا غلاماً فقتله) . ففزع قلب موسى من القتل و (قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً) . ماذا جنى هذا المسكين ؟ أتقتله متعمداً دون أن يأتي بجناية ؟ ان هذا هو المنكر بعينه . (قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معي صبراً) . مرة ثانية يذكره بالشرط ، وأيضاً مرة ثانية يعتذر موسى (قال ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني) . من قبل اشترط للعبد الصالح على موسى أن لا يسأله ، والآن يشترط موسى على نفسه

بكاملها لذي القرنين ، وبها أصبح قوياً مهيباً، وهذا هو معنى تمكينه في الأرض..
وتدل الآية دلالة واضحة على ان الله سبحانه يوجد الأشياء بأسبابها .

(فاتبع سبباً) . مهتد الله الأسباب وهيأها لذي القرنين ، فاغتنمها واستغلها في الخير وصالح الأعمال . من ذلك ذهابه الى المغرب الذي أشار اليه سبحانه بقوله : (حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حثة) . المراد بمغرب الشمس بلاد المغرب ، ومن الواضح ان الشمس لا تدخل العين فتعين ان يكون المراد بالعين الحمة البحر الذي يترأى للانسان ان الشمس تغيب فيه ، وهذا البحر من بحار المغرب ، وكان على شاطئه طين أسود ، ولكن أي بحر هو ؟ الله أعلم . ويقول الشيخ المراغي : انه المحيط الأطلنطي .

(ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين اما ان تعذب ولما أن تتخذ فيهم حسناً) . ضمير عندها يعود الى العين ، وظاهر الآية بمفردها يدل على ان الله سبحانه ترك لذي القرنين أمر التصرف في أهل تلك البلاد ، ان شاء عذبهم ، وان شاء أحسن اليهم .. ومن الواضح ان هذا لا يتفق مع عدالته تعالى ، ولكن إذا عطفنا هذه الآية على الآيات الآمرة بقتل الكفار والمشركين ان أصروا على الكفر والشرك ، اذا جمعنا الآيات في كلام واحد دلت بمجموعها على ان القوم الذين وجدهم ذو القرنين في المغرب كانوا كفاراً ، وانه عرض عليهم الإيمان فامتنعوا .

وتسأل : هل يجوز الاحسان الى الكفار ؟.

الجواب : يجوز إذا لم يقاتلونا في الدين . ولم يخرجوا أحداً من دياره ، قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم » ٨ الممتحنة .

(قال - ذو القرنين - اما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذاباً نكراً واما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وستقول له من أمرنا يسراً) . هذا هو الدستور لحكم ذي القرنين وسلطانه ، ويتلخص بهذه الكلمة : السيف لمن عصى الله ، والحسنى لمن أطاعه .. ان المال والعلم والسلطان نعمة عظيمة يمتحن الله بها عباده . فأما الاشرار فتزيدهم كفرأ وطغياناً ، واما الأخيار

سورة الكهف

فيتخذونها وسيلة الى طاعة الله ومرضاته ، كما فعل ذو القرنين .

(ثم اتبع سبياً) رجع ذو القرنين من المغرب الى المشرق الذي أشار اليه تعالى بقوله : (حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً) . المراد بمطلع الشمس المشرق ، وضمير وجدها ودونها يعودان الى الشمس ، والمراد بالستر هنا البناء وما اليه كالأكواخ والخيام والكهوف ، والمعنى ان ذا القرنين حين وصل إلى بلاد في المشرق وجد قوماً في أرض مكشوفة للشمس، وحياتهم بدائية كوحوش القلوات ، ورجع بعض المفسرين ان هذه الأرض تقع على شاطئ افريقية الشرقي .. ولم يذكر سبحانه ماذا فعل ذو القرنين هؤلاء : هل أحسن لمن آمن وعمل صالحاً منهم، وعذب من أصر على الكفر ، أو تركهم وشأنهم لأنهم كالحیوانات غير مسؤولين عن شيء ، أو لسبب آخر ؟ الله أعلم .) كذلك وقد أخطأ بما لديه خبراً (أي هذا هو أمر ذي القرنين الذي أخطأ بجميع أخباره وأحواله .

يا جوج وما جوج الآية ٩٣ - ١٠٠ :

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيًّا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا
لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ قَهْلُ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ
سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ
رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا
حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ
يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ

وَعَدُ رَبِّي جَعَلَهُ ذِكَاً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ
يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا *

اللغة :

المرج بفتح الخاء وسكون الراء الجعل . والردم الحاجر . والزبر بضم الزاء
وفتح الباء جمع زبرة وهي القطعة . والصدف جانب الجبل . والقطر النحاس أو
الحديد أو الرصاص المذاب . ان يظهروه ان يعلوه . والصور قرن ينفخ فيه .

الإعراب :

ما مكني (ما) اسم موصول مبتدأ ، وخبر خبر . وردما مفعول أول
لأجعل ، وبينكم وبينهم متعلق بمحذوف مفعولاً ثانياً . واسطاعوا أصلها استطاعوا
فحذفت التاء تخفيفاً . والمصدر من ان يظهروه مفعول لاسطاعوا . وجمعاً مفعول
مطلق .

المعنى :

(ثم اتبع سبياً) . رجع ذو القرنين الى بلاد ثالثة تقع شرقي البحر الأسود ،
يسكنها الصقالبة - كما قيل - وإليها أشار سبحانه بقوله : (حتى إذا بلغ بين السدين
وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً) . المراد بالسدين هنا جبلين ،
وكان القوم الذين وجدهم ذو القرنين هناك لا يفهمون لغته، ولا لغة من معه، ولا
هو ومن معه يفهمون لغة القوم. ولكنه فهم مطالبهم بالإشارة ، أو بواسطة مترجم
بدليل قوله تعالى : (قالوا يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض
فهل نجعل لك خرجاً على ان تجعل بيننا وبينهم سداً) . قال الشيخ المراغي في

سورة الكهف

تفسيره : « يأجوج هم التتر ، ومأجوج المقول ، وأصلها من أب واحد يسمى (ترك) وتمتد بلادهم من التبت والصين الى البحر المتجمد ، ومنهم جنكيزخان وهلاكوه . ثم نقل المراغي عن مجلة المقتطف لسنة ١٨٨٨ ان سد ذي القرنين يقع وراء جيحون في عمالة بلخ ، واسمه الآن باب الحديد ، وهو بمقربة من مدينة ترمذ ، وان العالم الألماني « سيلدبرجر » ذكره في رحلته التي كانت في أوائل القرن الخامس عشر ، وأيضاً ذكره المؤرخ الاسباني « كلافيجو » في رحلته سنة ١٤٠٣ .

ومها يكن فقد طلب القوم من ذي القرنين أن يبني لهم سداً يمنع عنهم يأجوج ومأجوج ، فقد كانوا يغزون أرضهم، ويسمونهم سوء العذاب قتلاً وسيئاً ونهباً، واشترطوا على أنفسهم ان يجعلوا للذي القرنين جعلاً في أموالهم إذا هو بنى السد (قال ما مكني فيه ربي) وأعطاني من السلطان والمال (خير) مما آتاكم الله ، فأنتم الى مالكم أحوج ، فأنفقوه في مصالحكم (فأعينوني بقوة اجعل بينكم وبينهم ردماً) : المراد بالقوة هنا العمال وأدوات البناء ، وبالردم السد والحاجز (آتوني زبر الحديد) أي قطعاً منه (حتى إذا ساوى بين الصدفين) . الصدفان جانباً الجبلين لأنهما يتصادفان أي يلتقيان ، وفي الكلام حذف ، وتقديره فأنوه بالحديد ، فوضع بعضه فوق بعض حتى سد ما بين الجبلين الى أعلاهما ، ثم آتوه بالوقود ، فأشعل فيه النار ، ووضع المنافخ و (قال انفخوا حتى جعله ناراً) أي نفخوا فصار السد كالنار اشتعالاً وتوهجاً ، وعندهما (قال آتوني افرغ عليه قطراً) والقطر هو الصلب المذاب ، فأنوه به فصبه على الحديد المحمي ، فالتصق ببعضه ببعض ، وصار جبلاً من حديد .

(فما استطاعوا) الضمير ليأجوج ومأجوج (ان يظهروه) أن يصعدوا من فوقه لارتفاعه وملاسته (وما استطاعوا له نقباً) لصلابته وكثافته (قال هذا رحمة من ربي) . هذا اشارة الى السد ، وفي قال ضمير يعود الى ذي القرنين، وقد حمد الله سبحانه على هذه الرحمة والنعمة التي أتمها على يده .. وهكذا المؤمن المخلص يتواضع لله ، ويشكره كلما تابعت نعم الله عليه .

وبناء هذا السد أصدق مثال على انه قد كان في تاريخ الانسانية تعاون وتعاطف

الجزء السادس عشر

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا * فَاتَّبَعَ سَبِيًّا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا * ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيًّا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا * كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا *

اللغة :

الذكر الخبر ، ومكنا له جعلنا له قوة وسلطاناً . وآتيناه من كل شيء سبياً أي مهدنا وهيأنا له السبب الذي يوصله الى ما يبتغي ويريد . ومغرب الشمس مكان غروبها في رؤية البصر أي المغرب . والحمأ الطين الأسود ، وعين حمئة ذات طين أسود . ونكراً فظيماً . ومطلع الشمس مكان شروقها بحسب الرؤية أي المشرق .

الإعراب :

حمئة صفة لعين على حذف مضاف أي ذات حمأ . والمصدر من أن تعذب

سورة الكهف

مبتدأ والخبر محذوف . ومثله أن تتخذ أي إما التعذيب واقع منك وإما اتخاذ الأمر الحسن واقع منك . وجزاء الحسنى قرىء برفع جزء من غير تنوين ، وعليه فجزاء مبتدأ مؤخر والحسنى مجرورة بالاضافة وله خبر مقدم، وقرىء بنصب جزء مع التنوين ، وعليه فالحسنى مبتدأ وله خبر وجزاء حال من ضمير له مثل : في الدار قائماً زيد . وكذلك خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر كذلك .

المعنى :

(ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً) . اختلفوا في ذي القرنين هذا من هو ؟ قيل : انه كان ملكاً من الملائكة ، وهذا غريب . وقيل : بل هو نبي . وعن الإمام علي (ع) انه عبد صالح . ولا ريب في صلاحه ، لأن أفعاله وأقواله التي سجلها الله في كتابه تشهد له بالفضل والصلاح . وقيل : هو اسكندر المقدوني تلميذ ارسطو ، وكان قبل الميلاد بنحو ٣٣٠ سنة .. وهذا أغرب الأقوال لأن اسكندر المقدوني وثني يعبد الأصنام ، وذو القرنين يؤمن بالله واليوم الآخر ، ونقل الرازي وأبو حيان الأندلسي عن أبي الريحان البيروني ان ذا القرنين عربي ينحني من قبيلة حِمْيَر ، واسمه أبو بكر .

وأيضاً اختلفوا : لماذا لُقب بذي القرنين ؟ . فقيل : لأنه كريم الأبوين ، وقيل : كانت له ضفيرتان ، وقيل : لأنه ملك الشرق والغرب ، الى غير ذلك من الأقوال والخلافات التي لا تمت الى مقاصد القرآن بسبب .. ومتى اهتم القرآن بالأسماء وأسباب التسمية ؟ ولو كان فيها شيء من النفع والخير لما سكنت عنها . فغريب من المفسرين أن يشغلوا أنفسهم والناس معهم بما لا خير فيه دنياً وآخرة . ومن أجل هذا تقف عند ظاهر النص، ونقول: ان أناساً سألوا الرسول الكريم(ص) عن رجل يقال له ذا القرنين ، فأمره الله سبحانه أن يقول للسائلين : سأخبركم بطرف من سيرته .

(انا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً) . والمراد بالسبب هنا كل ما يتوصل به الانسان الى ما يطلبه ويبتغيه ، كالعلم والقدرة والصحة والمال والرجال والآلات ، وفوق ذلك توفيق الله وعنايته ، وقد توافرت هذه القوى

بين الدول الغنية الكبرى ، والدول الضعيفة «النامية» ، بين الشعب الذي يملك أسباب التطور ، والشعب الذي لا يملكها .

وقوة الولايات المتحدة تشبه الى حد بعيد قوة ذي القرنين من حيث ان كلاً منها لا تضارعا قوة في عصرها ، ولكن الفرق بعيد جداً من حيث النتائج، فإن ذا القرنين كان بكل ما يملك من قوة ملكاً لخبر البشرية واسعادها ، أما قوة الولايات المتحدة فهي لحماية الشر والصهيونية ، والسيطرة على المقدرات والأسواق والأفكار لمصلحة الاستعمار والرجعية بشتى صورها وأشكالها ، والشواهد على ذلك لا يبلغها الاحصاء ، فن مناصرة الصهاينة ضد العرب الى تغذية العنصرية في بلادها وفي روديسيا ، ومن الانقلابات العسكرية في افريقيا وغيرها الى ضرب القوى التحررية في الكونغو وفي كل مكان ، أما فيتنام فقد حشدت لتدميرها الجيوش ، وعبأت كل ما لديها ، ولكن صمود الشعب الفيتنامي لقن الولايات المتحدة درساً في الهوان والذل لا تنساه مدى الحياة .. وكل ما حققته الولايات المتحدة من النجاح فهو جزئي مؤقت ينعب مع فضال الشعوب الذي يزداد يوماً بعد يوم .

(فإذا جاء وعد ربي جعله دكاءً) . ضمير جعله للسد ، ودكاء أي مستوياً مع الأرض ، والمعنى أنه متى دنا الوقت الذي يخرج فيه يأجوج ومأجوج من وراء السد هباً الله أسباب هدمه وزواله (وكان وعد ربي حقاً) لا ريب فيه ، قال الشيخ المراغي : « وقد جاء وعده تعالى بخروج جنكيزخان وسلالته فعاثوا في الأرض فساداً » . وفي تفسير الرازي ان وعد الله هنا يوم القيامة ، وفي تفسير الطبرسي ان هذا الوعد يأتي بعد قتل الدجال ، أما نحن فتميل إلى قول المراغي لأنه أقرب الى قوله تعالى :

(وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) . فأننا نفهم منه ان يأجوج ومأجوج ينتشرون في الأرض بعد خراب السد ، ويفسدون على الناس حياتهم ، قال تعالى : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون - ٩٦ الأنبياء » . هذا ، الى أنه لو كان المراد بمجيء وعده تعالى يوم القيامة أو بعد الدجال لكان السد موجوداً الآن كما هو .. ومن الواضح انه لو كان لسان ، بخاصة وقد جعل العلم الكرة الأرضية وسكانها أشبه بالأسرة الواحدة يضمها بيت واحد (ونفخ في

سورة الكهف

الصور فجمعناهم جمعاً) . وهذا اليوم هو خاتمة المطاف للأولين والآخرين . وفي تفسير الطبري ان رسول الله (ص) سئل عن الصور ؟ . فقال : هو قرن ينفخ فيه . وبعد ، فإن الذي قلناه عن بأجوج ومأجوج ، أو نقلناه عن الغير إنما هو على التقريب ، لا على التحقيق ، لأننا لم نجد مصدراً يركن اليه ، ومن أجل هذا نكتفي بما دل عليه ظاهر القرآن الكريم ، وترك التفاصيل إلى غيرنا .

جهنم والاعمرن أعمالا الآية ١٠١ - ١٠٧ :

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أُعْيُنُهُمْ فِي غَطَاةٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا * أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا * قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهم يُخْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا *

اللغة :

'نزلا ما يُهَيَّؤُ للتريل ، وهو الضيف . وأيضاً يطلق على المنزل .

الإعراب :

حسب تتعدى إلى مفعولين . والمصدر من ان يتخذوا ساد مسدما . وأعمالاً تمييز . والذين ضل خبر مبتدأ محذوف ، فكأنه قيل : من هم الأخسرون؟ فقيل : هم الذين ضل الخ . ووزنا مفعول نقيم أي فلا نجعل لهم نقلاً ، وقال أبو البقاء : تمييز أو حال . وذلك مبتدأ وجزاؤهم خبر ، وجهن بدل من « جزاؤهم » .

المعنى :

(وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً) . يشاهد المجرمون غداً منازلهم في جهنم قبل ان يقادوا اليها ، ليكونوا بنارين : نار الرعب ، ونار الحريق (الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى) . الذكر يُسمع بالأذن ، ولا يرى بالعين ، وعليه يكون غطاء العين هنا كناية عن حقد الكافرين على رسول الله (ص) والمؤمنين ، وانهم كانوا لا يطبقون النظر اليه (ص) واليه (ص) وكانوا لا يستطيعون سماعاً (لذكر الله من رسوله الكريم . وبكلمة ان المجرمين لا يطبقون سماع الحق ، ولا النظر انى أهله .. وهذا ما نشاهده بالعيان ، وهو نتيجة حتمية للصراع بين الحق والباطل ، والخير والشر .

(أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء) . المراد بعبادي هنا المخلوقات التي اتخذها المشركون أنصاراً من دون الله ، وفي الكلام حذف أي أفحسب هؤلاء انّا غافلون عنهم ؟ .. كلا (انّا اعتدنا جهنم للكافرين نزلاً) . هيأنا لهم مكاناً في جهنم يليق بشأنهم .. وهذا تماماً كقولك لمن تستخف به وتحتقره : أنتخب اني لا اقدرك ، كيف وأنت كهذا الخذاء ؟

قيمة الانسان

(قل هل انبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون

سورة الكهف

انهم يحسنون صنعا) . ويتلخص المعنى بأن أخسر الناس صفقة ، وأخيبهم سعياً هو الجاهل المركب الذي يرى جهله علماً ، وشره خيراً ، واساءته احساناً .. وليس من شك ان هذا خائب خاسر في الدنيا لأنه يعيش في غير واقعه ، وهو كذلك في الآخرة لأنه يلقي الله غداً بالجهل والغرور وسوء الأعمال .

وتومئ الآية الى ان قيمة الانسان الحقيقية لا تقاس بنظرته الى نفسه ، لأن الخصم لا يكون حكماً ، ولا بنظرة الناس اليه ، لأنهم يستحون الخائبين والمنافقين عملياً ، وان ضاقوا بهم نظرياً ، وانما تقاس قيمة الانسان بقيمة القرآن ومبادئه ، والالتزام بتعاليمه وأحكامه ، تقاس بالصدق والعدل ونصرة الحق وأهله ، والتضحية في سبيل ذلك بالنفس والمال ، والقرآن الكريم مليء بهذا النوع من التعاليم ، مثل قوله تعالى : « كونوا مع الصادقين .. كونوا قوامين بالقسط .. كونوا أنصار الله .. كونوا ربانيين .. جاهدوا بأموالكم وأنفسكم » . وفي قوله : ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، غنى عن كل شاهد .

وتسأل : ان المخطيء يرى نفسه مصيباً ، وانه قد أحسن صنعا باصابة الواقع ، فينبغي أن يكون من الأخسرين أعمالاً ، مع انه لا عصمة إلا لمن له العصمة ؟ .
الجواب : ان المخطيء على قسمين : الأول أن يخطيء بعد البحث والتدقيق ، تماماً كما يفعل الأكفء بحيث تكون النتيجة التي توصل اليها هي غاية ما يمكن أن يتوصل اليها العالم المجد .. وليس من شك ان هذا المخطيء ليس من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وان خطاه لا عيب فيه ، بل ان صاحبه مأجور على ما بذل من جهد ، كما جاء في الحديث الشريف ، على شريطة أن يكون على نية الرجوع عن خطئه متى انكشف له الصواب .

القسم الثاني : أن يخطيء لأنه جزم وحكم بمجرد الحدس والوهم ، وقبل أن يبحث ويلاحظ ، لأنه يجهل أصول البحث والملاحظة العلمية ، أو يعرفها ولم يستعملها اطلاقاً ، أو استعملها ناقصة ، فحكم قبل أن يستكمل ويستوعب جميع الملاحظات ، وهذا المخطيء من الأخسرين أعمالاً ، ما في ذلك ريب ، لأن الله سبحانه أمر بالتدبر والتثبت ، ونهى عن التسرع والقول بغير علم .

وبعد، فإن الدرس الذي يجب أن نستفيدة من هذه الآية هو أن نكون صادقين مع أنفسنا ، فلا نصفها بغير ما هي فيه ، ولا نخدعها بالقول الكاذب .. وأيضاً

يجب أن نحاسبها حين توحى إلينا بالغرور والتعظيم قبل أن نحاسبنا الله والناس ، وأن لا نتخذ موقفاً نتمسك فيه بآرائنا وأقوالنا، فنعتقد أنها مقدمة لا يمكن الارتياح فيها بحال .. ان الخطأ جائر على الجميع بل ومكتوب أيضاً .. والغريب ان الأدعياء يسلمون بهذا المبدأ ، ولكنهم ينكرون نتيجته الحتمية .

(أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه) . أولئك اشارة للأخسرين أعمالاً ، وقرينة السياق تدل على ان المراد بالذين كفروا بآيات ربهم ولقائه هم ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، سواء أكفروا بالبعث ، أم آمنوا به ، فالعبرة عند الله بالايمان والعمل معاً ، لا بمجرد الايمان (فحطت أعمالهم فلا نقسم لهم يوم القيامة وزناً) أي قدراً لأنه لا كرامة عند الله إلا لمن اتقى .

(ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي هزواً) . كفروا بالله ، وسخروا من الحق وأهله، وهذا منتهى الفساد والضلال ، والنار هي الغاية لكل ضال فاسد .

الذين آمنوا وعملوا الصالحات الآية ١٠٨ - ١١١ :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا * قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَنَنْكَرَ أَنْ يَرْجُوَ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا *

اللغة :

الفردوس البستان . والحول التحول . والمراد بالمداد هنا الحبر .

الإعراب :

خالددين حال . ومدداً تمييز .

المعنى :

(ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً) . بعد أن توعد سبحانه الكافرين بجحيم وعد المؤمنين بالجنة ، والفردوس من المنازل العليا في الجنة ، قال الرسول الأعظم (ص) : اذا سألتكم الله فاسألوه الفردوس (خالددين فيها لا ييغون عنها حولاً) . والحول التحول ، والمعنى ان الله سبحانه يحجزني المؤمنين الصالحين بما لا يرضون عنه بديلاً ، فهو كاف واف بجميع ما يبتغون ، وتوهم الآية الى انه لا طمع في الآخرة ، وإلا فإن الطامع لا يقنعه شيء .

(قل لو كان البحر مدداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً) . البحر اسم جنس يشمل كل البحار، والمداد الحبر ، ونفذ انقطع وفني ، والمراد بقبل أن يفد ان كلماته تعالى لا تنفذ اطلاقاً ، وجئنا بمثله مدداً أي زدنا عليه ما يماثله في الكثرة ، والمعنى لو فرض ان البحار بكاملها حبر يكتب به كلمات الله لانتهى الحبر ، وبقيت كلماته الى ما لا نهاية : وفي معنى الآية قوله تعالى : « ولو ان ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله - ٢٧ لقمان » .

وليس المراد بكلمات الله هنا الألفاظ المؤلفة من الحروف الهجائية ، ولا الأمر الفعلي الذي هو عبارة عن قوله كن فيكون ، لأن هذا الأمر واحد لا تعد فيه : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر - ٥٠ القمر » ، ولما المراد بكلماته هنا القدرة على إيجاد الكائنات متى شاء ، سواء أقال لها كونى بالفعل ، أم يقول في المستقبل القريب أو البعيد، وهذه القدرة لا آخر لها ولا نهاية ، أما البحار والأشجار ومثلها معها فهي متناهية ، وكل متناه الى نفاد .

وبكلام آخر ان كل شيء موجود أو سيوجد - ما عدا الله - فهو بائد ومنقطع ، أما قدرته تعالى على إيجاد الأشياء فهي باقية بقاءه .. ونوضح الفكرة بهذا المثال :

رجل يعرف اصول الزراعة ، فعرفته بهذه الأصول تلازم ذاته ، ولا تفارقتها ، أما زرعه وغرسه فيفنى ويزول ، وقدرة الله سبحانه لا تشح ولا تنضب لأنها أزلية أبدية ، أما خلقه فحادث ، ولكل حادث بداية ، ولكل بداية نهاية .

(قل انما أنا بشر مثلكم) لا أمتاز عنكم بشيء إلا انه (يوحى إليّ أنمّا إلهكم إله واحد) قال ابن عباس : « علّم الله نبيه التواضع بهذه الآية ، فأمره ان يقر على نفسه بأنه آدمي كغيره سوى ان الله أكرمه بالوحي » ونعطف نحن على قول ابن عباس : ولئلا يقول المسلمون في محمد (ص) ما قاله النصارى في عيسى (ع) .

(فن كان منكم يرجو لقاء ربه) وحسابه وثوابه وعقابه (فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) . وكل من عمل لغير الله فقد أشرك بعبادته، سواء أقال بتعدد الآلهة ، أم لم يقل ، والفرق ان القول شرك علني ، والرياء شرك خفي ، وفي الحديث : « من صلى رياء فقد أشرك ، ومن صام رياء فقد أشرك » وعلى هذه الصلاة ، وهذا الصيام فقس ما سواهما .

سُورَةُ مَرْيَمَ

مكية ، وآياتها ٩٨ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكرها الآية ١ - ٦ :

كَيْعَصَ * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً * إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيّاً *
قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ
رَبِّ شَقِيّاً * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ
لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلٍ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً *

اللغة :

الوهن الضعف . واشتعل الرأس شيباً استعارة من اشتعال النار للشيب . والمراد
بالشقي هنا الخائب أي ما خيبني من قبل في دعائي إياك . والموالي أقارب الرجل
من جهة الأب . ومن ورائي من بعدي . وولياً أي وارثاً . ورضياً مرضياً عندك .

الإعراب :

ذكر خبر مبتدأ محذوف أي هذا ذكر . وعبد مفعول لرحمة لأن المعنى ان

ربك رحم عبده أو مفعول لفعل محذوف أي أعني عبده . وزكريا بدل من عبده .
وشبهاً تمييز محول عن فاعل ، لأن المعنى اشتعل شيب الرأس .

المعنى :

(كهيمص) تقدم نظيره مع التفسير في أول سورة البقرة (ذكر رحمة ربك
عبده زكريا) . في هذه الآيات يقص سبحانه على نبيه محمد (ص) : كيف
رحم عبده ونبيه زكريا ، وأنعم عليه بولده يحيى .. وزكريا من نسل سليمان
ابن داود ، وكان متزوجاً بحالة مريم ، وكان كافلاً لها ، وتقدمت الإشارة الى
ذلك عند تفسير الآية ٣٨ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٥٣ . وقيل ان زكريا
كان نجاراً (اذ نادى ربه نداء خفياً) . دعا الله بينه وبينه :

و (قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربى
شقياً) . تقدم السن بزكريا دون أن يرزق ولداً ، ولذا تضرع الى الله شاكياً
ضعفه وشيخوخته ، وقال فيها قال : ه رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين
- ٨٩ الأنبياء ه . أدعوك يا إلهي ، وأنا غير يائس من فضلك ورحمتك :
كيف ؟ ولم تخيب من قبل رجائي فيك ، وحاشاك ان توجهني في حاجتي الى
سواك .

(واني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك
ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيعاً) . زكريا شيخ كبير ،
وامراته عجوز عقيم ، فخاف ان جاء أجله ان يرثه بنو عمومته ، وهم من بني
اسرائيل ، وقيل : أنهم كانوا من شرار الناس.. وليس هذا ببعيد على اسرائيل..
فاذا ورثوه أساءوا الى الناس ، وأفسدوا عليهم دينهم ودنياهم ، ورغم شيخوخة
زكريا وعقم زوجته فإنه كان عظيم الثقة بحالقه ، ولذا دعاه أن يجبر كسره ،
ويقضي حاجته .

يَا ذَكَرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا *
 قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَأَنِّي امْرَأَتِي عَاقِرٌ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ
 الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ
 قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ
 النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ
 أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا *

اللفظ :

عتياً أي بلغ من الكبر الى حال يست معها مفاصله وعظامه . والآية العلامة .
 وسوياً صحيحاً ، لمياً من كل آفة . والمحراب المصلّى .

الإعراب :

اسمه يحيى مبتدأ وخبر ، والجملة صفة لغلام . واني خبر مقدم ليكون . وسوياً
 حال من ضمير تكلم . وان سبحوا (ان) مفسرة بمعنى أي .

المغنى :

(يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً) . استجاب
 الله دعاء زكريا ، وبشره بأنه سيولد له ذكر ، وان الله سبحانه سمىه يحيى ،

وهو في صلب أبيه ، وما تُسمي أحد من قبله بهذا الاسم . وقيل : ان يحيى هو يوحنا المعروف بالمعمداني عند المسيحيين .

(قال رب اننى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً) . ليس هذا استبعاداً ، بل تعظيماً وشكراً لأنعم الله وقدرته التي نخطت السن والعادات ، فهو شيخ كبير ، وزوجته عجوز عقيم ، ومع هذا قد من الله بالعطاء ، وأنعم بالولد .

(قال كذلك قال ربك هو عليّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) . قائل القولين واحد ، وهو الله أمي ان الله قال لذكرى : قال ربك الخ ، وقد جرى كثير من المؤلفين المسلمين على ذلك ، فيقول أحدهم : « قال محمد هو ابن مالك » يعني نفسه ، ومثله قول الطبري عن نفسه : قال ابو جعفر محمد بن جرير الطبري .. ولا شيء صعب على الله ، فالأشياء لديه سواء لا يحتاج وجودها إلا الى كلمة « كن » .

(قال رب اجعل لي آية قال آيتك الا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم ان سبحوا بكرة وعشيّاً) . المراد بأوحى اليهم أوما اليهم بيده أو كتب . لأنه ممنوع عن الكلام . وتقدم التفصيل عند تفسير الآية ٤١ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٥٤ .

يحيى الآية ١٢ - ١٥ :

يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا
وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ
عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُنْعَثُ حَيًّا *

اللغة :

المراد بالكتاب هنا التوراة . والحنان العطف والرحمة . والزكاة الطهارة .
والتقوى طاعة الله . والجبار المتعالي الذي لا يخضع لشيء . والمصي العاصي .
والسلام الأمان .

الإعراب :

بقوة متعلق بمحذوف حالاً من يحيى . وصيباً حال . وحناناً عطف على الحكم .
وبرأ عطف على « تقياً » .

المعنى :

(يا يحيى) اكفى سبحانه بهذا النداء عن القول : ان يحيى قد ولد ، وانه
أصبح يعقل ويفهم ما يقال له ، وقادراً على العمل بالتوراة ، وهي الكتاب الذي
عناه الله بقوله : (خذ الكتاب بقوة) ومعنى أخذه بقوة التزام العمل به بحمد
واخلاص . ثم وصف سبحانه يحيى بالأوصاف التالية :
(وآتيناه الحكم صبياً وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً وبراً بوالديه ولم يكن
جباراً عصياً) . المراد بإيتاء الحكم صبياً التفقه بالدين في سن مبكرة ، وهذه نعمة
من الله خص بها يحيى ، كما خصه بالولادة من أبوين كبيرين ، والله سبحانه يختص
برحمته من يشاء ، وفي بعض الروايات ان الغلمان قالوا يوماً ليحيى : هيا بنا
نلعب . فقال : ما للعب خلقنا ، اذهبوا بنا للصلاة . والحنان الرحمة بالعباد ،
والزكاة الطهارة والقداسة ، والتقوى طاعة الله ، والبر بالوالدين ضد العقوق ،
وقوله تعالى : (ولم يكن جباراً عصياً) عطف نفسه ، لأن الزكي التقى غير
الجبار العصي .

(وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً) . هذا كناية عن أن
يحيى مرضي عند الله دنياً وآخرة ، ومن الواضح ان رضاه تعالى نتيجة طبيعية
للعنوت التي نعت الله بها يحيى (ع) .

وتسأل : لماذا خص الله يحيى بهذه الصفات الجليلة ، وهو صبي ؟ .

الجواب : ان الله شؤناً في خلقه ، فقد يمنح الفضل للصغار ، ويمنع الكبار منه ، ولكل من عطائه ومنعه حكمة قد تدركها العقول ، وقد تعجز عن ادراكها.. ولكنها تحاول ، وغير بعيد أن يكون القصد من انصاف يحيى بهذه الصفات في مثل سنه هو إلقاء الحجة على بني اسرائيل اذا اختلفوا فيه ، ولم يستجيبوا لنصحه ودعوته ، وقد خلق الله عيسى من غير أب « لنجعل آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً » وتأتي هذه الآية في المقطع التالي .

وبرغم هذه الحجة الدامغة فقد عصوا يحيى وتمردوا عليه ، وأخيراً قتلوه وقتلوا أباه ، لا شيء إلا لنهيها عن المنكر .. ولا يكثر هذا على من قال عن الله : يدها مفلولتان .. هو الفقير ونحن الأغنياء .

وفي قصص الأنبياء ان هيرودوس حاكم فلسطين آنذاك عشق هيروديا بنت أخيه الجاهل ، وعزم على الزواج منها ، ولما أنكر ذلك يحيى سخطت عليه هيروديا ، واشترطت على عمها أن يكون رأس يحيى مهراً لها ، فذبحه وأهداها الرأس .. واشتهرت الرواية عن علي بن الحسين بن علي (ع) : ان أباه حين توجه الى العراق كان يكثر من ذكر يحيى ، ويقول : من هوان الدنيا على الله ان رأس يحيى بن زكريا اهدي الى بغية من بغايا بني اسرائيل .

مریم الآية ١٦ - ٢١ :

وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيفًا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ قَيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ

وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ
وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا *

اللفظة :

انتبذت اعتزلت . ومكاناً شرقياً الى جهة الشرق . وروحنا جبريل . وسوياً
كامل البنية . وأعوذ اعتصم . ومقضياً محتمواً .

الإعراب :

مريم على حذف مضاف أي خبر مريم . ومكاناً ظرف منصوب بانتبذت أي
في مكان شرقي . وبشراً سوياً حال لأن المعنى تمثل كائناً على صورة البشر السوي .
وأنتى خبر مقدم ليكون . وكان أمراً اسم كان محذوف أي وكان خلقه أمراً
مقضياً .

المعنى :

(واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فاتخذت من دونهم
حجاباً) . يدل ظاهر الآية ان مريم اعتزلت عن أهلها ، وخطت بنفسها في مكان
شرقي ، وانها جعلت بينهم وبينها ستراً ، بحيث لا تراهم ولا يرونها . ولماذا اعتزلت
مريم ؟ لأنها رأت ما تكره ، أو لتصرف الى العبادة أو لغير ذلك ؟ وهل
المراد بالمكان الشرقي المكان الذي تشرق عليه الشمس ، أو المكان الذي يقع شرقي
بيت المقدس ، أو شرقي دار أهلها ؟. وأيضاً ما هو نوع الحجاب الذي اتخذته
من دونهم هل هو حائط أو كوخ ؟.. لا شيء في الآية يشير الى الجواب عن
هذه التساؤلات ، لأنها لا تمت الى العقيدة ولا الى الحياة بسبب . وغير بعيد أن

يكون الله سبحانه قد ألهمها الى هذه الخلوة ليُعلمها جبريل بولادة عيسى (ع) ، وهي في معزل عن الناس .

(فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً) . المراد بروحنا جبريل ، وقد تمثل أمامها في صورة انسان تام الخلقة . وفي بعض التفسيرات انه جاءها في صورة الانسان لتأنس به ، وفي تفسير ثانٍ انها خافت منه وذعرت لهذه المفاجأة .. غريب يفتحهم عليها من غير استئذان ، وهي في عزلتها ؟ . ان هذا لشيء مريب .. وهذا القول أرجح وأصح بدليل انها فزعّت و (قالت أعوذ بالرحمن منك ان كنت نقياً) . استجير بالله من شرك ان كنت تؤمن به وبحسابه وعذابه ، خوفته من الله لأنها لا تملك وسيلة لردعه في مقامها هذا سوى التخويف من الله ، وإلا فهي مستجيبة بالله متوكلة عليه ، سواء أكان الذي خافته نقياً ، أم شقياً .

(قال انما انا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً قالت اننى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم اك بغياً) . تبشرني بغلام ؟ . كيف ؟ . ومن أين ؟ . ولا زوج لي ، ولا اقدم على الخيانة والفجور .. (قال كذلك قال ربك هو عسّى هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً) . قال لها الروح الامين : ان أسباب الولادة لا تنحصر عند الله بالمضاجعة والمواقعة ، فكما أوجد الأشياء بأسبابها المألوفة فانه يوجددها أيضاً بكلمة «كن» تماماً كما أوجد الكون من لا شيء ، وآدم من غير أب وأم .. وقد شاء سبحانه أن يجعل مولودك دليلاً واضحاً على عظمة الخالق ، ونبوة المولود ، وان يكون رحمة للانسانية ، وحجة دامغة على بني اسرائيل الذين حاولوا قتله . وشرحنا ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٤٥ وما بعدها من سورة آل عمران ج ٢ ص ٦١ .

الحمل بعيسى الآية ٢٢ - ٢٦

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا

أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهَزَيَ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ
تَسَاقُطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ
مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ
إِنْسِيًّا *

اللغة :

قصياً بعيداً . وفأجاءها الأصل جاء . فدخلت همزة التعدية على الفعل فصار
أجاءها مثل أقامه وأقعده . والمخاض الطلق . والنسي الشيء الحضر الذي لا يؤبه
له . وللشري معان في اللغة ، منها الجدول والقائد . والجني من الثمر ما نضج
وصلح للاجتناء والقطف .

الإعراب :

ان لا تحزني (ان) مفسرة بمعنى أي ولا ناهية . ويجذع النخلة الباء زائدة
اعراباً . وفاعل تساقط ضمير مستتر يعود الى النخلة . ورطباً حال منه . وإما
مركبة من كلمتين (ان) الشرطية وما الزائدة .. وترين مضارع خوطبت به المرأة ،
ودخلت عليه نون التوكيد .

المعنى :

(فحملته فانتبدت به مكاناً قصياً) قيل : ان جبريل نفخ في قصبها ،
فكانت نفخته سبباً للحمل ، ومصدر هذا القول ظاهر الآية ٩١ من سورة الأنبياء :
« والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا » . والآية ١٢ من سورة التحريم :

« ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ». وقد أشرنا أكثر من مرة الى ان آيات القرآن يفسر بعضها بعضاً لأن مصدرها واحد ، وإذا لاحظنا جميع الآيات الواردة بعيسى ومريم (ع) ، اذا لاحظناها على هذا المبدأ فهما من مجموعها ان المراد من النفخ الخلق واللقاء ، وان المراد من الروح عيسى بالذات . والآية ١٧١ من سورة النساء تشعر بذلك ، قال تعالى : « انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه » . وكلمته هي « كن » التي تخلق بها الأشياء ، ومعنى القائها الى مريم ان مريم أو بطنها هي مكان المخلوق . أنظر ج ٢ ص ٥٠٠ . ومهما يكن فإن مريم لما أحست بالحمل ابتعدت عن أهلها حياءً وتحرّجاً .

(فاجاءها المخاض الى جذع النخلة) . المخاض الطلق ومقدمات الولادة ، واجاءها بمعنى جاء بها ، والأصل جاء ، ثم دخلت همزة التعدية فصارت اجاءها مثل اجلسه وانامه . قال الرازي : « أجاء منقول من جاء إلا ان استعماله تفسير الى معنى الاجاء » وعليه يكون المعنى ان المخاض ألقاها الى جذع النخلة لتستند اليه طلباً لتيسير الولادة (قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) . هذه الكلمة وأمثالها ينطق بها كل انسان عند الأزمات واشتداد الأمر عليه ، بنفسها عن همه وكربه . وما على قائلها من غضاضة ما لم يكن شاكاً في دينه ، ولا مرتاباً بيقينه .

(فناداها من تحتها الا تخزي قد جعل ربك نحتك سرياً) . المراد بالسري جدول الماء.. وأول ما يتبادر الى الأذهان من سياق الكلام ان المنادي هو عيسى (ع) وليس جبريل ، كما زعم كثير من المفسرين ، وهذا النداء من معجزات عيسى ، تماماً كولادته وإحيائه الموتى ، قال عيسى في ندائه لأمه (وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً) . قيل : لم يكن الفصل فصل الرطب ، وان حمل النخلة له كان من باب المعجزة ، وليس هذا يبعد لأن اللفظ يشعر به ، وان الوضع الذي كانت فيه مريم معجزات في معجزات .

(فكلّي) من الرطب (واشربي) من الجدول (وقري عيناً) طيبي نفساً بمولودك المبارك (فلما ترين من البشر أحداً) وسألك عن المولود (فقولي) بالإنعام والاشارة : (اني نذرت للرحمن صوماً) بالسكوت ، وقد كان صوم

سورة مريم

الاسرائيليين آنذاك (فلن أكلم اليوم انسياً) . ولا شيء لدينا ما نقوله هنا إلا شرح الكلمات شرحاً لغوياً ، حيث لا مجال للعقل في هذا الموضوع ، ما دام ظاهر اللفظ لا يصطدم مع حكم العقل . انظر فقرة المتنّع عقلاً والمتنّع عادة ج ٢ ص ٦١ .

لقد جنت شيئاً فرياً الآية ٢٧ - ٣٥ :

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِيلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً * يَا أختَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْراً سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَّاراً شَقِيّاً * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ *

اللغة :

فرياً من الفرية ، والمراد بها هنا دعوى الولادة بلا أب . والمهد الموضع يهياً للصبي . والمراد بالكتاب الانجيل .

الإعراب :

جملة تحمله حال . وكيف نكلم (كيف) حال أي على أي حال نكلم ، أو مفعول مطلق على معنى أي كلام نكلم . ومن كان (كان) تامة بمعنى وجد ، وصيماً حال . وأينما (أين) شرط وما زائدة . وما دمت حياً (ما) مصدرية ظرفية أي مدة دوام حياتي .

المعنى :

(فأتت به قومها تحمله) . وضعت مريم وليدها ، فحملته الى قومها ، وهي أممة مطمئنة لأن الحمل الذي تسبب في اتهامها هو أصدق شاهد على نزاهتها (قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً) بدعواك الحمل من غير دنس ومواقعة .. انها محض افسراء (يا أخت هرون) هو أخو موسى ، وهي من نسله ، والقصد تذكيرها بأصلها الطيب ، وانه اذا زكا الأصل يجب ان يزكو الفرع ، فكيف صدر منها ما لم يصدر مثله عن أصلها (ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت امك بغياً) . فن تشبهين انت بفعلتك هذه التي لا يقدم عليها إلا من كانت بنتاً لرجل سوء ، او بنت امرأة بغى ! .

(فأشارت اليه) تستشهده على براءتها ، وهو أصدق الشاهدين ، لأنه ينطق بلسان الله (قالوا) متعجبين : (كيف نكلم من كان في المهد صيباً) . ولكن الذي في المهد كلمهم قبل ان يكلموه و (قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً) أي سيجعلني نبياً فيها بعد ، لأن الرضيع لا يكون قدوة للناس ، وحجة عليهم ، كيف وهو غير مسؤول عن أقواله وأفعاله فهل يكون مسؤولاً عن تبليغ رسالات الله الى عباده ؟ . وفيما سبق قلنا عن الأناجيل ان عيسى بُعث في سن الثلاثين ، وانما نكلم في المهد لبرئته أمه من الزنا والعجور ، لا لأنه نبي مرسل ، انظر عيسى ونبوة الأبطال ج ٣ ص ١٤٤ .

(وجعلني مباركاً أينما كنت) . وكل من ينفع الناس بجهة من الجهات فهو مبارك وميمون : وكل من يضار بواحد من الناس فضلاً عن الجماعة فهو شر

سورة مريم

وشؤم وفساد (وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبرأ بوالدتي) . لقد أقر بهذا على نفسه بالطاعة والعبودية لله ، ونفى أن يكون إلهاً أو ولداً للإله أو شريكاً له كما يزعم النصارى (ولم يجعلني جباراً شقياً) كما يزعم اليهود ، بل هو عبد صالح ، ونبي مرسل كما يعتقد المسلمون (والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً) سبق نظيره قريباً في الآية ١٥ .

(ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون) أي يشكون ويختلفون . هذه هي كلمة الحق والعلم والعدل في السيد المسيح ، لا هو جبار شقي كما قال اليهود ، ولا هو إله أو ابنه أو شريكه كما قال النصارى .. انه نبي يبلغ رسالات ربه ، وعبد من عباده يصلي ويزكي ، وهو مبارك ينفع الناس ، ومتواضع محسن لأمة وغيرها .

(ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) . ولو كان لله أولاد لاحتكروا لأنفسهم جميع خيراته وبركاته، ومنعوها عن كل مخلوق ، وأفسدوا ما أصلح الأب ، وسلبوا الكون شراً وضللاً تماماً كما يفعل بعض أبناء القسادة في هذا العصر . ونقدم نظير هذه الآية في سورة آل عمران الآية ٥٩ ، وسورة الإسراء الآية ١١١ .

هذا صراط مستقيم الآية ٣٦ - ٤٠ :

وإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ * أَسْمِعْ يَوْمَ وَأُبَصِّرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ *

اللفظ :

المراد بالأحزاب طوائف أهل الكتاب . ومن بينهم أي ان الاختلاف لم يخرج عنهم كما تقول اختلفوا فيما بينهم . والويل الخزي والهوان . ويوم الحسرة يوم القيامة .

الإعراب :

أسمع بهم وأبصر اللفظ لفظ الأمر ، والمعنى الخبر مع التعجب ، والباء زائدة ، والضمير في محل رفع فاعلاً لأسمع ، ومثله أحسن يزيد أي حسن زيد ، أو ما أحسنه . وإذ قضي (إذ) بدل من يوم الحسرة .

المعنى :

(وان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) : هذه الآية عطف على قول عيسى : (اني عبد الله الخ) يأمرهم فيها أن يعبدوا إلهاً واحداً ، ولا يشركوا به شيئاً ، وان دين التوحيد هو الطريق القويم من سلكه نجا ، ومن ضل عنه هوى (فاختلف الأحزاب من بينهم) وهم قوم عيسى ، قالت طائفة منهم : ان عيسى هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء : وقالت ثانية : هو ابن الله ، وقالت ثالثة : هو عبد الله .. كان هذا الخلاف فيما مضى . أما اليوم فهم متفقون على ربوبية عيسى .

(فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) . والمراد بالذين كفروا هنا الطائفة الأولى القائلة : ان المسيح هو الله ، والثانية القائلة : هو ابن الله ، وهذه الآية تعبر ثان عن قوله تعالى : « ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » - ٢٧ ص . (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) حين يرى الكافرون العذاب يوم القيامة يقولون : « ربنا ابصرنا وسمعنا - الحق - فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون - ١٢ السجدة » ، وكانوا من قبل إذا دعوا إلى الحق يقولون : « قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر - فصلت » (لكن الظالمون اليوم في ضلال

سورة مريم

مبين (المراد باليوم هنا يوم القيامة ، وبالضلال العذاب ، حيث لا طريق في ذلك اليوم لا إلى الهداية ، ولا إلى الضلالة ، بل حساب وجزاء ، ولا شيء سواهما .

(وانذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) . الخطاب في انذرهم للنبي (ص) ، ويوم الحسرة هو يوم القيامة ، وسمي بذلك لأن النفس المجرمة تقول غداً : « يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وان كنت لمن الساخرين - ٥٦ الزمر » ، وقضي الأمر آنذاك حيث لا اقالة ولا رجعة ، وهم في غفلة الآن حيث يمكنهم أن يرجعوا عن كفرهم وضلالهم ، ويطلبوا من الله العفو والصفح ، ولكنهم لم يفعلوا ، واستمروا في طغيانهم يعمهون ، وقوله تعالى : (وهم لا يؤمنون) معناه أنهم لا يصدقون قولنا: أنهم سيعثون ، بل يلوون رؤوسهم ، وهم يسخرون .

(انا نحن نرتل الأَرْضَ ومن عليها والينا يرجعون) . الأرض ومن عليها لله ، ولا أحد يملك معه شيئاً ، والانسان فيها عابر غير مقيم ، وكل ما في يده عارضة مسؤول عنها ومحاسب عليها .. وبالاختصار ان هذه الآية ترادف كلمة انا لله وانا اليه راجعون . والقصد منها تخويف العصاة وزجرهم من جهة ، والتخفيف من حزن النبي (ص) وألمه لإعراض الكافرين عن دعوته من جهة ثانية .

إبراهيم الآية ٤١ - ٥٠ :

وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ

إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا*
 قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي
 مَلِيًّا* قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا*
 وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ
 بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا* فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ
 إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا* وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا
 لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا*

اللغة :

الصدِّيق مبالغة في الصدق والاخلاص . والصراط السوي الطريق القويم .
 وملياً دهرأ طويلاً . وحفياً كثير الحفاوة والاعتناء . وشقياً خائباً في مسعاه .

الاعراب :

إذ قال (اذ) ظرف متعلق بصدِّيق . أبت أصلها أبي فحذفت باء المتكلم
 وعوّض عنها بالياء المكسورة ولا يقال ذلك إلا في النداء ، فلا يجوز قال أبي ،
 وقالت امّتي - كما في مجمع البيان - وشيئاً مفعول مطلق . وراغب مبتدأ وأنت
 فاعل ساد مسد الخبر مثل أقائم زيد . وملياً ظرف منصوب باهجرني والمصدر
 من ان لا اكون فاعل عسى ، وهي هنا تامة . وكلاً مفعول مقدم لجعلنا .

المعنى :

(واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبياً) . المراد بالكتاب هنا القرآن ، والصدق من اكمل الصفات وأفضلها ، والذي نفهمه من وصف ابراهيم بالنبوة بعد وصفه بالصدق انه صادق بطبعه وفطرته وان لم يكن نبياً .

عند تفسير الآية ٧٤ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢١٢ ذكرنا اختلاف العلماء في المراد من أبي ابراهيم المذكور في القرآن : هل هو الأب الحقيقي ، أو الأب المجازي أي أخو الأب ، وقلنا : انه لا جدوى من هذا التراجع ، وان على المسلم أن يؤمن بنبوته ابراهيم (ع) ، أما الاعتقاد بإسلام أبيه فليس من الدين في شيء ، وبخاصة ان ظاهر القرآن يدل على كفره .

ومها يكن فلان ابراهيم دعا أباه الحقيقي أو المجازي الى الاسلام ، وقال له فيما قال : (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يفني عنك شيئاً) . كان أبوه يعبد الأصنام ، فاحتج عليه بمنطق العقل والقطرة .. أحجار صماء ، لا تنفع ولا تضر تعبدها وتسجد لها ؟ فأين عقلك وفهمك ؟ .

(يا أبت اني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً) . كل الناس الذين يرفضون عبادة الأصنام هم أعلم وأعقل ممن يعبدونها ، فكيف الأنبياء الذين يتلقون العلم من الله ؟ . وإذا كان الجهل ببعض الأمور عذراً يتذرع به الجاهل فلان الأصنام هي نفسها لا تدع لمن يعبدونها عذراً ولا عاذراً .

(يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصياً) . المراد بعبادة الشيطان طاعته لأن من أطاع شيئاً فقد عبده ، وعلى هذا فكل من عصى الله في شيء فقد عبد الشيطان (يا أبت اني أخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً) أي مالياً ، ويجوز أن يكون « ولياً » على ظاهره ، ويكون المعنى ان الشيطان هو الموالي لعبدة الأصنام من باب المبالغة ، تماماً كما تقول : الناس يتمردون من الشيطان ، والشيطان يتعوذ من فلان ، وعلى كل تقدير فلان المقصد التخويف والتحذير من طاعة الشيطان ومتابعته .

(قال أراغب أنت عن آلهي يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً) . في ذات يوم من أيام دراستنا في النجف كنّا نتحلق نحن التلاميذ حول الأستاذ ،

وهو يشرح ويوضح مسألة هامة من مسائل أصول الفقه ، وبعد أن أيقن واطمأن الى تفهم الجميع ختم الدروس .. ولكن سرعان ما فوجيء باعتراض من أحد التلاميذ ، وكان اعتراضه بعيداً كل البعد عن موضوع الدرس .. فأعرض عنه الأستاذ : ونظر الى سائر التلاميذ وقال : كان فيما مضى تلميذ يدرس الصوم وأحكامه ، واستمر في دراسته أكثر من شهر ، وبعد الانتهاء من دراسته ظن الأستاذ ان تلميذه قد أحاط علماً بالصوم من كل جهاته ، ولكن التلميذ قال للأستاذ : انك تكلمت وأطلت الشرح عن الصوم ، ولكن لم نفهم هل الصوم في الليل أو في النهار؟.

وهذا بالذات ما حصل لابراهيم مع أبيه .. فبعد أن أورد له الأدلة بأساليب شتى ، واستعطفه بقوله : يا أبت أربع مرات أجابه بقوله : أراغب أنت عن آلهي ؟ وهل أنت عازم حقاً على أن لا تعبدها معي ؟ فإن كنت على هذا العزم فما لك عندي إلا القتل أو الرجم ، أو تغيب عن عيني ، وتهرب بنفسك .

(قال سلام عليك سأستغفر لك ربي انه كان بي حفيظاً) . أي ان الله عوّده على أن يستجيب له . تقدم نظيره في الآية ١١٤ من سورة التوبة ج ٤ ص ١١٠ (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً) . بغض ابراهيم قومه وأهله في الله ، وهجرهم لله ، فأبدله سبحانه خيراً منهم ، حيث وهبه اسحق ، ومن بعده يعقوب بن اسحق ، وشرفها بالنبوة . وهذا هو المراد بقوله تعالى : (فلسما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً) . وما ترك أحد شيئاً من أمور دينه لاستصلاح دينه إلا عوضه الله خيراً منه .

(ووهبنا لهم من رحمتنا) لم يذكر سبحانه نوع الموهوب ، لأن كلمة رحمتنا تسمى اليه ، وكفى بمرضاة الله هبة ونعمة (وجعلنا لهم لسان صدق علياً) . المراد بلسان الصدق ما يردده الناس جيلاً بعد جيل من حسن الثناء على ابراهيم واسحق واسماعيل ويعقوب .

وترتكز هذه الآيات على ان من أخلص لله استخلصه الله ، وكان معه أينما كان تماماً كما فعل بابراهيم (ع) .

وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ
 مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ
 هَارُونَ نَبِيًّا * وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ
 رَسُولًا نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا *
 وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا
 عَلِيًّا * أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ
 حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا
 إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا *

اللغة :

الطور جبل بن مصر ومدين . ونجياً مناجياً . واجتبتنا اصطفتينا .

الإعراب :

نجياً حال من ضمير قربناه . وهرون بدل من « أخاه » ونبياً حال من هرون .
 وعند ربه متعلق « بمرضياً » . ومكاناً ظرف منصوب برفعناه . وسجداً وبكياً حال
 أي ساجدين باكين .

المعنى :

(واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً) . المراد بالكتاب

الجزء السادس عشر

القرآن ، ومخلصاً بفتح اللام معناه ان الله قد أخلصه من كل ما يشين ، واصطفاه لنفسه ، ومعناه بكسر اللام ان اقوال موسى وأفعاله كلها خالصة لوجه الله ، ومعنى الرسول والنبي واحد ، والاختلاف انما هو بالنظر والاعتبار . فمن حيث انه يحمل رسالة الله يقال له رسول ، ومن حيث انه ينبيء بها الذين ارسل اليهم يقال نبي ، وقيل : ان الرسول يتلقى الوحي ويبلغ ، والنبي يتلقى ولا يبلغ . ولا جدوى من هذا البحث .

(وناديتاه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً) . الطور هو الجبل الذي كلم الله موسى عليه ، والمراد بالأيمن يمين موسى لأن الجبل لا يمين له ولا شمال ، والمراد بقربناه نجياً قرب المكانة لا قرب المكان ، والمعنى ان الله شرف موسى بالنبوة والرسالة ، وكلمه بلا واسطة رسول ، بل كان الكلام يأتيه من جهة يمينه ، كما تقول : سمعت صوتاً من خلفي أو يميني (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً) . يشير سبحانه بهذا الى قضية سابقة ، وهي ان الله سبحانه حين أمر موسى بالذهاب الى فرعون قال له موسى فيما قال : « واجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخي أشدد به أزري - ٣٠ طه » فاستجاب له المولى و « قال قد أوتيت سؤلث يا موسى » .

الوفاء :

(واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً) المعنى واضح لا يحتاج الى تفسير ، ومن المفيد أن نتكلم عن الوفاء لمناسبة قوله تعالى : كان صادق الوعد . لقد أثنى سبحانه على اسماعيل بأنه إذا وعد بشيء أنجز وعده، وذكر المفسرون ان اسماعيل وعد صاحباً له أن ينتظره في مكان ، فتأخر الرجل ، وانتظر اسماعيل ثلاثة أيام أو أكثر .. وسواء أصحت هذه الرواية ، أم لم تصح فإنها ترمز الى ان على الانسان أن يبذل غاية ما يستطيع للوفاء بوعده ، وان من يتهرب من الوفاء فلا ينبغي أن يؤتمن على شيء ، بل لنا ان نصفه بالكذب والغدر ، حتى ولو

سورة مريم

كان في الوفاء خسارة مادية ، لأن الخسران في الدين أعظم ، فقد جاءت الرواية ان الوفاء بالعهد من علامات أهل الدين ، وان الدين المعاملة ، وقد اشتهر ان من لا وفاء له لا دين له .. وقرأت كلمة في الوفاء اقتطفت منها ما يلي :

« ان من يحمل الظروف تبعة الخلف بالوعد فإنما يحاول أن يهرب من اتهام نفسه ، فيتهم الظروف .. والوفاء كلمة جميلة الوقع في الاذن ، وجميلة الوقع في الحياة ، وأعني بالوفاء ، الوفاء للأهل والأصدقاء ، والعمل والمبدأ والوطن ، وأخيراً للانسانية جمعاء .. والوفاء يجعلك تحب الحياة ، والغدر يجعلك تكره الحياة ومعنى الوفاء للأهل والأصدقاء ان تعمل من أجلهم دون مقابل : والوفاء للوطن حيث يحتاج الى التضحية والفداء . »

(واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً) . أثني عليه سبحانه بالصدق والنبوة . (ورفضناه مكاناً علياً) . المراد بالمكان هنا المكانة والمثلية . وقيل : إن الله رفعه إلى السماء الرابعة . وقال آخرون : بل السادسة رجماً بالغيث . وفي التفسير أيضاً ان ادريس هو جسد لأبي نوح ، وانه أول من خاط الثياب ، وخط بالقلم ، ونظر في النجوم ، وتعلم الحساب .. ولا ندرى من أين استقى المقسرون هذه المعلومات .. وللأديب الشهير توفيق الحكيم المصري مسرحية ، أسماها إزيس ، وقال : ان إزيس هذه هي زوجة أوزريس الذي نكل به الملك طيفون.. ويقال : ان اوزريس هذا هو ادريس الذي أشار اليه القرآن . وكل هذه الأقوال حدس وخيال .

(أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل ومن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً) . قال الرازي والطبرسي : المراد بالنبيين من ذرية آدم ادريس لأنه أسبق الجميع ، وأقرب إلى آدم من نوح ، والمراد بذرية من حمل مع نوح ابراهيم لأنه من ولد سام ، والمراد بذرية ابراهيم اسحق واسماعيل ويعقوب ، واسرائيل هو يعقوب ، ومن ذريته موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى من جهة الأم ، وكل هؤلاء وغيرهم ممن هداهم الله واصطفاهم للنبوة بتضرعون لله

خاشعين خوفاً من غضبه وعذابه ، مع انهم يخلصون لله وبأمره يعملون . فبالأولى أن يستشعر الخوف منه تعالى ويتوب اليه من تجراً على معصيته .

فخلف من بعدهم خلف الآية ٥٩ - ٦٥ :

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً * جَنَّاتٍ عَذْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً * وَمَا تَنْزِيلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً *

اللغة :

الخلف بفتح اللام النسل الصالح ، وبسكونها النسل الطالح ، وهو المراد هنا وقد يستعمل كل منها في معنى الآخر . والغى الحصران ، ويستعمل في الضلال . والعدن الإقامة . ومأتياً آتياً، اسم فاعل بصيغة اسم المفعول . واللغو فضول الكلام . والسعي الشبيه والمثيل .

الإعراب :

إلا من تاب استثناء متصل من ضمير يلقون . وشيئاً مفعول مطلق . وجنات عدن بدل من الجنة في قوله : يدخلون الجنة . وبالغيب متعلق بمحذوف حالاً من جنات عدن أي كائنة بالغيب . وضمير انه يعود الى الله . وسلاماً مستثنى منقطع أي ولكن يسمعون سلاماً . ورب السموات والأرض بدل من ربك ، ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف أي هو رب السموات .

المعنى :

(فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات) . بعد ان ذكر سبحانه الأنبياء الاطهار أشار الى خلفهم الأشرار ، ووصفهم بأنهم تركوا عبادة الرحمن ، واتبعوا الشيطان ، ويتلخص المعنى بهذه الكلمة : نعم السلف ، وبش الخلف . (فسوف يلقون غياً) شرأ وعذاباً جزاء على معصيتهم وتمردهم (الامن تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون شيئاً) . وأحسن تفسير لهذه الآية قول الرسول الأعظم (ص) : التائب من الذنب كمن لا ذنب له . وتقدم نظير هذه الآية في سورة الأنعام الآية ٥٤ ج ٣ ص ١٩٧ .

(جنات عدن) قائمة دائمة ، لا ينقطع نعيمها . ولا يظعن مقيمها (التي وعد الرحمن عباده بالغيب) . المراد بعباده هنا المؤمنون المخلصون ، وبالغيب أي أنهم آمنوا بالجنة وعملوا لها ، وهم غائبون عنها ، وهي غائبة عنهم ، وقدمدح الله المؤمنين بالغيب في العديد من آياته (انه كان وعده مأتياً) . ضمير انه يعود الى الله . والمعنى ان الله لا يخلف الميعاد .

(لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً) . في الحياة الدنيا لغو وكذب ومهاترات ، أما في الجنة فقول كريم ، ورزق مقيم . والبكرة والعشي كناية عن السدوم ، اذ لا صباح ولا مساء في الجنة (تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً) . وكلمة نورث تشعر بأن الجنة ملك المتقين . قال تعالى : « أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » - ١١ المؤمنون .

(وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك) . في تفسير الطبري والطبرسي ان رسول الله (ص) استبطأ نزول الوحي عليه ، ولما جاءه جبريل قال له : ما منعك ان تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ . فتزلت هذه الآية . وظاهرها يتفق مع مضمون الرواية المذكورة بخاصة قوله تعالى : (وما كان ربك نسياً) والمعنى ان الأمر في نزول الوحي لله وحده فهو المالك لكل شيء ، والمحيط علماً بكل شيء في أي زمان أو مكان كان ويكون .. وقوله : ما بين أيدينا اشارة الى ما يأتي ، وما خلفنا اشارة الى ما مضى ، وما بين ذلك اشارة الى الحاضر .

(رب السموات والأرض وما بينهما) ومن كان رباً للكون يستحيل في حقه النسيان (فاعبده واصطبر لعبادته) . هذا أمر من الله تعالى لنبيه الكريم ان يمضي في مهمة التبليغ لأنها من أعظم العبادات والطاعات ، وان يصبر على ما يلاقه من الأذى في سبيل ذلك (هل تعلم له سمياً) . فالله سبحانه ليس كمثله شيء في جميع صفات الجلال والكمال ، ومن كان كذلك وجبت عبادته وطاعته .

لسوف اخرج حياً الآية ٦٦ - ٧٢ :

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتْ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ
الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا * فَأَوْرَثْنَاكَ لَنُخْشِرَنَّهْمُ
وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُخْضِرَنَّهْمُ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا * ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ
شِيعَةٍ أَهْبَ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَى
بِهَا صِلِيًا * وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًا * ثُمَّ
نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا *

اللغة :

يذكر أي يتذكر . وجثياً جمع جاثٍ ، وهو البارك على ركبتيه . والشيعه الجماعة المتعاونون على أمر واحد . والعتي والعنو بمعنى واحد، وهو التكبر والتمرد .
والصلي مصدر صلى النار .

الإعراب :

إذا متعلقة بمحذوف أي أبعث إذا مت . وحياً حال . والشياطين مفعول معه لنحشرنهم . وجثياً حال . وإيهم اسم موصول مبني على الضم، ومحلّه النصب بنترعن، وأشد خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير الذي هو أشد . والجملة من المبتدأ والخبر صلة الموصول . وعتياً تمييز ، ومثله صلياً . وإن منكم إلا واردةا (إن) نافية، وواردها خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة من المبتدأ والخبر خبر لمبتدأ محذوف أي ما أحد منكم إلا هو واردةا . وجثياً حال . وكان على ربك اسم كان محذوف أي كان الورد .

المعنى :

(ويقول الانسان أئنذا ما مت لسوف أخرج حياً أو لا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) يتلخص المعنى بأنه لا شيء لدى منكر البعث يتفرع به إلا التعجب والاستبعاد : كيف تعود الحياة الى الانسان بعد ان تفارقه ؟ . والجواب يعيدها ثانية من جاء بها أولاً : انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً . وتكرر ذلك في العديد من الآيات . انظر ج ١ ص ٧٧ و ٢ ص ٣٩٦ و ج ٤ ص ٣٧٨ وما بعدها .

(فوريك لنحشرنهم والشياطين) . ضمير الغائب في لنحشرنهم يعود إلى منكري البعث ، والمراد بالحشر اخراجهم من قبورهم أعداء خاصين مع الذين أضلّوهم عن الحق (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً) . بعد أن يخرجوا من قبورهم

على أسوأ حال تُقدمهم الملائكة على الركب حول جهنم لينظروا إليها ، فيزدادوا حسرات وأتات .

(ثم لتترعن من كل شعبة أبهم أشد على الرحمن عتياً) . وبعد ان يتحلقوا حول جهنم جاثين على الركب ، وهم فرق وطوائف يأخذ الله أولاً من كسل فرقة الرؤساء والقادة العتاة ، ويلقي بهم في جهنم ، ثم الأعنى فالأعنى ، ويوضع كل واحد في المكان اللائق به من عذاب الحريق (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً) . ان الله سبحانه يعلم السيئات التي يجترحها الانسان في سره وعلته ، ويجازيه بما يستحق ، فصاحب الكبيرة له العذاب الأكبر ، ثم الأدنى فالأدنى : « ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً - ٤٩ الكهف » .

(وان منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) . المراد بالورود هنا الرؤية والمشاهدة لأن المؤمنين عن النار مبعدون ، كما قال تعالى : « ان الذين سبقتم لهم من الحسن أولئك عنها مبعدون - ١٠١ الأنبياء » . ولأن عذاب المطيع يتنافى مع عدل الله وفضله . ومعنى الآية ما من أحد إلا ويرى النار عياناً يوم القيامة صالحاً كان أم طالحاً ، فالطالع يراها ويدخلها جاثياً على ركبته ، والصالح يراها ويتجاوزها حامداً شاكراً نعمة النجاة والخلاص من كلبها ولجبها : « فن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز - ١٨٥ آل عمران » .

أي الفريقين خبر الآية ٧٣ - ٧٦ :

وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِئِيًّا * قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِذَا الْعَذَابُ وَإِنَّمَا السَّاعَةُ فَنَسِعًا مَمْنُونًا

مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا * وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى
وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا *

اللفظة :

الندي المجلس . والقرن أهل كسل عصر . والأثاث أدوات البيت . والرثي
المنظر والهينة . والمد الامهال . والجند الأنصار . والمرد المرجع والعاقبة .

الإعراب :

مقاماً وندياً تمييز . وكم في محل نصب بأهلكنا والمميز مخوف أي كم قرناً
أهلكنا . وأثاثاً تمييز . إما العذاب واما الساعة بدل من (ما) في قوله تعالى :
رأوا ما يوعدون . ومن هو شر (من) اسم موصول مفعول لسيعلمون ، وهو
مبتدأ وشر خبر ، والجملة صلة الموصول . ومكاناً وجنداً وثواباً ومرداً تمييز .

المعنى :

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير
مقاماً وأحسن ندياً) . ضمير عليهم يعود إلى مشركي قريش ، وآيات الله بينات
دلائله الواضحة ، والفريقان هما المؤمنون والمشركون ، والمعنى ان النبي والصحابه
يحتجون على المشركين بمنطق العقل والفطرة ، والمشركون يجابهون هذا المنطق بمنطق
المعدة وفلسفتها ويقولون : نحن أطيب وأوسع عيشاً وافره مسكناً ، وأحلى أثاثاً .

فلسفة المعدة :

كان ابيقور من فلاسفة اليونان المعاصرين لتلامذة ارسطو ، وله منهج انفرادي

به عن عاصره وتقدم عليه ، ويتلخص بأن اللذة هي الخير الأسمى ، والألم هو الشر الأقصى ، وإن الفضيلة تستمد قيمتها من اللذات المعنوية كالصداقة وحياسة الهدوء والراحة ، ومن اللذات الحسية كالطعام والشراب .. وفي ضوء هذه الفلسفة قال : على الانسان أن لا يتدفع وراء أهوائه ورغباته من أجل لذة قصيرة الأمد يعقبها ألم طويل الأمد .. وبكلمة ان الخير كل الخير عند ابيقور يقوم في اللذة الدنيوية - هو لا يؤمن بالبعث - سواء أتمثلت اللذة في المعدة ، أو في غيرها ، وإذا اقترنت اللذة بالألم فالعبرة بالأكثر، فما كان أكثر لذة فهو خير ، وما كان أكثر ألماً فهو شر .

وهناك فلسفة قديمة تتفق مع ابيقور في ان كل الخير في اللذة الدنيوية، ولكنها تختلف معه في التحديد ، فهو يقول : ان الخير في اللذة المعنوية والحسية معاً ، وهي تقول : ان الخير في لذة المعدة ، وما إليها من المظاهر الحسية .. ومن أهل هذه الفلسفة فرعون ومشركو قريش .. ففسد أنكر فرعون نبوة موسى (ع) ، وبرر إنكاره بقوله : « أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين فلاولا ألقى عليه أسورة من ذهب - ٥٣ الزخرف » . وقال أيضاً : أنا ربكم الأعلى.. ولماذا ؟ فأجاب : « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون » ؟

وأنكرت قريش نبوة محمد (ص)، واحتجت بقولها : « لولا انزل عليه كثر - ١٢ هود » . وكما قال فرعون : أليس لي ملك مصر ؟ وقالت قريش : نحن أكثر مالاً ، وأعر نفراً .. ولا تختص فلسفة المعدة هذه بفرعون ومشركي قريش ، ولا بالمترفين وأهل الثراء فكل من احترم شخصاً وقدره لماله فهو من الذين آمنوا بفلسفة المعدة وحشوها ، ودانوا بأن الخير كل الخير فيها وفي امتلائها. ولقد قرأت فيما قرأت كلمة لعميل مأجور قال فيها : ان الذين يلومون الولايات المتحدة على قواعدها الحربية ، وعلى ضربها قوى التحرر في كل مكان ، وعلى سلبها مقدرات الشعوب المستضعفة ، ان هؤلاء اللاتمين ينسون أو يتناسون ان الولايات المتحدة أقوى علماً ، وأكثر مالاً من كل الشعوب ، ومن كان الأعلى علماً ومالاً يجب ان يظفي ويستبد .. وكنت أحسب ان فلسفة المعدة قد ولت

سورة مريم

مع عصر الظلمات حتى قرأت كلمة هذا الدخيل فأدركت ان لهذه الفلسفة جنوراً عميقة في نفوس الأدعياء والعملاء .

(وكما أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورثياً) . تقدم نظيره في الآية ٦ من سورة الانعام ج ٣ ص ١٦٢ (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدداً حتى إذا رأوا ما يوعدون اما العذاب واما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً) . أمر الله نبيه الكريم ان يقول للذين يرون الخير في حشو المعدة : ان هذا الذي تفتخرون به من السعة في العيش هو ابتلاء تمتحن الله به عياده ، ويمهلهم أمداً غير قصير ، فان شكروا أنعم الله عليهم بالثواب وحسن المآب ، وان ازدادوا كفرأ وظفياً سلط عليهم من يسومهم سوء العذاب في الحياة الدنيا، أو يعذبهم الله العذاب الأكبر في اليوم الآخر .. وعندها يعلمون أي الفريقين أسوأ حالاً: المؤمنين الفقراء ، أو الكافرين الأغنياء ؟ ولو ان انساناً ملك كل ما طلعت عليه الشمس لم يكن هذا الملك شيئاً مذكوراً بالقياس إلى أدنى عذاب من حريق جهنم .. قال علي أمير المؤمنين (ع) : « ما خسر بخير بعده النار ، وما شر بشر بعده الجنة ، وكل نعيم دون الجنة محفور ، وكل بلاء دون النار عافية » .

(ويزيد الله الذين اهتلوا هدى) . وذلك بأن يعرفهم بحقيقة أنفسهم، وبمواقع الخطأ والصواب .. وهذه هي الهداية والنعمة الكبرى (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مرداً) . والمرد هو المرجع والعاقبة ، والباقيات الصالحات العلم والعمل النافع ، وهما خير من المال والجاه لأنها دائمان باقيات لا ينقطع نفعها وثوابها ، أما الجاه والمال فإلى هلاك وزوال .

أفرايت الذي كفر بآياتنا الآية ٧٧ - ٨٧ :

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ
أَتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ

الْعَذَابِ مَذَا * وَتَرِيَهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَزْدَا * وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
 إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ
 ضِدًّا * أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزِمُهُمْ أَزًّا * فَلَا
 تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعْدُهُمْ لَهُمُ عَذَابٌ * يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا *
 وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِذَا * لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ
 عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا *

اللمعة :

سكتب ما يقول أي ان أقواله محفوظة عليه . ونمد له من العذاب نزيده منه .
 والمراد بترثه نسله ، وما يقول اشارة إلى المال والولد المذكورين في قول الكافر :
 « لأوتين مالا » وولداً . والمراد بالضد الأعداء . وتؤزهم تزعجهم . والوفسد
 جمع وافد ، وهو القادم . وورد أي يردون جهنم كما ترد الدواب الماء .

الإعراب :

أطلع أصلها أطلع همزة الاستفهام الإنكاري ، وهمزة الوصل، فحذفت أحدهما
 تخفيفاً . وقال ابن هشام في كتاب المغني : « كلا عند سيويه والخليل والمبرد
 والزجاج وأكثر البصريين حرف معناه الردع والزجر ، ولا معنى لها عندهم إلا
 ذلك » . وفرداً حال . ونعد مضارع ومفعوله محذوف أي نعد أعمالهم . ولا
 يملكون الضمير يعود إلى المجرمين. إلا من اتخذ استثناء منقطع أي لكن من اتخذ .

المعنى :

(أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً) . جاء في كتب الأحاديث والتفسير ان العاص بن وائل والد عمرو بن العاص لما سمع بذكر البعث قال مستهزئاً : لأوتين في الآخرة مالا وولداً .. ولفظ الآية ظاهر في ان زنديقاً قال هذا ، أما ذكر الاسماء وتعيين الأشخاص فما هو من طريقة القرآن ، ومثل هذه الآية قول صاحب الجنة : « ولئن رُددت الى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً - ٣٦ الكهف » وقد رد سبحانه هذا الزعم بقوله :

(أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً) من أين جاءه هذا العلم ؟ هل عنده مفاتيح الغيب ، أم أخذ ميثاقاً من الله بذلك ؟ (كلا) لا هذا ولا ذاك .. انه كافر فاجر (سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً) . لقد حفظنا عليه أقواله ، وسنزيده من أجلها عذاباً على عذاب جزاء كفره وأفترائه .

(ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً) وأيضاً سنسلبه ما لديه من مال وولد ، وذلك بموته واهلاكه ، ونبعثه يوم القيامة وحيداً فريداً تماماً كما خلقناه أول مرة (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً كلا) لأن من اعتر بغير الله ألبيه ثوب الذل (سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) . ضمير يكفرون ويكونون يعود الى المعبودين ، وضمير عليهم الى العابدين ، وأوضح تفسير لهذه الآية مسا جاء في نهج البلاغة : « عن قليل يتبرأ التابع من المتبوع ، والقائد من المقود ، فيتزابلون بالبغيضاء ، ويتلائعون عند اللقاء » . وقال تعالى : « تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون - ٦٣ القصص » . بل كانوا يعبدون اوهامهم وأغراضهم .

(ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزراً) . أي ترعجهم وتهيجهم وتدفع بهم الى المعاصي ، والمعنى ان الله سبحانه يحل بينهم وبين الشياطين الذين يوسوسون لهم ويغروهم بالمعاصي ، ولا يتدخل بإرادته التكوينية لردع الشياطين عنهم ، وانما يبين لهم طريق الخير والشر ، ويمنحهم القدرة التامة على الفعل والترك ، وينهاهم عن هذا ، ويأمرهم بذلك ، ويترك لهم الخيار فيما يفعلون ويتركون .. ولو سلبهم الارادة لكانوا والجهاد سواء .

(فلا تعجل عليهم انما نعد لهم عدأ) . لا تعجل يا محمد باهلاك الكافرين فإنه آت لا محالة ، ولكن الله يؤخرهم الى أجل مسمى ليحصى عليهم أعمالهم ثم يجازيهم عليها بما يستحقون.. فإنه لا خير في طول الحياة إلا لمن آمن وعمل صالحاً ، اما من كفر واجترح السيئات فحياته وبال عليه : « ولا يحسن الذين كفروا انما نملي لهم خيراً لأنفسهم انما نملي لهم ليزدادوا أثماً ولهم عذاب مهين - ١٧٨ آل عمران » .

(يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفداً) . وكلمة الوفد تشعر بالتشريف والتكريم ، والمعنى ان اهل الله وطاعته يفدون عليه غداً معززين مكرمين (ونسوق المجرمين الى جهنم ورداً) .. للمؤمنين الكرامة بالوفادة ، وللمجرمين الهوان بالسوق ، تماماً كما تساق البهائم الى ورود الماء يساق المجرمون الى ورود جهنم ، وبسبب الورد المورود (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) . كل من وفى بعهد الله ولم يخنه في كبيرة ولا صغيرة فقد أعطاه الله عهداً بالفوز والنجاة ، وبالشفاعة لمن هو أهل لها : « وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم - ٤٠ البقرة » .

قالوا اتخذ الرحمن ولداً الآية ٨٨ - ٩٨ :

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ
يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ
وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا *
وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا * إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ

وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِصُّ مِنْهُمْ
مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا *

اللغة :

الراد المنكر . وتنفطر تنشق . ونخر تسقط . واللذ جمع ألد ، وهو الشديد
في خصومته . والركز الصوت الخفي .

الإعراب :

المصدر من دعوا مفعول من أجله أي نخر لدعوتهم . والمصدر من أن يتخذ
فاعل ينهي . وإن نافية وكل مبتدأ وآتي خبر أي ما منهم أحد إلا آتي . وعيداً
حال أي مملوكاً . وفرداً حال . وكَمْ مفعول أهلكنا والمميز عنوف أي كم قرناً
أهلكنا . ومن زائدة إعراباً، وأحد مفعول تحس .

المعنى :

(وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق
الأرض وتخر الجبال هداً إن دعوا للرحمن ولداً) . لقد هدد الله سبحانه الذين
جعلوا له بنين وبناتاً . وتوعدهم في الكثير من آياته ، منها الآية ١١٦ من سورة
البقرة ج ١ ص ١٨٦ والآية ٤٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٤٤ والآية ١٧١ من
سورة النساء أيضاً ج ٢ ص ٤٩٩ والآية ١٠١ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٣٧ .
ثم ذكر سبحانه قولهم هنا بهذا الأسلوب الرهيب .. وهو أن دل على شيء فلنما
يدل على أن الإنسان يجرأ على ما لا يجرأ عليه كائن في الأرض ولا في السماء ..
فلقد تجرأ على خالقه ، وهو يعيش في كنفه ، ونسب إليه ما تنشق السماء، وتحسف
الأرض ، وتسقط الجبال لمجرد سماعه .

وتسأل : ولم هذه الانتفاضة الكونية لكلمة تفوه بها من تفوه عن جهل وضعف عقل ؟ .

الجواب : ان هذه الانتفاضة أو الغضبة الإلهية ليست على فرد أو على جماعة معدودين ، وإنما هي على هذا الشرك الذي أصبح ديناً وعقيدة تدين بها نباتات الملايين جيلاً بعد جيل .. على هذه التماثيل للإله الطفل والإلهة الأم .. وما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام - ٧٥ المائدة .

(وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً) . لأن الولد شبيه بوالده ، والله ليس كمثله شيء ، ولأن اتخاذ الولد إنما يكون لحاجة الوالد إليه ، والله غني عن العالمين . (ان كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً) . ما من كائن سفلي أو علوي إلا هو عبد لله يملك منه ما لا يملكه العبد من نفسه .. وبديهة ان المملوك غير الولد ، والمالك غير الوالد (لقد أحصاهم وعدّهم عدداً وكلهم آتية يوم القيامة فرداً) . ضمير أحصاهم وعدّهم يعود إلى من في السموات والأرض ، وضمير آتية إلى الله ، والمعنى ان الله لا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء ، وان كل مسؤول يأتي الى الله يوم المحشر وحيداً لا ناصر له ولا معين ولا يملك من أمر نفسه كثيراً ولا قليلاً فضلاً عن أمر غيره ، ومن يأتي الله كذلك فكيف يكون ولداً له .

(ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً) . ان الله سبحانه يحدث في قلوب عباده مودة لأهل الايمان والاخلاص لا شيء إلا تقديراً للفضيلة والخلق الكريم . قال محمد بن أحمد الكلبي صاحب (التسهيل) : قيل : ان هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب . وقال الشيخ المراسي ، وهو أحد شيوخ الأزهري : اخرج ابن مردويه والديلمي عن البراء ان رسول الله (ص) قال لعلي : قل اللهم اجعل لي منك عهداً ، واجعل لي في صدور المؤمنين وداً ، فنزلت الآية .

النصارى وبنو هاشم :

وقال أبو حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط : وذكر النقاش ان هذه

سورة مريم

الآية نزلت في علي بن أبي طالب ، وقال محمد بن الحنفية : لا تجد مؤمناً إلا وهو يحب علياً .. ومن غريب هذا - الكلام لأبي حيان - ما أنشدنا الإمام اللغوي رضا الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف الانصاري الشاطبي لزينا ابن اسحق النصراني الرصفي :

عديّ ونمّ لا أحاول ذكرهم بسوء ولكنني محب لهاشم
وما تعتريني في علي ورهطه اذا ذكروا في الله لومة لائم
يقولون ما بال النصارى نحبهم وأهل النهى من أعرب وأعاجم
فقلت لهم اني لأحسب حبهم سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

(فلنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً) . المراد باللد الذين يتشددون في الخصومة والجدل ، والمعنى ان الله أنزل القرآن بلغة العرب ليسهل عليهم معرفته وفهم معانيه ، ويكون بشيراً لمن آمن وانقضى ، ونذيراً لمن كفر وبغى . ومر نظيره في سورة يوسف الآية ٢ ج ٤ ص ٢٨٦ .
(وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل نحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً) . أي هل تسمع لهم صوتاً ، والقصد ان الله قد أبادهم عن آخرهم ، وتقدم مثله في الآية ٧٤ من هذه السورة ، والآية ١٧ من سورة الإسراء .

سُورَةُ طه

مكية عدد آياتها ١٣٥ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه الآية ١ - ٨ :

طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى *
تَنزِيلًا لِّمَن خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ
اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ
الْأَرْتَى * وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى *

الآلة :

لتشقى لتعب . والعلی جمع العلیا والمذكر الأعلى ، ومظه الدنا جمع الدنيا .
والترى التراب النسيدي والمراد به هنا الأرض . والمراد بالأخفى هنا حديث
النفس .

الإعراب :

الا تذكرة استثناء منقطع أي لكن أنزلناه تذكرة . تنزيلاً منصوب على المصدرية أي نزلناه تنزيلاً . له ما في السموات مبتدأ وخبر وما بعده عطف عليه .

المعنى :

(طه) . اختلفوا في المراد بطله ، فقيل : هو اسم من أسماء الله . وقيل : هو في معنى رجل ، واختاره الطبري ، حيث قال : هذا هو الأولى بالصواب لأن معنى يا طه في لغة عكّ يا رجل .. وذهب أكثر المفسرين الى ان كلمة طه في الآية حروف نهجى مثل ألم وكهيعص ، وفي تفسير الرازي ان الامام جعفر الصادق (ع) قال : « الطاء طهارة أهل بيت رسول الله (ص) والهاء هدايتهم » . وغير بعيد أن يكون هذا التفسير المنسوب الى الإمام الصادق هو السبب لقول القائلين : ان طه من أسماء النبي (ص) لأنه هو المصدر الأول لطهارة أهل بيته وهدايتهم .

(ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى) . كان النبي (ص) يجهد نفسه ويتعبها بالعبادة ، وأيضاً كان يجهدا ويتعبها تأسفاً وحسرات على كفر الكافرين وعدم هدايتهم : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات - ٨ فاطر » . فعاتبه الله على هذا الاجهاد ، وقال له : لم تشقّ على نفسك وتحملها ما لا تطيق من كثرة العبادة ومن التوجع لإعراض من أعرض عن دعوتك ؟ فإلهذا اصطفتك وأنزلت عليك القرآن ، اني أنزلته عليك لتهتدي به انت ومن اتبعك من المؤمنين ، وتذكر به الكافرين ويكون حجة لله عليهم ، فهو نعمة ورحمة على من آمن ، ونقمة على من أعرض وتمرد .

(تنزيلاً من خلق الأرض والسموات العلى) . الذي نزل القرآن هو الذي خلق الكون، والكون كتاب الله الناطق بلسان الحال ، والقرآن كتابه الناطق بلسان المقال ، وكل منهما لخبر الناس وسعادتهم فعلى م تتخذ يا محمد من نزول القرآن عليك وسيلة لتعبك واجهادك ؟ .

وتسأل : ان القرآن نزل على رسول الله (ص) ليعمل به ويرشد اليه ، وقد جاء فيه : « وما جعل عليكم في الدين من حرج - ٧٨ الحج » . وأيضاً قال تعالى : « فلأنما عليك البلاغ وعلينا الحساب - ٤٠ الرعد » . فكيف أتعيب النبي نفسه بالعبادة وبالحسرات ؟

الجواب : ان العظيم يستصغر الخير من فعله وان عظم ، ويستعظم الحقيق من ذنبه وان صغر ، ويتهم نفسه بالتقصير مما اجتهد .. والنبي (ص) أعظم خلق الله على الاطلاق ، ويستمد عظمته من علمه بالله وطاعته له وجهاده للدعوة الى سبيله ، ومن أجل هذا يتهم نفسه ، ويراهم متواني في حق الله مما بالغ في التبعية له والدعوة الى الحق بخاصة إذا لم تتمر دعوته التي يتنغيها من هداية عشرته قريش.

(الرحمن على العرش استوى) هذا كناية عن الاستيلاء والتدبير ، وسبق مثله في سورة الأعراف الآية ٥٤ ج ٣ ص ٣٣٩ (له ما في السموات وما في الأرض وما بينها وما تحت الثرى) هذا بيان وتفسير لقوله تعالى : خلق الأرض والسموات ، وقوله : على العرش استوى لأن الخالق والمدير هو المالك ، ولا أحد يملك معه شيئاً إلا من ملكه (وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى) . والأخفى هو الذي يمر بخيالك دون ان تتفوه به ، وأوضح تفسير للأخفى قوله تعالى : « والله عليم بذات الصدور - ١٥٤ آل عمران (لا إله إلا هو له الأسماء الحسنی) . كل أسماء الله حسنة لأنها تعبر عن أحسن المعاني وأكمل الصفات . أنظر فقرة « هل أسماء الله توقيفية أو قياسية » ج ٣ ص ٤٢٥ .

حديث موسى الآية ٩ - ١٦ :

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ

الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى *

• اللغة

آنست ابصرت . والقبس شعلة من نار على رأس عود . والوادي سفح الجبل ، ويقال لمجرى الماء . وطوى اسم لذلك الوادي . وتردى نهلك .

الإعراب :

إذ ظرف يتعلق بحديث موسى . وفي نودي ضمير مستتر يعود الى موسى ، وهو نائب فاعل . وأنا تأكيد . وطوى بدل من الوادي . ولذكري متعلق بأقم . ولتجزى متعلق بآتية . وفتردى في محل نصب بجواب النهي .

تكرار قصة موسى :

ذكر الله موسى في كتابه مرات ومرات ، والسر - كما لاحظنا ونحن نفسر آي الذكر الحكيم - ان الله سبحانه ذكر الكثير من مساوي قومه بني اسرائيل ، وقد كان موسى ينهاهم عنها ، ويخلصهم منها ، فافتضى ذكره عند ذكرهم .. هذا بالاضافة الى قصته مع شعيب وفرعون ، وصحبته العبد الصالح الذي خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وأقام الجدار ، والى وضعه ، وهو طفل ، في التابوت وقذفه في اليم ، وإلى قتله الفرعوني ، وخروجه خائفاً يترقب - إلى غير ذلك ، قال بعض

المفسرين : « كرر الله قصة موسى مع فرعون لأن حكاية موسى منذ انعقاد نطقته الى آخر حياته كلها عبر ونصح وانذار وتبشير وتسلية للنبي والمؤمنين وفيها آيات دالة على علم الله وقدرته وحكمته وعلى تحمل موسى من قومه الذين هم أشد حقاً من جميع الأمم ، . هذه هي دنيا موسى : وضع في الترابوت وقذف به في البحر ساعة ولادته ، ثم نشأ يتيماً في بيت فرعون ، ثم مشرداً بائساً يأكل من نبات الأرض ، ثم راعياً للغنم ، ثم نبياً يقاسي من قومه أشد الخطوب والآلام .. فلا بدع إذا تكرر ذكره وحديثه في كتاب الله ما دامت حياته كلها وقصته قصة المعظات والعبر .. والآيات التي نحن بصدها نتحدث عن ابتداء نزول الوحي على موسى وتكليم الله إياه .

(وهل أذاك حديث موسى) ؟ . هذا مثل قولهم : هل بلغك كذا وكبت ؟ والقصد ان يتنبه السامع ويصغي الى الحديث . وهذا هو حديث أول الوحي الى موسى : (اذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا اني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى) . في الآية ١٤ وما بعدها من القصص ذكر سبحانه ان موسى لما بلغ أشده رأى رجلين يقتلان : احدهما فرعوني ، والآخر عبري ، وان هذا استغاث بموسى ، فوكر موسى الفرعوني ، ففضى عليه ، وهرب موسى من مصر الى مدين ، فزوجه شعيب احدى بنتيه على ان يرعى ماشيته ثمانى سنوات او عشرأ : « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا اني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر او جذوة من النار لعلكم تصطلون - ٣٠ القصص » .

خرج موسى من مدين قاصداً مصر ، ومعه زوجته ، وفي الطريق احتاج الى النار .. قال الرواة : ان موسى ضل الطريق في ليلة شاتية باردة مظلمة ، وان الطلق فاجأ زوجته في هذه الحال ، وان زنده لم يتقدح .. وبينما هو حائر في امره لا يدري ماذا يصنع ؟ ضياع وبرد وظلمة ونحاض امرأة وعدم انقذاح الزند ، بينا هو كذلك اذ رأى ناراً من بعد ، فاستبشر وقال لأهله : ربما يأتي الفرج من قلب الضيق .. الزموا مكانكم ، فاني ذاهب الى مكان النار لعلني آتيكم بجذوة تصطلون بها او أجد عندها من يخبرني بما يفرج عني .

سورة طه

(قلنا اتاهنا نودى يا موسى إني أنا ربك) . دنا موسى (ع) مما ظنه ناراً ، فإذا هو نور عظيم أبهى من نور الشمس ، وإذا بصوت رهيب يقول : (أنا ربك فاخلع نعليك) تأديساً وتواضعاً (انك بالوادي المقدس طوى) في المكان المطهر المبارك ، حيث تجلس فيه النور الإلهي ، وارتفع في سمائه صوت الجلال والكمال .. رأى موسى نوراً ، سمع صوتاً ، ولا شيء سواهما .. قال الامام علي (ع) : ان الله سبحانه لا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس .. الذي كلم موسى تكليماً ، وأراه من آياته عظيماً بلا جوارح ولا أدوات .

(وانا اخترتك فاستمع لما يوحى) . والله سبحانه لا يختار لوحيه إلا صفوة الأئمة عليه ، وتقدم نظيره في الآية ١٤٣ من سورة الاعراف ج ٣ ص ٣٩٢ . ثم يبين سبحانه ان الدين الذي أوحى به الى موسى يقوم على أسس ثلاثة : الأول الوحداية (انني أنا الله لا إله إلا أنا) . الأصل الثاني الاخلاص لله في العبادة (فاعبدني وأقم الصلاة لذكري) . الأصل الثالث البعث (ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى) . المراد بأكاد أخفيها انا أخفيها ، والمعنى ان الله سبحانه أخفى علم الساعة عن عباده ليترقبوا مجيئها في كل وقت ، فيخافوا منها ويعملوا لها ، ثم يستوفوا جزاء عملهم ، ولا يظلموا شيئاً .

(فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) . ضمير عنها يعود إلى الساعة لأنها أقرب من الصلاة ، ويجوز أن يعود عليها معاً ، والمعنى عليك يا موسى أن تؤمن بالبعث والحساب والجزاء ، وتعمل له ، ولا تتبع أهواء الجاحدين فهلك كما يهلكون ، وقلنا فيما تقدم : ان للأعلى أن ينهى من هو دونه عما يشاء حتى لو كان المخاطب بالنهي معصوماً .. هذا ، إلى ان النهي عن الشيء لا يدل على امكان فعله ممن 'نهى عنه' .

وما تلك بيمينك يا موسى الآية ١٧ - ٣٥ :

وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَآهَشُ

بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى * قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَى * فَالْقَاهَا
فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى *
وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى *
لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * إِذْ هَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ
اشرحْ لِي صَدْرِي * وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي *
يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هُروُنَ أَخِي * أَشَدُّ بِهِ
أُزْرِي * وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا *
إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا *

اللغة :

اتوكأ اعتمد . أمش بها على غنمي أي أضرب بها الشجر فيساقط ورقه فتأكله
الغنم . والمآرب الحوايج . وسيرتها حالها أو طريقتها . وجناحك جيبك ، وهو
استعارة من جناح الطير . من غير سوء من غير عاهة . ويفقهوا يفهموا .
وبصيراً عالماً .

الإعراب :

ما تلك مبتدأ وخبر ، وبيمينك متعلق بمحذوف حالاً من تلك . وسيرتها بدل
اشتمال من هاء سنعيدها ، أو منصوبة بتزع الخافض أي الى سيرتها . وببيضاء حال
من ضمير تخرج . ومن غير سوء متعلق بمحذوف صفة لبيضاء . وآية بدل من

بيضاء . ويفقهوا مجزوم بحجاب الأمر . وأخي بدل من هرون . وكثيراً صفة
للمعول مطلق مخوف أي نسبك تسييحاً كثيراً ، ونذكرك ذكراً كثيراً .

المعنى :

(وما تلك يمينك يا موسى) ؟ الله يسأل موسى ان يخبره عما في يده ،
وهو أعلم به من موسى .. اذن هناك سر .. أجل ، وهو سر عظيم يكمن في
هذه العصا ، وقد أراد سبحانه أن يظهره لموسى ، وهو تحول العصا الى حية ..
واذا كانت نقطة الانسان تحمل خصائصه ، والبيضة تحمل خصائص الدجاجة ،
والبلر خصائص النبات فان هذه الخشبة اليابسة لا تحمل شيئاً من خصائص الحية ،
ومع ذلك تحولت اليها .. وهذا هو سر الاعجاز ، وبهذا نجد تفسير قوله تعالى :
« يخرج الحي من الميت - ٩٥ الانعام » .

وقال الرازي : من أراد أن يخرج الشيء العظيم من الشيء الصغير يعرضه أولاً
على الحاضرين ، ويقول لهم : ما هذا ؟ فيقولون : هو كذا . وعندها يخرج
منه الشيء العظيم .. وهكذا فعل سبحانه مع موسى ، سأله عن العصا ولما أقر
بأنها خشبة يابسة قلبها الله ثعباناً ، ثم ضرب بها البحر حتى انقلب ، والحجر
فانفجرت منه العيون .

والغريب ان الشيخ المراغي نقل عبارة الرازي هذه دون ان يشير الى مصدرها
كعادته في تفسيره من أوله الى هذه الآية ، واحسب ان السالحي لا يختلف عن
السابق ، ومثله تماماً نظام الدين النيسابوري في تفسيره غرائب القرآن ورغائب
الفرقان .

(قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى) .
قرأنا علم المعاني والبيان في كتاب المطول للتفتازاني ، ولما وصلنا إلى باب الإيجاز
والإطناب والمساواة ذكر صاحب المطول للاطناب فوائد ، منها الإيضاح ، ومنها
التأكيد بالتكرار ، ومنها لغة العلم ، ثم ضرب الاستاذ مثلاً للكلام مع الحبيب برواية عن
بعض الثقات ، وتلخص بأن هذا الراوي رأى في منامه محمداً (ص) وموسى بن

عمران (ع) ، وسمع موسى يعاتب محمداً ، ويقول له : لقد قلت فيما قلت : ان علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل .. أهذه منزلتنا عندك يا أبا القاسم ، تماماً كعلماء أمتك ؟ وأراد محمد أن يثبت له ذلك بالعيان ، فقال لموسى : الآن أجمعك بعالم من علماء أمتي لتختبره وترى صحة ما قلت . قال موسى : أجل . فجمعه رسول الله (ص) بعالم يعرف بالمقدس الاردبيلي ، فقال له موسى : ما اسمك ؟ قال : أنا أحمد وأبني اسمه محمد ، وبلدي اردبيل ، ودرست في النجف ، واستاذي الشهيد الثاني . فقال له موسى : ولم هذا التطويل والاطناب ؟ فقد سألتك عن اسمك ، فأجبت عنه وعن اسم أبيك واسم أستاذك وبلدك .. فقال له المقدس الاردبيلي : وأنت سألتك الله عما في يمينك فقلت له : (هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى) . وكان يكفي أن تقول : هي عصاي وتسكت . وعندها التفت موسى الى محمد وقال له معتذراً : أنت أدري بما قلت .

وعلق الأستاذ على هذه الرواية بقوله : وهكذا الانسان يطيل الحديث مع من يحب ، لا شيء إلا للانبساط والانشراح ، ومن ذلك قول المتنبي :

وكثير من السؤال اشتياق وكثير من رده تعليل

(قال القها يا موسى فألقاها فاذا هي حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى) . خاف موسى من هذا المنظر الرهيب وولى مدبراً كما دلت الآية ١٠ من سورة النمل : « فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف اني لا يخاف لدي المرسلون » مما أمرتهم به لأنهم يعلمون اني لا أسر إلا بالخير ، ولا أنهي إلا عن الشر ، وما ان وضع موسى يده على الحية حتى عادت عصا كما كانت .

(واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى لزيدك من آياتنا الكبرى) . في هذه الآية قال سبحانه : واضمم يدك الى جناحك ، وفي الآية ١٢ من سورة النمل قال : وأدخل يدك في جيبك ، فالمراد - اذن - من الجناح الجيب ، وهو القميص أو طوقه كما في كتب اللغة ، ومن غير سوء أي

من غير آفة وعاهة ، وكانت يد موسى سمراء لأنه كان أسمر ، ولما أدخل يده في جيبه وأخرجها سطع منها نور كضوء الشمس . وتقدم نظيره في سورة الأعراف الآية ١٠٧ ج ٣ ص ٣٧٥ .

(اذهب الى فرعون انه طغى) . أمر الله موسى أن يردع فرعون عن ظلمه وطفوانه ، وهو صاحب الحول والطول الذي قال : أنا ربكم الأعلى .. ما علمت لكم من إله غيري .. والذي قال لموسى : « ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ١٨ - الشعراء » . نشأ موسى في قصر فرعون كيتيم ، ثم مشرداً يأكل بقلة الأرض ، ولقد كانت خضرة البقل تُرى من شفاف صفاف بطنه لفضاله ، وتشذب لحمه ، كما قال الإمام علي (ع) ^١ حتى استغاث بالله ، وسأله لقمة العيش : « رب اني لما أنزلت إلي من خير فقير - ٢٤ القصص . قال الإمام : والله ما سأله إلا خبزاً يأكله .. وقد استجاب الله دعاءه ، فوجد الخبز عند شبيب على أن يعمل راعياً لماشيته .. هذه هي دنيا موسى بن عمران : وضع في تابوت وقذف به في البحر ساعة ولادته ، ثم نشأ يتيماً في بيت فرعون ، ثم مشرداً بائساً يجوب القلوات ، ويقتات من نبات الأرض ، ثم راعياً للغنم .

أهذا الضعيف الذي لا يملك شيئاً من حطام الدنيا يذهب الى فرعون صاحب الحول والطول ليصده عن غيه وجبروته ؟ ولكن هنا ما حصل ، فلقد ذهب موسى الى فرعون ومثله بعضاه فلقفت ما يأفكون ، وييده البيضاء فشهدت له بصدقه ونزاهته عن كل تهمة .. وقد سأل موسى ربه أشياء أخرى عن العصا واليد ، فأنابه سؤله ، وهي :

١ - (رب اشرح لي صدري) . المعروف عن موسى انه كان عصبي المزاج سريع الغضب مما يكره ، وهذا ما نطق به القرآن ، فقد أخبر عنه انه أخذ بلحية أخيه هرون ورأسه حين عكف بنو اسرائيل على عبادة العجل ، ووكز الفرعوني ففضى عليه ، وعصى أمر العبد الصالح بعد ان قال له : ستجدني ان شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً .. وليس من شك ان للخطوب والآلام التي

١ الصفات الجلد الاسفل تحت الجلد الذي عليه الشعر ، والتشذب التفرق .

قاساها موسى في حياته - أثراً فعالاً في هذا الضيق والغضب السريع .. ولما كانت الرسالة الى الخلق تستدعي الصبر على المكروه والمتأصب سأل ربه رباطة الجأش ، وسعة الصدر .

٢ - (ويسر لي أمري) . مدّني منك يا إلهي بالعون والتوفيق لأداء ما كلفني به ، وحلّمني آياه .. ولا يتم شيء للانسان من الخير مهما توافرت له الأسباب إلا بتوفيق الله وعونه .

٣ - (واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) . واذا عطفنا هذه الآية على قوله تعالى : « وأخي هرون هو أفصح مني لساناً - ٣٤ القصص » وقوله : « ولا يكاد يبين - ٥٢ الزخرف » . إذا جمعنا هذه الآيات الثلاث في كلام واحد كانت شاهد صدق بصحة قول من قال : انه كان في لسان موسى ثقل ولُكنة ، اما ان هذه اللكنة خلقة ، أو من جمره أدخلها فاه وهو طفل ، حين امتحن فرعون رشده وتمييزه بين الثمرة والجمرة ، أما هذا فعله عند ربي .. وتجلر الإشارة الى ان هذه الآية تشعر بأن فصاحة اللسان ، وبلاغة البيان من أجل الصفات ونعم الله الكبرى على الانسان ، وقد امتن سبحانه عليه حيث قال : « خلق الانسان علمه البيان - ٣ الرحمن » . وقال الإمام علي (ع) : « ما الانسان لولا اللسان إلا بهيمة مهيمة أو صورة ممثلة » .

٤ - واجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً انك كنت بنا بصيراً) . جاء في مجمع البيان: ان هرون كان أخاً لموسى من أمه وأبيه ، وكان يكبره بثلاث سنين ، وكان أم طولاً ، وأهبط جسمياً ، وأكثر لحماً ، وأفصح لساناً ، ومن أجل هذه الصفات سأل موسى ربه أن يجعل أخاه هرون شريكاً له في النبوة .. وقال صاحب المجمع: انه مات قبل أخيه موسى بثلاث سنين .

حقيقة النبوة :

ومها يكن فلا بد لصاحب الرسالة من التعاون مع من يخلص لها ، ويضحي

في سبيلها ، فان النبوة في حقيقتها مجرد خبر ونبا عن الله ينقله من يستحيل في حقه الكذب والخطأ ، وما هي بقوة تنفيذية تقول للشيء كن فيكون ، ان النبي بشر لا يملك لنفسه نفعا ، ولا يدفع عنها ضررا ، ويستعمل لتنفيذ مقاصده نفس الوسائل التي يستعملها المؤمن والجاحد ، ولا يمتاز إلا بهذا النبا عن الله، وانه أخذ من الانسانية أكرم ما فيها ، واستصفى أجمل صفاتها ، ولكن الصفات الجلى لا تجعل صاحبها في المكان الذي يستغني معه عن الأسباب العادية والسنن الطبيعية .. كلا ، ان الأنبياء وغير الأنبياء سيئات في الحاجة والافتقار الى الأخذ بالعلل والأسباب .

فالنبي يحتاج الى التطبيب اذا أصابته علة تماماً كما يحتاج اليه من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، وأيضاً يحتاج الى القوة الرادعة كما يحتاج اليها أي انسان .. فكل الأنبياء أودوا ، وكثير منهم قُتلوا .. وهذا يتبين الغلو في قول من قال : ان محمداً (ص) هو الحقيقة التي خلق الله منها الوجود ، والروح التي سرت في جميع الكائنات عليها وسفلها : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ان أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون - ١٨٧ الأعراف » .

هذه هي حقيقة النبوة: انذار وبشير، ومنى وجد البشير النذير ومعه المؤازر المناصر كان الارشاد أبلغ في الحجة ، وأدعى لبلوغ الغاية ، ومن أجل هذا طلب موسى من ربه أن يشد أزره بأخيه .

وبهذه المناسبة نذكر ما قاله « و. ل. ديورانت » عن محمد (ص) في موسوعته التاريخية « قصة الحضارة في العالم » : « كانت المساكن التي أقام فيها محمد كلها من اللبن لا يزيد اتساعها عن ١٢ قدماً ، ولا يزيد ارتفاعها عن ٨ أقدام ، وسقفها من جريد النخل ، وأبوابها من شعر الماعز ، أو وبر الجمل ، أما الفراش فلم يكن أكثر من حشية تفرش على الأرض ، ووسادة من ليف ، وكان يخصص فله ، ويرقع ثوبه ، وينفخ النار ، ويكنس أرض السدار ، ويحلب العزة ، ويبتاع طعامه من السوق ، ويأكل بيده ويلقن أصابعه ، وكان طعامه الأساسي الثمر وخبز الشعير ، وكان اللبن وعسل النحل هما كل ما يستمتع به من الترف في بعض الأحيان » .

علي وهرون :

ونفس الشيء حدث لرسول الله (ص) ، قال السيوطي في الدر المنثور عند تفسير قوله تعالى : رب اشرح لي صدري : وأخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر ان رسول الله (ص) قال : اللهم اني أسألك بما سألك أخي موسى ان تشرح لي صدري وان تيسر لي أمري وان تحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي ، اشدد به ازري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً انك كنت بنا بصيراً .

وقال مسلم في صحيحه ج ٢ ص ١٠٨ طبعة ١٣٤٨ هـ : ان رسول الله قال لعلي : اما ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى . وفي الجزء الأول من مسند الامام أحمد بن حنبل ان رسول الله (ص) سمى الحسين اقتضاء لهرون في تسمية ولديه بشبر وشبر أي حسن وحسين .

قد أوتيت سؤلك يا موسى الآية ٣٦ - ٤١ :

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى * وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ * فَلْيُلَفِهِ الْيَمُّ بِالْسَّاحِلِ يُأْخِذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ * وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةَ مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ * وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا * فَلَمِيتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَى * وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي *

اللفظة :

سؤلك مطلوبك . ومتنا أنعمنا . وأوحينا ألهمنا . واقدفيه اطرحيه . والم البحر .
والصنع عمل الخير ، والمراد به هنا التربية . وعلى عيني برعائي . وفنتاك ابتليلاك
واختبرناك . ومدين كانت مدينة في جنوب بلاد الشام ، وهي بلد شعيب ،
ويدعي البعض أنها من قرى جبل عامل تُعرف بقَدَس ، ولا دليل على هذه
الدعوى . واصطنعتك جعلتك موضع صنيعي واحساني .

الإعراب :

مرة أخرى ظرف والعامل فيه متنا أي وقتاً آخر . وإذ ظرف والعامل فيه
متنا . وما يوحى (ما) مصدرية أي أوحينا إياه . ان اقدفيه أي إقدفيه تفسيراً
للوحي . يأخذه مجزوم بجواب الأمر . ولتصنع المصدر المنسبك متعلق بالقيت .
إذ تمشي (إذ) ظرف متعلق بتصنع . وعلى قدر متعلق بمحذوف حالاً من الضمير
في جث .

المعنى :

(قال قد أوتيت سؤلك يا موسى) من شرح الصدر ، وتيسر الأمر ،
وطلاقة اللسان ، وشد الأزر بأخيك ، وإشراكه ملك في النبوة . قال الإمام
علي (ع) : كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو ، فان موسى بن عمران خرج
يقتبس لأهله ناراً فكلمه الله ورجع نبياً (ولقد متنا عليك مرة أخرى) المن هنا
بمعنى الإنعام ، لا بمعنى التعبير والتفريع ، وقد كانت نعم الله سبحانه كثيرة على
موسى ومتابعة ، منها ما يلي :

(اذ أوحينا الى امك ما يوحى ان اقدفيه في التابوت فاقدفيه في اليم فإلقه اليم
بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك حبة مني ولتصنع على عيني) .

ضمير المخاطب في لتُصنع لموسى (ع) ومعنى تُصنع تُربى ، والمراد بعين الله حراسته تعالى ورعايته .. كان فرعون إذا ولدت اسرائيلية ذكرأ ذبحه، وإذا ولدت انثى استبقاها للخدمة ، ولما وضعت امرأة عمران موسى خافت عليه من فرعون ، وحارت به ، فألهمها الله أن تضعه في صندوق ، وتلقي به في النيل ففعلت ، وثبت الله فؤادها، وهدأ روعها ، وقذفه النيل الى الشاطئ .. وقيل : ان جوارى آسية امرأة فرعون خرجن للاغتسال ، فوجدن الصندوق فصحبته معهن ، وما ان فتحت امرأة فرعون ورأت الطفل حتى ألقي الله محبته في قلبها « وقالت امرأة فرعون - له - قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً - ٩ القصص » ، فأبقاه فرعون وتربى في قصره مشمولاً بحراسة الله ورعايته .

(اذ تمشي اختك فتقول هل ادلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كي تقر عينها ولا تحزن) . أراد سبحانه ان يرجع موسى الى أمه ، لتأنس به ، وتطمئن عليه ، وإذا أراد الله شيئاً هيا أسبابه ، فحرم المراضع على موسى ، حتى حارب فرعون ، فذهبت أخت موسى الى قصر فرعون متكرة ، وقالت : أنا ادلكم على من يرضعه، وجاءت بأمه فقبل ثديها ، فدفعه فرعون اليها ، وأجرى عليها رزقاً .

(وقتلت نفساً فنجيناك من الغم) . في ذات يوم مر موسى في شارع من شوارع مصر ، فرأى رجلين يقتلان : أحدهما فرعوني والآخر عبري ، فاستغاث هذا بموسى ، فوكزه بيده ، وهو لا يريد قتله ، ولكنه قضى عليه ، وخاف موسى ان يقتصوا منه ، فخلصه الله من غم القصاص ، وإلى هذا أشارت الآية ١٥ من القصص : « فوجد فيها رجلين يقتلان هذا من شعبته وهذا من عدوه فاستغاث الذي من شعبته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه » .

(وفتناك فتوناً) . ان الله سبحانه يمتحن عباده بالسراء والضراء ، فمن شكر تلك ، وصبر على هذه قرّبه وأثابه ، ومن بطر عند النعمة ، وكفر عند الشدة طرده من رحمته . وقد امتحن سبحانه موسى بأنواع الشدائد والمحن فوجده صابراً ذاكرأ ، فشرفه بالنبوة ، ورفع له الدرجات العلى (فلبث سنين في أهل مدين) وذلك حين رعى غنم شعيب عشر سنين، كما أشارت الآية ٢٧ من سورة القصص:

« فان أتممت عشراً فمن عندك » وقد أتممها عشراً كما في بعض الروايات (ثم جثت على قدر يا موسى) أتيت الى هذا المكان ، وهو الوادي المقدس طوى ، أتيت في نفس الوقت الذي قدره الله لارسالك نبياً (واصطنعتك لنفسى) أي اخترتك لوحى ورسالى ، وفي اضافة موسى الى الله سبحانه غاية التشريف والتكريم ، حيث تسمى الى ان الله سبحانه قد جعله من خواصه .

اذهب أنت وأخوك الآية ٤٢ - ٤٨ :

أَذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * إِذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَفْطُرَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أَوْحَيْنَا أَنْ أَلْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى *

اللغة :

ولا تنيا لا تقصرا . أن يفرط أي أن يتقدم بالعذاب لأن الفرط معناه التقدم . والمراد بالسلام في الآية السلامة من العذاب .

الإعراب :

أنت توكيد لضمير اذهب . وأخوك عطف على الضمير المستتر . والمصدر

من أن يفرط مفعول نخاف . ويجوز انني وانني ، وانا وانا .

المعنى :

(اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنبأ في ذكري) . المراد بالآيات هنا المعجزات ، وهي العصا واليد البيضاء وغيرهما من الآيات التي أشرنا إليها عند تفسير الآية ١٠١ من سورة الاسراء . ومعنى لا تنبأ في ذكري لا تنهاونا في رسالتنا والتذكير بأمرنا ونهي (اذهب الى فرعون انه طغي) . اذهب تأكيد لإذهب أنت وأخوك ، وتقدم نظيره في الآية ٢٣ من هذه السورة .

(فقولوا له قولاً لبناً لعله يتذكر أو يخشى) . واذا تذكر أصحاب الشركات الاحتكارية في هذا العصر يتذكر فرعون ويخشى .. ومهما يكن فإن هذه الآية تحدد أسلوب الدعوة الى دين الله ، وبالأصح تحدد أسلوب الاقتناع بالحق ، ونظيرها قوله تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة - ١٢٥ النحل » ، والموعظة الحسنة أن يشعر معها المخطيء تلقائياً بخطئه ، والضال بضلاله ، ويرى نفسه بعيداً عن الحق والواقع : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير - ١٠ الملك » .

والشرط الأول للموعظة الحسنة ان لا يرصد الواعظ بموعظته الا اصلاح ، بحيث يعتقد المقصود بالموعظة أو غيره من أهل الوعي ان الغاية الأولى والأخيرة هي مصلحته وهدايته ، والشرط الثاني أن تكون الموعظة بالقول اللين ، ومما قاله موسى لفرعون : « هل لك الى ان تزكى واهدبك الى ربك فتخشى - ١٩ التازعات » . أنظر ج ٤ ص ٥٦٤ .

(قالوا ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) . انك تعلم يا إلهنا جبروت فرعون وعتوه ، وانه لا رادع يردعه عن الغدر بنا والأمر بقتلنا قبل أن يستمع الى ما زودتنا به من البينات والدلائل ، فهل لك أن تتفضل علينا بما نأمن معه من غوائله ؟ (قال لا تخافا انني معكما أسمع وأرى) . فأنا الكافل الضامن لسلامتكما من غدره وغوائله . وكفى بالله حافظاً ونصيراً .

وتسأل : ان ضمير قالاً مثنى يعود الى موسى وهرون ، مع العلم بأن هرون لم يكن مع موسى في موقف المناجاة ، فما هو الوجه لذلك ؟.

وأجاب بعض المفسرين بأن هذا القول كان من موسى بلسان المقال، ومن هرون بلسان الحال ، لأن هرون تابع لموسى ، ويجوز ان يكون هذا القول منها بعد ذهاب موسى الى مصر واجتماعه بأخيه ، وقبيل ذهابها الى فرعون .. ومن عادة القرآن أن يطوي كل كلام تدل عليه قرينة حالية أو مقالية .

(فأتياه ققولا إنا رسولا ربك فارسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم) بالأسر والتسخير وذبح الأبناء واستخدام البنات . وتقدم نفيهم في الآية ١٠٤ من سورة الاعراف ج ٣ ص ٣٧٤ . (قد جئناك بآية من ربك) بحجة كافية ، ودليل قاطع على صدقنا (والسلام على من اتبع الهدى) . والهدى هو دين الله ، والسلام الأمان من عذابه ، والمعنى ان من دخل في دين الله فقد سلم من عذاب الحريق (انا قد أوحى اليها ان العذاب على من كذب وتولى) . ههنا تهديد وانذار لفرعون بالهلاك والدمار ان استهان بشأن موسى وهرون ، وانكر رسالتها، واستمر في غيه وعتوه .

فمن ربكما يا موسى الآية ٤٩ - ٥٦ :

قَالَ قَسْن رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عَلِمْنَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْمُوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ

وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى * وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا
كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى *

اللغة :

أعطى كل شيء خلقه : اتقن خلق كل شيء . ما بالك وما حالك وما شأنك
بمعنى واحد . وضل أخطأ . وسلك سهل . وازواجاً أصنافاً . والنهى العقول ،
وواحدة نهيية بضم النون .

الإعراب :

كل شيء مفعول أول لأعطى ، وخلقه مفعول ثان . فما بال القرون مبتدأ
وخبر . وعلمها مبتدأ وخبره في كتاب ، وعند ربي . تعلق بما تعلق به في كتاب ،
أي علمها ثابت في كتاب عند ربي . والذي جعل صفة لربي أو عطف بيان .
وشئى صفة لازواج أو للنبات . وقال صاحب مجمع البيان : تارة منصوبة على
المصدر . وفي كتب اللغة : تار الماء يتور توراً أي جرى مرة بعد مرة .

المعنى :

(قال فن ربكما يا موسى) . ذهب موسى وهرون الى فرعون ، وقالوا كما
أمرهما الله تعالى : انا رسولا ربك ، وقد جئناك بالحجة والدليل على صدقنا
ونبوتنا ، فان دخلت في دين الله فلك الأمان من غضبه ونقمته ، وإلا فأنت من
الهالكين .. وهذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها فرعون كلمة ربك ، فهو لا
يعترف بأن له رباً لأنه يزعمه هو الرب الأعلى ، ولهذا سأل موسى : من هو
هذا الرب الذي أرسلك اليّ ؟ ووجه الخطاب في ربكما لموسى وهرون معاً لأنها

قالا له : إنا رسولا ربك ، أما النداء فخصه بموسى لأنه صاحب الدعوة وهرون تابع .

(قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) . قال موسى لفرعون جواباً على سؤاله : ربنا هو الذي خلق الخلق ، فصورها فأحسن صورها دون أن يستعين على ذلك بأحد ، وهو الذي فطر كل مخلوق على الوظيفة التي تحفظ كيانه وبقائه ، قال الإمام علي (ع) : « ألا تنظرون إلى صغير ما خلق الله كيف خلقه ، واتقن تركيبه ، وخلق السمع والبصر ، وسوى له العظم والشر » . وكان موسى يقول لفرعون : ان الرب هو الذي يخلق الأشياء من لا شيء ، فأين انت من هذا ؟ تماماً كما حدث لإبراهيم (ع) مع النمرود : « قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر - ٢٥٨ البقرة » .

(قال - فرعون - فما بال القرون الأولى) . المراد بالقرون الأولى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم الخالية التي كانت تعبد الأصنام من دون الله ، وأراد فرعون بهذا السؤال الرد على موسى بأنه لو كان هناك إله بالأوصاف التي ذكرت لعبده الأمم السابقة ، مع العلم بأنها كانت تعبد الأصنام .. وهذا الجواب يحمل معه الدليل على نقضه وفساده لأن الاستدلال على نفي الإله الحق بعبادة من عبد الأصنام تماماً كالاستدلال بعنى الخفاش على علم وجود الشمس .

(قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) . أجاب موسى فرعون بأنني لست علام الغيوب حتى أخبرك عن الأمم البائدة ، فالله وحده هو الذي أحاط بكل شيء علماً ، وعلمه دائم لا يعثره التغير والتبدل : « يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد - ٦ المجادلة » .

وتسأل : ان موسى يعلم علم اليقين أن عبدة الأصنام كانوا على ضلال ، فلماذا قال لفرعون : الله أعلم بهم ، ولم يقل : كانوا على ضلال ؟
الجواب : لو قال : ان القرون الأولى كانوا ضالين لطالبه فرعون بالدليل الذي يقتنع به السامعون أو يكون حجة دامغة لا يستطيعون انكارها ، وموسى لا يملك هذا الدليل ، ولذا أجاب فرعون بما لا يطالبه بالدليل عليه .

(الذي جعل لكم الأرض مهدياً) تقدم الكلام مفصلاً عن بسط الأرض ومدّها ومهدّها في ج ٤ ص ٣٧٤ عند تفسير الآية ٣ من سورة الرعد (وسلك لكم فيها سبلاً) طرقاً تسلكونها لبلوغ مآربكم (وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى) . تقدم نظيره في الآية ٩٩ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٣٤ .

(كلوا وارعوا أنعامكم ان في ذلك لآيات لأولي النهى) . المراد بالآيات الدلائل على وجود الله تعالى ، وأولو النهى أهل العقول والبصائر ، وخصهم الله سبحانه بالذكر لأنهم يدركون الحقائق اذا كانوا مجردين عن الأهواء والأغراض ، وفي الحديث ان رسول الله (ص) قال : ان خياركم أولو النهى . فقالوا : ومن أولو النهى يا رسول الله ؟ قال : أولو الأخلاق الحسنة، والأحلام الرزينة ، والمتعاهدون للفقراء واليتامى والجيران ، يطعمون الطعام ، ويفشون السلام في العالم .

(منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) . الانسان ابن الأرض بحسبه ، فهي المادة الأولى لتكوينه ، ومنها طعامه وشرابه ، وعليها ذهابه وإيابه ، قال رسول الله (ص) : ه الأرض أمكم ، وهي برة بكم . أجل ، هي أمتنا لإتّانها ولدنا ، وهي برة بنا لأنها تغذيها كما ترضع الأم وليدها . ثم نعود الى الأرض بعد الموت ، ونصير تراباً كما كنا من قبل ، ثم نحيا ثانية للحساب والجزاء .

(ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى) . الهاء في أريناه لفرعون ، والمراد بالآيات المعجزات التي أظهرها الله سبحانه على يد موسى ، ودلت دلالة واضحة على صدقه ونبوته ، ولكن أية جدوى من الآيات والنذر إذا اصطدمت بالمنافع والمصالح ؟ .

فرعون يجمع السحرة ٥٧ - ٦٤ :

قَالَ أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأَيِّتَنَّكَ بِسِحْرِ

مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى *
 قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشَرَ النَّاسُ ضُحًى * فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ
 فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ
 كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ
 بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى * قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ
 يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْبِعُوا
 كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوَا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى *

اللغة :

موعداً اسم زمان أي ميعاداً معيناً . وسوى مستوى الأرض أي في مكان لا
 انخفاض فيه ولا ارتفاع . ويوم الزينة يوم العيد . والمراد بكيده أصحاب كيده
 وهم السحرة . والويل الخزي والهوان . ويسحتكم يستأصلكم . وأسروا النجوى تناجوا
 سراً . والطريقة المثلى الدين ، والمثل ثابث الامثل وهو الأفضل . واستعلى غلب .

الإعراب :

موعداً مفعول أول لاجمل ، وبيننا وبينك متعلق بمحذوف مفعولاً ثانياً .
 وجملة لا نخلفه صفة لموعد . ومكاناً متعلق بمحذوف صفة ثانية لموعد أي كائناً
 في مكان ، وسوى صفة لمكان . وموعدكم يوم الزينة مبتدأ وخبر . والمصدر من
 ان يخشع الناس عطف على الزينة أي ويوم حشر الناس . ويلكم منصوب على
 اضممار الفعل أي الزموا الويل ، لأنه مضاف ، فإذا لم يضاف مثل ويل لكم فبتدأ

وخبر . وإن هذان لساحران (إن) مخفية مهمة ، وهذان مبتدأ وساحران خبر ، واللام هي الفارقة بين ان النافية والمخفية . والمصدر من يخرجكم مفعول بربدان . وصفاً حال من واو اثنا .

المعنى :

(قال أجبنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى) . اضطرب فرعون ، وأسقط في يده حين جابه موسى بالحجة الدامغة التي لا رد عليها .. كيف ؟ وهي آية من آيات الله تعالى .. ان فرعون على علم اليقين من ان السحر أبعد ما يكون عن موسى وهرون ، وان الساحر أحقر من أن يخرج من أرضه وملكه ، ولو كان للسحرة هذا السلطان لكانوا أولي الأمر في كل زمان ومكان .. ولكن فرعون لما شعر بالعجز عن مجابهة الحجة بالحجة لجأ الى الاحتيال والمراوغة، والكذب والافتراء ، تماماً كما يفعل اليوم المستعمرون وأذئابهم ، حيث يصفون الأحرار بالهدامين ، والمخلصين بالفوضويين .

(فلأنيتك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا تخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى) . طلب فرعون من موسى أن يعين موعداً للمباراة بينه وبين السحرة على أن تكون في مكان مكشوف ، لا شيء فيه يحجب أعين النظارة عن مشاهدة المباراة ومتابعتها (قال موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى) . اختار يوم العيد للمباراة بينه وبين السحرة ، حيث يترك الناس أعمالهم ، ويجتمعون فيه بالأماكن العامة ، واختار وقت الضحى من يوم العيد لأنه أنسب الأوقات للحشد والتجمع ، وموسى يريد أن يحق الحق ، ويبطل الباطل على رؤوس الأشهاد .

(فتولى فرعون فجمع كيدَه ثم أتى) . هذه الآية بينة الاعجاز ، فهي على إيجازها تحمل الكثير من المعاني .. تولى .. فجمع .. ثم أتى .. وكلمة تولى تعبر عن انصراف فرعون الى حاشيته وأنصاره وتشاوره معهم لوضع الخطط وإحكامها ، وكلمة جمع تعبر عن ارساله الرسل في أنحاء البلاد للبحث عن السحرة والأتيان بهم ، فقد أشار عليه مستشاروه ان يرسل في المداين حاشرين يأتوه بكل ساحر

علم ، كما في الآية ١١٢ من سورة الأعراف ، وكلمة ثم أنى تعبّر عن مجيئه بموكبه واهته الى مكان المباراة في الموعد المعين .

(قال لهم موسى ويلكم لا تفترؤا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى) . تقدم موسى الى السحرة بالنصح والانذار قبل أن يباشروا أي عمل من أعمال السحر ، وحذرهم من عذاب الاستتصال ان أصروا على تخادعة الناس بالتمويه والأكاذيب ، وأفهمهم ان فرعون مها بلغ من السلطان فانه أضعف من أن يملك لهم نفعاً أو ضرراً .

(فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى) . ضمير فتنازعوا وما بعده يعود الى السحرة ، وتوميء هذه الآية الى ان بعض السحرة قد تأثر بكلمة موسى (ع) أو بعثت في نفسه الشك - على الأقل - وفي تفسير الطبري ان بعض السحرة قال عن تحذير موسى لهم : ما هذا القول بقول ساحر ، ولا بدع فان الكلام اذا خرج من القلب المخلص أخذ طريقه الى القلوب المخلصة .. تأثر البعض من السحرة بموعظة موسى ، وعارضه البعض الآخر ، وبطبيعة الحال دار الحوار والجدال فيما بينهم : هل يمحضون في تحدي موسى بالسحر ، أو ينسحبون من المباراة ، وقد دار هذا الحوار في الخفاء والكتمان عن فرعون وموسى أيضاً .. ولكن في النهاية تغلب رأي من أصر على التحدي بدليل ما حكاه الله عن السحرة بقوله :

(قالوا ان هذان لساحران يريدان أن يخرجكما من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فاجمعوا كيدكم ثم اتوا صفواً وقد أفلح اليوم من استعلى) . هذا الكلام كله للسحرة ، فضمير قالوا وما بعده يعود اليهم وحدهم ، وهذان اشارة الى موسى وهرون ، ومرادهم بالطريقة المثلى الدين الذي كانوا عليه بدليل ما جاء في الآية ٢٦ من سورة غافر : « وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليسعد ربه اني أخاف أن يبدل دينكم » . والمعنى ان بعض السحرة قال لبعض : ان موسى وهرون ماهران في فن السحر، وهما يحاولان التغلب علينا والقضاء على ديننا لتكون لها السيادة في البلاد ، ويكون أهلها لها عبيداً وأتباعاً ، فعلياً أن نكون يداً واحدة ضدّها ، ونبدل كل جهد لنفوز عليها ، وتكون الرفعة والمكانة لنا من دونها في هذا اليوم المشهود ، وإلا فلن نقوم لنا بعده قائمة .

قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ
 بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى *
 فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى *
 وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كِبْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ
 السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى * فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ
 وَمُوسَى * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ
 السَّحَرَ فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صُلْبَكُمْ فِي جُذُوعِ
 النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا
 مِنَ الْبَلَاءَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ
 السَّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا
 يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ
 لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
 وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى *

اللغة :

فأوجس أحس وأضمر . تلقف تأخذ أو تبتلع بسرعة . وكبركم معلمكم
وتقطع الأيدي والأرجل من خلاف ان تُقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ،
والمعكس بالعكس . ونؤثرك نخسارك . وفطرنا خلقنا ، واقصر أحكم . والعدن
الاقامة . وتركى تطهر من دنس الذنوب .

الإعراب :

إما بالكسر ، ومعناها هنا التخيف ، وهي مركبة من ان وما، ويجب تكرارها ،
والمصدر من ان تلقي مفعول لفعل محذوف أي اختر أما القاءك ، والمصدر من ان
نكون معطوف على المصدر من ان تلقي . وإذا للمفاجأة ، وحالهم مبتدأ، وعصبيهم
عطف على حالهم ، وجملة يخيل وما بعدها خبر . والمصدر من أنها تسعى مفعول
يخيل . وخيفة مفعول أوجس . وتلقف مجزوم جواباً لألقى . انما صنعوا كيدُ
(انما) مركبة من كلمتين : (ان) المشددة ، و (ما) الموصولة ، وهي اسم
إن، وصنعوا صلة الموصول ، وكيد خبر إن ، والعائد محذوف ، والتقدير ان
الذي صنعوه كيدُ ساحر . وسجداً حال أي ساجدين . وفي جنوع النخل (في)
هنا بمعنى على . وأينا مبتدأ ، وأشد خبر ، وعذاباً تمييز . والذي فطرنا عطف
على ما جاءنا . فاقض ما أنت قاضٍ (ما) اسم موصول مفعول لاقض ، وأنت
مبتدأ وقاضٍ خبر ، والجملة صلة الموصول والعائد محذوف أي فاقضٍ ما أنت
قاضيه . انما تقضي هذه (انما) مركبة من كلمتين : ان المشددة وما الكافّة عن
العمل ، وتقضي فعل مضارع والفاعل ضمير المخاطب أي انت والمراد فرعون ،
وهله مفعول تقضي ، والحياة عطف بيان من هذه ، والدنيا صفة للحياة . وما
أكرهتنا عطف على خطابانا . والضمير في انه للشأن ، ومجمله النصب اسم إن .
ومن يأت (من) شرطية ، والجملة من الشرط وجوابه خبر إن . وجنات عدن
بدل من الدرجات الملئ . وخالدين حال .

المضى :

(قالوا يا موسى اما ان تلقي واما ان نكون أول من ألقى قال بسل القوا فإذا جابههم وعصبيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى) . تقدم نظيره في الآية ١١٣ وما بعدها من سورة الاعراف ج ٣ ص ٣٧٨ .

(فأوجس في نفسه خيفة موسى) . قال أكثر المفسرين أو الكثير منهم : ان موسى خاف على نفسه كما هو مقتضى الطبيعة البشرية .. والصحيح انه ما خاف على نفسه ، كيف وهو يعلم ان السحرة مفترون ، وان الله قال له ولأخيه: اني معكما ، وانما خاف موسى ان يلتبس الأمر على الناس ، وينخدعوا بأباطيل السحرة (قلنا لا تخف انك انت الأهل) . لا تخف ان يلتبس الحق على الناس.. كلا ، فسيوضح للعيون والعقول انك المحق وهم المبتلون ، وسيعترف السحرة أنفسهم بأنك الصادق الأمين ، وانهم أصحاب تزوير ، ومكر ، وخداع ، وان فرعون هو الذي أكرههم على الكذب والافتراء .

(والقي ما في يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هرون وموسى قال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبركم الذي علمكم السحر فلا قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن اينأ أشد عذاباً وأبقى) انا أو موسى . وتقدم مثله في الآية ١١٧ وما بعدها من سورة الاعراف ج ٣ ص ٣٧٨ . انظر تلخيص قصة موسى مع فرعون واسم أم موسى في ج ٣ ص ٣٧٢ .

(قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا) . أراد فرعون من السحرة ان يتركوا الله ، ويتبعوه بعد ان اتضح لهم غيه وضلاله ، فقالوا له: على أي شيء نختارك ونؤثرك، أرغبة في دنياك التي أنت تاركها وظاعن عنها ، أم رهبة من عذابك ، وعذاب الله أشد وأعظم ؟ (فاقض ما أنت قاض) احكم وافعل ما شئت يا فرعون فلا نبالي ببطشك وتنكيلك ما دمتنا على يقين من ربنا (انما تقضي هذه الحياة الدنيا) حلوة كانت أو مرة ، وما نحن من أبنائها وانما نحن من أبناء الآخرة ، وهي باقية ببقاء الله تعالى ، ولا سلطان لك فيها حتى على نفسك .

وهكذا كل مخلص لا يبالي بسيف الجلاء من أجل دينه ومبدئه .. ومحال أن يعيش دين من الأديان أو مبدأ من المبادئ إذا لم يجد أنصاراً من هذا الطراز .

(اننا آمنّا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر) أي وليغفر لنا أيضاً ما أكرهتنا عليه من السحر ، وهو من باب عطف الخاص على العام (والله خبير وأبقي) منك ومن ثوابك يا فرعون .. كانت المباراة بين موسى والسحرة في ظاهرها ، وبين حزب الله وحزب الشيطان في واقعها ، ومن الشوط الأول أبين كل من شاهد المباراة حتى فرعون والسحرة أنفسهم ، أيقنوا جميعاً بأن حزب الله هم الغالبون ، وأعلن السحرة ان يقينهم هذا عن علم لا يقبل الشك ، وانهم كانوا على ضلال في تحديهم لموسى ، وان فرعون هو الذي ألجأهم اليه ، وأكرههم عليه ، وسألوا الله سبحانه العفو والصفح عما مضى .. وفي اعتراف السحرة هذا دلالة واضحة على ان السحر لا واقع له ، وانه تمويه وتضليل ، تماماً كما قال تعالى : « يخيل اليه من سحرهم انها تسعى » .

(انه من بات ربه مجرمًا فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيي) هذا كناية عن دوام العذاب ، ومثله : « لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها - ٣٦ فاطر » ، وكلمة مجرم تتناول كل من أفسد وأساء في قول أو عمل كافراً كان أو غير كافر ، والدليل على ان المراد بالمجرم من هو أعم من الكافر قوله تعالى : (ومن بآته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) . حيث قرن سبحانه الايمان بالعمل الصالح ، ومعنى هذا ان الايمان بلا عمل لا يجدي صاحبه شيئاً . وبكلام آخر: ان المؤمنين هم الصالحون في مقاصدهم وأعمالهم ، أما الذين يسعون في الأرض فساداً فهم في زمرة المجرمين ، وان ملأوا الدنيا تهليلاً وتكبيراً .

(جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تركي) . الجنات والدرجات عند الله هي للذين زكت أنفسهم بالحب والاخلاص للناس كل الناس ، وتطهرت من شوائب الحياة والطمع والكراهية ، ومثات الآيات من أي الذكر الحكيم تتضمن هذا المعنى تصريحاً أو تلويحاً .

فاضرب لهم طريقاً في البحر الآية ٧٧ - ٨٢ :

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ
يَبْساً لَا تَخَافُ دَرْكاً وَلَا تَخْشَى* فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ
الْأَيْمِ مَا غَشِيَهُمْ* وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى* يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ
أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا
عَلَيْكُمْ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى* كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ
فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى* وَإِنِّي لَغَفَّارٌ
لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى*

اللغة :

السرى والاسراء بمعنى واحد ، وهو السير ليلاً . ويبساً يابساً لا ماء فيه .
والدرك اللحق أي لا تخف أن يدركك فرعون . وغشي غطى ، والمراد ان الماء
غمرهم . وأضل قومه صرفهم عن طريق الرشده والهداية . وذكر الطور الأيمن في
الآية ٥٢ من سورة مريم . والمن والسلى في الآية ٥٧ من سورة البقرة .

الإعراب :

طريقاً مفعول اضرِب ويبساً صفة له لأنه بمعنى يابساً . فيحل منصوب باضمار أن
في جواب النهي .

(ولقد أوحينا الى موسى ان اسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يساً لا تخاف دركاً ولا نخشى) . أصر فرعون على عنايه . وأبى إلا الكبرياء والجبروت ، والا ان ينعت موسى بالخارجي ، ومعجزاته بالسحر ، ووجد من يظاھرہ على ذلك ويناصره : « وقال الملأ من قوم فرعون اتلر موسى وقومه لفسدوا في الأرض - ١٢٧ الأعراف » . وصمم فرعون على قتل موسى ، فأوحى الله اليه أن يخرج بني اسرائيل من مصر ليلاً ، وأن يضرب البحر بعصاه ، فينشق الى قطع بينها طرق وشعاب ، يسلكها الاسرائيليون الى الجانب الآخر ، وهم آمنون على أنفسهم من الفرق ومن فرعون وشره : « فأوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وازلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ، ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين - ٦٤ الشعراء » .

(فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم) . اتبعهم وتبعهم بمعنى واحد ، وغشيهم ما غشيهم فيه تعظيم للأمر .. وفي الكلام حذف كثير ، ولكنه مألوف في القرآن لأن السياق يدل عليه ، والتقدير خرج موسى ليلاً بقومه ، ولما وصل الى البحر ضربه بعصاه ، فانشق الى طرق لا ماء فيها ، فسلكها الاسرائيليون ، ولحق بهم فرعون وجنوده ، وسلك في أثرهم ، ولما وصل آخر اسرائيلي الى الجانب الثاني من البحر ، ودخل آخر جندي في البحر من جنود فرعون انطبق البحر عليهم فغرقوا جميعاً ، كما سلم الاسرائيليون جميعاً (وأضل فرعون قومه وما هدى) . أضلهم عن الحق ، وأضلهم في البحر أيضاً ، وكان من قبل يقول لهم : « وما أهديكم إلا سبيل الرشاد - ٢٩ غافر » .

(يا بني اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم) فرعون الذي كان يسومكم سوء العذاب يذبح أبناءكم ، ويستحي نساءكم (وواعدناكم جانب الطور الأيمن) . يشير سبحانه الى الوعد الذي وعده موسى بعد أن أغرق فرعون ، وهو أن يأتي موسى الى جانب الطور فيترل الله عليه التوراة ، فيها بيان الشرائع والأحكام (ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم) تقدم بنصه الحرفي في الآية ٥٧ من سورة البقرة ج ١ ص ١٠٦ .

(ولا تطفوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) .
 ضمير فيه يعود الى الرزق المفهوم من الكلام ، والطغيان فيه ان يؤخذ ، أو ينفق
 في غير طريقه المشروع ، والمعنى ان من كسب المال من غير حل ، أو أنفقه
 في غير حل فجزاؤه عند الله الهلاك وعذاب الحريق ، تماماً كجزاء فرعون وغيره
 من العصاة الطغاة .

(واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) . يغفر الله الذنوب
 بشروط أربعة : الأول التوبة ، وهي الندم على ما كان من المعاصي مع طلب
 الصفح عنها . الشرط الثاني الايمان بالحق أينما كان ويكون ، سواء أوافق الأهواء
 والأغراض ، أم خالفها . الشرط الثالث العمل بالحق ، لأن الايمان بلا عمل
 كاللفظ بلا معنى . الشرط الرابع الاهتداء ، والمراد به هنا الاستمرار على اتباع
 الحق حتى الموت . وهذا نجد الجواب عن سؤال من سأل : ان المهتدي هو الذي
 آمن وعمل صالحاً ، فإهو الوجه في عطف الأول على الثاني ثم .

السامري والعجل الآية ٨٣ - ٨٩ :

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ
 إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
 السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَيْفَاءً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ
 يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ
 عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ
 بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى
 السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خَوَارُ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ

وَالَهُ مُوسَى فَقَسِي * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ
ضَرًّا وَلَا نَفْعًا *

اللغة :

إذا قلت : جاء في أثره فعناه جاء بعده في الحال أو الاستقبال، أما إذا قلت :
جاء على أثره فعناه جاء بعده في الحال ومن غير تأخير . وقتنا اخترنا . وأصلهم
أوقعهم في الضلال ، وانحرف بهم عن الهدى والحق . والأسف الحزن . وموعدي
أي ما وعدتوني به من الثبات على الإيمان . وعلكتنا باختيارنا من ملك الأمر .
والاوزار الأثقال . والحوار صوت البقر .

الإعراب :

ما استفهام مبتدأ ، وجملة أعجلك خبر . وهم مبتدأ وأولاء اسم إشارة خبر.
وعلى أثري متعلق بمحذوف خبراً بعد خبر أو حالاً والعامل فيه معنى الإشارة .
وغضبان حال وأسفاً حال ثانية . فكذلك الكاف بمعنى مثل وعلمها نصب صفة
لمفعول مطلق محذوف أي ألقى السامري القاءً مثل القاتنا . وجسداً صفة للعجل
أي مجسداً ، وقال صاحب مجمع البيان : بدل ، وإن لا يرجع (إن) غففة من
الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، وجملة يرجع خبر أي انه لا يرجع اليهم
مثل الآية ١٤٨ من سورة الأعراف : ألم يروا انه لا يكلمهمه .

المعنى :

بعد ان هلك فرعون وعد سبحانه موسى ان ينزل عليه التوراة ، وضرب له
ميقاناً، فذهب الى ربه ليأتي بالتوراة بعد ان استخلف أخاه هرون على بني اسرائيل،

فاغتبنوا غياب نبيهم موسى ، وعبدوا العجل ، وحققوا ما كانوا يحلمون به من قبل ، حيث رأوا قوماً « يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون - ١٣٨ الاعراف » . وسيقت الإشارة الى ذلك في الآية ٥١ من سورة البقرة و ١٤٨ من سورة الاعراف .. والآيات التي نحن بصددنا ، والتي بعدها الى الآية ٩٨ كلها تتحدث عن هذا الموضوع وما يتصل به ، وتعود بنا اليه .

(وما اعجلك عن قومك يا موسى) . بهذا السؤال تبدأ حكاية العجل .. يذهب موسى الى ربه ليتلقى الوحي، فيسأله سبحانه عن تعجله ، وهو أعلم بالسبب، كي يخبره عما أحدث قومه من عبادة العجل (قال هم اولاء على اثرى وعجلت اليك رب لترضى) . يدل ظاهر الكلام على انه كان المفروض ان يأتي موسى الى الطور ، ومعه جماعة من قومه ، فأتى وحده ، فاتجه السؤال ، وجاء الجواب انهم لاحقون بي بلا تأخير ، وسبقتهم اليك يا إلهي حرصاً على مرضاتك .. قال هذا ، وهو لا يعلم ماذا أحدثوا بعده .

(قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري) . المراد بالفتنه هنا التمحيص والاختبار ليظهر الاسرائيليون على حقيقتهم، يقال : فتنت الذهب بالنار اذا اختبرته، ووجه الاختبار هنا ان الله سبحانه نهى بني اسرائيل عن عبادة العجل بلسان هرون ، وأمرهم الشيطان بعبادته بلسان السامري ، فعصوا الرحمن ، وأطاعوا الشيطان ، وظهروا بذلك على حقيقتهم من ضعف الايمان ، والاستعداد التام للكفر والجحود ، تماماً كما يجترح المجرم المحرمات حين يجد السبيل اليها ، ويفتضح على رؤوس الاشهاد .

(فرجع موسى الى قومه غضبان أسفاً) . تقدم في سورة الاعراف الآية ١٥٠ (قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً) . يشير بهذا الى ان الله قد وعد بإنزال التوراة على نبيهم ، وفيها تفصيل كل ما يحتاجون اليه من معرفة الحلال والحرام ، وانه عز وجل سيمسكهم دار الفاسقين كما في الآية ١٤٥ من سورة الاعراف : « وكنتنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذوها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين » .

سورة طه

(أفتال عليكم العهد) . يعني بالعهد مدة غياب موسى عن قومه . تقول :
عهدي به قريب أي لقائي (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) . أم بمعنى
بل ، وأردتم أي أقدمتم على ما يوجب غضب الله ، والمعنى اني لم أغب عنكم
طويلاً .. فلماذا أشركتم بالله ؟ فهل تريدون أن يحل بكم نكاله وعذابه ؟ وفي هذا
إيماء الى أنهم يؤمنون ما دام موسى قائماً على رؤوسهم ، فان غاب انقلبوا على
أعقابهم وحرفوا الدين على أهوائهم كما حدث بالفعل .

(فأخلفتم مواعيدي) . انقلبتم عن دين الله بعد أن وعدتموني بالثبات عليه
(قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) . هذا اعتراف صريح منهم بأنهم قد كفروا
وارتدوا ونكثوا بالوعد ، وعذرتهم الوحيد أنهم كالمسيرين لا يملكون أنفسهم عن
الكفر والغدر والخيانة ، حتى كأنهم مطبوعون على ذلك .. وهكذا تظهر حقيقة
بني اسرائيل في أقوالهم وفلتات ألسنتهم بالاضافة الى أفعالهم .

(ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم) . المراد بالأوزار هنا الأحمال ، وزينة
القوم هي حلي النساء الفرعونيات . قال كثير من المفسرين : لما علم بنو اسرائيل
أنهم سيجتازون البحر ، وان الله سبحانه مفرق فرعون وجنوده احتالوا على
الفرعونيات ، واستعاروا حليهن للعرس أو لغيره من الأسباب ، وحلواها معهم ..
وليس هذا بعيد على طبيعة الاسرائيليين واحتياهم لكسب المال وجمعه بكل وسيلة
(فقلنفاها فكلنك ألقى السامري) . قال الطبري في تفسيره : ألقى بنو اسرائيل
ما معهم من الحلي في حفرة ، وألقى السامري أيضاً ما معه ، وصاغ الجميع على
هيئة العجل (فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار) . تقدم في الآية ١٤٨ من سورة الأعراف
ج ٣ ص ٣٩٥ .

(فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي) . ضمير قالوا يعود الى السامري
وأصحابه ، وضمير نسي الى موسى ، والمعنى ان بني اسرائيل قالوا : هذا العجل هو
الإله الحقيقي لنا ولموسى ولعالم أجمع ، وقد ذهل عنه موسى ، وذهب يطلبه
ويبحث عنه في الطور ، وما درى انه ضيفنا وفي ديارنا .. وتجدر الإشارة الى
أن من قال : ان الله جسم فانه يلتقي مع عبدة العجل والأوثان من حيث يريد
أو لا يريد .

(أفلا يرون الا يرجع اليهم قولاً ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً) . كيف يكون العجل رباً لهم ، وهو من صنع أيديهم ، لا يسمع كلامهم ولا يرد جوابهم ، ولا يجلب لهم ولا لنفسه نفعاً ، ولا يدفع عنه ولا عنهم ضرراً ؟ قال بعض المفسرين : « وفوق ذلك هو لا ينطع ، ولا يرفس ، ولا يدبر طاحونة ولا ساقية » . وفي تفسير الرازي ان يهودياً قال للإمام علي (ع) : ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم . فقال الإمام : انما اختلفنا عنه ، وما اختلفنا فيه . وأنتم ما جئتم أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم لنبيكم اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .

ولو جاز لنا أن نفسر القرآن بالرأي والتأويل بالحدس لقننا : ان صياغة العجل من الذهب ، وتأليه الاسرائيليين له يرمز الى انهم قد فطروا منذ القديم على عبادة المال ، وانه هو إلههم وحده لا شريك له .. وتاريخهم القديم والحديث يدل على ذلك دلالة صريحة واضحة ، وانهم يستحلون كل شيء من أجل المال حتى اراقة الدماء والدعارة والغدر .

موسى يعذب على هرون الآية ٩٠ - ٩٨ :

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هُرُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى * قَالَ يَا هُرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِيَ * قَالَ يَا أَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي * قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ

لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ يُخْلَفَهُ وَانْظُرْ
إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْبِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ
نَسْفًا * إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا *

اللغة :

انما فتنتم به أي اتبعتم أهواءكم بعبادة العجل . وعاكفين مقيمين . فإخطبك
أي فإشأنك ؟ فنبذتها فطرحتها . وسولت زينت . لا ماس لا مخالطة . لن
تخلفه لا خلف له . وظلت أصله ظلمت أي أفت . واليم البحر .

الإعراب :

لقد اللام واقعة في جواب قسم محذوف . والا كلمتان ان الناصبة ولا الزائدة،
والمصدر من ان تتبع مجرور بمن محذوفة أي ما منعك من اتباعي . ويا ابن أم
قرىء بفتح الميم على ان أم وابن بمنزلة خمسة عشر ، وقرىء بكسر الميم على ان
يكون الأصل يا ابن امي ، ثم حذفت الياء ، وكسرت الميم للدلالة على الياء
المحذوفة . فإخطبك ؟ مبتدأ وخبر . وفي البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي
ان لا ماس نفى بمعنى النهي أي لا تمسني ، وعليه يكون لا ماس اسم فعل ،
وقيل : بل هو مصدر ماسه، ولا نافية للجنس و ماس اسم لا ، والخبر محذوف
أي لا ماس بيتنا .

المعنى :

(ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعوني واطيعوا

(أمري) . حين ذهب موسى الى الطور قال لأخيه هرون : « اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين - ١٤٢ الاعراف » . وأصلح هرون كما أمره موسى ، فنصح منذراً ومخلصاً بني اسرائيل من السامري وعجله ، وقال لهم فيها قال : ما الذي غركم من هذا العجل حتى افتنتم به هذا الافتتان ، وانصرفتم اليه عن خالق السموات والأرض ! فاتبعوني اهدكم سبيل الرشاد ، فما كان جواب قومه إلا ان (قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع البنا موسى) لنرى رأيه في ذلك .. وكأنهم ينتظرون من موسى ان يسفه هرون في نبيه ، ويصوبهم في عبادة العجل لأنه من ذهب .. وكل من آثر المال على دينه وضميره ، أو اتبع ضلالاً على ضلاله فهو من أتباع السامري وحزبه .. وقد ابتلى الله عباده في كل عصر بعجسل له خوار مصنوع من ذهب ، أو من نسل آدم ، يميز به صفوة خلقه من الممج الرعاع أتباع كل ناعق .

(قال يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا إلا تتبعهم أفصيت أمري) . هذا في ظاهره لوم أو عتاب لهرون ، أما في واقعه فهو توبيخ وتقريع للذين عبدوا العجل ، لأن موسى على علم اليقين بأن أخاه هرون لم ولن يخالفه في شيء ، وأنه قام بواجب الارشاد على أكمل الوجوه لأنه شريكه في النبوة والمصمة (قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي) تقدم في الآية ١٥٠ من سورة الاعراف .

(اني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي) قال موسى لهرون : لماذا لم تستر بني اسرائيل ، وتلحق بي إذ رأيتهم يعصونك ويتبعون السامري ؟ فأجابه هرون بأنني توقعت اذا تركتهم ان تقع فتنة يسفك فيها الدماء بين الفئة المؤمنة منهم والفئة التي ارتدت عن دينها بعبادة العجل ، وعندها تنعكس الآية ، ويحق لك ان تلومني على تركهم ، وان تقول لي : أنتركهم كي يحدث ما حدث ! وخلاصة الجواب ان الذي يراه الشاهد لا يراه الغائب .

فاقتنع موسى وقال : « رب اغفر لي ولأخي وادخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين - ١٥١ الاعراف » . ثم اتجه موسى الى السامري و (قال فما خطبك يا سامري) ؟ ما الذي دعاك الى ما صنعت (قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي) قيل: المراد بالرسول

هنا جبريل ، وبأثره التربة التي وطأها هو برجله ، أو فرسه بحافره . وقيل : بل المراد بالرسول موسى ، وبأثره سنته . وقيل : ان السامري كاذب في قوله ، وانه ما بعصر بشيء ، ولا قبض شيئاً من اثر الرسول ، وانما أراد التهرب من تبعة ما حدث . وهذا أرجح الأقوال ، وأقربها الى الافهام من رجل جبريل وحافر فرسه .. ومن صنع العجل بيده ، ودعا الى عبادته من دون الله يهون عليه الكذب والافتراء .. أما الحوار فن الجائر أن يكون السامري صنع العجل على هيئة بحيث يخرج منه صوت الثيران بواسطة الريح أو غيرها ، كما قلنا في ج ٣ ص ٣٩٥ .

ومهما يكن فان المعنى الذي دل عليه ظاهر القرآن ان السامري هو الذي أفسد وأضل بني اسرائيل في عبادة العجل ، أما كيف صنعه فنحن غير مكلفين بمعرفة ذلك ، ولا صلة له بعقيدتنا وحياتنا .

(قال فاذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس) . هذا هو جزاؤك في الدنيا ، الطرد والعزل عن الناس ، كل الناس .. لا تخالط أحداً ، ولا أحد يخالطك في قول أو فعل ، أما عقابك في الآخرة فأدهى وأمر . وقيل : ان السامري عاش مدة حياته في البرية مع الوحوش والسباع (وان لك موعداً لن تخلفه) . لا محيص عنه ولا مفر منه ، وهو لقاءك مع الله ، وحسابك على ما أسلفت وافتريت ، وجزاؤك عليه بالعذاب الأليم ، وحريق الجحيم .

(وانظر الى إهلك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننصفه في اليم نسفاً) . هذه هي نهاية كل مزيف ماهر .. الخزي والهوان ، والنسف في البحر، أو الطرح مع القمامة (انما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً) . هو وحده الإله الحق ، ولا معبود سواه ، وسعت رحمته كل شيء ، وأحاط علمه بكل شيء ، وما من شيء إلا يعبدّه ويسبّح بحمده .

غرائب اسرائيل :

من المفيد ان نختم تفسير هذه الآيات بما جاء في تفسير الرازي :
 و قال أبو القاسم الانصاري : كان السحرة مشركين ، ولما رأوا آية واحدة

هي انقلاب العصا ثعباناً آمنوا بالله وبموسى ، وتحملوا من أجل إيمانهم العذاب الشديد في الدنيا ، ولم يرجعوا عن الإيمان ، أما بنو إسرائيل فقد رأوا ما رآه السحرة ، وأيضاً رأوا اعتراف السحرة وإيمانهم بموسى ، ثم رأوا الآيات التسع مدة مديدة ، ثم رأوا انفلاق البحر اثني عشر طريقاً سلكوها بأنفسهم ، ورأوا هلاك عدوهم بأعينهم ، ومع هذا كله لما خرجوا من البحر ورأوا قوماً يعبدون البقر قالوا لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، وما إن سمعوا صوتاً من عجل حتى عكفوا على عبادته .

وكم تمنيت ، وأنا أفسر الآيات التي نزلت في بني إسرائيل ، وحكت شلوذهم وغرائبهم ، كم تمنيت أن تتألف لجنة من العلماء بالإنسان وغرائزه للدراسة الاسرائيليين وطبيعتهم في ضوء سيرتهم وتاريخهم القديم والحديث لنعلم هل هم من البشر ظاهراً وواقعاً ، أو أنهم لا يشبهون الناس في شيء ، ولا أحد من الناس يشبههم في شيء إلا في الشكل والصورة ؟ كما يومية الى ذلك الكثير من آي القرآن الكريم .
أنظر ج ١ ص ١٢٢ وج ٢ ص ٣٣٧ وص ٣٨٩ .

كذلك نقص عليك الآية ٩٩ - ١١٢ :

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا * وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا

عِوَجًا وَلَا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ
الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا * يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا
مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ
حَمَلَ ظُلْمًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا
هَضْمًا *

اللغة :

ذكرأ يعني القرآن . ومن أعرض أي من كذب . والوزر في اللغة الثقل ،
والمراد به هنا العذاب . والصور قرن ونحوه ينفخ فيه . وزرقأ أي متغيري الألوان بالزرقعة
أو غيرها . يتخافتون بينهم أي يتسارون ويتحدثون بصوت خفي . وأمثلهم أفضلهم .
ينسفها يجعلها كالغبار ثم يفرقها . ويذررها يتركها . والقاع أرض ملساء ، والصفصف
المستوي من الأرض . والموج الانخفاض . والامت الارتفاع البسر . والممس
الصوت الخفي . وعنت خضعت وذلت . والقيوم القائم بتدبير الأمور . والمضم
البخس والنقص .

الإعراب :

خالدين حال من ضمير يحمل على معنى الجماعة . وحلاً تمييز أي ساء الحمل
حلاً . ويوم ينفخ بدل من يوم القيامة . وزرقأ حال . وجملة يتخافتون حال
ثانية . وعشرأ نصب على الظرفية بتقدير مضاف أي مدة عشر لبال أو ساعات .
وطريقة تمييز . وقاعاً حال . ولا عوج له (لا) نافية للجنس وعوج اسمها وله

خبرها . الا من اذن (من) في محل رفع بدل من الشفاعة على حذف مضاف أي
لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من اذن الخ .

المعنى :

(كذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق) . أشار سبحانه بذلك الى قصة
موسى (ع) وأخباره ، والخطاب الى رسول الله (ص) ، ومن التبعض ، والمعنى
نقص عليك - يا محمد - بعض انباء الأمم السابقة ، كما سمعت ، وهي عبرة
وعظة للناس ، وفي الوقت نفسه تدل على صدقك ونبوتك لأنها من أنبياء الغيب
(وقد آتيناك من لدنا ذكراً) أي قرآنًا ، وسمي القرآن ذكراً لأن فيه ذكر الله
وصفاته ، والأنبياء وأخبارهم ، والآخرة وشؤونها ، والایمان والكفر ، والخير
والشر ، والحلال والحرام ، وخلق السموات والأرض ، الى غير ذلك .

(من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً) . ضمير عنه يعود الى
القرآن ، وكل من جمعد القرآن بالقول والفعل ، أو بالفعل دون القول فقد أعرض
عنه ، وحمل نفسه ما تنوء بثقله ، قال رسول الله (ص) : ما آمن بالقرآن من
استحل محارمه . ويأتي الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ١٢٤ وما بعدها من هذه
السورة .

(خالدين فيه) . ضمير فيه يعود الى الوزر ، والمراد به العذاب بدليل
خالدين ، واطلاق الوزر على العذاب من باب اطلاق السبب على المسبب (وساء
لهم يوم القيامة حملًا) . بشئ ما حلوا أنفسهم من الآثام بسبب إعراضهم عن
القرآن (يوم ينفخ في الصور) . هذا كناية عن بعث من في القبور (ونحشر
المجرمين يومئذ زرقاً) . وأيضاً هو كناية عن خزيهم وسوء حالهم آنذاك .. ومن
أطرف ما قرأت في تفسير هذه الآية ما جاء في البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ،
قال المؤلف : « الظاهر أن المراد بالزرق زرقه العيون ، والزرقه أبغض ألوان العيون
الى العرب ، لأن الروم أعسداؤهم ، وهم زرق العيون » . وهذا المفسر كان
قريب العهد من الحروب الصليبية .

(يتخافتون بينهم ان لبثتم إلا عشراً) . من صفات المجرمين يوم القيامة انهم لشدة ما يعانون من الأهوال يذهلون عن مدة مكثهم في الحياة الدنيا ، ويقول بعضهم لبعض بلسان المقال أو الحال ، وبصوت خافت : ما لبثنا الا عشر ليال أو ساعات أو لحظات .

وتسأل : حكى سبحانه عن المجرمين في هذه الآية قولهم : لبثنا عشرأ ، وفي الآية ١٩ من سورة الكهف : « قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم » وفي الآية ٥٥ من سورة الروم : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » . فما هو وجه الجمع بين هذه الآيات ؟ .

وأجاب الرازي بأن بعض المجرمين خطر بباله ان المدة عشرة أيام ، والبعض الآخر انها يوم واحد .. والذي نراه نحن ان كلمة العشر واليوم والساعة ليست حكاية لقول المجرمين بالحرف ، وانما هي كناية عما تخلوه من قلة المكث ، وقصر الأمد ، وانه تعالى عبّر عن ذلك بالعشر تارة ، وباليوم تارة ، وبالساعة أخرى ، والى هذا يومىء قوله تعالى : « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم إلا قليلاً » - ٥٢ الاسراء .

(نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثتم إلا يوماً) . أمثلهم طريقة هو أفضلهم سيرة ، وأعرفهم بحقائق الأمور ، والمعنى ان هذا الأمثل قال لهم ، وهم يتسارون بينهم ما لبثنا إلا عشرأ ، قال : ان الحياة التي كنتم فيها ، وتنافستم على حطامها ما هي في حقيقتها إلا حلم لا يُبعد بالزمان والأيام .. والحياة الحقة هي هذه التي نحن فيها الآن ، حيث لا أمد لها ولا نهاية .

(ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فينزلها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً) . سأل سائل رسول الله (ص) : كيف تكون الجبال يوم القيامة ؟ فقال سبحانه لنبيه الكريم : قل مجيباً عن هذا السؤال : ان الله يفتلها من اصولها ، ويصيرها غباراً منتشراً في الفضاء ، ويدع أماكنها من الأرض ملساء ، لا شيء فيها ، ولا ارتفاع ، ولا انخفاض .

(يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له) . يومئذ هو يوم القيامة ، وضمير يتبعون يعود الى الخلائق ، والداعي هو الذي يدعوهم الى المحشر والحساب والجزاء ،

وضمير له يعود الى الداعي بلحاظ دعوته ، والمعنى ان دعوة الداعي حق ، ومستجابة عند الجميع ، ولا أحد يستطيع التخلف عنها : « يوم يدع الداعي الى شيء نكر خشعاً ابصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مهطعين الى الداعي يقول الكافرون هذا يوم عسر - ٨ القمر » .

(وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً) . خشعت خضعت وذلت ، والأصوات على حذف مضاف أي أصحاب الأصوات ، لأن الصوت لا يحس ولا يشعر ، والممس الكلام الخفي ، وهو يدل على الخشوع والخضوع . (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من اذن له الرحمن ورضي له قولا) . هذا بمعنى قوله تعالى : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى - ٢٨ الأنبياء » . وتكلمنا عن الشفاعة مطولاً عند تفسير الآية ٤٨ من سورة البقرة ج ١ ص ٩٧ (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً) . تقدم نظيره في الآية ٢٥٥ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٩٤ . (وعنت الوجوه للحي القيوم) . المراد بالوجوه أصحابها ، والمعنى ان الخلائق كلها تنقاد غداً لأمر الحي الذي لا يموت ، والقائم على كل شيء ، ولا يقوم شيء إلا به (وقد خاب من حمل ظملاً) . ان اخسر الناس غداً من ظلم الناس ، واعتدى على كرامتهم وحرمتهم ، والرايح عند الله من عمل لغير الناس وصلاحهم لوجه الخير والانسانية (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً) . هذا مثل قوله تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون - ٩٧ النحل » . ج ٤ ص ٥٥٠ .

أنزلناه قرآناً عربياً الآية ١١٣ - ١٢٢ :

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
أَوْ يُخَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ
قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا * وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى

آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَتَسَيَّ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ
وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلًا تَجُوعَ فِيهَا
وَلَا تَعْرَى * وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى * فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ
الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبُؤُ *
فَاذْلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهَا سَوَاتِرُهَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ
وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى *

اللفظة :

صرفنا كررنا وفصلنا . والمراد بالذكر هنا العظة والعبرة . ولا تضحى لا تبرز
للشمس ، والمراد به عدم الجدد والكدر من أجل العيش . وطفقا أخذوا وشرعا .
ويخصفان أي جملا يلصقان ورقة على ورقة . واجتباها اصطفاها .

الإعراب :

قرآناً حال ، وعربياً صفة . وعلماً تمييز لأنه بمعنى زاد علمي ، ويجوز أن
يكون مفعولاً ثانياً لزديني على ان تكون زديني متضمنة معنى العطاء . والمصدر من
ان لا تجوع اسم ان ولك خبر . والمصدر من أنك لا تظمأ عطف على المصدر
من ان لا تجوع .

المعنى :

(وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً) . أنزل سبحانه القرآن على عبده محمد (ص) بلغة العرب ، وخوف العباد بأساليب شتى من حبابه وعذابه ليتقوه ويطيعوه في جميع أحكامه ، أو يتذكروه إذا أذنبوا فيتوبوا اليه ويسألوه العفو والصفح ، وأو هنا للإباحة، مثلها في: كن عالماً أو زاهداً، لأن التقوى تجتمع مع التذكر كما يجتمع العلم والزهد، وتقدم نظير هذه الآية في سورة يوسف الآية ٢ ج ٤ ص ٢٨٦ ، وأجبنا هناك مفصلاً عن سؤال السائل : لماذا نزل القرآن بلغة العرب مع ان محمداً (ص) ما أرسل إلا للناس كافة .

أوصاف القرآن :

ذكر سبحانه في كتابه العزيز الكثير من أوصافه ، منها :

- ١ - العربي : كما في هذه الآية ، والآية ٢ من سورة يوسف .
- ٢ - الذكر : انا نحن نزلنا الذكر - ٩ الحجر . وذو الذكر : والقرآن ذي الذكر - ٢ ص .
- ٣ - النور : قد جاءكم من الله نور - ١٥ المائدة .
- ٤ - القول الفصل : انه لقول فصل - ١٣ الطارق .
- ٥ - الهدى : ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين - ٢ البقرة .
- ٦ - الحكيم : والقرآن الحكيم - ٢ يس .
- ٧ - المجيد : والقرآن المجيد - ٢ ق .
- ٨ - الروح : يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق - ١٥ غافر .
- ٩ - الحق : انه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون - ١٧ هود .
- ١٠ - النبأ العظيم : قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون - ٦٨ ص .

سورة طه

- ١١ - الشفاء : قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء - ٤٤ فصلت .
١٢ - الرحمة : وانه لهدى ورحمة للمؤمنين - ٧٧ التمل .
١٣ - التنزيل : تنزيل من رب العالمين - ٨٠ الواقعة .
١٤ - البشير النذير : كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً - ٤ فصلت .
١٥ - العزيز : وانه لكتاب عزيز - ٤١ فصلت .
١٦ - العظيم : ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم - ٨٧ الحجر .
١٧ - المبين : والكتاب المبين - ٢ الزخرف .

وأولى الحقائق التي تدل عليها هذه الصفات ان الله سبحانه انما أنزل القرآن على نبيه الكريم لهداية الناس وسعادتهم وأمنهم واستقرارهم .

(فتعالى الله الملك الحق) . قال الإمام علي (ع) مناجياً ربه : سبحانه ما أعظم ما نرى من خلقك ! وما أصغر عظيمه في جنب قدرتك ! وما أهول ما نرى من ملكوتك ! وما أحقر ذلك فيما غاب عنا من سلطانتك ! وما أسبغ نعمك في الدنيا ! وما أصغرها في نعم الآخرة ! .

(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى بك وحيه) . جاء في الحديث ان النبي (ص) كان اذا ألقى عليه جبريل القرآن يتابعه قراءة خوفاً أن يفوته شيء منه ، فأمره تعالى ان يصغي ولا يتابع ، وان يطمئن ولا يخشى النسيان، ويدل على صحة هذا الحديث الآية ١٧ من سورة القيامة : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه » .

زدني علماً :

(وقل رب زدني علماً) . والعلم الذي أمر الله نبيه أن يستزيده منه هو العلم الذي ينتفع به صاحبه ، وينفع به غيره .. فلا القيم والعقائد، ولا الفلسفة والشرائع ولا الأدب والفن ، كل هذه ليست بشيء عند الله إلا اذا كانت وسيلة لحياة طيبة كريمة لا مشاكل فيها ولا تعقيد ، حتى الحياة الآخرة ترتبط ، وتلتحم

التحماً كلياً بالعمل النافع في الحياة الدنيا، قال رسول الله (ص) : خير الناس عند الله أنفع الناس للناس، وليس من شك ان أنفع الناس هو الذي يعمل من أجل حياة أفضل ، وجميع أرقى .

وكل شيء في هذا العصر يدل بوضوح على انه لا حياة فاضلة للانسان إلا بالعلم .. من غير فرق بين حياته المادية والاجتماعية والثقافية ، فكما ان المجتمع ، أي مجتمع، لا يمكنه أن يحيا حياة طيبة بلا مطابع ولا مصانع تنتج الملابس ووسائل النقل والأدوات المنزلية وغيرها من الضرورات ، كذلك لا يمكنه أن يعيش حراً كريماً بلا علم السياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها من العلوم التي لها أثرها الفعال في القضاء على استغلال الانسان للانسان .

هذا هو العلم الصحيح ، وهو المقصود من كلمة العلم في قوله تعالى : « وقل رب زدني علماً » ، وقول الرسول الأعظم : « من سلك طريقاً الى العلم سلك به طريقاً الى الجنة » . ومن فسر العلم بحفظ المتون والخواشي فهو من الذين يؤمنون بأن العلم ألفاظ وكلمات ، والدين تكبير وتسيحات .

(ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً) . والعهد الذي عهده الله لآدم هو ان لا يقرب من الشجرة المعهودة، ولا يستجيب لدعوة ابليس وسوسته، والمراد بنسي خالف ، وبالعزم الثبات (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى) . تقدم في الآية ٣٤ من سورة البقرة ج ١ ص ٨٢ والآية ١٠ من سورة الاعراف و ٣٠ من سورة الحجر و ٦١ من سورة الاسراء و ٥١ من سورة الكهف .

(قلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظما فيها ولا تضحى) أي لا تكدر في حر الشمس ، وخص الضحى بالذكر حيث يكون الحر فيه على أشده .. حذر سبحانه آدم من وسوسة ابليس ، وقال له : انت بين أمرين : إما ان تطيعني وتعصي إبليس ، فجزاؤك عندي هذه الجنة ، وهي - كما رأيت - هنا وصفاء .. لا جوع فيها ، ولا ظمأ ، ولا عري ، ولا مرض .. لا آلام وأحزان ، لا موت ودماء ودموع ، ولا كدر في حر ولا برد .. لا شيء إلا الأمن والأمان

سورة طه

والراحة والجنان . واما ان تمصني وتطيع ابليس ، فتخرج من الجنة الى دنيا كلها متاعب ونوائب ، وطغيان واسقام .. ففسي آدم هذا التحذير ، وتراكت المحن والخطوب عليه وعلى نسله ، ابتداء من قتل قابيل هابيل الى جرائم اسرائيل... الى ما لا نهاية .

وغير بعيد ان يكون اخراج آدم من الجنة درساً وعظة لمن يتبع الأهواء والشهوات ، وان جزاءه عند الله العذاب والشقاء . انظر ما قلناه بعنوان: ضعف الارادة وسيلة للحرمان ج ١ ص ٨٥ .

(فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) . تقدم مثله في سورة الأعراف الآية ١٩ وما بعدها ج ٣ ص ٣١١ .

(وعصى آدم ربه فغوى) . وتأل : ان آدم نبي ، والنبي معصوم عن الخطأ والخطيئة ، فكيف نسب سبحانه اليه المعصية والغواية ؟ .

وأجابوا عن ذلك بأجوبة ، منها ان المراد بالمعصية هنا مخالفة الندب دون الوجوب ، وهذه المعصية لا تتنافى مع العصمة ، ومنها ان آدم حين كان في الجنة كان في الدار الآخرة ، وهذه الدار لا تبليخ فيها ولا تكليف كي تحتاج الى أنبياء .. ونبوة آدم كانت في الدنيا ، لا في الجنة .. وعلى أية حال فان آدم تاب وطلب الصفح من ربه (ثم اجتنبه ربه فتاب عليه وهدى) . نكلمنا عن ذلك مفصلاً بعنوان عصمة الأنبياء ج ١ ص ٨٦ .

قال اهبطا منها الآية ١٢٣ - ١٢٩ :

قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي

أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ
الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ
وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى * أَفَلَمْ يَبْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ
الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى * وَلَوْ لَا
كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى *

اللغة :

الضنك الضيق . وأسرف تجاوز الحد . أفلم يهد لهم : أفلم يبين لهم . والنهى
العقول . ولزماً لازماً .

الإعراب :

إما كلمتان : ان الشرطية وما الزائدة . وأعمى حال من هاء نَحْشَرُهُ . وفاعل
يهد محذوف أي أفلم يهد الله لهم . وكم في موضع نصب بأهلكنا . وأجل مسمى
عطف على كلمة، أي ولولا كلمة وأجل مسمى .

المعنى :

(قال امبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فلما يأتينكم مني هدى فمن اتبع
هداي فلا يضل ولا يشقى) . ضمير قال لله تعالى ، وامبطا لآدم وزوجه ،
والمراد ببعضكم لبعض ذرية آدم وإبليس ، وبألهدى أمر الله ونهيه ، ومن أطاع
الله في أمره ونهيه فهو من المهادين المهتدين في الدنيا ، ومن السعداء الآمنين في
الآخرة . ومثله في الآية ٣٦ من سورة البقرة .

(ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكاً) . وتساءل : ان ظاهر الآية يدل على ان الله قضى وقدر ان يعيش العصاة الطغاة في حرج وضيق من العيش ، مع ان الذي نراه انهم كلما ازدادوا عصياناً وطمعاً ازدادوا جاهاً ومالاً ؟

وأجاب المفسرون بأن المراد بالضنك والضيق هنا قلق النفس واضطرابها على ما في اليد وحظرها من العواقب والمفاجآت ، ومن الضراء بعد السراء .

ويلاحظ بأن هذا القلق شامل لكل من في يده شيء من حطام الدنيا مطيحاً كان أو عاصياً ، لأن الطبيعة عمياء لا تميز بين الطيب والخبيث ، وحوادثها لا ترحم صغيراً ولا ضعيفاً ، ولا تنبالي بمصير الأخيار والأولياء .

والأرجح في الجواب ما ذكرناه في ج ٣ ص ٩٤ بعنوان: الرزق وفساد الأوضاع ، وفي ص ١٣١ من المجلد المذكور بعنوان: هل الرزق صدقة أو قدر ؟ ومجمله ان الفقر من حكم الأرض ، لا من حكم السماء ، مما كسبت ايدي الناس الذين أماتوا الحق والعدل .. ولو انهم أقاموا شريعة الله لما وُجد على ظهرها فقير .

(ونحشره يوم القيامة أعمى) . قال بعض المفسرين ، المراد بالعمى هنا العمى عن الحججة والدليل . وقال آخر : بل العمى عن الجنة .. والصحيح ان المراد به المعنى الظاهر ، وهو ذهاب البصر بدليل قوله : (قال رب لم حشرني أعمى وقد كنت بصيراً) . ولا موجب للتأويل (قال كذلك أنتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) . انك تهمل اليوم كما أهملت العمل من قبل ، وبالاختصار من ساء عمله في الدنيا ساء مصيره في الآخرة ..

وهذه الآية من أوضح الأدلة على ان العمل في الدنيا أصل ، وثواب الآخرة فرع ، وانه لا سبيل الى نعيمها الا بالعمل الصالح .. وعلى الرغم من ان القرآن الكريم يربط الاسلام بالحياة ، والجزاء بالعمل فان كثيراً من شبابنا يقولون : الدين خرافة وأساطير .. وعلوهم في ذلك جهلهم بالاسلام ، وبعدهم عن معرفة حقائقه وأسراره .

(وكذلك نجزي من أسرف) في طلب الدنيا ، وأخذها من غير حل (ولم يؤمن بآيات ربه) الدالة على وجوده ، ونبوة أنبيائه ، وانزال كتبه ، أو يؤمن بذلك كله ، ولكنه لا يلتزم بالعمل . (ولعذاب الآخرة) ومنه سراويل القطران

وطعام الزقوم ، وشراب الحميم ، والضرب بمقامع الحديد (أشد وأبقى من وقع العمى والنسيان .

(أفلم يهد ضم كم أهلكنسا قبلهم من القرون يمضون في مساكنهم) . المراد يهد يبين ويوجد طرق الهداية ، وضمير لهم يعود الى المشركين ، والمعنى كيف أشرك الذين عاصروا محمداً (ص)، وأصروا على الشرك بعد ان دعاهم الى التوحيد، مع ان الله قد بين وأوجد طرق الهداية الى التوحيد ، ومنها اهلاك الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود ، ففسد كانوا أشد منهم قوة ، وأكثر مالا ، وأعز نفراً ، فبعث الله اليهم رسلاً مبشرين ومنذرين ، كما بعث محمداً الى مشركي قريش ، فعصوا وتمردوا ، فأهلكهم الله بكفرهم وتمردهم ، وهم في ديارهم آمنون مطمئنون ، فهل أمن مشركو قريش أن يأتيهم بأس الله على غفلة كما أنى الذين من قبلهم (ان في ذلك لآيات لأولى النهى) ان ما حل بالماضين عبرة وعظة لأصحاب العقول من الحاضرين .

(ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى) . المراد بالكلمة والأجل المسمى قضاؤه تعالى بتأخير العذاب ، والمعنى لولا قضاؤه وحكمته جل وعز بتأخير العذاب على مشركي قريش الى أجل مسمى لوقع عليهم لا محالة .

فاصبر على ما يقولون الآية ١٢٩ - ١٣٢ :

فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ
غُرُوبِهَا وَمِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ * وَلَا تَمُدَّنَّ
عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَّهُمْ
فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا
لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ *

اللغة :

آناء الليل ساعاته ، واحدها لني . وزهرة الحياة زيتنها . والفتنة الابتلاء والاختبار .

الإعراب :

زهرة مفعول لفعل محذوف أي جعلناها زهرة الحياة الدنيا ، ويجوز أن تكون عطف بيان من الأزواج . وللتقوى على حذف مضاف أي لأهل التقوى .

المعنى :

(فاصبر على ما يقولون) . كذب المشركون رسول الله (ص) وقالوا عنه: ساحر وشاعر ، ومفسر ومجنون ، فأمره الله بالصبر ، لأن من صبر انتصر (وسبح محمد ربك) وليس المراد به قول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وكفى .. بل مع التوجه إليه والانتكال عليه (قبل طلوع الشمس) إشارة إلى صلاة الفجر (وقبل غروبها) صلاة العصر (ومن آناء الليل) صلاة المغرب والعشاء (وأطراف النهار) صلاة الظهر ، وأطلق طرف النهار على الزوال بالنظر إلى أنه الطرف الأخير للنصف الأول من النهار ، والطرف الأول للنصف الثاني منه .. هكذا قيل .. وليس ببعيد أن يكون المراد من هذه الأوقات الأمر بذكر الله في كل آن وحال ، تماماً كقوله تعالى : « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم - ١٩١ آل عمران » . (لعلك ترضى) . وكل من أرضى الله في الدنيا أرضاه الله في الآخرة (رضي الله عنهم ورضوا عنه) .

(ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه) . المراد بلا تمدن عينيك لا تتم ، وبالأزواج أصناف الكفار مشركين كانوا أو كتابيين ، وزهرة الحياة زيتنها ، ونفتنهم بنبليهم ونختبرهم ، والمعنى لا تتم بإحمد بما تراه من غنى الكفار من أي نوع كانوا مشركين أو نصارى أو يهوداً

لأن الله سبحانه أراد أن يمتحنهم بالمال ليظهروا على حقيقتهم ، ويجازيهم الله على طغيانهم ، قال الإمام علي (ع) : ان الله يختبرهم بالأموال والأولاد ليشين الساخط لرزقه والراضي بقسمه ، وان كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم ، ولكن لنظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب . وفي تفسير الطبري ان رسول الله (ص) أرسل الى يهودي يستدين منه ، فأبى الا برهن ، فحزن رسول الله (ص) فترلت الآية . وسواء أصبحت هذه الرواية ، أم لم تصح فإنها أوضح مثال لقوله تعالى : « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا » .

فقر النبي معجزة كبرى :

نحن الآن في سنة ١٩٦٩ ، ومن حوالى ٣٥ سنة كتب الأديب الشهير مصطفى صادق الرافعي مقالين عن فقر النبي (ص) بعنوان « سمو الفقر » نقتطف منها الجمل التالية بشيء من التصرف في بعض الألفاظ بقصد الايضاح :

من تهكم الحياة بأهلها أن يكون الفقير فقيراً ، وهو يعلم ان صناعته في المدينة عمل الغنى للأغنياء ، وأن يكون الغنى غنياً ، وهو يعلم ان عمله في المدينة صنعة الفقر لضميره .. ومحمد (ص) عاش فقيراً، ولكن فقره يُعد من معجزاته الكبرى التي لم ينتبه اليها أحد الى الآن .. كان محمد (ص) يملك المال، ولكنه كان أجود به من الربيع ، لا يدعه يتناسل عنده ، بل ولا يستقر اطلاقاً .

كان - وهو سيد أمته وصاحب شريعته - رجلاً فقيراً يكدح لعيته ، يجمع يوماً ، ويشيع يوماً ، وهدفه الأول من وراء ذلك أن يثبت وحدة الانسانية ، ويقر التوازن بين أفرادها ، وان يعلم كل انسان ان حل مسائله الشخصية وحدها هو تعقيد لمسائل المجتمع ، وان مصلحته في حقيقتها وواقعها هي التي تلد لغيره مصلحة مثلها لتحيا بها ومعها ، لا أن تاكل مصلحة غيره ليهلكا معاً .

(وأمر* أهلك بالصلاة واصطبر عليها) . والصبر على الصلاة ان لا يؤثر عليها أي عمل من الأعمال . وفي تفسير الرازي : ان رسول الله (ص) كان بعد نزول هذه الآية يذهب الى فاطمة وعلي (ع) كل صباح ويقول : الصلاة الصلاة ،

وكان يفعل ذلك شهراً (لا نسألك رزقاً) . لست مسؤولاً عن رزق أحد ،
وطعامه وشرابه (نحن نرزقك) ونرزق عيالك أيضاً .. وذكر هذا سبحانه بعد
الأمر بالصلاة للإشارة الى ان الصلاة لا تراحم العمل من أجل الرزق، وان الجمع
بينها سهل يسير ، لأن وقت الصلاة المكتوبة لا يستغرق سوى دقائق معدودات .
(والعاقبة للتقوى) لمن اتقى معاصي الله ومحارمه في السر والعلانية . قال الإمام
علي (ع) : لا شرف أعلى من الاسلام ، ولا عز أعز من التقوى ، ولا معقل
أحصن من الورع ، ولا شفيح أنجع من التوبة ، ولا كثر أغنى من القناعة ..
ومن اقتصر على بُلغة الكفاف فقد انتظم الراحة .

لولا بآيتنا بآية الآية ١٣٣ - ١٣٥ :

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ
الْأُولَى * وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أُرْسِلَتْ
إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى * قُلْ كُلُّ
مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنْ
أُهْتَدَى *

اللفظ :

المراد بالآية هنا المعجزة التي اقترحها المشركون على النبي (ص) عناداً وتعناً .
والمراد بالبيئة البيان والبرهان ، وبالصحف الأولى التوراة والانجيل . والسوي المستقيم .

الإعراب :

لولا من أدوات الطلب بمعنى هلاً . والمصدر من انا اهلكناهم فاعل لفعل

محذوف أي لو ثبت اهلاكتنا اياهم . فتتبع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء لوقوع الفعل في جواب الطلب . وكلّ أي كل واحد . ومن أصحاب الصراط (من) استغمام مبتدأ ، وأصحاب خبر ، والجملة في محل نصب يستعملون . ومن اهتدى عطف على من أصحاب الصراط .

المعنى :

(وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه) . تقدم مثله مع التفسير في الآية ١١٨ من سورة البقرة ج ١ ص ١٨٩ والآية ٧٣ من سورة الانعام ج ٣ ص ١٨٤ والآية ٢٠ من سورة يونس ج ٤ ص ١٤٤ (أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى) . إذا كنتم تطلبون المعجزة حقاً أيها المشركون ، لا عناداً وتعتاً فهذا القرآن بين أيديكم .. فإنه معجزة المعجزات من عدة جهات ، ومنها انه بيان لما جاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب السماوية على حقيقته .. كلا ، لستم من طلاب الحقيقة والهداية ، ولا من أهل الصدق والخير، وما طلبتم ما طلبتم إلا للمراوغة والتحايل، والمكابرة والعناد .

(ولو انّا أهلكناهم بعدذاب من قبله لقالوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا فتتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى) . ضمير أهلكناهم يعود الى مشركي قريش ، وضمير من قبله الى النسبي أو القرآن ، والمعنى لو عذبنا المشركين في الدنيا أو الآخرة دون ان نقطع حججهم بارسال محمد ونزول القرآن لاحتجوا وقالوا لله : أتعاقبنا قبل ان ترسل الينا من يخرجنا من الجهل ، وينبهننا من الغفلة ، فيأمرنا بما نحب ، وينهانا عما نكره ؟ ولكن الله سبحانه قطع جميع أعذارهم بعد ان ارسل اليهم محمداً (ص) بآيات مسفرة ظاهرة .

(قل كلّ متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى) . هذا انذار بأنهم يسلكون طريق الضلالة والهلاك ، وتهديد ووعيد لما ينتظرهم من العذاب المحتوم .. ولكن ما تغني النذر عن قوم لا يؤمنون إلا بمكاسبهم ومنافعهم .

الجزء السابع عشر

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

مكة وآياتها ١١٢ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القرب للناس حسابهم الآية ١ - ٦ :

أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ
مِنْ رَبِّهِمْ مُجْدَدٍ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا
التَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ
تُبْصِرُونَ * قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *
بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا
أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ * مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ *

اللغة :

من ذكر من قرآن . ومحدث نزل سورة بعد سورة . وأسروا التجوى تناجوا
فيها بينهم . واضغات جمع ضفت ، وهو الحزمة من كل شيء .

الإعراب :

من ذكر (من) زائدة إعرابياً وذكر فاعل يأتيهم . ومن ربهـم متعلق بمحذوف صفة للذكر . ومحدث صفة ثانية . ولاهية حال من واو يلعبون . والذين ظلموا بدل من واو اسروا . ومثلكم صفة لبشر . واضغات أحلام خبر لمبتدأ محذوف أي هو اضغات احلام .

المعنى :

(اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) . المراد بالحساب هنا يوم القيامة ، وهو قريب من كل انسان لأنه آت لا محالة ، وان طال الزمن، ويتلخص المعنى بقول الإمام علي (ع) : لا تغفل فليس بمغفول عنك . وقال أيضاً : وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه ، وطالب حيث يحذوه في الدنيا حتى يفارقها . (ما يأتيهم من ذكر من ربهـم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون) . يستقبلون الحق بالكذب ، والنصيحة بالسخرية ، والتحذير من العواقب بالاستخفاف (لاهية قلوبهم) عن الحق ، لا يبالون بشيء ، ولا يشعرون بمسؤولية الحساب والجزاء ، تماماً كالحيوانات والحشرات .

(وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم) . قال بعض المشركين لبعض في الخفاء عن اهتدى وأسلم ، قال : من هو محمد حتى نطيعه ونتبعه ؟ وهل هو إلا واحد من الناس يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ أما العلم والفضائل فكلام بلا معنى ، وأما المعجزات فهي سحر وتغويه (أفئتون السحر وأنتم تبصرون) . تأتون هنا بمعنى تقبلون ، وتبصرون بمعنى تعلمون ، ولا عجب أن ينغوا بالكذب آيات الله ودلائله التي جاءت على يد الرسول الأعظم (ص) .. فكل مكابر عنود يتلرع بمثل هذه الأباطيل اذا لزمته الحجة ، ولم يجد منها مهرباً .

(قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم) قالوا عن النبي (ص) : انه ساحر . فأجابهم بأن الله يعلم صدقه ، ويعلم قولهم هذا ، لأنه تعالى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وسيحاسبكم ويجازيكم بما

تستحقون .. ولا جواب لمن التوى عن الحق وعانده إلا ان يحيله الى محكمة الحق والعدل (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر) . رفضوا الاعتراف بالحق ، وبغشوا عن حيلة يتفردون بها فتاهوا في حبرتهم يعمهون ، قال صاحب مجمع البيان : « وهكذا المتخبر الذي بهر ما سمع .. فرة يقول هذا سحر، ومرة يقول هو شعر، ومرة يقول انه حلم، ولا يجزم على أمر .. وهذه مناقضة ظاهرة » .

(فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) . قال مشركو قريش لمحمد (ص) : ان كنت نبياً فأتنا بمعجزة كنانة صالحة ، وعصا موسى وغيرهما من معجزات الأنبياء السابقين ، فأجاب سبحانه عن هذا الطلب بقوله : (ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها) . ومعنى هذا الجواب : صحيح ان الأنبياء السابقين جاءوا بالخوارق كالنانة والعصا ، ولكن قومهم لم يؤمنوا بها ، بل رفضوها وكذبوها ، مع انهم هم الذين طلبوها واقترحوها ، ومن أجل ذلك أهلكناهم ، فينبني لكم أنتم يا مشركي قريش أن تنظروا الى النتائج التي ترتبت على الخوارق ، لا الى نفس الخوارق ، وعين الشيء يحدث لكم لو استجاب الله لافتراحكم (أفهم يؤمنون) أي لم يؤمن الذين كانوا قبلهم بالمعجزات التي اقترحوها فكذلك هم لا يؤمنون بالمعجزات التي اقترحوها ، وتكون النتيجة أن يهلكوا كما هلك الأولون ، حيث قضت حكمته تعالى أن يهلك من يكذب بمعجزة هو الذي طلبها واقترحها .

لأسألوأهل الذكر الآية ٧ - ١٥ :

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ* وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ* ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ* لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ* وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ

قَرِيَّةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ* فَلَمَّا أَحْسُوا بَأْسَنَا
إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ* لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ
وَمَسَاكِينَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ* قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ* فَمَا
ذَآلَتْ يَلُوكَ دَعَوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ*

اللمعة :

القسم الكسر، والمراد به الهلاك . والانشاء الابداع . والركض العدو . والإتراف
من الترف ، وهو النعمة . والويل الحزى والهوان والهلاك . والحمود السكون .

الإعراب :

جسداً مفرد في موضع الجمع أي ذوي أجساد ، ولذا أعاد عليه ضمير الجمع
في يأكلون . فيه ذكر كم مبتدأ وخبر ، والجملة صفة لكتاب . وكم في محل نصب
بقصصنا . وإذا للمفاجأة . ومساكنكم معطوف على ما أترفتهم أي ارجعوا الى ما
اترفتهم فيه والى مساكنكم . ويا ويلنا (يا) حرف نداء ويلنا منادى، أي يا ويلنا
احضر . وخامدين صفة لحصيد ، وقيل : حصيداً وخامدين بمتزلة الكلمة الواحدة
مثل حلو حامض أي مز .

المعنى :

(وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا
تعلمون) . تقدم بنصه مع التفسير في الآية ٤٣ من سورة النحل ج ٤ ص ٥١٧
(وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين) . ليس الأنبياء أرواحاً

الجزء السابع عشر

بلا أجساد ، ولا خالدين في هذه الحياة .. انهم تماماً كغيرهم من الناس لا يمتازون عنهم إلا بالتبليغ عن الله ، وانهم اكمل البشر . انظر ما كتيبناه بعنوان حقيقة النبوة عند تفسير الآية ٣٥ من سورة طه .

(ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين) . يشير سبحانه بهذا الى قوله تعالى : « كتب الله لأغلبن انا ورسلي ان الله قوي عزيز - ٢١ المجادلة » . وقوله : « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد - ٥١ غافر » . وخلاصة المعنى ان الله سبحانه وعد الأنبياء والذين آمنوا بالنجاة ، والكافرين بالهلاك ، وقد وفى بوعده ، ومن أوفى بعهده من الله .

محمد والعرب :

(لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون) . لم يكن العرب قبل محمد (ص) والقرآن شيئاً مذكوراً ، وبعدهما أصبحوا مشهورين تذكر الأمم تاريخهم وحضارتهم ، وترفع من شأنهم ومكانتهم ، قال « و.ل. ديورانت » في موسوعته التاريخية « قصة الحضارة » :

كان محمد من أعظم عظماء التاريخ . فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب عاش في دياجير الممجيية ، وحرارة الجو ، وجذب الصحراء ، وقد نجح في هذا الغرض نجاحاً لا يدانيه أي مصلح آخر في التاريخ كله . كانت بلاد العرب لما بدأ دعوته صحراء جرداء تسكنها قبائل من عبدة الأوثان ، قليل عددها ، متفرقة كلمتها ، وصارت عند وفاته أمة ممتاسكة ، وقد كبح جماح التعصب والخرافات ، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم ديناً سهلاً واضحاً ، وصرحاً قوامه البسالة والعزة والقومية ، واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مئة معركة ، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة ، وأن يبقى الى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في العالم .

(وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين) . هذا تهديد ووعيد للذين كذبوا محمداً (ص) بأن يحل بهم من الهلاك ما حل بمن كان قبلهم

سورة الأنبياء

من الأمم الذين كذبوا رسلهم، ثم يوجد سبحانه قوماً لا يمتنون الى المالكين بسبب ولا بنسب، فيورثهم أملاكهم وديارهم، فيعيدون بناءها من جديد، ويتمتعون بنيرانها وبركاتها.

(فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون) . هذا تصوير لحال المشركين حين ينزل بهم عذاب السماء .. انهم يعدون ويسرعون هرباً منه .. ولكن هيهات أين المفر من سلطان الله وقضائه؟ ولو هربوا من قبل الى الله لوجدوا عنده الأمن والأمان، أما الهرب من الله فهو تماماً كهرب الانسان من ظله وأجله (لا تركضوا وارجعوا الى ما أنرفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون) . قبل أن ينزل العذاب بالمشركين كانت لاهية قلوبهم عن كل شيء إلا عن أموالهم وترفهم، وحين نزل بهم العذاب عمت أبصارهم وبصائرهم عن كل شيء، وأطلقوا سيقانهم للهواء لا يلوون على مال ولا بنين .. فقال لهم سبحانه على سبيل التوبيخ والتفريع : الى أين ؟ ارجعوا الى مساكنكم وأموالكم وأولادكم .. أنتركونها الآن ، وقد كنتم بالأمس تعبدونها من دون الله ؟ هذا جزاء من ترك الرشد ، ولم يهتد الى قصد .

(قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين) . اطمانوا لترفهم ، ودانوا لشهواتهم، وأنهموا الناصح الأمين ، ولما رأوا العذاب ندموا ودعوا بالويل والثبور ، ولكن الحشرات لا ترجع ما قد فات (فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين) . هم يكررون الدعاء بالويل ، والعذاب ينصب على رؤوسهم تلو العذاب ، حتى أصبحوا أثراً بعد عين .. وما أغنى عنهم جاه ولا مال ، بل تنكر لهم كل شيء وتلك عاقبة المجرمين .

هل أفعاله تعالى معللة بالأغراض الآية ١٦ - ٢٣ :

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ
هَوًى لَاتَّخَذْتَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ

فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ* وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ*
يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ* أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ
يُنْشِرُونَ* لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ* لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ*

اللفظة :

في كتب اللغة دمهغه دمعاً أي شجبه حتى بلغت الشجة دماغه . والمراد بالدمغ
هنا القمع والابطال . والزاهق المالك . واستحسر تعب وأعي . لا يفترون من
الفتور وهو السكون ، لا من الافتراء .

الإهراء :

ومن عنده لا يستكبرون (من) اسم موصول مبتدأ ، وعنده صلة، ولا يستكبرون
خبر . وجملة يسبحون حال من فاعل ما قبلها . ام اتخذوا (ام) هنا منقطعة
بمعنى بل والهمزة . وإلا الله (إلا) بمعنى غير صفة للآلة ، ولا يجوز أن
تكون والاء للاستثناء ، حيث يصير المعنى انه لو كان الله مع الآلة لا يقع
الفساد ، وانما يقع إذا كانوا وحدهم فقط .

المعنى :

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعين) . تقدم نظيره في الآية ١٩١ من

سورة الأنبياء

سورة آل عمران ج ٢ ص ٢٣١ . ونقلنا هناك الأقوال في ان أفعال الله هل تعلل بالاغراض ، او انه تعالى لا يقيح منه شيء ولا يجب عليه شيء ؟ (لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين) . اللهو واللعب والعبت محال على من يقول للشيء: كن فيكون .. ولذا قال تعالى : و لو أردنا .. ان كنا فاعلين ، أي ما أردنا ولستنا بفاعلين ، ولو أراد ان يتخذ لهواً - وفرض المحال ليس بمحال - لاتخذ من عنده أي من نوع آخر يناسب عظمته لا من نوع ما يفعله العباد كاللهو بالنساء والأولاد .

(بل قذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق) . المراد بالحق هنا الجدد والحقيقة في قبال اللهو الذي نفاه تعالى عنه ، والمراد بالباطل اللهو واللعب .. بعد ان قال ، جلت عظمته ، لا نتخذ لهواً قال : كل أفعاله وأقواله جدد وحقائق ، لا عبت فيها ولا لهو، بل اذا جاء العبت واللهو من أي مصدر فانه يبطله وبمحقة فكيف يرتضي لنفسه ما لا يرتضيه لغيره ؟ . (ولكم الويل مما تصفون) الله به ، وتسبون اليه من صفات المصنوعين .

(وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون) أي لا يعيون ولا يكتلون . وقال المفسرون : المراد بـ (من عنده) الملائكة .. والذي نفهمه نحن ان المراد بهم كل من له مكانة ووجاهة عند الله ملكاً كان أو بشراً (يسبحون الليل والنهار ولا يفترون) أي لا يسأمون بل هم دائبون على الطاعة له في الأقوال والأفعال ، ولا يتوهمونه بالتصوير ، ولا يجرون عليه صفات المصنوعين .

(أم اتخلوا آفة من الأرض هم ينشرون) . جملة هم ينشرون صفة للآفة ، والمعنى ان كل معبود للمشركين فإنه لا يحى الأموات ، ولا يعينهم من قبورهم ، بل الله وحده هو الذي يحيى ويميت (لو كان فيها آفة الا الله لفسدنا فسيحان الله رب العرش عما يصفون) . انظر ما كتبه بعنوان دليل التوحيد والأقائم الثلاثة عند تفسير الآية ٤٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٤٤ .

من علم حجة على من لا يعلم :

(لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) . اسندك البعض بهذه الآية على ان الله لا يقبح منه شيء ، ولا يجب عليه شيء ، فله ان يعاقب المطيع ، ويثيب العاصي .. وهذا يتنافى مع عدل الله وحكمته ورحمته .. والصحيح في معنى الآية ان الله سبحانه لما كان عادلاً ببلاده فلا يجوز لأحد ان يعترض على قوله وفعله لأنه لا يقال للعدل : لماذا عدلت ؟ وللصادق : لماذا صدقت ؟ تماماً كما لا يجوز للجاهل بالطب ان يقول للطبيب الماهر : لماذا وصفت هذا الدواء ؟ إن مثل هذا السؤال انما يجوز ويصح من الند الى الند ، من العالم الى مثله ، اما الجاهل فغاية جهده ان يبحث عن العالم ، ويتأكد من علمه بما يراه من العلامات والدلائل ، فإذا صار على يقين منها وجب عليه ان يتقاد ويستسلم للعالم فيما هو عالم به ، تماماً كما يستسلم المريض للطبيب .. وقدماً قيل : من علم حجة على من لا يعلم ، وإذا كان هذا هو شأن المخلوق مع مخلوق مثله فكيف به مع خالق السموات والأرض ؟

قال تلميذ لاساتذه : لماذا وجدنا ولماذا نعيش ؟

فقال الأستاذ : ولماذا يا بني تجاوزت بنفسك في متاهات لا أول لها ولا آخر ؟ لماذا لا تؤمن بالدين فتريح نفسك وتسترخ ، وتدع ما لا تستطيع الى ما تستطيع ؟ أنت واحد من آلاف الملايين ، وبذلك الذي تعيش فيه واحد من آلاف البلاد ، والكرة الأرضية التي تعيش عليها كوكب من ملايين الكواكب ، والكون الذي يشمل هذه الكواكب جميعاً من يدرينا ان له نظائر وأشباهاً تفوقه ، وهل يستطيع الجزء أن يحيط بالكل ؟ وهل تستطيع النقطة في البحر أن تتساءل عن البحر ؟

لا أقول لك يا بني : كف عن البحث والتطلع والتأمل ، فان نشدان الحقيقة سبب من أسباب وجود الانسان ، ولكن حيث يقصر عقلك عن الفهم والادراك توقف الى ان تزداد فهماً وادراكاً ، فإذا عجزت آخر الأمر سلّم بما هو واقع لأن قصورك عن الفهم لا يعني ان ما هو واقع عبث من العبث ، ولكنه يعني انك لم تفقه بعد حكمة الوجود ، فدعها لخالق الوجود .

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ
وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ * وَمَا
أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدُونِ * وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ *
لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا
خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ *
وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي
الظَّالِمِينَ *

الإعراب :

هاتوا اسم فعل بمعنى ائتوا . هذا ذكر من معي مبتدأ وخبر ، ومعني صلة
لمن . وعباد خبر لمبتدأ محذوف أي هم عباد . فلذلك مبتدأ ، وجملة نجزيه خبر .
وكذلك الكاف بمعنى مثل ، وهي في محل نصب صفة لمفعول مطلق محذوف أي
جزاءً مثل ذلك .

المعنى :

(أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) . كل الناس تقول : البينة
على من ادعى ، حتى ولو كان المدعى به حقيراً تافهاً .. فكيف اذا كان شريكاً

الله في خلقه ؟ فأين الدليل ؟ (هذا ذكر من معي) القرآن (وذكر من قبلي) الكتب السماوية الأخرى كلها تأمر بالتوحيد ، وتنهى عن الشرك ، وإذا انتفى الدليل على الشرك من العقل والنقل تعين أن يكون مصدره العمى والجهل (بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون) . هذا تقريع وتوبيخ على جهلهم وضلالهم .

(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه انه لا إله إلا أنا فاعبدون) . هذه الآية بيان وتفسير للآية التي قبلها ، فالأولى تقول : لا أثر للشرك في كتب الله ، وهذه تقول : ما أرسل رسولا إلا بالتوحيد ، والاختصاص لله في العبادة . (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون) . قال اليهود أو طائفة منهم : عزيز ابن الله . وقالت النصارى : المسيح ابن الله . وقالت بعض قبائل العرب : الملائكة بنات الله .. فرد الله على الجميع بأن هؤلاء الذين ذكركم هم عباد ، لا أولاد ، ولهم عند ربهم منزل كريم . ومن الطريف ما جاء في تفسير الطبري نقلاً عن الذين قالوا : الملائكة بنات الله : « ان الله تزوج الجن فأولدهم الملائكة » وإلى هذا يومئ قوله تعالى : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً - ١٥٨ - الصفات » .

ثم بيّن سبحانه السبب لمنزلة عزيز والمسيح والملائكة عند الله ، بيّن السبب بقوله : (لا يسبقونه بالقول) أنهم لا يعملون بالرأي والقياس (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) . ما بين أيديهم كناية عن أعمالهم الحالية ، وما خلفهم كناية عن أعمالهم الماضية ، والمعنى انه تعالى قد أحاط علماً بجميع أعمالهم الخيرة ، ومقاصدهم الحسنة ، وهو يجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون .

(ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) . هذا رد على من عبد نبياً أو ولياً أو ملكاً طمعاً في ان يشفع له عند الله ، ووجه الرد ان العباد المكرمين يشفعون للموحدين المرضيين عند الله ، لا للمشركين المغضوب عليهم .

(وهم من خشيته مشفقون) على أنفسهم مع اخلاصهم ومكانتهم عند الله (ومن يقل منهم اني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين) . فهؤلاء العباد المكرمون لو ادعى أحدهم انه إله من دون الله أو شريك له فجزاؤه عذاب الحريق ، تماماً كجزاء غيره من المشركين من دون تفاوت .

وجعلنا من الماء كل شيء حي الآية ٣٠ - ٣٦ :

أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا
وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ
رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا
السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّيْلَ
وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ * وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ
قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ
بِالنَّارِ وَالْخَبِيرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا
إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرِّحْمَنَ
هُمْ كَافِرُونَ *

اللغة :

الرتق الالتئام والالتحام ، وضده الفتق أي الفصل والانقسام ، يقال : رتق
فتضم أي أصلح أمرهم . والرواسي الجبال . وتميد تضطرب . وفجاج بكسر
الفاء جمع فج ، وهو السعة والانفراج . والفلك كل شيء دائر . ونبلوكم نخبركم .
والفتنة الابتلاء .

الإعراب :

المصدر من ان السموات والأرض مفعول يَرِ . ورتقاً على حذف مضاف أي

ذواتي رتق . وحي صفة لشيء . والمصدر من أن تميد مفعول من أجله جعلنا ، وجعلنا هنا بمعنى خلقنا . وسبلاً مفعول ، وفجأاً حال من سبل ولو تأخر فجاء لكان وصفاً ، وقال صاحب مجمع البيان فجأاً مفعول ، وسبلاً بدل منه ، والمعنى صحيح على الإعراب . وكل مبتدأ وجملة يسبحون خبر وفي فلك متعلق بيسبحون . وقتنة مفعول مطلق لنبلوكم مثل قت وقوفاً ، وإن يتخذونك (ان) نافية ، وهزواً مفعول ثان . وهم الأولى مبتدأ ، وكافرون خبر ، وبذكر الرحمن متعلق بكافرين . وهم الثانية تأكيد لفظي لهم الأولى .

المعنى :

(أولم ير الذين كفروا ان السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) . في أول سورة البقرة ج ١ ص ٣٨ عقدنا فصلاً مطولاً بعنوان القرآن والعلم الحديث ، وقلنا : ان القرآن كتاب دين يهدي الانسان الى سعادته في دنياه وآخرته ، وليس كتاب نظريات في الفلسفة والعلم والفلك وغيره ، وان كل آية من آيات القرآن الكونية أو التاريخية كقصص الأنبياء فان الغرض منها أن تتعظ وتعتبر ، أو تسترشد بها الى وجود الله ، فنؤمن به وبعظمته ، ومن الآيات الكونية هذه الآية التي نحن بصددنا ، وقد ذكر فيها سبحانه شيتين : الأولى ان المجموعة الشمسية ، وهي الشمس والأرض والمريخ والمشتري وزحل وعطارد وغيرها كلها كانت متلاصقة متلاحمة كالأشياء الواحد ، ثم فصل الله بعضها عن بعض ، وجعل كلاً منهما كوكباً مستقلاً .. وأقر العلماء الجدد نظرية انفصال الأرض عن الشمس ، ولكنهم اختلفوا في التفاصيل ، وسكت القرآن عن كيفية الفتق والانفصال ، ونحن نسكت عما سكت الله عنه .

(وجعلنا من الماء كل شيء حي) . هذا هو الشيء الثاني الذي تضمنته الآية ، ويبيانه ان الماء مصدر الحياة لكل نام ، انساناً كان أو حيواناً أو نباتاً ، وجاء في الآية ٧ من سورة هود : وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ، وقلنا في تفسيرها ج ٤ ص ٢١٠ : ان المراد بعرشه

سورة الأنبياء

تعالى ملكه واستيلاؤه، وان الآية تدل على ان الماء كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض . وفي أقوال أهل البيت (ع) ان الماء أول ما خلق الله . واذا كان العلم لم يتوصل بعد الى هذه الحقيقة ، فمن الجائز أن يتوصل اليها في الغد القريب أو البعيد .

ونقل أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط ان حميداً قرأ وجعلنا من الماء كل شيء حياً بنصب حي مفعولاً ثانياً لجعلنا ، وهذه القراءة تؤيد القول : ان الله سبحانه أول ما خلق الماء ، وانه المصدر الأول الذي تكونت منه الموجودات ، وان كل كائن هو حي في حقيقته وواقعه نامياً كان أو غير نام ، وان بدا جامداً في ظاهره (أفلا يؤمنون) بعد هذه الدلائل والبيّنات .

(وجعلنا في الأرض رواسي ان تمد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلمهم يهتدون) . وفي الآية ٢٠ من سورة نوح : « لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً » بتقديم سبل على فجاج ، والمعنى واحد ، وهو ان الله سبحانه جعل في الأرض طرقاً واسعة ليسلكها الناس الى مقاصدهم . وتقدم نظيره في الآية ١٧ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٠٠ .

(وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون) . السقف على حذف كاف التشبيه أي كسقف ، ثم حذفت الكاف وانتصب سقف بنزع الخافض . والمراد بالحفظ هنا بقاء الكواكب في أماكنها بفعل الجاذبية ، قال تعالى : « ويمسك السماء ان تقع على الأرض - ٦٥ الحج » . واسند الامساك اليه سبحانه لأنه سبب الأسباب ، والمعنى ان هذا النظام الدقيق في خلق السموات دليل قاطع عند أولي الألباب على وجود الخالق ووحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ، ولكن أكثر الناس معرضون عن آيات الله ودلائله منصرفون الى أهوائهم وملذاتهم .

(وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر) . لكل من الليل والنهار والشمس والقمر صلة وثيقة بحياة الانسان ، فالنهار لكده وعمله ، والليل لراحته وهدوئه، والشمس والقمر للضياء والحساب وغيره من الفوائد ، وفي ذلك نعمة كبرى على جميع عباد الله وحجة بالغة على عظم سلطانه (كل في فلك يسبحون) . كل كوكب يدور على قدر ، ويتحرك بحركة ثلاثية .

الجزء السابع عشر

وتسأل : ان كان تقدير الكلام كل واحد منها فينبغي أن يقول يسبح ، وان كان التقدير كلاهما فينبغي ان يقول يسبحان، فما هو الوجه في قوله يسبحون بضمير الجمع ؟ .

وأجاب المفسرون بأجوبة أرجحها ان لكل من الشمس والقمر منازل ومطالع، وقد أعاد سبحانه ضمير الجمع على كل منها باعتبار منازلها .

(وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون) . قال الطبرسي : لما تضايق مشركو قريش من محمد (ص) قالوا : تربيص به الموت . فنزلت هذه الآية لتجييبهم بأنه لا نجاة لأحد من الموت ، وهل اذا مات رسول الله (ص) تخلدون بعده أيها المشركون ؟ وسياق الآية لا يأبى ما قاله الطبرسي (كل نفس ذائقة الموت) فهو طالبٌ حيث لا يفوته المقيم ، ولا يعجزه الهارب ، وأكرم الموت الاستشهاد من أجل احقاق الحق وابطال الباطل .

(ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) . ان الله سبحانه يتلي عبادته بما يحبون وما يكرهون ، ليظهر كل على حقيقته ، فمن شكر عند الرخاء ، وصبر عند الشدة فهو من المخلصين المؤمنين ، وله أجرهم وثوابهم ، ومن كفر وبطر فهو من الذين حققت عليهم كلمة العذاب . وقيل : ان أمير المؤمنين علياً مرض، فعاده أصحابه ، وقالوا : كيف أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال : بشرٌ . قالوا : ما هذا كلام مثلك . قال : ان الله تعالى يقول : ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، فالخير الصحة والغنى ، والشر الفقر والمرض . وقال أيضاً : من وسّع عليه في دنياه ، ولم يعلم انه قد مكر به فهو مخلوع عن عقله .. وكلمة فتنة في الآية تأكيد لنبلوكم لأن معنى الفتنة هنا الابتلاء والاختبار ، يقال : فن الصائف الذهب اذا أذابه ليختبر جيله من رديته .

(واذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك الا هزواً أهذا الذي يذكر آفتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون) . كفروا بالله ، وآمنوا بالأحجار فدعاهم النبي (ص) الى الايمان بالله وحده ، ونبتد الأحجار، فسخروا منه ومن دعوته الى الحق الواضح ، ومن قوله : ان أصنامهم وأحجارهم لا تضر ولا تنفع .. وقال بعض المفسرين : وهذا أمر عجيب جد عجيب .. ولا عجب فهذا شأن كل من استهوته

سورة الأنبياء

المنافع والمصالح الشخصية ، ونشأ وترعرع على تقاليد البيئة والآباء والأجداد ، سواء أكانت تلك التقاليد عبادة حجر ، أم تعصباً لرأي من غير علم ولا هدى ، وسواء أكان الغرض مالا أم جاهاً أم أي شيء غير الحق والعدل .

خلق الانسان من عجل الآية ٣٧ - ٤٤ :

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ * وَيَقُولُونَ
مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * لَوْ يَظُنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا
يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ
تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * وَلَقَدْ
اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ * قُلْ مَنْ يَكْلُو كُفْمٌ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ
ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ * بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ
طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا
أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ *

الله

الفرق بين العجلة والسرعة ان العجلة تقديم الشيء قبل أوانه، أما السرعة فهي

الاثنيان بالشيء في أول أوقاته ، والسرعة الى الخير محمودة. قال تعالى : ويسارعون في الخيرات ، والعجلة مذمومة. واشتهر : العجلة من الشيطان . لا يكفون أي لا يدفعون ، تقول كففته عني أي دفعته ومنعته . وتبتهتهم تحبّسهم . ويُنظرون . يؤخّرون . وحاق نزل . ويكلؤكم يحرسكم . ويصحبون يجارون ، تقول العرب : أنا صاحب لك من فلان أي مجبر لك منه .

الإعراب :

حين مفعول به ليعلم أي يعلم الوقت. وجواب لو محذوف أي لو يعلم الكافرون.. لانتهوا . وبغثة مصدر في موضع الحال من مفعول تأتيهم أي تأتيهم مبغوتين . وام لهم (ام) منقطعة بمعنى بل ، وجملة تمنعهم صفة للآلهة ، وجملة لا يستطيعون مستأنفة لا محل لها من الإعراب . والمصدر من أنا تأتي مفعول يرون أي أفلا يرون اثنيان الأرض .

المعنى :

(خلق الانسان من عجل سأيكم آياتي فلا تستعجلون) . حذر النبي (ص) الكافرين من عاقبة الكفر ، وأنذرهم بعذاب الله ان أصروا وتمردوا ، فازدادوا عنواً وطغياناً ، واستعجلوا العذاب ساخرين مستهزئين ، فقال لهم سبحانه : مهلاً سترون صليق رسولي فيها وعدمكم وأنذرکم ، فلا تستعجلوا ما هو كائن ، فكم من مستعجل أمراً لو أنه لضاق به ، وتمنى انه لم يأت .. وقال المفسرون ، وهم يشرحون هذه الآية : ان الانسان عجول بطبعه وتكرينه ، تماماً كما هو من لحم ودم .. ويلاحظ بأنه لو صح هذا ما وجد على ظهرها ذو روية وأناة ، بل وكان كل انسان عجولاً في جميع أقواله وأفعاله بلا استثناء ، والصحيح ان نعت الانسان بالعجول والكفور واليؤوس ونحوه هو تفسير لسلوكه في بعض مواقفه ، وليس تحديداً لطبيعته وهويته . وقد بسطنا الكلام في ذلك عند تفسير الآية ٩ من سورة هود ج ٤ ص ٢١٣ وتفسير الآية ٣٤ من سورة ابراهيم ص ٤٤٩ من المجلد المذكور .

سورة الأنبياء

(ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) تقدم في الآيتين ٧٠ و ١٠٧ من سورة الأعراف والآية ٣٢ من سورة هود. (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم يُنصرون) . يستعجل الذين كفروا نار العذاب ، وهم أحقر وأضعف من أن يستطيعوا لها رداً أو يجدوا منها مهرباً أو لهم ناصراً ، كيف وهي تغشاهم من فوقهم ومن تحتهم ومن أمامهم وخلفهم ؟ (بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون) . الضمير المستتر في تأتيهم يعود الى الساعة ، ولا ريب في اتيانها فجأة من غير انذار لقوله تعالى : « يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله - ٦٣ الأحزاب » ومنى جاءت على هذه الحال وقعوا في الحيرة والدهشة ، فلا هم يملكون لها رداً ، ولا هي تمهلهم ليتدبروا أمرهم ويتوبوا الى ربهم .

(ولقد استهزئ برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) . تقدم بنصه الحرفي مع التفسير في الآية ١٠ من الأنعام ج ٣ ص ١٦٥ . (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) . مهما احتاط الانسان ، وبالغ في التحفظ من المخبات والمفاجآت فلا ينجو منها إلا بعناية الله وتوفيقه ، فكيف يحترس ويسلم من قضائه وقدره ؟ (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) . استهزأوا برسلك الله ، وأمرنوا مكر الله ، وأعرضوا عن ذكر الله .. ولم ؟ لأنهم مترفون ، والترف في حسابهم حصن حصين من كل نازلة وغائلة .

(أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) فتدفع عنهم بأسنا وعذابنا ان أردنا هلاكهم واستئصالهم (لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون) . ضمير يستطيعون وما بعده يعودان الى الآلهة ، والمعنى ان المشركين يستجرون بالأصنام ، وهي لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا فكيف تملك النصر والاستجارة لغيرها . وفي تفسير الطبري ان أهل التأويل اختلفوا في معنى يصحبون ، وبعد أن نقل الأقوال اختار ان معنى يصحبون يجارون لأن العرب تقول : أنا لك جار من فلان وصاحب أي أجبرك وأمنعك منه . وهذا المعنى يتفق مع قوله تعالى : « وهو يجير ولا يجار عليه - ٨٨ المؤمنون » .

(بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر) . أمهلهم الله ، وأمد في

حياتهم فاغثروا بالامهال ، وطفوا وبغوا ، وما دروا ان الله لهم بالمرصاد . وانه يستلرجهم من حيث لا يعلمون (أفلا يرون اننا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون) . تقدم مع التفسير في الآية ٤٢ من سورة الرعد ج ٤ ص ٤١٦ .

أنذركم بالوحي الآية ٤٥ - ٥٠ :

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ*
وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ*
وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ* وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ
وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ* وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكُ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ
مُنْكَرُونَ*

اللغة :

الصم جمع أصم ، وهو الأطرش . والمراد بالنفحة هنا الشيء الضئيل . والقسط
العدل . وحاسبين محصين . والفرقان ما يفرق بين الحق والباطل .

الإعراب :

إذا ما (ما) زائدة لإعراباً . والقسط صفة للموازن على حذف مضاف أي

سورة الأنبياء

ذوات القسط . وشيئاً مفعول مطلق لتظلم لأنه بمعنى ظلماً . والباء في بنا زائدة
وضمير (نا) فاعل ، وحاسبين تمييز لأنه بمعنى من حاسبين ، ويجوز أن يكون
حالات . والذين يحشون بدل من المتقين .

المعنى :

(قل انما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينلرون) . هذا مثل
قوله تعالى : « وقل اني أنا النذير المبين - ٨٩ الحجر » .. أمر نبيه الكريم ان
يقول للمشركين : أتسخرون من قيام الساعة وأهوالها ؟ انها من وحي الله لا من
وحي الخيال ، واني أنذركم بأمر الله ، لا بأمري ، ولكن كيف تسمعون التحذير
والإنذار ، وفي آذانكم وقر وصمم ؟ وكل من لا يستجيب لنصيحة الله فهو أعمى
وأصم ، وان كان له عيتان وأذنان .

(ولئن مستهم نقعة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين) . كانوا
من قبل يسخرون ويهزأون إذا ما أنذروا بالعذاب ، حتى إذا مسهم أخذه وأدناه
ذلوا وخضعوا وقالوا : « يا ويلنا إنا كنا ظالمين) . وتقدم مثله في الآية ١٤ من
هذه السورة .

الميزان يوم القيامة وصاحب الأسفار :

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وان كان منقال حبة
من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) . المراد بالموازين هنا احكام الله وشريعته
والمعنى ان الله سبحانه يقيس أعمال العباد بأمره ونهيه ، فن جاءت أفعاله على
وفق أمر الله وتروكّه على وفق نهيه تعالى فهو ممن ثقلت موازينهم ، والا فهو
من الذين خفت موازينهم ، سئل الإمام جعفر الصادق (ع) عن الموازين القسط؟
فقال : هم أنبياء الله وأوليأؤه أي احكام الله الذي يبلغها الأنبياء والأولياء لعباده.
وعلى هذا الأساس يكون الجزاء ، فلا ينقص من ثواب المحسن مقدار حبة من
خردل ، وقد يزداد له ، ولا يزداد في عقاب المسيء حبة كذلك ، وقد ينقص

منه (وكفى بنا حاسبين) لان شئ به شيء ولا يفوتنا شيء منها بلغ العدد ، قال الملا صدر في كتاب الأسفار : « في قدرة الله ان يكشف للخلائق جميع أعمالهم ، وميزان حسناتهم وسيئاتهم وثوابها وعقابها في لحظة واحدة ، وهو أسرع الحاسبين . » ولو تنبه لهذه الآية من يحاول تطبيق القرآن على العلم الحديث لقال : ان المصدر الأول لفكرة العقل الالكتروني هو القرآن .. انظر القرآن والعلم الحديث في أول سورة البقرة .

وتكلم صاحب الاسفار عن معنى الميزان يوم القيامة وأطال الكلام ، وبالنظر الى مكانة المؤلف في فلسفة العقيدة وغيرها نقتطف من عباراته ما يلي مع ضرب من التصرف في التعبير بقصد الايضاح :

« ان ميزان الآخرة هو ما يعرف به صحة العلم والايمان بالله وصفاته وأفعاله ، وعلائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر ، وهذا الميزان هو القرآن الذي أنزله المعلم الأول ، وهو الله على المعلم الثالث وهو الرسول (ص) بواسطة المعلم الثاني وهو جبريل ، فبأحكام القرآن يقاس علم الانسان وعقله وجميع أقواله وأفعاله ، وتعرف حسناته من سيئاته ، فإن كان الرجحان للحسنات فصاحبها من أهل السعادة ، وان كان للسيئات فصاحبها من أهل الشقاوة ، ومع تساوي الحسنات والسيئات فصاحبها موقوف حتى يحكم الله فيه بالمعذب أو العفو ، ولكن جانب الرحمة أرجح لأن الله عفو رحيم . ثم قال صاحب الاسفار - في مكان آخر - لكل شيء ميزان الا قول : لا إله إلا الله لأن كلمة التوحيد لا يقابلها إلا الشرك ، وليس للشرك ميزان - وقال في مقام ثالث - ان القرآن بمنزلة مائدة فيها أنواع الأطعمة من لباب الأغذية الى التبن والقشور ، فاللباب هي الحكمة والبراهين ، وتختص بأولي الألباب والبصائر ، أما التبن والقشور فللعوام الذين هم كالأنعام ، كما قال تعالى : متاعاً لكم ولأنعامكم . »

وقد يظن للوهلة الأولى ان التعبير بالتبن والقشور جرأة على كتاب الله وقداسته . ولكن صاحب الاسفار فوق الظنون والشبهات ، ومن تأمل كلامه يعلم ان مراده بالتبن والقشور هم أهل التبن والقشور كالظاهرية الذين يقفون عند الظاهر ، ولا ينظرون الى أبعد من أنوفهم بدليل ما قاله في فصل تحقيق قول النبي (ص) : ان

سورة الأنبياء

للقرآن ظهراً وبطناً ، فقد شرح هذا الحديث بكلام طويل ، جاء فيه : « ان للقرآن درجات ومنازل كالانسان الذي منه قشري ولبي ، والانسان القشري كالظاهرية الذين لا يدركون إلا القشور ، أما روح القرآن وسره فلا يدركه إلا أهل العقول والبصائر » . فالتقسيم - اذن - لفهم الناس للقرآن ، لا للقرآن نفسه .

(ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين) . المراد بالفرقان هنا التوراة كما أنزلها الله على موسى ، وكل كتاب سماوي هو فرقان لأنه يفرق بين الهدى والضلال ، وهو ضياء يبدد ظلام الجهل والكفر ، وهو ذكر لمن طلب التقوى لأنه يذكر بالله ويبين حلاله وحرامه (الذين ينجشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون) . هذا تحديده للمتقين بأنهم الذين يخافون الله في السر والغيب عن أعين الناس كما يخافونه في العلانية لأنهم يؤمنون بيوم القيامة والحساب والجزاء ، ويخافون منه ، ويعملون له .

(وهذا ذكر مبارك أنزلناه) . هذا اشارة الى القرآن ، وهو ذكر لمن يتذكر . وعظة لمن يتعظ ، وخير وبركة على من ائتمر بأمره ، وانتهى بنهيهِ (أفأنتم له منكرون) وقد وضحت معجته ، وقامت دلائله ؟ .

ابراهيم الآية ٥١ - ٦٠ :

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ عَابِدُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَٰذَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ جُذَاثًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ

لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ *
قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ *

اللغة :

رشده هدايته . والتماثيل الأصنام على صورة الآدميين وغيرهم . وعكف عليه
واظب عليه ولزمه . وفطرهن أوجدهن . لا يكيدن أي لأدبرن هن تدبيراً يسوؤكم .
وجذاذاً قطعاً .

الإعراب :

التماثيل عطف بيان او بدل من هذه ، والتي بدل من التماثيل . والتي فطرهن
بدل من رب السموات . ومديرين حال مؤكدة . وكبيراً مستثنى متصل . وله
خبر مقدم وإبراهيم مبتدأ مؤخر .

المعنى :

(ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) . اختلف المفسرون في
المراد بالرشد ، قيل : انه الاهتداء الى صالح الدين والدنيا ، وقيل : انه النبوة .
وهذا هو الأرجح بدليل قوله تعالى : (من قبل) لأن معناه من قبل الأنبياء
الذين جاءوا بعد إبراهيم (ع) كموسى وعيسى ومحمد (ص) وبدليل قوله :
(وكنا به عالمين) فأنه بمعنى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » - ١٢٤
الأنعام . ان النبوة منحة من الله يختص بها من هو أهل لها ، ولا تكون
بالكسب كالإيمان والتفوى ، ولذا يقال : كن مؤمناً . كن تقياً . ولا يقال :
كن نبياً .

سورة الأنبياء

(اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) . هذا سؤال موجه بطبعه الى كل مسؤول عن أعماله وتصرفاته : كيف تقدسون وتعبدون ما لا يضر ولا ينفع ، وأنتم من ذوي العقول والادراك ؟ (قالوا وجدنا آبائنا لها عابدين) . هذا المنطق يلجأ اليه كل من يعجز عن الحجة والدليل ، تقول له : لم فعلت هذا ؟ فيقول : فعله فلان . ولا جواب له إلا ما قاله ابراهيم لقومه : (قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين) . فالضلال لا يستحيل الى هدى اذا كثر به العاملون .

(قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعين) . استبعدوا أن يكون ابراهيم جاداً في قوله ، لأن آباءهم متزهون عن الخطأ والضلال لا شيء إلا لأنهم آباؤهم .. ولا يختص هذا المنطق بقوم ابراهيم ، ولا بغيرهم من المشركين ؛ فكل من قلد غيره تقليداً أعمى فهو وعبد الأصنام سواء (قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن) . ما أنا بهازل ولا شاك كيف ؟ وهل في الله شك وهزل ؟ وهو خالق السموات والأرض (وانا على ذلكم من الشاهدين) أشهد بأن الله هو المكوّن والمصور ، وأنا على يقين من شهادتي هذه ، ولي عليها الأدلة القاطعة، والحجج الدامغة .

(وتالله لأكيذن أصنامكم بعد ان تولوا مدبرين) لأفعلن بها في الخفاء مسا يسوؤكم ، بحيث لا تشعرون إلا وهي مهشمة محطمة، وتجلد الإشارة الى أن الأصنام لا تُكاد لأنها لا تشعر ، وانما الذين يُكادون هم عبدة الأصنام ، وعليه تكون نسبة الكيد الى الأصنام مجازية لا حقيقية لأنها أُتخذت وسيلة للكيد بعبدتها .

(فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون) . كسر ابراهيم الأصنام وجعلها قطعاً متلاشية ، وترك أكبرها ليسأله عبدتها : لماذا لم يدافع عن الآلهة الصغار ، وهو القوي العزيز ؟ والقصد واضح ، وهو ان يعتبر المشركون بأن هذه الأصنام إذا لم تدفع عن نفسها فهي أعجز من ان تدفع السوء عن غيرها . (قالوا من فعل هذا بالهتأ انه لمن الظالمين) . كان الأجلر بهم — لو يشعرون — ان يسألوا : ماذا فعلت آلهتهم بالذي حطمها ؟ ولكن هذا هو منطق أهل الجهل والتقليد (قالوا سمعنا فتي يذكرهم يقال له ابراهيم) . إشارة الى قول ابراهيم (ع) :

« وتافه لا كيدن أصنامكم » أو قوله : « ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » .
بعد ان كتبت تفسير الآية ٦٤ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢١٤ قرأت في الصحف ان الحفريات اكتشفت (اور) مدينة ابراهيم الخليل الأولى ، وقد تبين منها ان قومه كانوا يعبدون ثلاثة كواكب : اصغر وأوسط وأكبر .. وعلى هذا يكون الترتيب الذي جاء في القرآن على لسان ابراهيم هو الترتيب المنطقي الذي يطابق الحياة في ذلك العصر .. وهكذا يقدم العلم في كل يوم دليلاً مادياً على صدق محمد (ص) في كل ما جاء به .

قالوا فاتوا به الآية ٦١ - ٧٠ :

قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَهْلِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنَّ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفَ لَكُمْ وَلِي مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا خَرُّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ *

سورة الانبياء

اللفظ :

على أعين الناس أي يراه الناس بأعينهم . والنكس جعلُ أسفل الشيء أعلاه ، والمراد به هنا الرجوع الى المكابرة .

الإعراب :

على أعين الناس متعلق بمحذوف حالاً من ضمير به أي مرئياً على أعين الناس . وكبيرهم فاعل وهذا بدل منه . وما هؤلاء (ما) نافية وهؤلاء مبتدأ وجملة ينطقون خبر والجملة من المبتدأ والخبر في محل نصب بعلمت ، وهي معلقة عن العمل لمكان النفي ، لأنه يعلق عن العمل كالاستفهام . وأف اسم فعل ومعناه التضجر واللام في لكم لبيان من كان التضجر من أجله ، وقيل معنى أف لكم قبحاً لكم .

المعنى :

(قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون) . أرادوا ان يستجوبوه ويحكموه علناً ، ويشهد عليه من يشهد ، ثم يرى الناس ما يحل به من العقوبة (قالوا أنت فعلت هذا بالهتنا يا ابراهيم) . أتوا به واستجوبوه : هل أنت الذي اعتدى على أربابنا ؟ (قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون) . هذا القول من القضايا الفرضية أي ان كانوا من ذوي الاحساس فقد فعله كبيرهم ، مثل ان كان لله ولد فانا أول العابدين ، ومها يكن فإن القصد هو إلزامهم بالحجة ، وان هذه الأصنام لو كانت آلهة لأدركت وتكلمت ، وحطمت من أراد بها سوءاً .

(فرجعوا الى أنفسهم) بعد أن سمعوا مقالة ابراهيم (ع) تساءلوا : كيف نعبد أحجاراً ونرجو خيرها ونخاف شرها ، وهي لا تملك القدرة على دفع الضرر والسوء عن نفسها (فقالوا انكم أنتم الظالمون) تساءلوا ثم انتهوا الى الاعتراف بأنهم في جهل وضلال .. ولكن سرعان ما عادوا الى حالهم السابقة (ثم نكسوا

على رؤوسهم) : أعوذ بالله من النكسات والنكبات .. والنكسة هي الوقوف على الرأس ، وجعل أسفل الشيء أعلاه ، وأعلاه أسفله ، هي أن تبذل ما تملك من قدرة ليتحكم بك كل لئيم ، هي أن تعطي سلاحك لعدوك كي يقتلك ، أو تعطيه الحجة عليك من فعلك أو قولك ، تماماً كما فعل قوم ابراهيم حين قالوا له : (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) . وإذا كانوا لا ينطقون فكيف تعبدونهم ؟ قال الطبري : نكس الشيء صبر أعلاه أسفله ، ونكس الحجة ان يحتاج الانسان بما هو حجة لخصمه على المحتج ، كما فعل قوم ابراهيم .

(قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم) . أنتم تعلمون ان هذه الأصنام لا تدرك ولا تنطق ، ولا تضر ولا تنفع ، فكيف تعبدونها (أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) ؟ وماذا تصنع مع قوم يصرون على الضلال ، وهم يعلمون انه ضلال ؟ لا شيء إلا أن تقول لهم : قبحاً لكم يا أشباه الرجال ولا رجال . و (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين) . انصروا الآلهة .. أما الآلهة فهي عاجزة عن الانتصار لنفسها .. ومع ذلك هي آلهة .. « عتزة ولو طارت » .. هذا هو النكس والوقوف على الرأس .

(قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم) . قالوا وقال الله ، ولا راد لقوله :

وتسأل : ان النار محرقة بطبيعتها ، فكيف صارت برداً ؟

الجواب : ان المؤثر الأول في كل وجود هو الله جلّت عظمته ، فالفيض كله من عنده ، واليه تنتهي جميع الوسائط ، علة كانت أو شرطاً أو أي شيء ، فالاحراق من النار ، والنار من الوقود ، والوقود من الطبيعة ، وهي من كلمته تعالى ، فهو الذي خلق النار التي تؤثر الاحراق شريطة أن لا يقول لها : كوني برداً ، فإذا قال لها ذلك كانت كما قال ، وباعتبار آخر ان بردها وحرها يتبع ارادة من خلقها وأوجدتها (وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأنخسرين) . أوقدوا النار ليجرقوا بها ابراهيم ، فكانت من معجزاته الكبرى والأدلة القاطعة على صدقه ونبوته : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين - ٥٤ آل عمران » .

وفي بعض التفسير القديمة ان النمرود لما رأى ان النار لا تؤثر في ابراهيم أمر

سورة الأنبياء

بمصادرة أمواله ونفيه من البلاد ، فقال له ابراهيم : اذا أخذتم أموالى فردوا عليّ ما ذهب من عمري في بلادكم ، ثم تحاكما الى قاضي النمرود ، ففضى على ابراهيم بمصادرة أمواله ، وعلى النمرود أن يرد عليه عمر ابراهيم ، فاستلم النمرود وترك لابراهيم أمواله .

وما نقلنا هذه الحكاية ايماناً منا بصدقها ، بل لأنها ترمز الى أن لكل انسان الحق فيما أفتى فيه عمره ، وأذهب فيه دهره على شريطة أن يكون من الحلال الطيب .

ونجيناہ ولوطاً الآية ٧١ - ٧٧ :

وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً * وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ * وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ *

اللهم :

نافلة عطية . والمراد بالخباثت هنا اللواط . والكرب الغم .

الإعراب :

نافلة حال من يعقوب أو مفعول مطلق لوهبنا لأن النافلة معناها الهبة . وكلا مفعول أول لجعلنا . وأقام أصلها اقامة . ولوطاً مفعول لفعل محذوف أي آتينا لوطاً آتياه . وفاسقين صفة لقوم سوء . ونوحاً معطوف على لوط .

المعنى :

(ونجيناه ووطاً الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) . ضمير نجيناه لابراهيم (ع) ، ووط ابن أخيه ، وفي التفسير ان ابراهيم فارق قومه الى أرض الشام ، ومنها فلسطين ، ومها يكن فان القصد هو تشبيه محمد (ص) مع قومه بأبيه ابراهيم مع قومه ، كل من القومين عبدوا الأصنام ، ورفضوا دعوة نبيهم ، وحاولوا قتله ، وكل من التبيين أنجاه الله ، ومهد له سبيل الهجرة ، وأنعم عليه في هجرته .

(ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة) . اسحق ولد ابراهيم للصلب ، ويعقوب ولد الولد ، وهو منحة من الله وتفضل (وكلا جعلنا صالحين) ابراهيم واسحق ويعقوب كلهم صلحاء أتقياء (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) . الأئمة هم قادة الدين الذين اختارهم الله لهداية العباد ، وأبرز صفاتهم انهم يهدون الناس كما أمر الله لا كما تأمر نساؤهم وأولادهم وأصهارهم ، ويحثون على فعل الخيرات ، لا على الحزازات والنعرات الطائفية ، وعلى الاخلاص لله وحده ، لا على الاخلاص لهم وحدهم من دون الله .

(ووطاً آتياه حكماً وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الجباث انهم كانوا قوم سوء فاسقين وأدخلناه في رحمتنا انه من الصالحين) . أنظر تفسير الآية ٨٠ وما بعدها من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٥٣ والآية ٧٧ وما بعدها من سورة هود ج ٤ ص ٢٥٣ .

(ونوحاً اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه

سورة الأنبياء

من القوم الذين كذبوا بآياتنا أنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين . تقدمت قصة نوح في سورة هود من الآية ٢٥ الى الآية ٤٩ ج ٤ من ص ٢٢٢ الى ٢٣٧.

وداود وسليمان الآية ٧٨ - ٨٢ :

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمٌّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيَتُخَصِّنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ * وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ *

اللغة :

الحِثُّ الزرع . والنَفْسُ رعي الماشية في الليل بلا راعٍ . واللَبُوسُ الدرع .
والعاصفة الشديدة . والغوص النزول الى قاع البحر .

الإعراب :

وكُلًّا مفعول أول لآتيناه وحكمنا مفعول ثانٍ . ومع منصوبة بيسبحن . والطير عطف على الجبال . وسليمان متعلق بفعل مخوف أي وسخرناه لسليمان . وعاصفة

الجزء السابع عشر

حال من الريح . ومن الشياطين متعلق بفعل محذوف . ومن يفوصون (من) مفعول
لفعل محذوف أي وسخرنا من الشياطين، ويجوز أن تكون (من) مبتدأ ومن الشيطان
خبر والجملة مستأنفة . ودون ذلك متعلق بمحذوف صفة لعمل .

المعنى :

(وداود وسليمان اذ يحكما في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم
شاهدين) . اشتهر على ألسن الرواة ان رجلين تخاصما الى داود ، أحدهما صاحب
زرع ، والثاني صاحب غنم ، قال صاحب الزرع : ان غنم هذا رعت زرعي
في الليل ، وبعد ان ثبت ذلك عند داود قضى بالغنم لصاحب الزرع ، ولما علم
سليمان قال لأبيه : الأرفق بالرجلين ان يأخذ صاحب الأرض الغنم ليستفح بها ،
لا على سبيل الملك ، وان يأخذ صاحب الغنم الأرض ليصلحها حتى يعود الزرع
كما كان ، وعندها يترادان ، فيأخذ هذا غنمه ، وذاك زرعه . فاستحسن داود
حكم ولده ، ورجع اليه . وظاهر الآية يتفق مع هذه الرواية ، وقد ثبت عن
الرسول الأعظم (ص) انه قال : ما وافق القرآن فخلوه ، وما خالفه فدعوه .
وتسأل : ان كلا من داود وسليمان نبي ، والنبي معصوم عن الخطأ خاصة
في الأحكام الشرعية ، وحكم الواقعة الواحدة واحد ، فما هو الوجه للاختلاف في
الحكم بين داود ولده سليمان ؟ .

وأجاب البعض بأن قول داود كان صلحاً بين الطرفين ، لا حكماً .. ويلاحظ
بأن الصلح يكون على بعض الشيء المتنازع ، وليس على جميعه ، والمفروض ان
داود لم يبق لصاحب الغنم غنمة واحدة .. وقال آخرون : كل من داود وسليمان
حكم باجتهاده . ويبتني هذا القول على ان النبي يجتهد كغيره من العلماء اذا أعوزته
النصوص ، ولا يلتفت الى هذا الرأي لأن الاجتهاد انما يكون مع عدم النص ،
وقول النبي نص يدل على الحق ، ولأن الاجتهاد يحتمل فيه الخطأ ومخالفة الواقع ،
وهذا لا يصح بحق المعصوم .

وقال جماعة : ان الحكم كان على ما قال داود ، ثم نُسخ بما قال سليمان ..

سورة الأنبياء

وهذا أرجح الأقوال بدلالة قوله تعالى : (ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً) حيث شهد الله لكل منهما بأنه عالم بالحكم، وعلى هذا يكون قوله: فهمناها سليمان انه أوحى اليه بنسخ الحكومة دون أبيه .

واختلف الفقهاء هل يضمن صاحب الماشية جانيها ؟ قال مالك والشافعي : يضمن ما أفسدته ليلاً لا نهاراً . وقال أبو حنيفة : لا يضمن اطلاقاً لا ليلاً ولا نهاراً . وقال جماعة من فقهاء الشيعة الإمامية بمقالة مالك والشافعي ، أما المحققون منهم فذهبوا الى ان الممول على التفريط وعدمه ، ولا أثر لليل والنهار، فان فرط صاحب الماشية وأهمل رعايتها كما يقتضي ضمن ، وان احتسرس ولم يهمل فلا شيء عليه .

(وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين) . اشتهر عن داود انه كان ذا صوت رقيق حنون، وأثبت التجارب ان كثيراً من الحيوانات والطيور تطرب لنوع من الغناء والموسيقى ، وقسرات في الصحف ان أنقى خرجت من جحرها لتستمع الى ام كلثوم في احدى حفلاتها الغنائية ، ولما انتهى الغناء عادت الى مكانها ، أما تسبيح الجبال فهو مجاز ومبالغة كما تقول : لقد أضحكك أو أبكى الصخر الأصم ، أو انه حقيقة لأن الذي جعل النار برداً وسلاماً على ابراهيم هو الذي جعل الجبال تسبح مع داود . أنظر ما قلناه عند تفسير الآية ٦٩ من هذه السورة .

(وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) . المراد بصنعة اللبوس الدروع ، وتومى الآية الى ان أول من اخترعها داود ، ورؤي في سبب ذلك ان داود كان ملكاً على بني اسرائيل ، وكان من عادته أن يطوف متكرراً يتعرف أحوال الناس ، وفي ذات يوم التقى برجل فسأله عن سيرة داود؟ فقال للملك : نعمت السيرة لولا انه يأكل من بيت المساكين . فأقسم داود أن لا يأكل بعد يومه إلا من كد يمينه وعرق جبينه ، ولما علم الله منه الاخلاص وصدق النية ألان له الحديد وعلمه صنعة الدروع .

وسواء أصبحت الرواية أم لم تصح فإنها ترمز الى وجوب الحرص والمحافظة على مصالح الناس وأموالهم ، وتواتر ان محمداً (ص) قبض ودرعه مرهونة في أصوع

الجزء السابع عشر

من شعب ، وكانت أموال الجزيرة العربية في قبضته وطوع وأمره .
(ولسليان الريح عاصفة تجري بأمره الى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين) . هذه الآية ظاهرة الدلالة على أن الريح كانت تحمل سليان بأمر الله ، ولا داعي للتأويل ما دام العقل لا يأبى هذا الظاهر ، وأوضح من هذه الآية قوله تعالى : « ولسليان الريح غدوها شهر ورواحها شهر - ١٢ سبأ » فهي تقطع بالغداة مسيرة شهر على الجبال ، وبالعشي كذلك ، والمراد بالأرض المباركة نفس الأرض التي جاء ذكرها في الآية ٧١ من هذه السورة .

وتسأل : قال سبحانه هنا : « ولسليان الريح عاصفة » . مع انه قال في الآية ٣٦ من ص : « فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء » . والعاصفة هي الشديدة ، والرخاء هو اللين ، ثما هو وجه الجمع ؟ .

الجواب : انها تجري تارة شديدة ، وأخرى لينة حسبما يأمرها تماماً كسائق السيارة والطائرة .

(ومن الشياطين من يغوصون له) في البحار ، فيستخرجون منها اللؤلؤ والمرجان ، والمراد بالشياطين هنا الجن (ويعملون عملاً دون ذلك) كبناء المحاريب والتماثيل ، قال تعالى : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات - ١٣ سبأ » . (وكنا لهم حافظين) من التمرد والخروج عن طاعة سليمان .. وليس لنا ما نقوله إلا ان الوحي أثبت وجود الجن ، وانهم عملوا في خدمة سليمان ، وان العقل لا يأبى ذلك ، وعليه فلا موجب للتأويل وصرف الكلام عن ظاهره . وقال الإمام علي (ع) : ولو ان أحداً يجد الى البقاء سلماً ، أو الى الموت سيلاً لكان ذلك سليمان بن داود الذي سخر له ملك الجن والانس مع النبوة وعظيم الزلفة .

وايوب اذ نادى ربه الآية ٨٣ - ٩١ :

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا

لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ
عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ * وَاسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنْ
الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَذَا النُّونِ إِذْ
ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ
إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ
الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ * وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي
فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا
لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا
وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ * وَالَّذِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا
وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ *

اللغة :

الضر بالضم الضرر في النفس كالمرض ونحوه ، وبالفتح الضرر من كل شيء ،
والكفل الحظ . والنون الحوت . ولن نقدر عليه لن نصيق عليه .

الإعراب :

المصدر من أنى مسني مجرور بياء محذوفة . ورحمة وذكرى مفعول من أجله
لآتيناه . واسماعيل ومن بعده عطف على أيوب . وكل مبتدأ ومن الصالحين خبر .

ومغاضباً حال من الضمير في ذهب . وإن لا إله إلا أنت (ان) بمعنى أي مفسرة لنوع النداء . وفرداً حال . ورغباً ورهباً مفعول من أجله ليدعوننا .

المعنى :

(وأيوب اذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر) . قال المفسرون والرواة الكثير عن أيوب ، وفتنوا بالقول .. والذي دلت عليه الآيات تصريحاً وتلويحاً هنا وفي سورة ص ان أيوب كان في عافية وهناء ، ثم تراكم عليه البلاء ، وأحاط به من كل جانب ، حتى صار مضرب الأمثال ، فأصيب بنفسه وأهله ، فصبر صبر الأحرار ، وبقي على ثقته ويقينه بالله لا يشغله عن طاعته حزن ولا ألم ، ولما طال عليه الأمد ، واشتدت وطأة الآلام ، ولم يجد منها مخرجاً شكوا أمره الى الله بكلمتين : مسني البلاء ، وأنت رحيم وكريم .. قال : مسني ، ولم يقل : تغاقم وتراكم كيلا تشعر شكواه بالضرر وعدم الصبر ، فاستجاب سبحانه الى شكواه ، وكشف بلواه ، وأعادته الى أحسن مما كان .

(وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) . رزقه الله من الأولاد والأحفاد ضعف من فقدته منهم رحمة به وجزاء على صبره ، وتذكيراً بأن من صبر كما صبر ايوب تكون عاقبته تماماً كماقته ، وخص سبحانه العابدين بالذكر للإشارة الى ان الله مع الصابر المحتسب المخلص له في أقواله وأفعاله .

هذا مجمل ما دلت عليه الآيات المتعلقة بأيوب ، ولم تتعرض للتفاصيل التي ذكرها الرواة والقصاصون لأنها لا تتصل بالعقيدة ولا بالحياة من قريب أو بعيد ، ومن طريقة القرآن أن يذكر من القصة ما فيه عبرة نافعة ، وعظة رادعة .

(واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين وأدخلناهم في رحمتنا انهم من الصالحين) . صبر اسماعيل على الانقياد للذبح ، وصبر في بلد لا زرع فيه ولا ضرع ، وذكرنا ادريس عند تفسير الآية ٥٦ من سورة مريم ، أما ذو الكفل فقال الأكثرون : انه نبي ، وقال جماعة : انه عبد صالح وليس نبي ، ونحن نؤمن بأنه من الصابرين الصالحين نبياً لنص القرآن، ولنا بمسؤولين عن غير ذلك .

سورة الأنبياء

(وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين) . النون الحوت ، وذا النون يونس ، قال تعالى : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت - ٤٨ القلم » . ومغاضباً أي لقومه . ولن نقدر عليه لن نصيّق عليه كما في الآية ٧ من سورة الطلاق : « ومن قدر عليه رزقه » . والمراد بالظلمات هنا بطن الحوت ، ومجمل المعنى اذكر يا محمد خبر يونس حين دعا قومه الى الايمان بالله ، فلم يستجيبوا لدعوته ، فضجر منهم وخرج عنهم مغاضباً لهم ، فظن ان لن نصيّق عليه بالحس وغيره ، فلما التقمه الحوت استغاث بنا (فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين) . المراد بالغم هنا بطن الحوت ، وبالنجاة اخراجه من بطن الحوت الى البر ، وتقدم الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٩٨ من سورة يونس ج ٤ ص ١٩٣ .

(وزكريا إذ نادى ربه ربّ لا تدركني فرداً وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه) . تقدم نظيره في الآية ٣٨ وما بعدها من سورة آل عمران ج ٢ ص ٥٣ والآية ٧ وما بعدها من سورة مريم (انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) . ضمير انهم لزكريا وزوجه ويحيى ، أو لمن تقدم ذكره من الأنبياء ، وكلهم فعلوا الخيرات رغبة في ثواب الله ، ورهبة من عقابه ، وكلهم كانوا متقادين له في كل شيء . (والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها ابناً آية للعالمين) . تقدم في الآية ٤٥ وما بعدها من سورة آل عمران ج ٢ ص ٦٣ والآية ١٦ وما بعدها من سورة مريم .

أمة واحدة الآية ٩٢ - ١٠٠ :

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ* وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ* فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا

كُفْرَانٍ لِّسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَآتِبُونَ * وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ * إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هُوَ آلَهِ مَا وَرَدُّوَهَا وَكُلَّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَّهُمْ فِيهَا زَوْجِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ *

الله :

الأمة القوم الذين تجمعهم لغة واحدة وتاريخ واحد ، ثم كثر استعمالها في الدين والملة ، وهذا المعنى هو المراد هنا . ونقطعوا فرقوا دينهم وصاروا شيعاً . والكفران جحود الاحسان أي ضد الشكر . والحذب المرتفع من الأرض . وينسلون يسرعون . والمراد بالحصب هنا الوقود ، وبالنزفر شدة تنفسهم في النار .

الإعراب :

هذه اسم ان ، وامتكم خبر ، وأمة حال، وواحدة صفة لأمة . وحرام مبتدأ، والمصدر من أنهم لا يرجعون خبر . والحق صفة للوعد . فإذا للمفاجأة ، وهي ضمير القصة مبتدأ ، وابصار الذين كفروا مبتدأ ثان ، وشاخصة خبر المبتدأ الثاني ، والجملة خبر المبتدأ الأول . وما تعبدون معطوف على اسم ان .

المعنى :

(ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) . هذه اشارة الى عقيدة الأنبياء ، وهي التوحيد مع الانقياد اليه تعالى قولاً وعملاً ، والخطاب في امتكم لجميع الناس بلا استثناء ، والمعنى عليكم أيها الناس أن تدينوا جميعاً بدين التوحيد الذي كان عليه الأنبياء ، وأن تعبدوا الواحد الأحد ، وتخلصوا له في الأقوال والأفعال (وتقطعوا أمرهم بينهم) أمرهم سبحانه أن يكونوا جميعاً على عقيدة التوحيد ، فنفروا شيعاً وطوائف ، منهم الجاحدون ، ومنهم المشركون ، حتى أتباع الأنبياء يلحق بعضهم بعضاً ، ويتبرأ بعضهم من بعض ، بل وأتباع النبي الواحد كذلك (كل الينا راجعون) . هذا تهديد ووعد على تفرقهم وشتاتهم وانحرافهم عن الحق .

(فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون) . الايمان مع العمل الصالح طريق الى الجنة ، والايمان بلا عمل لا يجدي شيئاً لقوله تعالى : ولا ينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيراً - ١٥٨ الانعام . أما العمل بلا ايمان فينفع صاحبه في الدنيا بنحو من الانعام ، وقد ينفعه في الآخرة بتخفيف العذاب . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً بعنوان الكافر وعمل الخير عند تفسير الآية ١٧٨ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢٢١ ، وتقدم نظير هذه الآية في سورة النحل الآية ٩٧ ج ٤ ص ٥٥٠ .

(وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون) . هذه الآية سؤال عن جواب مقدر ، وهو : هل المشركون من أهل القرى الذين أهلكهم الله بكفرهم يحيبهم الله ثانية بعد الموت ، ويعذبهم في الآخرة كما عذبهم في الدنيا ؟ .

فأجابه سبحانه بأن كل الناس يرجعون غداً الى الله من غير استثناء حتى الذين أهلكهم في الدنيا بذنوبهم ، وحرام عليهم عدم الرجوع الى الله بعد الموت ، بل لا بد من نشرهم وحشرهم لا محالة .

سؤال ثان : هل يعاقبهم الله في الآخرة على كفرهم بعد ان عاقبهم عليه في الدنيا ؟ وهل يجوز الجمع بين عقوبتين على جريمة واحدة ؟

الجواب : كان اهلاكلهم في الدنيا عقاباً على تكذيبهم الرسل الذين جاءوهم بالمعجزات كما دل قوله تعالى : « وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم - ٣٧ الفرقان » . وقوله : « كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعان وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد - ١٤ ق » وغير ذلك من الآيات ، أما عذاب الآخرة فهو على الكفر من حيث هو ، وعلى سائر الذنوب كالكذب والظلم ونحوه ، فالعقاب متعدد ولكن بتعدد الذنوب ، لا على ذنب واحد .

(حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) . عند تفسير الآية ٩٤ من سورة الكهف نقلنا عن بعض المفسرين أن يأجوج هم النمر ، ومأجوج هم المغول ، وأيضاً قلنا عند تفسير الآية ٩٨ من السورة المذكورة : إن سد يأجوج ومأجوج قد ذهب مع الأيام لأنه لو كان اليوم لبان ، وعلى هذا يكون المراد بفتح يأجوج ومأجوج انتشارهم في القارات .. ومهما يكن فلأننا لم نقرأ عن يأجوج ومأجوج ما تركز اليه النفس لا في التفسير ولا في غيرها ، ولا مجال للفكر في مثل هذه الموضوعات ، لذلك نقف عند ظاهر النص القرآني ، ونترك التفاصيل لغيرنا .

(واقرب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا) . المراد بالوعد الحق قيام الساعة ، وعندها تذهل عقول الكفرة الطغاة ، وتحمض منهم الأعين ، وترتفع الجفون من شدة الهول .. وتقدم مثله في الآية ٤٢ من سورة إبراهيم ج ٤ ص ٤٥٥ (يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين) . الجملة مفعول لقول مخلوف أي يقولون : يا ويلنا الخ . وتقدم نظيره في الآية ١٤ و ٤٦ من هذه السورة ، والآية ٥ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٠٢ .

(انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) . الخطاب لمشركي مكة ، والمراد بما يعبدون أصنامهم ، وحصب جهنم وقودها ، مأخوذ من الرمي بالحصباء حيث يرمى بالمجرم في نار جهنم ، والمعنى انكم أيها المشركون أنتم وأصنامكم مقرونان غداً في جهنم .. وفي الحديث المرء مع من أحب .

وتسأل : وأية جدوى من ادخال الأصنام الى النار ، وهي أحجار ، لا ادراك فيها ولا شعور ؟

سورة الأنبياء

وأجاب المفسرون بأن الغرض من ذلك أن يزداد عبدتها حسرة وغماً كلما رأوها الى جانبهم . وهذا مجرد حدس واستحسان ، والأولى أن ندع الجواب للآية ٢٤ من سورة البقرة : « فأتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » . وفي بعض الروايات : « إن ابن الزبيري - وهو أحد مشركي قريش وشعرائهم - اعترض على هذه الآية بأن اليهود يعبدون عزيزاً ، والنصارى يعبدون المسيح ، وهما من أهل الجنة باعتراف محمد ، فكيف يقول كل معبود حصص جهنم ؟ فقال له رسول الله (ص) : ما أجهلك بلغة قومك ! أليست (ما) لما لا يعقل ؟ » . هذا ، الى ان الخطاب لمشركي قريش بالخصوص ، كما قلنا ، وهم يعبدون الأصنام .

(لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون) . هؤلاء اشارة الى الاصنام ، وضمير وردوها يعود الى النار ، ومعنى الآية واضح ، وهو لو كانت الأصنام آلهة ما دخلت النار ، ومثل هذا النقض ان تقول : لو كنت أميناً لما خنت ، ولكنك قد خنت ، فما أنت بأمين .. وفي المنطق يسمى هذا النوع من الاستدلال بالقياس الاستثنائي (لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون) . ضمير لهم يعود الى كل مجرم مسلماً كان أم كافراً ، وضمير فيها الى جهنم ، والمعنى لكل مجرم في جهنم أبين وعين ، ولا يسمع من أحد كلمة عطف وحنان ، بل من يراه يوبخه ويعنفه : « وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون - ٢٤ الزمر » .

الأرض يرثها عبادي الصالحون الآية ١٠١ - ١٠٧ :

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ* لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ* لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ* يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعِندَ عَلَيْنَا

إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ* وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ
يَرُثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ* إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ* وَمَا
أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ*

اللغة :

المراد بالحسنى هنا كلمة البشارة بالجنة . والحسنى الصوت الذي يُحَسِّن . والسجل
الصحيفة . والزبور الكتاب .

الإعراب :

أولئك مبتدأ ومبعدون خبر ، والجملة خبر ان . وهذا يومكم مبتدأ وخبر ،
والذي عطف بيان ليومكم ، والجملة مفعول لقول محذوف . ويوم منصوب بفعل
محذوف أي يوم نظوي . وكطي السجل الكاف في محل نصب صفة لمفعول مطلق
محذوف أي طياً مثل طي السجل . وكما بدأنا (ما) مصدر والمصدر المنسبك مجرور
بالكاف . وأول مفعول بدأنا . ووعداً منصوب على المصدرية أي وعدنا وعداً .
ورحمة مفعول من أجله لأرسلناك .

المعنى :

(ان الذين سبقتم لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) . وعده الله المتقين
ان يعاملهم بالحسنى ، ومن ذلك النجاة من النار (لا يسمعون حسيها) هذا
تأكيد لبعدهم عنها ونجاتهم منها (وهم فيما اشتبهت أنفسهم خالدون) . آمنون
من عذاب الله منعمون في جنانه (لا يحزنهم الفزع الأكبر) . وبالأولى الأصغر ،

سورة الأنبياء

فإن للفرع مراتب : من سكرات الموت الى وحشة القبر ثم الخروج منه الى الحساب واطباق جهنم على أهلها (وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) . تستقبل ملائكة التشریفات المتقين بالحفاوة والتكريم ، وتقول لهم : لقد جمعكم الله في هذا اليوم الذي وعدكم فيه بالملك الدائم والنعيم القائم . وتتلخص هذه الآيات الثلاث بكلمة : « هل جزاء الاحسان إلا الاحسان - ٦٠ الرحمن » . أو كلمة : « للذين أحسنوا الحسنى - ٢٦ يونس » .

(يوم تطوي السماء كطي السجل للكتب) . السجل الصحيفة ، والمراد بالكتب هنا ما يكتب في الصحيفة من كلمات ، والمعنى ان الله سبحانه يطوي الكواكب يوم القيامة ، على ضخامتها وكثرتها ، كما تطوي الصحيفة ما كتب فيها بحيث يصير كل كوكب أشبه بالكلمة أو الحرف في الصحيفة (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) . شبه سبحانه النشأة الثانية بالنشأة الأولى ، وانه كما تحققت هذه فستحقق تلك لا محالة وفاء لوعده تعالى ، وما ذاك على الله بعزیز ، فإن من خلق الكون قادر على أن يعيده بعد تلاشيهِ وتفرق أجزائه : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه - ٢٧ الروم » .

أيضاً المهدي المنتظر :

(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون) . الزبور هو كتاب داود ، والذكر ما تقدمه من الكتب السماوية كصحائف ابراهيم ونوراة موسى ، والمعنى ان الحكم والسلطان في الأرض ، وان كان الآن بأيدي الطغاة الفجرة فان الله سينقله من أيديهم الى الطيبين الأخيار لا محالة ، وعندها يعم الأمن والعدل الكرة الأرضية ، وينعم بخيراتها وبركاتها الناس كل الناس ، وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة وصحيحة ، منها ما رواه أبو داود في كتاب السنن وهو أحد الصحاح الستة - « قال رسول الله : لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوف الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً »^١ .

١ تكلمنا عن المهدي المنتظر في ج ١ ص ٢٠٦ وعند تفسير الآية ٥٨ من سورة الاسراء .

وقانون الحياة لا يأبى ذلك بل يقره ويؤكداه ، وإذا كانت القوة الآن بأيدي الوحوش الضارية المنسلطة على الأمم المتحدة ومجلس الأمن وغيره فإنه لا شيء يمنع أن تتحول القوة في يوم من الأيام من أيدي أهل البغي والفساد إلى أيدي أهل الحق والعدالة ، بل إن غريزة حب البقاء والتحرر من الظلم ، والمبدأ القائل : كل ما على الأرض يتحرك تماماً كالأرض ، وإن دوام الحال من المحال ، كل ذلك وما إليه يحتم أن القوة في النهاية تكون للأصلح الأكفأ .
(إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين) . هذا إشارة إلى أن الأرض يرثها العباد الصالحون ، ولو بعد حين ، والمراد بالعابدين هنا الذين يتعظون بالعبر ، ويتفكرون بالنظر .

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . الخطاب لمحمد (ص) ، ورسالته رحمة للاولين والآخرين ، وفيما تقدم ذكرنا الكثير من مبادئها وتعاليمها ، وحسبنا منها قول صاحبها : « ما آمن بالله من لا تأمن الناس بوائقه .. إذا ساءتلك سيئة ، وسرتك حسنة فأنت مؤمن » . وعلى هذا الاحساس والشعور يقوم العدل ، وينشر الأمن ، وتنهأ الحياة .. وتكلمنا عن عموم رسالة محمد (ص) إلى جميع الناس في كل زمان ومكان تكلمنا عن ذلك عند تفسير الآية ٩٢ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٢٥ .

انما إلهكم إله واحد الآية ١٠٨ - ١١٢ :

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَبَلَّغْ أَتْمَمَ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ ۖ أَمْ بَعِيدُ ۚ مَا تُوعَدُونَ * إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَذْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۚ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ *

سورة الأنبياء

اللغة :

مسلمون مستسلمون منقادون لله وحده . آذنتكم أعلمتكم . على سواء أي ان الايدان والاعلام يعم الجميع بلا استثناء . والفتنة الاختبار . والمتاع ما يتمتع به قليلاً .

الإعراب :

انما بالكسر للحصر ، وانما بالفتح كلمتان (أن) المشددة وما الكافة عن العمل ، والهمك مبتدأ وإله واحد خبر، ومعنى الجملة نائب فاعل ليوحى أي يوحى اليّ الوحداية . وعلى سواء متعلق بمحذوف حالاً من المفعول في آذنتكم أي مستوين في الايدان والاعلام . وان أدري (ان) نافية أي ما أدري ، وقريب مبتدأ ، وما توعدون فاعل قريب ساد مسد الخبر .

المعنى :

(قل انما يوحى اليّ انما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون) . أمر الله نبيه الكريم أن يقول للمشرّكين : ان الله أوحى إليّ انه وحده لا شريك له في خلقه ولا في علمه ، وهذا الكون بعجائبه وقوانينه يشهد بوضوح على وحدانيته تعالى وقدرته وعظمته .. فلماذا لا تؤمنون به وتنفادون لأمره ؟ وكيف تزوغون عن عبادته الى عبادة أحجار لا تنفع ولا تضر ؟

(فان تولوا فقل آذنتكم على سواء) . بعد ان لزمتمهم الحجة بالتبليغ والالذار أمر الله نبيه الكريم ان يقول لهم : لقد أدبت ما علي ، وبلغتكم جميعاً رسالات ربي، ولم يبق لأحد منكم عذر يتعلل به (وان أدري أقرب أم بعيد ما توعدون). أنا على يقين من عذابكم ، لأن الله قد وعدكم به وحذركم منه ، ووعدته تعالى أصدق الوعد ، وعذابه أشد العذاب ، ولكن لا أدري متى يكون ذلك ، وسواء أكان قريباً أم بعيداً فإنه له أجلاً لا يمدوه ، فانتظروا اني معكم من المنتظرين .

(انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتُمون) . تقدم مثله في الآية ٧ من سورة طه (وان أدري لعلّه فتنة لكم ومتاع الى حين) . لست أدري ما هي الحكمة من امهالكُم وتأخير عذابكم ؟ هل أراد سبحانه بذلك ان يظهر كل على حقيقته ، فيتوب الطيب ، ويتمرد الخبيث ، او انه أراد ان تستمتعوا اباماً بقيت من أعماركم ؟. الله العالم (قال - محمد - رب احكم بالحق) أي أظهره وانصر أهله على من كفر به ، وسخر منه ومن دعا اليه (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) اصنامكم بالألوهية ، ودعوتي بالافتراء .

أنت الغزاء يا رسول الله لكل بريء مفترى عليه .. ويا سعادة من تأسى بك واقتصر أثرك ، وقال للمفترين كما قلت : « وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون » .

سُورَةُ الْحَجِّ

بعضها مكّي ، وبعضها مدني . وآياتها ٧٨ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البعث الآية ١ - ٧ :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوُنَّهَا
تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى
النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ * وَمِنَ
النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ
عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنَ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِمِّنْ
نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِمِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِمِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ
فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا
أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا
يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْنًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ

اهْتَرْتُ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ
الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمُؤَنَّى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ
لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ *

اللغة :

الزلزلة والزوال الحركة الشديدة . والمريد بفتح الميم وكسر الراء المتمحض
للفساد ولا خير فيه ، يقال : رملة مرداء اذا لم تنبت شيئاً . والتظفة في الأصل
الماء الصافي ، ثم استعملت للماء الذي يتولد منه الحيوان . والمضغة القطعة من
اللحم بقدر ما يمضغ . وغمامة تامة الحلقة . وهامدة لا حياة فيها . وربت ازدادت .

الإعراب :

اتقوا ربكم على حذف مضاف أي عذاب ربكم . ويوم متعلق بنذهل . وترى
هنا بصرية ، لا قلبية ، وتتعدى الى مفعول واحد وهو الناس ، وسكاري حال
منهم . الضائر الثلاثة في عليه وانه من تولاه تعود الى الشيطان ، وضمير فانه
يضله للشأن ، والمصدر من انه من تولاه نائب فاعل لكُتِبَ . ومن تولاه (من)
مبتدأ ، والمصدر من فانه يضلّه خبر لمبتدأ محذوف أي فالشأن اضلال الشيطان له ،
والجملة من هذا المبتدأ وخبره خبر من تولاه ، وجملة من تولاه وخبره خبر انه
الأولى . ونقر كلام مستأنف ، وجملة نقر خبر لمبتدأ محذوف أي ونحن نقر ،
ومفعول نقر محذوف أي نقر الولد . وما نشاء (ما) مصدرية ظرفية أي مدة
مشيتنا والظرف متعلق بنقر . وطفلاً حال ، ولفظه مفرد ومعناه الجمع . وشيئاً
مفعول مطلق . وهامدة حال لأن ترى هنا بصرية تتعدى الى مفعول واحد .

المعنى :

في هذه الآيات تحذير وتخويف من يوم القيامة مع الاشارة الى شدائده وأهواله ،
وذم الجاهل المتعنت ، ثم الاستدلال على البعث ، وفيما يلي التفصيل :

١ - (يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم) . المراد بالساعة
يوم القيامة ، وسمي بها لأن جميع الخلائق تسعى اليه - كما في كتاب الاسفار
للملا صدرا - ومعنى زلزلة الساعة خراب الكون بأرضه وسماؤه ، فتختلط هذه
بتلك ، والبر بالبحر ، وترول الأبعاد ، وترتفع الحواجز ، وتقوم الخلائق من
الاجداث كأنها أشباح بلا أرواح .

(يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى
الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) . هذا كناية عن هول
الساعة وشدتها، حيث لا مرضع ولا حامل يومذاك أي لو كان ثمة مرضع لذهلت
أو حامل لوضعت .. والكل يمورون ويضطربون من الفزع والملع، تماماً كما يضطرب
السكران .

جدال الجاهل والضلال :

٢ - (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم) . الانسان ، أي انسان، لا
يخلو أن يكون واحداً من اثنين : إما جاهلاً ، وإما عالماً ، والعالم لا يخلو اما
أن يكون منصفاً ، واما منحرفاً ، والعالم المنصف هو الذي يقول ما يعلم . ويسكت
عما لا يعلم ، وقد حدد الله سبحانه وظيفة الجاهل بقوله : « فاسألوا أهل الذكر
ان كنتم لا تعلمون - ٧ الأنبياء » . فان تجاوز وظيفته هذه صدق عليه قول
الإمام علي (ع) : جاهل خبط جهالات .. لا يحسب العلم في شيء مما أنكره، ولا
يرى ان وراء ما بلغ مذهباً لغيره .

وهذا الجاهل هو المقصود بقوله تعالى : (ومن الناس من يجادل في الله بغير
علم) . وبقوله في الآية ٨ من هذه السورة : « ومن الناس من يجادل في الله

بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . انه يجهل الطريق الى العلم بالله ، ومع ذلك يجادل فيه ، ويقول فيما يقول : لو كان الله موجوداً لرأيناه .. انه يريد بمنطقه هذا أن يفسر غير المادة بالمادة ، وان يرى بالعين والبصر من لا يدرك الا بالعقل والبصيرة ، وان يلمس باليد خالق السموات والأرض .. ولا فرق بين هذا ، وبين من حاول أن يمتحن في المعمل والمختبر نظرية « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » أو أراد أن يختبر موهبته الشعرية في قيادة السيارة .

تذكرت ، وأنا أكتب هذه الكلمات ساعة من ساعات الدراسة في النجف، وقد مضى عليها حوالى اربعين عاماً ، كنا في هذه الساعة نتحلق حول الاستاذ، نستمع الى محاضراته ، وفي أثنائها اعترض عليه أحد التلاميذ ، واستشهد بحادثة لا تمت الى موضوع الدرس بسبب قريب أو بعيد .. فأعرض الاستاذ عنه ، ونظر الى بقية التلاميذ ، وقال : كان فيها مضى رجل معتوه يقال له « بعو » . وفي ذات يوم مر بأحد الشوارع ، فرأى جمهوراً من الناس مجتمعين ، وهم يمججون في حيرة ، ولما سألم قال له البعض : ان فلاناً سقط عن السطح، وتحطمت أعضاؤه وقد أوشك على الهلاك ، ولا بدري أهله ماذا يصنعون ؟ فقال «بعو» : عندي دواؤه ، وعليّ شفاؤه ، اربطوه بالحبل وشدوه الى السطح ، وأجلسوه عليه كما كان فانه يشفى لا محالة .. ولما ضحكوا منه احتسج عليهم ، وقال : لماذا تضحكون ؟ في العام الماضي سقط فلان بالبئر ، فربطوه بالحبل وأخرجوه منه سليماً ..

وهذا هو بالذات منطق من أنكر وجود الله لأنه ما رآه .. أما الكون العجيب بنظامه وجلاله فقد رآه، ولكنه لا يدل بزعمه على وجود المكون والمنظم .. ونحن نؤمن بالمشاهدة والتجربة ، ولكن نؤمن أيضاً بأن هذه التجربة لا تجري على كل نوع من الوجود، بل تقتصر على النوع المادي منه ، أما النوع الروحي والانساني فإن لمعرفة سبيل آخر.. نقول هذا، ونحن على يقين بأن كلاً من الوجود الانساني والمادي متفاعلا متكاملان، وانه لا غنى للانسانية عن المادة، وان القيم كالحق والخير لا بد ان يكون لها أثر ملموس محسوس ، وإلا كانت ألفاظاً بلا معنى .. ولكن هذا لا يستدعي أن يكون سبيل المعرفة واحداً في كل شيء ، بل يختلف باختلاف الأشياء

سورة الحج

التي براد معرفتها ، فالمشاهدة والتجربة سبب لمعرفة المادة ، والعقل سبب لمعرفة غيرها . وتكلمنا عن المعرفة وأسبابها في ج ١ ص ٤٣ .

والخلاصة ان من قال : لا اؤمن بالله حتى أراه فقد اعترف بأنه لا يريد ان يؤمن بالله ، ولو شهد بوجوده ألف دليل ودليل ، ومعنى هذا انه يقر على نفسه بالجهل والمكابرة ، لأن المفروض ان الله لا يرى بالعين ، وان الطريق الى معرفة الحقائق لا تنحصر بهذه الرؤية . ان الله يريد من الانسان ان يبحث ويدقق ويجادل ويناقش ولكن عن علم ووعي ، لا عن جهل وعمى .

(ويتبع كل شيطان مريد) . كل من استطاع ان يموه عليك ، ويخفي حقيقته عنك فهو شيطان ، والشيطان المريد هو الذي تمحضت جميع أقواله وأفعاله للشر والفساد ، وما نفذ هذا الشيطان المريد الى عقل انسان وقلبه إلا قاده الى الضلال والهلاك ، وهذا هو معنى قوله تعالى : (كتب عليه انه من تولاه فإنه يضله ويهديه الى عذاب السعير) . فالضلال وعذاب الحريق لا مفر منه لمن يتبع أهل الضلال والفساد، وفي طليعة المفسدين المضللين اولئك الذين يحرفون كلام الله عن مواضعه ، ويحللون ويحرمون بأهوائهم واغراضهم .

٣ - (يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فلما خلقناكم من تراب) بعد أن أشار سبحانه الى من يجادل في الله بغير علم ذكر الدليل على امكان البعث الذي يظنه الجاهل محالاً ، وأورد سبحانه هذا الدليل بمثال محسوس ، وهو ان الله خلق الانسان من تراب مباشرة وبلا واسطة كخلق آدم أبي البشر ، أو بوسائط كخلقنا نحن بني آدم ، فكل واحد منا يتكون من مني ودم ، وهما من الأغذية ، وهي بشتى أنواعها تنتهي الى الماء والتراب ، فالتراب - اذن - عنصر أساسي في تكوين الانسان (ثم من نطفة) وهي التي نقوله تعالى : « ألم يك نطفة من مني يمى - ٣٧ القيامة » . (ثم من علقه) تتحول النطفة الى قطعة من دم جامد (ثم من مضغة) تتحول العلقة الى شبه قطعة ممضوغة من اللحم (مخلقة) أي بعضها تام الخلقة (وغير مخلقة) وبعضها الآخر غير تام الخلقة .

(لنبين لكم) قدرتنا على البعث وغيره (ونقر في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى) وهو الوقت الذي تلد فيه المرأة (ثم نخرجكم طفلاً) واضح، (ثم لتبلغوا

أشدكم) والأشد ان يستكمل الانسان قواه الجسمية والعقلية (ومنكم من يتوفى) قبل بلوغ الأشد ، أو بعده وقبل الهرم وأسوأ العمر : (ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) . هرم وخرف ، وضعف في الجسم والعقل والذاكرة ، فمن أين يأتي العلم ؟ وفي ضعف العقل تحكمت العاطفة . واشتد الانفعال لأنفاه الأشياء .

وهذا التحول والتطور في تكوين الانسان من الأدنى الى الأعلى ، من التراب الى النطفة ، ومنها الى العاقبة ، ثم المصطف ثم الطفولة الى بلوغ الأشد ، ان هذا التطور يدل صراحة على ان في الانسان طاقة منذ ولادته ، واستعداداً أصيلاً يسير به نحو الأكمل والأفضل إذا لم يقف في طريقه من يصده عن السير الى هذا الهدف الأكمل .

(وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) . اذا نزل الماء على الأرض الميتة تحركت ونبتت بالحياة وأخرجت أشكالا وألواناً من النبات يسر الناظرين ، وبطيّب الآكسين .. وليس من شك ان في الأرض استعداداً لاستقبال الحياة، ومع هذا لا تحمل فيها إلا بإذن الله تعالى، لأن كل شيء ينتهي إلى أمره وقوله : « كن فيكون » . وقال بعض الصوفية : المراد بالأرض الميتة النفس الجاهلة ، وبالماء العلم ، وبالزوج البهيج صفات الكمّل والجلال .

(ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور) . ذلك اشارة الى الأمر والشأن . ومعنى الله هو الحق ان الحكم والسلطان له وحده لا شريك له ، وأنه لا وجود إلا منه .. وينفرع على ذلك انه هو المبدئ والمعيد : وان النشأة الثانية حتم لا مفر منها ، تماماً كالنشأة الأولى ، بل ان هذه وسيلة وطريق الى الثانية التي هي غاية الغايات ، لأنها تعود بالانسان الى خالقه ، وتوقفه بين يديه للحساب والجزاء ، ولأنها دائمة باقية ، والنشأة الأولى زائلة فانيسة ، والقاني وسيلة الى الباقي .. وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون - ٥٦ الذاريات » أي الا ليعملوا الآخرة .

سورة الحج

وتقدم الكلام عن البعث في العديد من الآيات . انظر ج ١ ص ٧٧ فقرة
« البعث » ، وج ٢ ص ٣٩٦ فقرة : « طرق متنوعة لاثبات المعاد » ، وج ٤
ص ٣٧٩ فقرة : « الماديون والحياة بعد الموت » .

أسباب المعرفة في آية واحدة الآية ٨ - ١٤ :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ*
ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
عَذَابَ الْحَرِيقِ* ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ
لِّلْعَبِيدِ* وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ
بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أَلْقَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ
الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ* يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُ وَمَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ
هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ* يَدْعُو لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى
وَلَيْسَ الْعَشِيرُ* إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ*

اللفظ :

المراد بالعلم هنا المشاهدة والتجربة الحسية ، وبالهدى العقل ، وبالكتاب المنير
الوحي . وثنى لوى والمطف الجنب ، وثاني عطفه كناية عن التكبر والاختيال .

والحرف في اللغة الطرف والجانب ، وهو هنا كناية عن الشرط أي يعبد الله على شرط ، ويأتي التحقيق . والمراد بالفتنة المحنة . وانقلاب على وجهه ارتد عن دينه . والعشير الصاحب .

الإعراب :

ثاني عطفه حال من ضمير يجادل . والمصدر المجرور باللام في ليضل متعلق بيجادل . له في الدنيا خبر مقدم ، وخزي مبتدأ مؤخر . ويدعو لمن ضره أقرب من نفعه . اختلفوا في اللام الداخلة على من : أي لام هي ؟ وذكرها لها وجوهاً ، أرجحها ان مفعول يدعو محذوف أي يدعو الأصنام، ومن مبتدأ واللام لام الابتداء، وضره مبتدأ ثان وأقرب خبر المبتدأ الثاني ، والجملة من الثاني وخبره صاة لمن . وليس المولى اللام واقعة في جواب القسم المحذوف ، والجماعة من القسم وجوابه خبر المبتدأ الأول ، وهو لمن .

المعنى :

(ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) . أنت ترى هذا حقاً ، وذلك باطلاً .. ولكن ما يدريك ان رأيك صحيح وسليم ؟ وما هو الضمان لصحة ما تراه، فربما كان الذي رأيته حقاً هو باطل ، والذي رأيته باطلاً هو حق في واقعه ؟

ولا سبيل الى تمييز المعرفة الصحيحة من غيرها إلا بالرجوع الى مصدرها والسبب الذي تولدت منه ، فان كان السبب صحيحاً كانت المعرفة كذلك ، والا فهي باطلة لأن الفرع يتبع الأصل .

ويعود السؤال : ما هو السبب الصحيح للمعرفة ؟ وبأي شيء نميزه عن غيره؟ قال جماعة من الفلاسفة : ان سبب المعرفة الصحيحة ينحصر بالتجربة الحسية . وقال آخرون : بل هو العقل ، والحواس أدوات له . أما القرآن الكريم فقد

سورة الحج

ذكر في الآية التي نفسرها ثلاثة أسباب للمعرفة : الأول التجربة الحسية ، وهي المعنية بكلمة علم . الثاني العقل ، وهو المراد بكلمة هدى . الثالث الوحي ، وهو المقصود بكتاب منير . والتجربة الحسية تكون سبباً للمعرفة في الماديات فقط لأنها هي التي تقع تحت الحس ، وتتناولها التجربة ، ولا غنى لهذه التجربة عن العقل لأن الحواس لا تدرك إلا بمعونته ، وينحصر طريق المعرفة بالعقل وحده في اثبات الألوهية ، أما النبوة فتثبت به وبالمعجزة معاً ، وإن شئت الدقة في التعبير فقل : تثبت النبوة بالمعجزة التي يقرها العقل ، ويعترف بأنها من السماء لا من الأرض ، أما الوحي فهو سبب المعرفة في كل ما جاء به من غير استثناء ، وينحصر طريق المعرفة بالوحي في الأشياء الغيبية كالجن والملائكة ، وتوقيت الساعة ، وكيفية الحساب والجزاء في النشأة الثانية وما إليها .

(ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) . هو جاهل يجادل في الله بغير علم ، وهو متكبر يتأيل من الزهو والغرور ، وهو ضال مضل .. وهل من جزاء لأهل الجهول والكبرياء والضلال إلا الهوان والاحتقار من الناس ، وإلا العذاب الأليم من الله؟! (ذلك بما قدمت يدك وأن الله ليس بظلام للعبيد) لأنه اعذر اليهم بما وهبهم من العقل ، وما أرسل من الرسل ، وأنزل من الكتب .

(ومن الناس من يعبد الله على حرف) . في الآية السابقة ذكر سبحانه من يكفر بالله ، ويجادل فيه بغير علم، وفي هذه الآية ذكر الذي يعبد الله على حرف، واختلف المفسرون في المراد منه على أقوال ، منها انه يعبد الله ، وهو على شك في دينه ، ومنها انه يعبد بلسانه دون قلبه ، الى غير ذلك .. ولا وجه لهذا الاختلاف لأن الله قد بين هذا الذي يعبد على حرف ، وفسره بقوله : (فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) . والمراد بالخير هنا السراء. وبالفتنة الضراء ، واطمأن به أي ارتاح الى ما هو فيه واستمر في العبادة. وانقلب على وجهه أي ارتد عن دينه .. ومحصل المعنى ان الذي يعبد الله على حرف هو الذي لا يعبد إلا على شرط ان يعوضه عن عبادته ، ويقبض ثمنها في هذه الحياة ، والا كفر به وبكتبه ورسله .

الجزء السابع عشر

ومن يكفر بالله فجزاؤه جهنم وساءت مصيراً (خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) . خسر الدارين حيث أصابه في الأولى البلاء والضراء ، وقدم في الآخرة على ربه كافراً به ، وأي خسران أعظم من الفقر في الدنيا ، والعذاب في الآخرة.. وأوضح تفسير لهذه الآية ما روي: ان بعض الأعراب كانوا يقدّمون على النبي (ص) مهاجرين من باديتهم ، وكان أحدهم ان كثر ماله صلى وصام، وان أصيب به ، أو تأخرت الصدقة عنه ارتد عن الاسلام .. وقد شاهدت ما يشبه هذا من بعض القرويين أيام عشت بين ظهرانيهم .

وبعد ، فان المؤمن حقاً هو الذي يخلص لله ، ويثق به في جميع حالاته ، يصبر عند الشدة ، ويشكر عند الرخاء ، وفي نهج البلاغة : لا يصدق إيمان عبد، حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده .

(يدعو من دون الله ما لا يضره ولا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد) . تقدم هذا المعنى في العديد من الآيات ، بالاضافة الى وضوحه (يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير) . المولى الناصر والعشير الصاحب .

وتسأل : نفى سبحانه في الآية الأولى الضر والنفع عن معبود المشركين ، ثم أثبتهما له في الآية الثانية، غاية الأمر أنه تعالى جعل الضر أكثر وأقرب من النفع، فما هو وجه الجمع بين الآيتين ؟

الجواب : المراد بالمعبود في الآية الأولى الاحجار ، وهي لا تنفع ولا تضر، والمراد به في الآية الثانية طاعة الزعماء الطغاة ، ومناصرتهم بقصد الربح والمنفعة ، وأعظم منفعة في الحياة الدنيا لا تعد شيئاً بالنسبة الى غضب الله وعذابه.. ويتعير ثان انهم أطاعوا المخلوق في معصية الخالق لمآرب دنيوية وما دروا ان عذاب الله أشد وأعظم .

(ان الله يدخل الذين آمنوا و عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار) واضح وتقدم في الآية ٢٥ من سورة البقرة (ان الله يفعل ما يريد) من ثواب الأخيار وعقاب الأشرار ، فلقد سبق في حكمه وقضائه ان يكافئ الذين أحسنوا بالحسن ، والذين أساءوا بما كانوا يعملون .

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ* وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ* أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ*

اللغة :

قال كثيرون : المراد بالسبب هنا الحبل ، وبالسماء سقف البيت ، ويقطع محتقن، وكيدته اختناقه . والصابئون يقرنون بالله وبالمعاد ، ولكنهم يعبدون بتأثير بعض النجوم في الخير والشر . والمجوس يعبدون النار ، ويقولون : الخير من النور ، والشر من الظلمة .

الإعراب :

من كان (من) اسم شرط ، وفليمدد جوابه ، واللام في يمدد ويقطع وينظر للأمر تجزم فعلاً واحداً . وما يغيب (ما) مصدرية ، والمصدر المنسبك مفعول

يذهب أي هل يذهب كيد غيظه . والمصدر من ان الله يهدي من يريد مفعول
لفعل محذوف أي وأنزلنا ان الله يهدي من يريد . وجملة إن الله يفصل خبر إن
الذين آمنوا .. فإله من مكرم (ما) نافية ، وله خبر مقدم ، ومن زائدة ،
ومكرم مبتدأ مؤخر .

المعنى :

(من كان يظن ان لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء
ثم ليقطع فليظن هل يذهب كيد ما يغيظ) . قال كثير من المفسرين ان ضمير
ينصره يعود الى محمد (ص) وان المعنى من ظن من المشركين ان الله لا ينصروني
محمداً فليختنق بحبل لأن الله ناصره لا محالة . ولكن ظاهر السياق يرجح ان الضمير
يعود على من كان يظن لأن محمداً (ص) لم يرد ذكره في الآية ، وعليه يكون
المعنى ان من نزلت به نازلة ، وتسخط من قضاء الله وقدره ، ويشس من روحه
وعونه في الدنيا ، ومن ثوابه في الآخرة اذا صبر ، من كان كذلك فلا يملك أية
وسيلة إلا أن يشق نفسه بسقف بيته ، ويتحر خنقاً ، ثم لينظر هل يذهب غيظه
بذلك ، ويحقق مرامه ؟ .

والعاقل اذا نزلت به نازلة سعى جهده للخلاص منها مستعيناً بالله عليها وعلى كل
ما أهمه ، فان وجد المخرج فذاك ، وإلا فوَّض الأمر الى الله، وترقب القرص .

(وكذلك أنزلناه آيات بينات وان الله يهدي من يريد) . ضمير أنزلناه
يعود الى القرآن، وبينات واضحات .. والله سبحانه يهدي من طلب الهداية بكتابه،
ويرشد الى سعادة الدارين من يسترشد به وبنييه . ومن طلب الفساد والفضلال فانه
يجد السبيل اليها عند المفسدين والمضللين .

(ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا
ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شيء شهيد) . ان الله يعلم عقيدة
كل طائفة من هذه الطوائف الست ، سيفصل بينهم غداً ، ويجازي كل واحدة

سورة الحج

بما تدين فيدخل الكافرين النار ، والمؤمنين المخلصين الجنة . وتتمتع نظير هذه الآية مع التفسير في الآية ٦٢ من سورة البقرة ج ١ ص ١١٧ .

(ألم تر ان الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجماد والنبات انها جميعاً طوع أمره يتصرف فيها كما يشاء .. وعند تفسير الدواب) قال جماعة من المفسرين : المراد بسجود الآيات ٤٤ من سورة الاسراء قلنا ان تسبيح كل شيء بحسبه . وكذلك السجود ، وان تسبيح الجمادات والنباتات والحيوانات هو دلالتها على وجود خالقها وعظمته . وقال الملا صدرا في كتاب الاسفار : ان الموجودات كلها عاقلة ، تعقل ربها ، وتعرف مبدعها ، وتسمع كلامه ، وتمثل أمره . وليس هذا يبعد لأن العقل لا ينفيه ، وظاهر النقل يثبت ، قال تعالى : « وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » - ٤٤ الاسراء . وقد يكشف العلم هذه الحقيقة في المستقبل القريب أو البعيد .

(وكثير من الناس) يؤمنون بالله وله يسجدون (وكثير) منهم (حق عليه العذاب) هم الكافرون بالله الساخرون ممن آمن به وتعبد له . وكان على صاحب الأسفار أن يستثني الجاحدين من الموجودات والكائنات (ومن بين الله) فإله من مكرم) أبداً .. لا رافع لمن وضع الله وأذل ، ولا واضح لمن أعز وأكرم .. ولا كرامة عند الله إلا للمتقين (ان الله يفعل ما يشاء) من إكرام الصالحين المصلحين ، وإهانة الضالين والمفسدين .

وبعد ، فإن الله سنناً في خلقه لا يمكن تجاوزها، وهي أن من سلك طريق التهلكة هلك ، ومن سلك طريق السلامة سلم ، وطريق السلامة والكرامة عند الله هو الايمان الصادق ، والعمل الصالح ، وطريق الخزي والهوان النفاق والافساد في الأرض .

هذان خصمان اختصموا في ربهم الآية ١٩ - ٢٥ :

هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ

نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ *
وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا
فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ
ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ
وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ
وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ *

اللغة :

قطعت فصات . والحميم الماء المغلي . ويصهر يُذاب . والمقامع جمع مقمعة ،
وهي مدقة الرأس من قمع قمعاً إذا دقه - كما في مجمع البيان - والحريق المحرق
كالأكيم الذي معناه المولم . والأساور جمع اسوار . وهدوا أرشدوا . والعاكف
المقيم . والبادي الطارىء . والإلحاد الانحراف والعدول عن القصد . وبظلم بغير حق .

الاعراب :

الخضم مصدر يستوي فيه الواحد والاثنتان والجمع والذكر والأنثى ، يقال :
هو أو هي أو هما أو هم أو هن خصمي ، وجاءت التثنية في « هذان » بالنظر
الى اللفظ ، وجاءت واو الجماعة في اختصاصوا بالنظر الى المعنى مثل وان طائفتان من
المؤمنين اقتتلوا . وكلما منصوبة على الظرفية لأنها مضافة الى ما المصدرية الظرفية ،

سورة الحج

والعامل فيها أعيديا . ومن غم بدل اشتغال من ضمير منها باعادة حرف الجر .
ومن ذهب متعلق بمحذوف صفة لأساور . ولؤلؤاً عطف على محل أساور لأن كل
مجرور لفظاً هو منصوب محلاً ، وقيل : مفعول لفعل محذوف أي ويعطون
لؤلؤاً . وان الذين كفروا ، خبر ان محذوف أي ان الذين كفروا نذيقهم العذاب .
وسواء مفعول ثان لجعلناه ، وهو اسم فاعل بمعنى « مستويًا » ، والعاكف فاعل
له . وإلحاد الباء زائدة اعراباً ، وإلحاد مفعول يرد . وبظلم متعلق ببرد أي يرد
الحاداً بسبب الظلم ، وقيل : ان بإلحاد بظلم هما حالان مترادفان أي مائلاً
ظالماً .

المعنى :

(هذان خصمان اختصموا في ربهم) . جاء في تفسير الطبري ان أبا ذرٍ كان
يقسم بالله ان هذه الآية نزلت في ستة من قريش : ثلاثة منهم مؤمنون ، وهم
حمزة بن عبد المطلب ، وعلي بن أبي طالب ، وعبيدة بن الحرث ، وثلاثة من
المشركين ، وهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وان الخصومة بينهم
كانت في القتال والمبارزة يوم بدر ، وان الله نصر المؤمنين على المشركين .
وقال جماعة من المفسرين : ان المراد بالخصمين فريق المؤمنين ، وفريق الكافرين ،
وهو اليهود والنصارى والصابئة والمجوس والمشركون لأنهم جميعاً ذكروا في الآية
السابقة ، وكل فريق من المؤمنين والكافرين يقول : أنا المحق دون غيري ،
ومها يكن فان الخصومة في الدين وقعت بين من آمن بالله ، ومن كفر به .

(فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم
يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا ان يخرجوا
منها من غم أعيديا فيها وذوقوا عذاب الحريق) . بعد ان اشار سبحانه الى
تخاصم المؤمنين والكافرين ذكر أن من آمن بالله فقصيره الى الجنة ، ومن كفر
فإلى جهنم وبش المصير . وان أهلها يلبسون ثياباً من نار ، ويعصب فوق
رؤوسهم الماء الحار الذي يذيب الشحم واللحم ، والامعاء والجلود ، وان أعمدة
الحديد تهوي على رؤوسهم وأبدانهم ، وهم يحاولون التخلّص من هذا الهم والغم ،

ولكن أين المفر من حكم الله ومشيئته . وتقدم نظيره في الآية ٤٩ وما بعدها من سورة ابراهيم ج ٤ ص ٤٥٩ فقرة : « جهنم والأسلحة الجهنمية » .
(ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير) . للكافرين ثياب النار ومقامع الحديد ، وماء الحميم . وللمؤمنين المخلصين جنات نعيم ، وأنهار لذة للشاربين ، وثياب من حرير ، وحلي من الذهب واللؤلؤ (وهُدوا الى الطيب من القول) بعد أن أشار سبحانه الى طعامهم وشرابهم ذكر أقوالهم ، وهي أحسن الأقوال ، مثل الحمد لله وله الشكر على ما تفضل وأنعم (وهُدوا الى صراط الحميد) وهو الطريق القويم الذي سلكوه في الحياة الدنيا ، وأدى بهم الى نعيم الآخرة .

(ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد) . كان مشركو قريش يمنعون الناس من الدخول في الاسلام ، ومن الحج والعمرة الى بيت الله الحرام الذي جعله مثابة وأماً للمؤمنين كافة لا فرق بين المقيم فيه والعاير . وتقدم نظيره في الآية ١٢٥ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٠٠ (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) . المراد بالالإلحاد هنا الميل والانحراف ، والمعنى من يميل وينحرف عما أمر الله ، وأساء لمن قصد بيته الحرام فان الله يعذبه بالعذاب الأكبر .

وطهر بني لوطاين والقائمين الآية ٢٦ - ٢٩ :

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهَّرْ بَيْنِي
لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ
رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ
وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْعَةِ الْأَنْعَامِ

فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَانِسَ الْفَقِيرِ * ثُمَّ لِيَقْتَضُوا تَقَتُّهُمْ وَلِيُوفُوا
نَذْرَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ *

اللفظة :

بوأنا هنا بمعنى هيأنا ووطأنا لأنها تعدت باللام . والطواف الدوران . والضامر
الجزيل . والفج الطريق . والعميق البعيد . وبهيمة الأنعام الإبل والبقر والضان .
والبائس هو الذي أصابته شدة . والتفت الوسخ ، يقال : قضى نفثه اذا أزال
وسخه .

الإعراب :

بوأنا متضمنة معنى هيأنا ولذلك دخلت اللام على ابراهيم ، ومكان منصوب
ببوأنا . ان لا تشرك (ان) مفسرة لفعل محذوف أي أوحينا اليه ان لا تشرك . ورجالاً
حال أي مشاة على أرجلهم . وعلى كل ضامر أيضاً حال أي مشاة وركبائاً .
وبأثنين الجملة صفة لكل ضامر والنون تعود الى كل ضامر لأنه بمعنى الجمع .
والمصدر من ليشهدوا متعلق ببيأتوك .

المعنى :

(واذا بوأنا لابراهيم مكان البيت ان لا تشرك بي شيئاً وطهر بيني للطائفين
والقائمين والركع السجود) . المراد بالقائمين المقيمون في مكة وضواحيها ،
وبالركع السجود المصلون . كانت قريش تعبد الأصنام ، وتقوم على أمر الكعبة ،
وبعد أن بعث الله محمداً (ص) نصبت العداة له ولمن آمن به ، ومنعت المسلمين
من الطواف والصلاة في بيت الله ، كما جاء في الآية السابقة : ومع هذا كانت

ترعم قريش أنها على دين ابراهيم (ع) .. فأبطل الله هذا الزعم بأنه هو صاحب البيت ، وقصد أوحى الى ابراهيم ان يبنيه ويجعله خاصاً بعبادة الموحدين المقيمين منهم في مكة والعابرين ، وان يبعد عنه المشركين وأوثانهم ، وهذا هو معنى (وظهر بقي) .. ولكن قريشاً عكست الآية ، فلألت بيت الله بالأصنام ، وأباحته لأهل الشرك والفساد وصدت عنه أهل التوحيد والصلاح .

(وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) . أمر الله خليله ان يدعو الناس الى حج المسجد الحرام بعد ان يقيم قواعده ، ويتم بناءه: ووعدته أن يستجيب الناس الى دعوته . ويأتوه مشاة وركباً على ضواري من الخيل والابل من كل طريق بعيد ، وبالأولى من الطريق القريب .

(ليشهدوا منافع لهم) . الحج هو العبادة الوحيدة التي تجمع بين المنافع الدينية والدنيوية، أما الدينية فطاعة الله بأداء الفريضة ، والتوبة من الخطايا والذنوب واستشعار الهيبة والجلال . قال ابن عربي في الفتوحات المكية : « كنت في ذات يوم أطوف بالكعبة ، فرأيتها فيها خيل الى انها ارتفعت عن الأرض ، وتوعدتني بكلام والله سمعته ، وهي تقول : تقدم حتى ترى ما أصنع بك ، كم تضع من قدري ، وترفع من قدر بني آدم » .

ونقول عن يقين : ما من أحد يسعى أو يطوف في بيت الله باخلاص إلا ويستشعر شيئاً من هذا النوع .

(وبذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام) وهي الإبل والبقر والغنم ، وذكر اسمه تعالى على الانعام كناية عن ذبحها ونحرها لأن التسمية تجب عند نحر الإبل وذبح البقر والغنم ، والمراد بآيات معلومات ايام النحر والذبح في الحج كما يدل عليه سياق الآية . وقد اختلف الفقهاء في عدد هذه الايام ، قال الشيعة : هي أربعة ، أولها يوم عيد الأضحى وآخرها اليوم الثالث عشر من ذي الحجة ، وقال غيرهم من فقهاء المذاهب : هي ثلاثة تنتهي بالثاني عشر منه . والتفصيل في كتابنا « الفقه على المذاهب الخمسة » .

وقال الرازي : أكثر العلماء يفرقون بين الايام المعلومات في هذه الآية، والايام المعدودات في الآية ٢٠٣ من سورة البقرة . ويرون ان الايام المعلومات هي عشرة

سورة الحج

ذي الحجة ، والمعدودات ايام الذبح والنحر على الخلاف الذي أشرنا اليه في انها أربعة أو ثلاثة .

(فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) . اتفق الفقهاء على وجوب اطعام الفقير من أضحية الحج ، واختلفوا في وجوب أكل صاحبها منها ، ونحن مع القائلين بعدم الوجوب عليه ، وان الأمر متروك الى ارادته : ان شاء أكل منها ، وان شاء تصدق بأجمعها ، أما قوله تعالى : (فكلوا منها) فقد جاء لرفع توهم تحريم الأكل منها ، حيث كان أهل الجاهلية لا يأكلون من أضاحيهم زاعمين ان ذلك محرم عليهم ، فنبه سبحانه بقوله : فكلوا منها ، الى خطئهم .

(ثم ليقضوا نفثهم) لا يجوز للحاج ايام إحرامه أن يخلق رأسه أو يقلم أظافره أو يتطيب ، بل قال الفقهاء أو أكثرهم : ان قتل هوام الجسد كالقمل حرام ، فاذا انتهت ايام الاحرام حل له ما كان محرماً عليه ، فيخلق ويقلم أظافره وغير ذلك ، والى هذا أشار سبحانه بقوله : (ثم ليقضوا نفثهم) . (وليوفوا نذورهم) ان كانوا قد نذروا شيئاً من أعمال البر ايام الحج أو قبلها ، فان كثيراً من الناس ينذرون الصدقات وغيرها من أعمال الخير ان رزقهم الله الحج (وليطوفوا بالبيت العتيق) أي القديم لأنه أول بيت وضع للناس ، وذكر سبحانه الطواف في صيغة المبالغة حيث يستحب الإكثار منه ، كما يستحب الإكثار من الصلاة ، فلقد اشتهر عن نبي الرحمة (ص) انه قال : الطواف بالبيت صلاة .

حرّمات الله وشعائره الآية ٣٠ - ٣٥ :

ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ
الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا
قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا
خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ *

ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ
إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا
لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَةٍ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ
وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ
وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ *

اللغة :

حرمات جمع حرمة ، وهي ما لا يحل انتهاكه . وحنفاء جمع حنيف ، وهو
من استقام على دين الحق مائلاً عن الأديان الباطلة . والسحيق البعيد . وشعائر
جمع شعيرة ، وهي العلامة مأخوذة من الإشعار بمعنى الاعلام . والمنسك موضع
العبادة ، والمنسك العبادة . والمخبتين الخاشعين بدليل قوله تعالى : الذين اذا ذكر
الله وجات قلوبهم .. أي خافت .

الإعراب :

ذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك . ومن الأوثان (من) بيانية أي الرجس
الذي هو الأوثان . وهو يعود الى مصدر متصيد من يعظم أي التعظيم . وحنفاء
حال من واو اجتنبوا . وغير مشركين حال ثانية . فانها،الأصل فان تعظيمها ثم
حذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فصارت فانها ، والذين اذا ذكر الله عطف
بيان للمخبتين،والصابرين والمقيمي الصلاة عطف على المخبتين .

المعنى :

(ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه) . لتعظيم مظاهر شئى ، تفاوت على قدر المعظم ، وما يليق به من التعظيم والاحترام ، ولا شئى لدى المخلوق يليق بتعظيم خالقه إلا الطاعة والانقياد له في كل شئى ، فمن أطاع الله وامثل أوامره ونواهيه فقد عظمه وعظم حرماته وشعائره ، وهذا التعظيم أو هذه الطاعة ترفع من شأن المطيع عند خالقه ، لا من شأن الخالق المطاع لأن الله غنى عن العالمين ، ولذا قال تعالى : (فهو خير له عند ربه) أي تعظيم أحكام الله باطاعتها خير للمطيع عند خالقه وبارئه .

(وأحل لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم) . حرم الله على الحاج الصيد أيام أحراره ، وربما توهم هذا الحاج المحرم انه اذا حرم عليه الصيد فقد حرم عليه أيضاً الأكل من لحوم الانعام ، فينبى سبحانه عدم التلازم بين التحريمين ، وان المحرم من الأنعام ما نص عليه القرآن كالميتة وما ذبح على النصب . انظر تفسير الآية ٣ من سورة المائدة ج ٣ ص ١٠ (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) . ابتعدوا عنها وعن عبادتها كما تبتعدون عن الأوساخ والافتقار ، والأوثان كلها رجس ، ولذا قال علماء العربية : ان من هنا للتبيين لا للتبعض ، مثلها مثل (من) في قولك : خاتم من حديد (واجتنبوا قول الزور) . وقول الزور يشمل كل محرم كذباً كان أو غيبة أو شتاً أو فحشاً ، وأشد أنواع الزور الشهادة الكاذبة لأن فيها هدرأ لحقوق الله والناس ، قال رسول الله (ص) : عدلت شهادة الزور بالشرك بالله . ثم تلا هذه الآية .

(حنفاء لله غير مشركين به) . الحنفاء هم المستقيمون على دين الحق المائلون عن الأديان الباطلة ، وغير مشركين تأكيد للحنفاء . وتكلمنا عن الحنفاء عند تفسير الآية ١٠٧ من سورة الإسراء (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) . هذا كناية عن ان اثم الشرك لا يعادله اثم ، وان عذاب المشرك ليس وراءه عذاب .. ومن تتبع الآيات القرآنية والسنة النبوية يلاحظ ان المشرك أكبر إثمأ من الملحد عند الله ، وقد يكون السر في ذلك ان الملحد لا يثبت النقص « للخالق » لأنه لا يعترف بوجوده من

الجزء السابع عشر

الأساس، وهذا ثم عظيم ما في ذلك ريب .. ولكن ثم المشرك أعظم لأن الاشراك انكار للمخالق الواحد من جهة ، واثبات النقص للموجود من جهة ثانية .

(ذلك ومن يعظم شعائر الله فلأنها من تقوى القلوب) . شعائر الله وحرمانه بمعنى واحد ، وتكلمنا عنها في تفسير الآية السابقة ، وليس من شك انه لا يطبع أحكام الله الا المتقون المخلصون ، ومن تعظيم شعائر الله واطاعة أحكامه ان تذبح السمين السليم من الانعام أيام الحج ، قال رسول الله (ص) : لا تضع بالعرجاء ولا العجفاء . ولا الخرقاء ، ولا الجذاء ، ولا العضاء . والعجفاء الخزيلة ، والخرقاء هي التي لا اذن لها . أو مخرومة الاذن، والجذاء مقطوعتها، والعضاء مكسورة القرن .

(لكم فيها منافع الى أجل مسمى) . ضمير فيها يعود الى ذبائح الحج ، والى أجل مسمى أي وقت نحرها أو ذبحها ، والمعنى ان للحاج ان يستمتع بلبين اضحيته وظهرها الى حين النحر والذبح . وفي تفسير الرازي ان رسول الله مر برجل يسوق بدنة ، وهو في جهد ، فقال له : اركبها . قال الرجل : انها هدي يا رسول الله ، فقال له : اركبها وبلك ، ثم قال الرازي : وأبر حنيفة لا يجوز ذلك ، واحتج بأنه لا يجوز أن يؤجرها ، فلذن ، لا يجوز أن يركبها، ورد الرازي على أبي حنيفة بأن هذا ضعيف لأن أم الولد من الاماء لا تباع ، ومع ذلك يجوز الانتفاع بها . (ثم محلها الى البيت العتيق) اي ان مكان ذبح الانعام هو بيت الله الحرام ، والمراد به الحرم كله ، ومنه منى ، وفي الحديث منى كلها منحر .

(ولكل أمة جعلنا منسكاً) . المراد بالمنسك هنا النسك بذبح الأنعام بدليل قوله تعالى بلا فاصل : (ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام) . والمعنى لا بدع في الأضحية فلقد كانت مشروعة في الأديان السابقة (فإلهكم إله واحد) فلا تذكروا اسم غيره على ذبائحكم (فله أسلموا) انقادوا لأمره واخلصوا له في القول والفعل .

(وبشر المخبتين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وما رزقناهم يفتنون) . بشر يا محمد بالجنة من تواضع لله ،

سورة الحج

وخاف منه ، وثبت على دينه في السراء والضراء، وتعبّد له من غير تفاق ورياء ، وأنفق ماله في طاعة الله ومرضاته. وليس من شك ان هذه الصفات اذا اجتمعت في انسان سمت به الى أعلى الدرجات عند الله والناس .

والبدن جعلناها لكم الآية ٣٦ - ٣٧ :

وَالْبَدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ *

الآفة :

البدن بضم الباء جمع بدنة ، وهي الناقة السمينة من بدن بدنأ اذا كثر لحمه . وصواف أي ان البدن قاثات قد سففن أيدين وأرجلهن . ووجبت جنوبها سقطت جنوبها على الأرض وهو كناية عن خروج أرواحها بالنحر . والقانسع الراضي بما يعطى له من غير مسألة . والمعر الذي يتعرض لك لتعطيه .

الإعراب :

البدن مفعول لفعل محذوف أي وجعلنا البدن ، ولكم متعلق بجعلناها ، ومن شعائر الله متعلق بمحذوف مفعولاً ثانياً لجعلناها وصواف حال من البدن .

المعنى :

(والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير) . البدن هي الابل خاصة كما في كثير من التفسير ، منها تفسير الرازي والبيضاوي ، ويأحق بها البقر في الحكم ، لا في الاسم .. وعلى أية حال فإن الانسان نتيجة لعوامل كثيرة ، منها البيئة التي يعيش فيها ، وقد عاش العرب وغيرهم في الجاهلية وبعدها بقرون ، عاشوا مع الابل ، وكانت جزءاً من حياتهم ، يأكلون من لحومها ، ويشربون من ألبانها ، ويلبسون من أوبارها ، وتحمل أنقلاهم من بلد الى بلد .. أنظر تفسير الآية ٦ من سورة النحل ج ٤ ص ٤٩٧ . ومن أجل هذا ذكرها الله سبحانه في العديد من آياته بلفظ عام كالانعام ، أو بلفظ خاص كما في الآية ١٧ من سورة الغاشية والآية التي نحن بصددنا ، فلقد أمّن سبحانه فيها على عباده بالبدن، وجعل لها منافع كثيرة ، منها أن يتقرب العبد الى الله بنحرها في بيته الحرام ، والتعبير عن هذا النحر بشعائر الله يشعر بأنه من أفضل الطاعات والعبادات .

(فاذكروا اسم الله عليها صواف) . من شروط الذبيح والنحر التسمية والاتجاه بالمذبح والمنحور الى القبلة والنحر للابل، والذبيح لغيرها ، ولا تحل الابل بالذبيح ، كما لا يحل غيرها بالنحر ، والذبيح معلوم ، أما النحر فهو ان يُدخل الذابيح سكيناً أو ما إليها من الآلات الحادة في لبة البعير ، وهو قائم أو بارك أو مضطجع على جنبه شريطة أن يكون متجهاً بنحره وجميع مقاديم بدنه الى القبلة ، وأفضل صور النحر ما جاء في بعض الروايات ، وهو ان يقام البعير واقفاً اتجاه القبلة ، وان تعقل احدى يديه ، ويقف الناحر متجهاً الى القبلة أيضاً ، ثم يضرب في لبتة ، وهذه الرواية تصلح تفسيراً لكلمة صواف .

(فاذا وجبت جنوبها) سقطت على الأرض وخرجت الروح منها (فكلوا وأطعموا القانع والمعر) . القانع الراضي بما تعطيه من غير سؤال ، والمعر من يتعرض لك بالعطية (كذلك سخرنها لكم لعلكم تشكرون) سخرها لنا سبحانه في كل ما نريده منها حتى الذبيح ، فوجب له الشكر على هذا التسخير (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها) لأن الله غني عن العالمين فضلاً عن لحوم الاضاحي ودماؤها ، بل لا غنى لشيء إلا به ومنه سبحانه وتعالى ، وقيل : ان هذا رد

سورة الحج

على المشركين الذين كانوا يطلعون أصنامهم بدم الأضاحي ، ويلوثون به حيطان الكعبة .

(ولكن يناله التقوى منكم) . وتسال : ان معنى التقوى ان تتقي الله فيما حرمه عليك ، وهذا يعود ثوابه ونفعه عليك وحلك ، أما الله سبحانه فلا تنفعه طاعة من أطاع ، ولا تضره معصية من عصى ، اذن . فامعنى قوله تعالى : (ولكن يناله التقوى منكم) ؟

الجواب : المراد بالتقوى هنا رضا الله لأن تقوى العبد ، ورضا الله عن المتقي متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، وعليه يكون المعنى ان الذي يصل الى الله من أضيحك هو ان يرضى عنكم ولا بغضب عليكم .. فهو اشبه بقولك لولدك : ان نجاحك في الدراسة يجعلني راضياً عنك محباً لك ، وهذا كل ما أناله من دراستك ونجاحك .

(كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم) . سخر الله البدن لعباده وهداهم الى التقرب بنحرها الى تعالى ليسبحوا بحمده ، ويعظموه في علمه وقدرته ويخافوا من عقابه ، ويطمعوا في ثوابه (وبشر المحسنين) كل المحسنين ، سواء أحسنوا في التقرب الى الله بالأضاحي أم بغيرها ، فان أنواع الاحسان لا يبلغها الاحصاء ، وأفضلها جهاد أهل البغي والضلال ، ولو بكلمة الحق والعدل .

ان الله يدافع عن الذين آمنوا الآية ٣٨ - ٤١ :

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ *
أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ
النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَيَعٍ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ

فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ*
الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ*

اللغة :

صوامع جمع صومعة بفتح الصاد . وبيع جمع بيعة بكسر الباء . وفي جمع
البيان الصوامع في أيام شريعة عيسى ، والبيع في أيام شريعة موسى ، والمساجد في
أيام شريعة محمد ، وقال الخوري الشرتوني في « أقرب الموارد » : البيعة متعبد
النصارى ، وقال الخوري معلوف في « المنجد » : البيعة معبد النصارى واليهود .

الإعراب :

أذن، المأذون به محذوف أي اذن بالقتال ، وبدل عليه يقاتلون . وان الله على
نصرهم جملة حال من واو يقاتلون . وإلا أن يقولوا استثناء منقطع ، أي ولكن
قولهم ربنا الله . ودفع مبتدأ والخبر محذوف أي ولولا دفع الله حاصل . وصلوات
على حذف مضاف أي مكان الصلوات . الذين أخرجوا بدل من للذين يقاتلون .

لا يخلو المؤمن من ناصر :

(ان الله يدافع عن الذين آمنوا ان الله لا يحب كل خوان كفور) . تدل
هذه الآية ان الله سبحانه يمنع في هذه الحياة الكفرة والطغاة عن المؤمنين بالله
واليوم الآخر ، وأوضح منها في الدلالة قوله تعالى : « إِنَّا لَنَنْصُرَ
رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ - ٥١ غافر » . مع ان
الله سبحانه قد نص في العديد من آياته ان اليهود كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ،

سورة الحج

منها الآية ٢١ و ١١٢ و ١٨١ من سورة آل عمران ، والآية ١٥٤ من سورة النساء ، بالإضافة الى ان تاريخ البشرية القديم والحديث مفعم بالمظالم والاعتداءات على المتقين والمخلصين .. فما هو وجه الجمع بين الآيات الدالة على ان الله ينصر أهل الحق والآيات التي أخبرت عن قتل الأنبياء ؟

الجواب أولاً : ان آيات النصر تدل بسياقها على انها خاصة ببعض الأنبياء دون بعض ، كنوح وهود وصالح ولوط ومحمد ، ويومئ الى ذلك قوله تعالى : « والله يؤيد بنصره من يشاء » - ١٣ آل عمران ، والآيات التي نحن بصددھا تدل على ان محمداً (ص) والصحابة هم المقصودون بقوله تعالى : « ان الله يدافع عن الذين آمنوا » لأنهم هم الذين أخرجوا من ديارهم لا شيء إلا لأنهم قالوا ربنا الله ، وقد جاء في كتب الصحاح ان هذه الآيات نزلت حين هاجر النبي من مكة الى المدينة .

ثانياً : ان الحق المخلص لا يخلو من ناصر ينصره بيده أو ماله أو لسانه ، ولا نعرف مجتمعاً اتفق جميع أفرادہ ضد من نطق بكلمة الحق والعدل .. أجل ، ان كثيراً من المحققين قتلوا وأسرّوا وشردوا ، ولكن الله عز وجل قد أتاح لهم انصاراً يعلنون ظلامتهم ، ويشيدون بعظمتهم ، ويدبنون أعداءهم بحجج دامغة ، وأدلة قاطعة ، وهذا مظهر من مظاهر النصر ، وقوله تعالى : (ان الله لا يحب كل خوان كفور) تعليل لقوله : (ان الله يدافع عن الذين آمنوا) ويشعر هذا التعليل بأن على من آمن بالله ان يناصر المؤمن بما يملك من أسباب النصر، وأدائها ان يدافع عنه اذا ذكر أمامه بسوء ، والا فهو خوان كفور .. وفي الحديث الصحيح : الساكت عن الحق شيطان أخرس .

ثالثاً : لو كان مجرد الايمان بالله يدفع العدوان والتكسبات عن المؤمن - ان صح التعبير - لآمن كل الناس ايماناً تجارياً تماماً كمن يبيع دينه وضميره لكل من يدفع الثمن .

رابعاً : ان الايمان الحق أن نطيع الله في جميع أحكامه وأوامره ، وقد أمر سبحانه اذا أردنا أمراً أن نتبع الأسباب الطبيعية التي جعلها مؤدية الى ما نريد ، وقد حدد سبب النصر بوحدة الكلمة ، واعداد القوة ، قال تعالى : « ولا تنازعوا

ففضلوا وتذهب ربكم - ٤٦ الأنفال ، وقال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة - ٦٠ الأنفال » . وفي الفتوحات المكية عبر محي الدين ابن عربي عن هذه الأسباب بأيدي الله ، وقد أخذ هذا التعبير من قوله تعالى : « أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا انعاماً فهم لها مالكون - ٧١ يس » . انظر ما كتبناه بعنوان : « الدين لا يثبت قحاً » ج ٣ ص ٤٤٩ .

(اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) . كان المسلمون في مكة مستضعفين يلاقون أنواع الأذى والعنف من المشركين ، ولا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، فكانوا يأتون النبي (ص) ويتظلمون اليه ، وهو لا يملك لهم إلا الوصية بالصبر ، وكان يقول لهم فيما يقول : « اني لم أؤمر بقتال » بسل نهي (ص) عن قتال المشركين في أكثر من سبعين آية ، وهو بمكة ، لأن القتال آنذاك كان أشبه بعملية انتحارية . انظر تفسير الآية ٧٧ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٨١ . وبعد ان هاجر النبي الى المدينة ، وأصبح للمسلمين شوكة وقوة نزلت هذه الآية ، وهي أول آية أذن فيها للمسلمين بالقتال - على ما قبل - وقد بين سبحانه سبب هذا الاذن بأن المشركين اعتدوا على المسلمين وأخرجوهم من ديارهم ظلماً وعدواناً ، ووعد المسلمين بالنصر والظفر بأعدائهم ، حيث قال : « وان الله على نصرهم لقدير » .

(الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا ان يقولوا ربنا الله) . ظاهر الآية يدل على ان الذنب الوحيد للنبي (ص) والصحابة عند المشركين هو قولهم : لا إله إلا الله . وبهذا الظاهر أخذ جميع المفسرين ، بل قال أحد المفسرين الجسد ما نصه بالحرف : « لا صراع على عرض من أعراض هذه الحياة التي تشتجر فيها الأطماع ، وتتناقض فيها المصالح ، وتختلف فيها الاتجاهات ، وتتضارب فيها المطامع » . وقد أشرنا فيما تقدم أكثر من مرة الى ان طغاة الشرك حاربوا رسالة محمد (ص) وكلمة التوحيد لأنها تقضي على أطاعهم ومنافعهم ومصالحهم ، وتساوي بين الناس . انظر ما كتبناه بعنوان : « المصلحة هي السبب » في ج ١ ص ١٥٥ و ١٧٩ .

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد)

سورة الحج

يذكر فيها اسم الله كثيراً) . بعد أن اذن سبحانه للمؤمنين المعتدى عليهم بقتال أهل الشرك المعتدين بين في هذه الآية السبب الموجب لهذا الاذن ، ويتأخص بأنه لولا القوة الرادعة لسادت الفوضى وعم الفساد في الأرض بالسلب والنهب واراقة الدماء ، وبالنحوص بين الطوائف وأهل الأديان . وعبر سبحانه عن الفتن بين الطوائف بهدم معابدها لأنها المظهر الديني لكل طائفة ، ولها علامات فارقة تميز أهل الأديان بعضهم عن بعض .. والصوامع للتصاري والبيع لليهود - أنظر فقرة اللغة - والصلوات على حذف مضاف أي مكان الصلوات ، والمراد بها معابد الطوائف الأخرى .. وتمتاز مساجد المسلمين عن معابد سائر الأديان بأن الصلاة تقام فيها خمس مرات في اليوم والليلة ، ولذا قال سبحانه : (يذكر فيها اسم الله كثيراً) .

وقال جماعة من المفسرين : المراد من الآية ان الله يمنع المشركين بالمؤمنين ، ولولاهم لهدم أهل الشرك معابد أهل الأديان .. واذا صح هذا التفسير في وقت من الأوقات فإنه لا يصح ولا يطرد في كسل عصر ومصر ، والصحيح في معنى الآية ما قلناه من انه لا غنى عن القوة الرادعة لحفظ الامن والنظام، سواء أكانت هذه القوة بيد المؤمن ، أم بيد الكافر بالله . قال الإمام علي (ع) : « لا بد للناس من أمير بر أو فاجر ، يعمل في أمرته المؤمن ، ويستمتع فيها الكافر ، ويبلغ الله فيها الاجل ، ويجمع به الفيه ، ويقاتل به العدو ، وتأمين به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتى يستريح به ، ويستراح من فاجر » . ونجدر بالاشارة الى أن الإمام قال هذا رداً على قول الخوارج : لا حكم إلا لله . أنظر ما كتبناه بهذا العنوان في ج ٤ ص ٣١٥ .

(ولننصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز) . هذا ترغيب في الجهاد لنصرة الحق وأهله (الذين ان مكناسهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرؤا بالمعروف ونهوا عن المنكر) . المراد بالتمكين في الأرض الحكم والسلطان، وقد أقسم سبحانه مؤكداً انه ينصر الحاكمين شريطة أن يجمعوا بين أمرين: الأول أن يؤدوا حق العباد لله كاملاً في أنفسهم كالصوم والصلاة ، وفي أموالهم كالزكاة ، وعبر سبحانه عن العبادة البدنية بالصلاة ، والعبادة المالية بالزكاة .

الأمر الثاني : أن يعدلوا بين الناس ، وينقوا الحق ، ويبطلوا الباطل : وهذا هو المراد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن أدخل الحكام بواحد من هذين فإن الله يهملهم ويكلمهم الى أنفسهم .

وتسأل : لقد شاهدنا كثيراً من الحكام لا يؤمنون بالله من الأساس فضلاً عن التعبد له بأقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . ومع ذلك استقام لهم الملك ، وانقادت اليهم الرعية لأنهم حققوا أهدافها ، وعملوا من أجل أمانيتها . ولم يحاسبهم أحد من رعيته على كفرهم وجورهم ، اذن عنصر الإيمان وعبادة الرحمن ليس شرطاً لدوام الملك واستقامته ؟

الجواب : المراد بنصر الله في الآية هو تثبيت الملك في الدنيا ، والثواب في الآخرة ، بل هذا الثواب هو النصر الحقيقي لأن ملك الدنيا الى زوال ، ومشوب بالكدر ، أما نعم الآخرة فدائم الى ما لا نهاية ، وهو صفو وهناء من جميع جهاته .. والحاكم الكافر قد يستقيم له الملك في الدنيا ان عدل ، أما في الآخرة فله عذاب الحريق على كفره بالأدلة الكونية على وجود المكون والمصور (والله عاقبة الأمور) هو وحده مالك الملك يؤتي الملك من يشاء : وينعه عن يشاء وهو على كل شيء قدير .

وان يكذبوك الآية ٤٢ - ٥١ :

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ
إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ
فُتْمَ أَخَذْتُمُ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ
ظَالِمَةٌ فِيهَا تَخَوِيَةُ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِى مُعْطَلَةٌ وَقَصْرِ مَشِيدِ * أَلَمْ
يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانُ يَسْمَعُونَ

يَا فَاِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ *
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ
كَأَلْفِ سَنَةٍ نِّمَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أُمَلِّتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ
أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ *
فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ
سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ *

اللغة :

النكير الانكار ، والمراد به هنا الهلاك أي انكار بالفعل ، لا بمجرد القول .
وخاوية خالية أو ساقطة . وعروشها سقوفها . وبثر معطلة لا يستقى منها . والشيد
بكسر الشين ما طلي به الحائط من الجص ونحوه ، والمراد بالقصر المشيد هنا
الفخم . ومعاجزين جمع معاجز من عاجزه معاجزة أي سابقه ليظهر عجزه .

الإعراب :

فكيف خبر كان مقدم ، ونكير اسمها ، والأصل نكيري وحذفت الياء تخفيفاً .
وكأين أصلها أي فدخلت عليها الكاف كما دخلت على ذا، وصارت كلمة واحدة ،
وهي بمعنى كم الخبرية، وكتبت بالنون في المصحف - كما في تفسير البحر المحيط -
ومحلها الرفع بالابتداء ، وجملة أهلكناها خبر خلافاً للزحشري . وهي ظامة مبتدأ
وخبر ، والجملة حال من هاء أهلكناها . فهي خاوية مبتدأ وخبر ، والجملة عطف
على جملة أهلكناها . وبثر وقصر عطف على القرية . فتكون منصوب بأن مضمرة

لوقوع الفعل في جواب الاستفهام . والتي في الصدور صفة للقلوب . ومعاجزين حال من واو سوا .

المعنى :

(وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكُذِّب موسى) . كذبت قريش محمداً (ص) ، وأخرجته من دياره ، فقال سبحانه لنبيه الكريم مسلماً ومعزياً : لا بدع فيها لاقيت من قومك فكل نبي عانى من قومه مثل ما عانيت .. ثم ذكر له عدداً من الأنبياء على سبيل المثال دون الحصر ، منهم هود وقومه عاد ، وصالح وقومه ثمود ، أما أصحاب مدين فهم قوم شعيب . وتقدم نظيره في سورة الأنعام الآية ٣٤ ج ٣ ص ١٨٢ (فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير) . المراد بالنكير هنا العذاب ، والمعنى ان الله سبحانه أخر عذاب الكافرين الى أجله ، حتى إذا حان أخذهم به أخذ عزيز مقتدر، وتوميء الآية الى ان على العاقل ان لا يتعجل الشيء قبل أوانه . (فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة) . بعد ان قال سبحانه ، انه يحمل الكافرين الى أجل مسمى أشار الى اهلاك القرى الظالم أهلها ، وهي كثيرة كما تشعر كلمة كآين . وتقدم مثله في الآية ٣ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٠١ (فهي خاوية على عروشها) تقدم في الآية ٢٥٩ من سورة البقرة ج ١ ص ٤٠٥ والآية ٤٢ من سورة الكهف (وبثر معطلة وقصر مشيد) . البشر المعطلة هي العامرة بالماء ولكن لا يستقي منها أحد ، وقصر مشيد أي فخم، وهذا ترك أيضاً من غير أهل ، والقصد ان ديار الظالمين أصبحت مقفرة موحشة بعد ما كانت مأهولة تجمع بالمقيمين والزائرين .

(أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم غنوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها) . ضمير يسيروا يعود الى الذين كذبوا محمداً (ص) أي ألم يتعظ هؤلاء بمصارع المكذبين ؟ وينظروا كيف أصبحت ديارهم خالية وأملاكهم معطلة ؟ وتقدم مثله في سورة آل عمران الآية ١٣٧ ج ٢ ص ١٥٩ والآية ٣٦ من سورة النحل ج ٤ ص ٥١٢ (فانها لا تسمى الأبصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدور) . وأية

سورة الحج

جدوى من السمع والبصر إذا عميت البصيرة ؟ فان الأذن والعين وسيلة وأداة ،
والعقل هو الأصل .

(ويستعجلونك بالعذاب) . الخطاب لمحمد (ص) ، وواو الجماعة لمشركي
قريش . وكان النبي يتوعدهم بالعذاب ان أصروا على الشرك ، وكانوا يقولون
له ما قاله الأولون لكل نبي حين ينهاهم عن الشرك ، ويتوعدهم عليه : اثنتا
بما تعدنا ان كنت من الصادقين (ولن يخلف الله وعده) . فالتعجيل أو التأجيل
ليس بالشئ المهم ما دام الوفاء بالوعد كائناً لا محالة .. ونجدد الإشارة الى ان
الوعد من الله بالثواب على الطاعة هو حق للعبد المطيع لا يمكن الخلف فيه ، أما
وعيده تعالى بالعقاب على المعصية فحق لله على العبد العاصي ان شاء عفا ، وان
شاء عاقب إلا اذا سبق منه القول : انه لن يغفر كما في الآية التي نحن بصددنا
حيث نفى الخلف فيما وعد به من عذاب قريش لموقفها من رسول الرحمة .

(وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) . يقول سبحانه للمشركين :
علام تستعجلون عذاب الآخرة ، ويوم واحد منه أشد عليكم من عذاب ألف سنة
من سني الدنيا ، وبالاختصار فان ألف سنة كتابة عن هول اليوم الآخر (وكأين
من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير) . تقدم مثله في الآية ٤٥
من هذه السورة ، وفي هذا المقطع بالذات ، وأعاد سبحانه لتأكيد الانذار والتخويف
(قل يا أيها الناس انما انا لكم نذير مبين) . هذه هي مهمة الأنبياء : التبليغ عن الله
وانذار من أعرض وتولى ، وتكرر هذا المعنى بأساليب شتى .

(فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم) المعنى واضح وتقدم
في العديد من الآيات ، منها الآية ٢٥ من سورة البقرة (والذين سعوا في آياتنا
معاجزين أولئك أصحاب الجحيم) . سعوا أي اجتهدوا ، والمعاجز المغالب .
والمعنى ان المشركين دائمو الاقاسمة في النار ملازمون لها الى ما لا نهاية لأنهم
عانَدوا الرسول ، وبذلوا الجهود لإعجازه عن تبليغ رسالات ربه وصد الناس
عنها .

نهي النبي والقاء الشيطان في أمته الآية ٥٢ - ٥٧ :

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَلَوْلِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ *

اللفظ :

ينسخ يطل . والمراد بالشقاق هنا العصيان . وتخبث تخشع . والمريية الشك . ومهين مذل .

الإعراب :

من قبلك من رسول (من) الأولى والثانية زائدتان إعراباً ، وقال صاحب البحر المحیط : من الأولى لا ابتداء الغاية ، والثانية زائدة . فؤمنوا عطف على ليعلم ، ومثله فتخبث . وبغته حال من الساعة أي باغته .

(وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) . اختلف المفسرون : هل كلمة النبي وكلمة الرسول تعبران عن معنى واحد ، أو لكل منهما معنى ؟ والأقرب انه لا فرق بينهما من حيث ان كلا منهما ينسب الله بما يريد ، فاذا أنبأ وأمره بالتبليغ أطلقت عليه كلمة النبي لأن الله أنبأه ، وكلمة الرسول لأنه تعالى أمره بالتبليغ ، واذا أنبأه ولم يأمره بالتبليغ فهو نبي ، وعلى هذا فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولاً .

وقد روي في سبب نزول هذه الآية ان النبي (ص) تلا على قريش سورة النجم ، ولما بلغ الى قوله تعالى : « أفرايم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » ألقى الشيطان في تلاوة رسول الله ما نصه بالحرف « تلك الغرائق العلى منها الشفاعة تترجى » . والغرائق جمع غرنوق ، وهو الحسن الجميل أي ان هذه الأصنام حسنة وجميلة ، وترجى شفاعتها عند الله .

ونفى العلماء المحققون هذه الرواية ، وجزموا بأنها من وضع الزنادقة الطاعنين بكتاب الله ونبوة محمد (ص) واستندوا في ذلك الى أدلة قاطعة من العقل والنقل.. النبي الذي أرسله الله لمحاربة الشرك والأوثان بمتدحها وبنعتها بأكمل النعوت والأوصاف ؟ كيف ولسان النبي بيان الله وترجائه ؟ وهل للشيطان من سبيل على هذا البيان القدسي وهذه الترجمة الإلهية ؟.

والصحيح في معنى الآية ان أغلى أمنية النبي ، أي نبي ، أن يعرف الناس حقيقة رسالته ، ويدركوا أهدافها ، ويبتدوا بها ، ولكن أرباب الأهداف والأطلسع يحولون بين النبي وتحقيق أمنيته بالتنويه وبث الأكاذيب بكل وسيلة من وسائل الدعاية والنشر ، وقد شاهدنا ذلك ولمسناه ، بل وقاسينا منه الكثير .. وهذا هو معنى لقاء الشيطان في أمنية النبي ، فالنبي يتمنى الخير للناس ، والشيطان — أي المخرب — يصددهم عنه (فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) . يخلق المخربون ويذيعون ، ولكن الله يزهق أباطيلهم ، وبفضح أكاذيبهم بألسنة الصادقين ، وأيدي المجاهدين ، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى :

«يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون» - ٣٢ التوبة .

(ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم) .
الذين في قلوبهم مرض هم اللصوص الذين يعشون بالسلب والنهب ، والغش والخداع ، أما القاسية قلوبهم فهم الممّج الرعاع الذين ينطقون مع كل ناعق ، والمراد بالفتنة الاختبار ، والمعنى انه لا سوق للتبويه والدعايات الكاذبة إلا عند اللصوص والممّج الرعاع .. وائى اتجهت فإنك واجد لهذه الحقيقة صوراً جليلة واضحة ، واجدها في الصحف والاذاعة ، وفي الكتاب والمسرح ، وفي حديث المأجورين والمخدوعين الذين يصدقون كل ما يقال لهم من غير وعي وتمحيص ، وما أكثر هؤلاء .

ثم ان الدعايات الكاذبة ، وان أضرت من جهة فإنها نافعة من جهة أخرى ، لأنها تميز بين الخائن والمخلص ، وبين العالم والجاهل ، وهذا هو القصد من (فتنة) في قوله تعالى : (ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة) .. (وان الظالمين لفي شقاق بعيد) . وكل من موته وافترى فهو ظالم ، وكل من صدق الكذب والافتراء من غير تمحيص فهو ظالم أيضاً ، والمراد بالشقاق العصيان والتمرد على أحكام الله .

(وليعلم الذين أوتوا العلم انه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخيت له قلوبهم) .
ضمير به وله يعودان الى النبي أو القرآن ، والمعنى اذا صدّق من صدق الكذب على الله ورسوله فان أهل المعرفة والاخلاص يعلمون حقيقة هذا الكذب والافتراء ، ولا يزيدهم إلا إيماناً وتمسكاً بالله ورسله وكتبه ، وإلا خشوعاً وخضوعاً لله وهيبته (وان الله لهساد الذين آمنوا الى صراط مستقيم) . يرشدهم الله الى طريقه ، فيسلكونه تقرباً اليه ، ولا ينحرفون عنه مهما تكن الضغوط والدعايات .

(ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيتهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) . المراد بالساعة الوقت الذي يخرج فيه الناس الى ربهم من الاجداث واليوم العقيم هو يوم الحساب ، وعقمة كناية عن يأس الكافرين فيه من النجاة .. وبعد ان قال سبحانه في الآية السابقة: ان أهل العلم يؤمنون بالقرآن وبنبو محمد (ص)

سورة الحج

قال في هذه الآية : أما الكافرون فانهم في شك من أمر رسول الله ، وسيظلون كذلك الى يوم يبعثون من قبورهم أو يوم وقوفهم بين يدي الله للحساب، وعندئذ ينكشف لهم الحقيقة ، ويعلمون انهم كانوا على ضلال .

(الملك يومئذ الله) وحده ، فلا قاضٍ أو أمير ، ولا سلطان يحاسبه أو وزير يداري كما هو الشأن في هذه الحياة (بحكم بينهم) أي بين الكافرين والمؤمنين (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين) . لهؤلاء خزي ونيران ، ولأولئك روح وريحان . وتقدم مثله أكثر من مرة .

والذين هاجروا الآية ٥٨ - ٦٤ :

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقْنَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِزْوَانِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ * ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ *

اللفظ :

المدخل بضم الميم من ادخل : وهو اسم مكان ، والمراد به هنا الجنة .

الإعراب :

ليرزقنهم الله اللام جواب لقسم محذوف ، والقسم وجوابه خبر الذين هاجروا . ومدخلاً مفعول فيه . وذلك خبر لابتداء محذوف أي الأمر ذلك . فتصيح بالرفع لأن ألم تر لفظه الاستفهام ومعناه الخبر .

المعنى :

(والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين) للهجرة في سبيل الله مظاهر ، منها أن يخرج الإنسان من وطنه مجاهداً أهل البغي والضلال ، ومنها أن يفر بدنه ممن يصدّه عن القيام بواجبه ، وفي حكمه من هاجر لطلب العلم بالدين من أجل الدين ، أو لطلب الرزق الحلال ، أو لأداء فريضة الحج ، فأَي واحد من هؤلاء ومن إليه إذا قتل أو مات في هجرته فإن له عند الله ما للشهداء من الأجر العظيم والرزق الكريم . وتكلمنا عن الهجرة مفصلاً عند تفسير الآية ١٩٥ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢٣٣ ، والآية ٩٧ من سورة النساء في المجلد المذكور ص ٤١٧ وما بعدها .

(ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حلیم) . المراد بالمدخل الجنة ، وبداية أن من دخلها سعد بها ، ولا يرضى عنها حولاً (ذلك) إشارة إلى ما ذكره سبحانه من أن من هاجر في سبيله وقتل أو مات فإن له ما يرضيه عند خالفه (ومن عاقب بمثل ما عوقب به) أي قاتل دفاعاً عن نفسه (ثم بغي عليه) لا شيء إلا لأنه لم يستسلم للظلم والعدوان (لينصرنه الله) أي أنه تعالى ينصر المبغي عليه ، وينتقم له من الباغي (وإن الله لعفو غفور) فيه إيماء إلى

سورة الحج

ان العفو عن المسيء عند الظفر به محبوب عند الله ، هذا اذا كان الاعتداء على حق خاص ، اما الحق العام فلا عفو عنه .

(ذلك بأن الله يوليح الليل في النهار ويوليح النهار في الليل وأن الله سميع بصير) . تقدم مثله في الآية ٢٧ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٣٧ . وذكر المفسرون أكثر من وجه لربط هذه الآية بما قبلها ، ولكنهم لم يأتوا بما تركز اليه النفس .. وفي المقدمة ج ١ ص ١٥ أشرنا الى ان القرآن ليس كتاباً فنياً ، فيكون لكل مقصد من مقاصده باب خاص ، وانما هو كتاب هداية ووعظ ينتقل من شأن الى شأن ، قال الإمام علي (ع) : ان الآية يكون أولها في شأن وآخرها في شأن آخر .

(ذلك بأن الله هو الحق وان ما يدعون من دونه هو الباطل وان الله هو العلي الكبير) . الله هو الحق لدوام ذاته وعظيم صفاته، وهو العلي حيث لا سلطان فوق سلطانه ، وهو الكبير الذي وسع كل شيء قدرة وعلماً ورحمة ، والقصد من ذكر هذه الصفات هو الامحاء الى ان الله تعالى ينصر الذين آمنوا واتقوا ، ويخذل الذين كفروا وأفسدوا في الأرض .

(ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فتصبیح الأرض مخضرة ان الله لطيف خبير) . تقدم مثله في الآية ٥ من هذه السورة ، والآية ١٦٤ من سورة البقرة وغيرها (له ما في السموات وما في الأرض وان الله هو الغني الحميد) . غني عن العالمين وحمد الحامدين ، وفي نهج البلاغة : هو الغني بلا استفادة أي ان غناه تعالى ذاتي لا نسبي ، وانه لو احتاج الى شيء لم يكن إلهاً ، وقال ابن عربي في الفتوحات المكية : لا محمود إلا من حمده الحمد . يريد ان الله هو الحمد ، وانه لا أحد يستحق الحمد والثناء إلا من حمده الله أو رضي بأن يُحمد ويثنى عليه.

بسمك السماء ان تلعع الآية ٦٥ - ٧٠ :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ

بَأْمَرِهِ وَيُنْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَوُّوفٌ رَحِيمٌ * وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ * لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَارِعُشْكُ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ * وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ *

اللفظة :

المنسك موضع العبادة ، وناسكوه على حذف حرف الجر أي ناسكون فيه .
والمراد بالمنسك هنا الشريعة والمنهاج ، وناسكوه أي عاملون أو ملتزمون به .

الإعراب :

الفلك بالنصب معطوفة على ما في الأرض أي وسخر الفلك ، وجملة تجري حال من الفلك . والمصدر من ان تقع مفعول من أجله ليمسك أي كراهة الوقوع على الأرض . وهم ناسكوه مبتدأ وخبر والجملة صفة لمنسكاً .

المعنى :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) .
تقدم مثله في الآية ٣٢ من سورة إبراهيم ج ٤ ص ٤٤٨ . والآية ١٣ و ١٤ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٠٢ .

سورة الحج

(ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بأذنه ان الله بالناس لرؤوف رحيم) .
أمسك سبحانه الكواكب بنظام الجاذبية ، كما أمسك الطير في الجو بجناحيه ، وأسند
الامساك اليه تعالى لأنه خالق الكون ، ومسبب الأسباب ، وفي بعض الآيات عبر
عن هذه الأسباب بأيدي الله ، قال تعالى : « انا خلقنا لهم مما عملت أيدينا
أنعاماً - ٧١ يس . » وقال : « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي » - ٧٥ ص .
وعلى أية حال فان الغاية من قوله تعالى : (ويمسك السماء الخ) هي الإشارة الى
ان على الانسان أن يطيل الفكر في خلق الكون ، وكيف أنقذه تعالى بقدرته ،
ودبره بلطفه وحكمته ، ولولا هذا اللطف والتدبير لاختل نظام الكون ، وأصبح
بجميع كواكبه هباء منبثاً .

(وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور) . تقدم في
الآية ٢٨ من سورة البقرة ج ١ ص ٨٦ فقرة « موتان وحياتان » أما وصف
الانسان بالكفور والظلم والفخور ونحوه فليس تحديداً لحقيقته وهويته ، بل هو تفسير
لسلوكه في بعض مواقفه . أنظر تفسير الآية ٩ من سورة هود ج ٤ ص ٢١٢
وما بعدها .

(لكل أمة جعلنا منسكاً هم فاسكوه) . المراد بكل أمة أهل الأديان ،
والمسك يطلق على ما يُذبح لوجه الله من الانعام كما في الآية ٣٤ من هذه السورة
وأيضاً يطلق على مكان العبادة ، وعلى الشريعة والمنهج ، وهذا المعنى هو المراد
هنا لقوله تعالى بلا فاصل : (فلا ينازعنك في الأمر) أي ما دام لكل أهل ملة
شريعة ومنهاج فعلى أهل الأديان والملل ان لا ينازعوك يا محمد في الاسلام وشريعته ،
فقد كانت شريعة التوراة والانجيل للأصفيين ، أما شريعة القرآن فهي لأهل العصر
الذي نزل فيه ، ولكل عصر الى يوم يبعثون (وادع الى ربك) ولا تنهم باعراض
من أعرض ، ونزاع من نازع (انك لعلى هدى مستقيم) ومن اتبع هداك فلا
يضل ولا يشقى .

(وان جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون الله ينحكم بينكم يوم القيامة فبما كنتم
فيه تختلفون) . أمر الله نبيه الكريم أن يمضي في دعوته ، واذا نازعوه عتوا
وعناداً أن يعرض عنهم ويقول لهم : الله أعلم بعملنا وعملكم ، وبالمهتدين منسا
ومنكم ، وهو الحكم في يوم الفصل ، وفيه تعرفون الحق من المبطل .

الجزء السابع عشر

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ) . الخطاب لرسول الله (ص) والمراد تهديد الكافرين بأن ما قالوه وفعلوه وأضمره من الكفر والكيد لنبي الله فهو مسجل ومحفوظ عنده تعالى ، وسيحاسبهم عليه ، ويجازيهم بما يستحقون (ان ذلك على الله يسير) .

ويعبدون من دون الله الآية ٧١ - ٧٦ :

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَنَا لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ
وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي
وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ
آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْبَشُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَُمُ النَّارِ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَيُنْسِ الْمَصِيرَ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ
الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ * مَا قَدَرُوا
اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا
وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى
اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ *

اللغة :

السلطان الحجة والبرهان . والمنكر هنا الكراهة التي هي أثر الانكار . ويسطون
يبطشون . ويصطلي يختار .

الإعراب :

سلطاناً تميز لأنه بمعنى من سلطان . وفي الآية ٧١ من سورة الأعراف : ما نزل الله بها من سلطان . ومن نصير (من) زائدة إعراباً ونصير مبتدأ ، وللظالمين خبر مقدم . وبينات حال من آياتنا . والنار مبتدأ وجملة وعدها خبر . وحق قدره مفعول مطلق لقدروا لأنه مضاف الى مصدر الفعل ، وهو قدره .

المعنى :

(ويعبدون من دون الله ما لم يترزأ به سلطاناً وما ليس لهم به علم) . ان العلم بالشيء ، أي شيء، لا يخلو اما أن يكون علماً بديماً ، وهو الذي يحصل للانسان بمجرد أن يتصور الشيء مثل ان المثلث غير المربع ، والمربع غير المستدير ، واما أن يكون نظرياً مثل ان الارض تدور حول الشمس ، والمراد بالسلطان في الآية الادلة النظرية ، وبالعلم الفطرة والبداية ، والمعنى ان المشركين عبدوا الاصنام وما اليها دون أن يستندوا الى النظر والاستنباط ، أو الى الفطرة والبداية ، وقد ظلموا الله بعبادة الاصنام حيث جعلوا له شريكاً ، وظلموا أنفسهم لأنهم عرضوها لغضب الله وعذابه (وما للظالمين من نصير) في يوم الحساب والجزاء .

(واذا تلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) . ضمير عليهم يعود الى الذين يعبدون من دون الله .. وكانوا اذا سمعوا من النبي أو المؤمنين آيات القرآن وغيرها من الحجج على التوحيد ونبوة محمد (ص) - انعكست على وجوههم علامات الغيظ والحقد ، وهما ان يبطشوا بمن سمعوا منه الدلائل والبينات (قل أفأنبئكم بشر من ذلك النار وعدها الله الذين كفروا وبش المصير) . أمر سبحانه نبيه الكريم أن يقول هؤلاء الحائقين : اذا صعب عليكم الاستماع الى الحق فان نار جهنم عليكم أشد وأعظم .

صفحات الوجه ونظرات العينين :

لا شيء أثقل على المبطل من كلمة الحق . وانتصار أهله على الباطل ، وبالخصوص

إذا عجز المبطل عن المقاومة والدفاع.. انه يسكت مرغماً، وهو يذوب كمدأ، ويحاول ان يتأسك ويتالك ويظهر بمظهر اللامبالاة ، ولكن نفضحه الدلائل التي تنعكس على صفحات وجهه ، ونظرات عينيه .. والانسان قد يكذب ويخادع الناس في أقواله وأفعاله ، لأنه يتحكم بلسانه ويحركه كيف يشاء ، وأيضاً يتحكم يديه ورجليه ويحركها كما يريد ، وان كانت حركة اللسان أخف عليه وأيسر .. شيء واحد لا يمكن التحكم فيه والاملاء عليه ، وهو القلب سائماً كان أو سقيماً ، فإن أحب أو كره ظهرت الآثار على الوجه واللين جليلة واضحة لا تخفيها الابتسام المصطنع ولا الكلام المعسول ، ومن أجل هذا كانت المقياس الصحيح لما في داخل الانسان دون الأقوال وكثير من الأفعال .

(يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله ان يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه) . بعد ان ذكر سبحانه ان المشركين أثبتوا لأصنامهم صفة الألوهية من غير دليل - ذكر في هذه الآية دليلاً حسيماً على نفي هذه الصفة ، يدركه الجهال والأطفال ، وهو ان الذباب أحقر وأضعف مخلوق ، ومع هذا لو اخذت ذبابة واحدة شيئاً من الأصنام ، ثم اجتمعت الأصنام بكاملها وأعلنت الحرب على الذبابة لتسترد ما أخذته منها ، لو حصل ذلك لكانت الذبابة هي الغالبة ، والأصنام كلها مغلوبة، وبالاولى ان لا تخلق ذبابة أو جناحها (ضعف الطالب) وهو الأصنام (المطلوب) وهو الذبابة .. اذن : فكيف تكون الأصنام آلهة ؟

وتسأل : ان الأصنام تحمل معها الدليل على انها ليست بآلهة، فلماذا اهتم القرآن بإيراد الأدلة على ذلك ؟

الجواب : ان نفي الألوهية عن الأصنام من البديهيات في منطق العقل، والذين عبدوها واتخذوها آلهة لم يعبدوها بدافع من العقل، بل بدوافع أخرى كالتقليد والتربية والمصلحة ، وما إلى ذلك من الدوافع التي لا تبالي بالنقد مهما يكن صائباً .

حول عقيدة التوحيد :

شعرت : وأنا أفسر آي الذكر الحكيم اني كلما تقدمت في التفسير فتسبح الله

سورة الحج

عليّ أبواباً من المعرفة بأسرار القرآن وعجائبه التي لا تقف عند حد ، فكثير من الآيات تكررت في كتاب الله بلفظها أو بمعناها ، فأشرح في المرة الأولى المعنى بما أفهمه من اللفظ والسياق وغيره من القرائن . وفي المرة الثانية أعطف الآية المكرورة على ما تقدم مع الإشارة الى اسم السورة ورقم الآية السابقة ، أو أفسرها بأسلوب ثانٍ ، وقد اتبته في المرة الثانية أو الثالثة الى جهة في الآية كانت قد خفيت عليّ من قبل وعلى جميع المفسرين ، وبالأصح على أصحاب التفسير التي لدي .

وأكثر الآيات تكراراً في كتاب الله هي الآيات الدالة على وحدانية الخالق ، والتنبيد بالشرك وأهله ، فقد ذكرها سبحانه بكل أسلوب وبشئ الصور، وتكلمت عن التوحيد ونفي الشرك في المجلد الثاني ص ٣٤٤ بعنوان « دليل التوحيد والأقائم الثلاثة » ، ثم عدت الى الموضوع بأسلوب آخر في المجلد الرابع ص ٣٩١ بعنوان « عقول الناس لا تفهمهم عن دين الله » ، وأيضاً أوردته بأسلوب ثالث في تفسير الآية ٣١ من هذه السورة ، وبأسلوب رابع وخامس حسب المناسبات، وأعود اليه الآن بالبيان التالي :

ان الهدف الرئيسي للإسلام هو أن يربط الانسان بخالقه يستلهم منه الهداية فيما يعتقد ويفكر ، وفيما يقول ويفعل ، ويتجه اليه في ذلك كله ، ومن أجل هذا حارب الاسلام الشرك ، واعتبره كبيرة الكبائر ، وجريمة لا تغفر ، كما اعتبر الرياء والعمل لغير وجه الله في حكم الشرك ، وأخذ المشركين بأقصى العقوبات وأشدّها ، وليس من شك ان إيمان الناس ، كل الناس بإله واحد، وأنهم يتحركون بارادة واحدة يقتضي بطبيعة الحال أن يكونوا جميعاً على دين واحد وشرعة واحدة لا أحقاد دينية ، ولا نعرات طائفية، ولا انحياز باسم الدين والمذهب .. أما الإيمان بتعدد الآلهة ، وان البشرية تتحرك بارادات كثيرة فان هذا يستدعي بطبيعته الشقاق والتناحر بين بني الانسان .. فالاسلام - اذن - بدعوته الى عقيدة التوحيد يهدي الانسانية الى الأساس الذي يبتني عليه الحب والاخاء ، والأمن والهناء .. هذا، الى ان الإله الواحد الذي يدعو الاسلام الى عبادته والعمل بشريعته هو الإله العالم الحكيم والعدل الرحيم يجب الخير لجميع الناس على السواء ، ويكره الشر بشئ صورته ومظاهره ، ويمجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، والذين أساءوا بما كانوا يعملون .

(ما قدروا الله حق قدره) لأنهم عبدوا غيره ، وعصوا أمره (ان الله لقوي عزيز) ينتقم منهم ولا يجادلون من دونه ولياً ولا نصيراً (الله يصطفي من الملائكة رسلاً) كجبريل ينزل بالوحي على النبيين (ومن الناس) وأيضاً اصطفى الله رسلاً من الناس يدعون الى مرضاته (ان الله سميع بصير) يسمع أقوالهم ، ويعلم ما يضمرون وما يفعلون (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) . هذا كتابة عن انه تعالى لا تخفى عليه خافية ، وهو شرح وتفسير لقوله : ان الله سميع بصير (والى الله ترجع الأمور) . منه البداية ، واليه النهاية . وتعبير ثانٍ انا لله وانا اليه راجعون .

واضلوا الخبر لعلمكم تفلحون الآية ٧٧ - ٧٨ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ *

اللغة :

اجتباكم اختاركم . والحرج الضيق . والملة الدين . واعتصموا بالله تمسكوا بدينه .

الإعراب :

حق جهاده مفعول مطلق لجاهدوا لأنه مضاف الى الجهاد . ومن حرج (من) زائدة اعراباً وخرج مفعول لجعل . وملة مفعول لفعل محذوف أي اتبعوا ملة ابراهيم .

(يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا في الله حق جهاده) . خاطب سبحانه في هذه الآية الذين صدّقوا به وبنّيه ، خاطبهم بأن مجرد التصديق لا يجديكم نفعاً إلا اذا جمعتم بين أوصاف أربعة : الأول أن تحافظوا على اقامة الصلاة لله وحده ، وهذا هو المراد بقوله : اركعوا واسجدوا . الثاني أن تجنبوا محارم الله ، كالنفاق والخيانة واثارة الفتن والافتراء على الأبرياء وتدبير المؤامرات للتخريب والفساد ، وهذا المعنى هو المقصود بقوله : واعبدوا ربكم . الثالث أن تفعلوا الخير ، كإغاثة الملهوف وإصلاح ذات البين والتعاون على الصالح العام ، وهو المعنى بقوله : وافعلوا الخير . الرابع أن تجاهدوا بأنفسكم وأموالكم أعداء الله والانسانية . ومتى اجتمع في الانسان هذه الخصال فهو من أهل الفلاح والصلاح ، وتقدم أكثر من مرة ان كلمة لعل من الله تفيد الحتم والوجوب ، ومن غيره تفيد الاحتمال والرجاء .

(هو اجتباكم) ضمير هو لله ، والخطاب في اجتباكم للمسلمين ، ووجه الاجتباء والاختيار انه تعالى خصهم بسيد الرسل وخاتم النبيين وشريعته الخالدة بشمولها ويسرها (وما جعل عليكم في الدين من حرج) . هذا أصل من أصول الشريعة الاسلامية تتجلى فيه سمعتها ولينها ومرونتها . وفي الحديث : « ان دين الله يسر » لا عسر فيه ولا مشقة ، وهذا هو دين الفطرة ، وقد فرع الفقهاء على هذا الأصل العديد من الفتاوى والاحكام في جميع أبواب الفقه ، واشتهر على ألسنتهم وفي كتبهم : الضرورات تبيح المحظورات .. الضرورة تقدر بقدرها .. الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف .. يتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام .. ومن أجل ذلك مظاهر اليسر في الاسلام انه لم يقم بين الانسان وخالفه أية واسطة ، كما هو شأن الأديان الأخرى .

(ملة أبيكم ابراهيم) . المراد بالملة الدين . ودين ابراهيم يدخل في الاسلام بجميع أصوله ، وكثير من شريعته وفروعه ، و ابراهيم (ع) هو الأب الحقيقي للأنبياء ، والروحي لأهل الأديان السماوية بالنظر الى سبقه وتقدمه ، واتفاق الجميع على نبوته وتعظيمه .

(هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا) قيل : ضمير « هو » سماكم يعود الى ابراهيم ، وان « في هذا » متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف أي وفي هذا شرف لكم ، والجملة مستأنفة . وقيل : « هو » يعود الى الله تعالى وان الإشارة في قوله : « وفي هذا » الى القرآن ، والمجرور متعلق بفعل محذوف معطوف على سماكم ، والتقدير ان الله سماكم يا أمة محمد المسلمين في الكتب المتقدمة على القرآن : وأيضاً سماكم المسلمين في القرآن .. وكلا التفسيرين جائز لأن ابراهيم (ع) يتكلم بلسان الله . انظر تفسير قوله تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام - ١٩ آل عمران » ج ٢ ص ٢٦ .

(ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس) . الحاكم غداً هو الله ، والشاهد الأول رسول الله ، والشاهد الثاني أهل العلم بالله ، والرسول يشهد على أهل العلم بالله انه بلغهم عن الله ليعملوا ويبلغوا أمة محمد (ص) وغيرها من الأمم ، وأهل العلم يشهدون على أمة محمد وغيرها انهم بلغوا ما بلغهم الرسول ، فان قصر أحد من العلماء عن العمل أو التبليغ ، أو من الذين بلغهم العلماء فقد باء بغضب من ربه ومأواه جهنم وبئس المصير . وتقدم مثله في الآية ١٤٣ من سورة البقرة ج ١ ص ١٢٤ (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) هذا تأكيد لما تقدم في الآية السابقة (واعتصموا بالله) تمسكوا بطاعته ، وابتمدوا عن معصيته ، وفي نهج البلاغة : من العصمة تمر المعاصي (هو مولاكم) ان اطعتم واستقمتم (فنعم المولى ونعم النصير) لمن تولاه واتكل عليه لا على سواه .

الجزء الثامن عشر

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

١١٨ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صفات المؤمنين الآية ١ - ١١ :

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ
الْفُحْشِ مَغْرَضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ *
فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ
الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *

اللغة :

الفر ما لا فائدة فيه من الكلام . والمراد بملك اليمين الإماء . والعادون الذين
يتجاوزون الحدود . الراعون الحافظون . والوارثون الذين يستحقون الجنة تماماً كما
يستحق الوارث ميراث قريبه . والفردوس الجنة .

الإعراب :

الذين هم في صلاتهم عطف بيان من « المؤمنون » . وعلى أزواجهم متعلق بحافظون » . وما ملكت استعملت « ما » فيمن يعقل . والذين يرثون بدل من « الوارثون » . وجملة هم فيها خالدون حال .

المعنى :

كل من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله كان له ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم في هذه الحياة ، أما في الآخرة فلن يفوز بثواب الله ورضوانه إلا اذا جمع بين الخلال التالية :

١ - (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) . الخشوع والخضوع ضد الاستعلاء والكبرياء ، قال تعالى : « خاشعين من الذل - ٤٥ الشورى » . والخشوع في الصلاة نتيجة اليقين بالله والخوف من عذابه ، والصلاة بلا يقين ليست بشيء ، قال الإمام علي (ع) : نوم على يقين خير من صلاة في شك .

٢ - (والذين هم عن اللغو معرضون) . ان المؤمن الحق في شغل بطاعة الله عن اللغو والباطل . قال الامام علي (ع) : ان اولياء الله هم الذين نظروا الى باطن الدنيا اذا نظر الناس الى ظاهرها ، واشتغلوا بأجلها اذا اشتغل الناس بعاجلها . وقال : من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره .

٣ - (والذين هم للزكاة فاعلون) . انظر ما كتبناه في الزكاة ج ١ ص ٤٢٨ .

٤ - (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم او ما ملكت أيماهم فانهم غير ملومين) . المراد بملك اليمين الإماء ، ولا اثر لمن اليوم ، والزنا من الكبائر والفواحش في شريعة الاسلام ، وما فشا في مجتمع إلا كان مصيره الى الانحلال (فن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) أي من طلب نكاح غير زوجته وأمه فقد تجاوز حدود الله ، واستحق غضبه وعذابه .

وتسأل : هل قوله تعالى : « فن ابتغى وراء ذلك » يشمل الاستمناء باليد المكنى عنه بجلد عميرة ؟

الجواب : أجل ، يشمله لأن الله سبحانه أباح الزوجة والأمة ، وحرم ما عداهما أياً كان ، ولذا أفتى الفقهاء بتحريمه إلا الحنفية والحنابلة فقد أجازوه لمن يخاف الوقوع في الحرام - روح البيان لاسماعيل حفي - ومثل الإمام جعفر الصادق (ع) عن الاستمناء ؟ قال : هو أثم عظيم ، قد نهى الله عنه في كتابه ، ولو علمت بمن يفعله ما أكلت معه . قال السائل : أين هو في كتاب الله يا ابن رسول الله ؟ فقرأ الإمام : فمن ابتغى وراء ذلك الخ ثم قال : والاستمناء وراء ذلك .

٥ - (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) . تكلمنا مفصلاً عن الأمانة ووجوب تأديتها بشئ أنواعها عند تفسير الآية ٥٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٥٥ ، أما العهد فهو كل ما أمر الله به ونهى عنه ، قال تعالى : « وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم - ٤٠ البقرة » .

٦ - (والذين هم على صلواتهم يحافظون) . يواظبون عليها في أوقاتها ، وتكلمنا عن الصلاة مفصلاً عند تفسير الآية ٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٤٧ ، وأيضاً عند تفسير الآية ١١٠ من نفس السورة والمجلد ص ١٧٥ .

(اولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) . فأني مؤمن جمع بين الخصال المذكورة فقد استحق الجنة بعمله كما يستحق الوارث الميراث من قريبه ، وأين تراث الدنيا وحطامها الزائل من تراث الآخرة ونعيمها الدائم ؟

خلق الانسان والسموات الآية ١٢ - ١٧ :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا* ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكِ اللَّهُ أَحْسَنُ

الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ *
وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ *

اللغة :

السلالة ما يستخرج من الشيء . والمراد بالطرائق السموات لأن بعضها فوق بعض ، يقال : طارق بين الثوبين اذا لبس أحدهما على الآخر .

الإعراب :

من سلالة متعلق بخلقنا ، ومن طين بمحذوف صفة للسلالة . وجعلناه تعدى الى مفعولين لأنها بمعنى صبرناه ، وكذلك خلقنا الطلقة علقه ، فخلقنا المضفة عظاماً . وكسونا أيضاً تعدى الى مفعولين . وخلقاً مفعول مطلق لأنشأناه لأنها مثل قت وقوفاً . وأحسن الخالقين صفة لله ، وان كانت الاضافة هنا لا تفيد تعريفاً لأن كلمة أحسن الخالقين لا تطلق إلا عليه تعالى ، بل لا خالق سواه . وبعد ظرف متعلق « بميتون » .

الله والانسان :

أشار سبحانه الى خلق الانسان في العديد من آي الذكر الحكيم ، لا نعرف من أين وكيف وجدنا ، وما هي حقيقتنا والأدوار التي نمر بها وكفى ، بل لنذكر عظمة الخالق في خلقنا نحن ، كما نذكرها في خلق السموات والأرض ، فتؤمن به ، ونسبح على هداه طمعاً في ثوابه ، وخوفاً من عقابه ، ومن هذه الآيات :
« هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً - ١ الانسان .. أجل ، لم يكن الانسان ثم كان ، أما الذي كونه ، ونقله من العدم الى الوجود فبيننا عنه خالق الكون

حيث قال : (ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين) .

عرض ، جلت عظمته ، في هذه الآية النشأة الأولى للانسان ، وكيف انتقل به سبحانه من طور الى طور ، والمهدف الأول من ذلك أن ندرك الدلائل على وجود الخالق وعظمته ، أن نفكر وننظر الى هذا المخلوق العجيب في سورته وهيبته ، وفي عقله وإدراكه ، هذا الانسان صاحب التاريخ والحضارات ، هذا الكائن الذي يملك من القوى والطاقات ما لا يملكه مخلوق ، والذي خاطبه العارفون بهذا التعظيم : « وفيك انطوى العالم الأكبر » هذا العجيب من أين أتى ؟ ومن أي شيء خلق ؟ ونجيبنا الآية بأنه خلق من طين ، من تراب وماء ، من الأصل الذي خلقت منه الحشرات والنباتات .. وهنا يكمن الدليل والبرهان ، فإن الشيء الواحد لا ينشئ شيئين متناقضين : الإدراك واللاإدراك ، والعمى والبصر .. إذن هناك سر ، ولا تفسير لهذا السر الا بقوة قادرة عالمة وراء هذا الشيء الواحد ، وهذه القوة هي التي فرقت وميزت بين الشيئين المتناقضين اللذين 'خلقاً من أصل واحد' ، وبعد هذه الإشارة الى المهدف من الآيات الواردة في خلق الانسان نبين المعنى المراد من الآيات التي نحن بصدها .

(ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين) . المراد بالانسان هنا ابن آدم ، لا آدم بالذات لأن سياق الكلام ، وهو قوله تعالى : « ثم جعلناه نطفة » يحتم ذلك .. وآدم وأبناؤه كلهم من طين ، من تراب وماء ، والفرق أن آدم خلق منها مباشرة ، وأبناؤه بواسطة الأغذية التي تتوالد من الأرض والماء .

(ثم جعلناه نطفة في قرار مكين) في أصلاب الآباء ، ومنها الى أرحام الأمهات (ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة) تقدم في الآية « من سورة الحج . (فخلقنا المضغة عظاماً) . قسم المضغة الى عظام وعروق ولحم ، ثم خلق من المجموع أعضاء عديدة ومتنوعة ، والتفصيل في علم التشريح (ثم أنشأناه خلقاً آخر) انساناً سوياً مابيناً في شكله وحقيقته لخلق الأول (فبارك الله أحسن الخالقين) . ولا شيء أدل على هذه الحقيقة من خلق الكون بنظامه الثابت ، ومن

سورة المؤمنين

خلق الانسان بيانه وقلبه وعقله .. ونكرر ما قلناه مراراً : انه قد جرت عادة القرآن الكريم أن يسند التغيرات الكونية الى الله لأنه ، جلت عظمته ، السبب لخلق الكون (ثم انكم بعد ذلك لميتون) ومن مات فرجعه الى خالقه (ثم انكم يوم القيامة تبعثون) وتسالون عما كنتم تعملون .

معنى السموات السبع :

(ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) . المراد بالطرائق السموات لأن بعضها فوق بعض .. عند تفسير الآية ٢٩ من سورة البقرة قلت : ان ذكر السبع لا يدل على حصر السموات بها ، وان السبب لذكرها بالخصوص قد يكون لخصائص فيها .. اكتفيت بهذا القول آنذاك لأنني لا أعلم أكثر منه ، فانا من أهل الاختصاص بعلم الفلك ، ولما وصلت الى تفسير هذه الآية قرأت مقالاً علمياً في جريدة الأخبار المصرية تاريخ ١٧ تموز سنة ١٩٦٩ بعنوان : « الله والانسان والقمر » جاء فيه ما يلي :

« ثبت علمياً ان في الفضاء أكوأناً غير الكون الذي نعيش فيه - أي المجموعة التي نراها من الكواكب بالعين المجردة أو بواسطة المكبر - وان في كل كون من تلك الأكوأان الأخرى شمساً أقوى من الشمس التي تشرق كل يوم لتضيء هذه الكرة الأرضية ، ويدور حول تلك الشمس عدد من النجوم في جاذبيتها .. ولا يمكن الوصول الى كوكب من كواكب تلك الاكوأان الأخرى على الاطلاق مع العلم بأننا استطعنا بالأجهزة العلمية ان نثبت وجودها، والسر في عجزنا هذا ان شمس تلك الاكوأان ونجومها تبعد عنا ملايين السنين الضوئية .. فلو افترضنا ان الانسان يمكن أن يسافر بسرعة الضوء فإنه يحتاج الى ملايين السنين ليستطيع الوصول الى أقرب كوكب من كواكب تلك الأكوأان .. هذه حقيقة أثبتها العلم ، وأجمع عليها العلماء المتخصصون حديثاً » .

وعلى هذا يكون المراد بالسموات السبع الاكوأان الفضائية العلوية السبعة ، وليس الكواكب السبعة ، وان لكل كون فضائي علوي مجموعة من الكواكب التي لا يحصى عددها، وان الانسان لا يستطيع الوصول اليها لأنه لا يعيش ملايين السنين .

أما الارضون السبع التي اشارت اليها الآية ١٢ من سورة الطلاق فهي في الاكوان السبعة أي في كل مجموعة من الكواكب لكل كون كوكب أرضي .

وانزلنا من السماء ماء الآية ١٨ - ٢٢ :

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ
لَقَادِرُونَ* فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ
كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ* وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ
وَصَبْغٍ لِلْأَكْلِينَ* وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا
وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ* وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ*

اللفظ :

بقدر أي بمقدار معلوم . والمراد بالشجرة هنا شجرة الزيتون . وطور سيناء
الجليل الذي ناجى فيه موسى ربه ، وعبر سبحانه عنه في الآية ٢ من سورة التين
بطور سينين . والصبغ الغمس ، والمراد به هنا الزيت يغمس فيه الخبز .

الإعراب :

شجرة عطف على جنات أي وأنشأنا شجرة . وسيناء ممنوعة من الصرف للعلمية
والتأنيث . وقيل : بالدهن متعلق بمحذوف حالاً أي وفيها الدهن ، مثل ركب
الأمير بجنده أي ومعه جنده ، والأولى أن تكون « تنبت » متضمنة معنى تخرج
لأنها تعدت الى الدهن بالباء ، وعليه يكون بالدهن متعلقاً بتنبت .

المعنى :

(وأنزلنا من السماء ماء بقدر) . بعد أن قال سبحانه : وما كنا عن الخلق غافلين ضرب لذلك مثلاً بانزال الماء بمقدار ما ينتفع به الناس ، لا هو بالكثير فيفسد ، ولا بالقليل فيتضرر الزرع والضرع (فأسكنناه في الأرض) في العيون والآبار والجدول والأنهار لتنتفعوا به في غير فصل الشتاء (وإنا على ذهاب به لقادرون) . ان الذي أنزله عليكم قادر على أن يمنعه عنكم ، أو يجعله غوراً فلا يجديكم نفعاً ، ولكنه لم يفعل رحمة بكم .

(فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون) رطباً وتراً من النخيل ، وعناباً وزيبياً من الأعناب ، وخص النخيل والأعناب بالذكر لأن العرب كانوا يعجبون بهما ولا يكادون يعرفون غيرهما (وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكليين) . المراد بالشجرة هنا شجرة الزيتون ، وطور سيناء الجبل الذي ناجى فيه موسى ربه ، والمراد به البقعة التي هو فيها .. وفي الزيتون فوائد ، منها انه طعام بذاته ، وأيضاً يستخرج منه الزيت اداماً ، وقال كثير من المفسرين : ان الله سبحانه خص هذه الأنواع الثلاثة بالذكر لأنها أكرم الأشجار وأكثرها نفعاً ، والصحيح ما أشرنا اليه من انها كانت أكثر انتشاراً من غيرها عند العرب . وتقدم نظير هذه الآيات أكثر من مرة . أنظر الآية ١٠ وما بعدها من سورة النحل ج ٤ ص ٥٠١ .

(وان لكم في الأنعام) الإبل والبقر والغنم والمعز (لعلية) آية تعتبرون بها (نسقيكم مما في بطونها) ألباناً (ولكم فيها منافع كثيرة) من ذلك أصوافها وأشعارها وأوبارها (ومنها تأكلون) أي من لحمها (وعليها وعلى الفلك تحملون) من مكان الى مكان . تقدم في عديد من الآيات . أنظر تفسير الآية ٥ وما بعدها من سورة النحل ج ٤ ص ٤٩٨ .

نوح الآية ٢٣ - ٣٠ :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ

إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا
إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً
مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا
بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ
اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ
فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ
وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ
مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ
رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
وَأَنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ *

اللفظة :

المَلَأَ رؤوس القوم . أن يتفضل أن يكون له الفضل . جنة جنون . فترَبَّصُوا
فانتظروا . بأعيننا برهائنا . والمراد بالتنور هنا وجه الأرض . والاستواء الاستقرار .
واسلك ادخل . ومبتلين مخبرين .

الإعراب :

ما لكم من إله (من) زائدة إعراباً وإله مبتدأ . والمصدر من أن يتفضل
مفعول يريد أي يريد الفضل . ان هو (ان) نافية وهو مبتدأ وخبره رجل ،

سورة المؤمنين

وبه جنة مبتدأ وخبر والجملة صفة لرجل . ورب أصلها يا ربي . وان أصنع (ان) مفسرة لأوحينا . وبأعيننا متعلق بمحذوف حالاً من القلك أي محفوفة بأعيننا . وكل بالتثنية أي من كل نوع . وزوجين مفعول اسلك . واثنين تأكيد لزوجين . ومترلاً مفعول فيه لأنه اسم مكان ، وإذا كان بمعنى انزال فهو مفعول مطلق . وان كنا (ان) مخففة وأصلها إنا واسمها (نا) وجملة كنا خبر .

المعنى:

كل ما جاء في هذه الآيات قد سبق ذكره في سورة هود من الآية ٢٥ الى ٤٩ ج ٤ ، وقد استغرق تفسيرها من صفحة ٢٢٢ الى ٢٣٧ . ولذا نمر مرأ سريعاً بها .

(ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) . دعاهم الى عبادة الله وحده ، وحذرهم من الشرك ، فخاف المترفون على مناصبهم ومكاسبهم من دعوته ، فأطلقوا الاشاعات الكاذبة ، وأثاروا حوله الشبهات الباطلة .. وقد ذكر سبحانه منها ثلاثاً :

١ - (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد ان يتفضل عليكم) . قالوا : كيف يكون نوح نبياً وهو بشر مثلكم ؟ انه لا يهدف من دعواه النبوة إلا ان يكون رئيساً عليكم وتكونوا مرؤسين له .. هذه هي لغة التجار يفسرون كل شيء بالربح .

٢ - (ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين) . ما سمعوا ان الله أرسل بشراً رسولاً .. وأيضاً ما سمعوا ان إله الكون واحد .. اذن ، فنوح ليس برسول ، والآلة كثيرة ، ومنها أصنامهم .. ولا فرق بين هذا المنطق، ومنطق من يقول : أنا لا أعترف بوجود المريح لأنني لم أصعد اليه .

٣ - (ان هو إلا رجل به جنة) . أطلقوا هذه الاكذوبة ، وهم على يقين منها، تماماً كما كانت قريش على يقين من افتراءها حين قالت عن رسول الله (ص) : ساحر ومجنون . (فترصبوا به حتى حين) . انتظروا بنوح حتى يموت أو يرجع عن دعوته .

(قال رب انصرني بما كذبون) التجأ اليه تعالى وطلب منه النصر عليهم بعد بأسه من هدايتهم (فأوحينا اليه ان اصنع الفلك بأعيننا) كناية عن حفظه تعالى السفينة ورعايته لها (ووحينا) أي أمرنا (فإذا جاء أمرنا وفار التنور) أي نبع الماء من الأرض (فاسلك فيها من كل زوجين اثنين) ذكرأ وأنثى (وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم) أي إلا امرأة نوح وابنه منها ، وقيل : اسمه كنعان (ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغفرون) لا تسألني نجاة أحد من الكفرة الصخرة لأن كلمة العذاب حقت عليهم جميعاً حتى امرأتك ولذلك .

(فإذا استويت انت ومن معك على الفلك) استقر بكم الحال ، وانتم في السفينة (فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين) . في هذه الآية درس هام ، وهو ان الله سبحانه إذا أهلك الطاغية فلا ينبغي ان يشمت المظلوم بهلاك ظالمه ، بل يحمد الله سبحانه على خلاص الناس من بغيه وطفياه ، وان ينظر الى هلاكه على انه وسيلة لا غاية (وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين) . أنزلني من السفينة وعند خروجي منها منزلاً تحفظني فيه من كل سوء أنا وأهلي ومن آمن بك ، وأنت خير من أنزل عباده بأحسن المنازل (ان في ذلك لآيات) . ذلك اشارة الى اهلاك قوم نوح ، ونجاته مع من آمن به ، والمراد بالآيات هنا المعبر والعظات لمشركي قريش وغيرهم (وان كنا لمتلين) أي انا قدس اخترنا العباد بإرسال الرسل وانزال الكتب ليميز الخبيث من الطيب ، وتجلى للعيان نوايا وأفعال كل منها ، فيثاب أو يعاقب باستحقاق .

هود الآية ٣١ - ٤١ :

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا

إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ
 أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ لَأَنْتُمْ إِذَا لَخَّسِرُونَ * أَيْعِدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ
 وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ * هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوعَدُونَ *
 إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنَّ هُوَ إِلَّا
 رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي
 بِمَا كَذَّبُونُ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَاخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ
 فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ *

اللفظة

القرن أهل العصر الواحد ، والمراد بهم عباد قوم هود . وأترقناهم نعمناهم
 من الترف وهي النعمة . هيات بَعْدُ . يصبحن يصرن . والصيحة العذاب .
 والغثاء ما يحمله السيل مما يمر به من الأشياء الخفيفة البالية . وبعداً هلاكاً .

الإعراب :

ان اعبدوا (ان) مفسرة لأن الارسال يتضمن معنى القول . ومخرجون خبر
 انكم اذا متم ، وانكم الثانية تأكيد لأنكم الأولى ، وتكررت للفواصل الطويل ،
 والمصدر من انكم الاولى واسمها وخبرها مفعول ثانٍ ليعدكم أي يعدكم الاخراج .
 وهيات اسم فعل بمعنى بعد ، ويحتاج الى فاعل ، وفاعله ضمير مستتر يعود الى
 الاخراج أي بعد اخراجكم . وعمّا قليل (ما) زائدة اعراباً وقليل مجرور بمن ،
 والمجرور متعلق بيصبحن والسلام لا تمنع من ذلك لأنها لمجرد التأكيد كما قال
 أبو البقاء في كتاب الاملاء . وبعداً مصدر في موضع الفعل أي بعدوا بعداً .

المضى :

(ثم انشأنا من بعدهم قرناً آخرين) . ضمير بعدهم يعود الى قوم نوح ، والمراد بالقرن هنا الجماعة ، ولم يصرح سبحانه باسمهم ، وقال المفسرون : المراد بهم عاد قوم هود ، وهذا هو الحق بدليل ما ورد في سورة الاعراف : « والى عاد أخاهم هوداً - الى قوله - واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح - ٦٩ » . وتقدم الكلام عن هود وقومه في سورة هود من الآية ٥٠ الى ٦٥ ج ٤ ص ٢٣٩ - ٢٤١ . ولذا نمر بالآيات التي نحن بصدد مداها مروراً خاطفاً كما مررنا بالآيات السابقة التي تحدثت عن نوح وقومه .

(فأرسلنا فيهم رسولاً منهم) . أرسل الله هوداً الى عاد ، وهو منهم وفيهم (ان اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) . دعا قومه الى التوحيد ، وترك الشرك مبشراً بمرضاة الله وثوابه ، ومنتراً بغضبه وعذابه (وقال الملأ من من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفاهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) وما دام كذلك فلا ميزة له ولا فضل ، فكيف تطيعونه ؟ (ولئن أطعتم بشراً مثلكم انكم اذا لخاسرون) هم الخاسرون ظاهراً وواقعاً بمعصيتهم نبي الله ، ولكنهم عكسوا الآية ، وشوهوا الحقيقة ، وهذا هو دأب المترفين الطغاة في كل زمان ومكان .

(أيعدكم انكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً انكم مخرجون) من قبوركم احياء تماماً كما أنتم الآن .. ان هذا شيء عجاب .. (هيهات هيهات لما توعدون) من الإحياء بعد الفناء (ان هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) لأن من مات فأت ، وهذا بيان وتأكيد لما قبله من استبعادهم البعث بعد الموت ذاهلين ان الذي أنشأهم أول مرة هو الذي يعيدهم ، وان ذلك أهون عليه من الانشاء ان صح التعبير (ان هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين) . لا يؤمنون لهود لأنه يزعمهم لا يتورع عن الكذب على الله ، أما عبادتهم الأصنام فهي عين الاخلاص لله ، والحرص على طاعته وتقواه !! وأخيب الناس سعيًا من أساء ، وهو يحسب انه قد أحسن الصنع .

(قال رب انصرني بما كذبون) قال هذا بعد اليأس من هدايتهم (قال

سورة المؤمنون

— الله — عما قليل ليصبحن نادمين) على شركهم وتمردهم حيث يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر (فأخذتهم الصيحة بالحق) المراد بالصيحة العذاب ، وقوله بالحق اشارة الى انهم استحقوا العذاب بما كسبت أيديهم (فجعلناهم غثاء) تماماً كالأشياء الخفيفة البالية التي يحملها السيل (فبعداً للقوم الظالمين) . بعدوا عن الله وطاعته ، فأبعدهم عن فضله ورحمته .

كلما جاء امة رسولها كذبوه الآية ٤٢ - ٥٠ :

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُلُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَآ يُؤْمِنُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ *

اللغة :

تترى من الوتر وهو الواحد أي واحداً بعد واحد . أحاديث جمع أحثوة أي يتحدث الناس بما جرى عليهم . السلطان الحجة . وعالين متكبرين . والربوة

المرتفع من الأرض . وذات قرار أي مستوية يستقر الناس عليها . والمعين المساء الجاري .

الإعراب :

نرى مصدر وضع موضع الحال من الرسل أي متواترين متتابعين، والفعل تواتروا . وبعضهم مفعول أول وبعضاً مفعول ثان ، وتعدت تبع الى مفعولين بواسطة همزة التعدية . وبعداً مصدر في موضع الفعل . وهرون بدل من وأخاه . ومثلنا صفة لبشرين ولم ين مثل لأن المراد به جنسنا .

المعنى :

(ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين) . ضمير بعدهم يعود الى عاد . وقرون أي جماعات ، وأول هذه الجماعات التي جاءت بعد عاد هي ثمود بدليل ما جاء في سورة الاعراف : هـ والى ثمود أخاهم صالحاً - الى قوله - واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد - ٧٤ هـ (ما تسبق من أمة أجلها وما يستأنحرون) . كل شيء ، ما عدا الله سبحانه ، له أمد وأجل ، لا يتقدم عليه ، ولا يتأخر عنه ، ومنه اهلاك الأمم التي كذبت رسلها ، وقد كان العذاب يأتيها بغتة دون تنبيه واشعار (ثم أرسلنا رسلنا تراء) . كانت الأمم تأنسي متتابعة الواحدة تلو الأخرى ، وكذلك الرسل كان الواحد منهم يأتي تلو الآخر، لأن الله سبحانه جعل لكل أمة رسولا .

(كلما جاء أمة رسولها كذبوه) أو قتلوه لالشيء إلا لأنه جاءهم بما لا تهوى أنفسهم ، كما نصت الآية ٨٧ من سورة البقرة : هـ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ، .. (فاتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحداث) . ضمير بعضهم وجعلناهم يعود الى الأمم التي كذبت رسلها ، والمعنى ان الله أهلك الأمم التي كذبت رسلها الواحدة تلو الأخرى ، وجعلها عبرة

سورة المؤمنون

لمن اعتبر ، وخبراً يتناقله الناس جيلاً بعد جيل (فبعداً لقوم لا يؤمنون) بالحق ولا يعملون به .

(ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا) ومنها انقلاب العصا ثعباناً ، ولعنان اليد (وسليمان مبيّن) الحجج الدامغة (الى فرعون ملكه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين) . وأي علو واستكبار أعظم من قول فرعون : أنا ربكم الأعلى .. ما علمت لكم من إله غيري .. وأكثر الناس أو الكسبر منهم يحملون هذه الروح الفرعونية ، ويدعون الربوبية لو تبيأ لهم ما تبيأ لفرعون ، ووجدوا من يستجيب لهم كما وجد (فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومها لنا عابدون) . ادعى فرعون الربوبية وسام الاسرائيليين سوء العذاب .. يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، وموسى وهرون من بني اسرائيل ، فكيف يكون تبعاً لها ؟ .

(فكذبوها فكانوا من المهلكين) . وكل امرئ يجهل قلره ويتجاوز حده قصيره الى الهلاك لا محالة (ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون) . المراد بالكتاب التوراة ، وضيم لعلهم لبني اسرائيل .. ولكنهم لم يهتدوا ولن يهتدوا بعد ان حرفوا التوراة واتبعوا الشهوات ، وملأوا الدنيا فساداً وضلالاً .. وقد تكررت قصة موسى وفرعون في كتاب الله مرات ومرات ، وبيننا السبب الموجب لذلك عند تفسير الآية ٩ من سورة طه ، فقرة : « تكرار قصة موسى » (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) عيسى معجزة لأنه خالق من غير أب ، وأمه معجزة لأنها حملت من غير ذكر . انظر ج ٢ ص ٦١ وما بعدها (وآتيناهما الى ربوة) المراد بها فلسطين لأن السيد المسيح (ع) ولد فيها ، وهي (ذات قرار ومعين) والقرار المكان الذي يستقر فيه الانسان ويطمئن ، والمعين الماء الجاري .

رب واحد ودين واحد الآية ٥١ - ٥٥ :

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطُّوا

أَمْرُهُمْ يَنْفَعُهُمْ زُبْرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْتُهُمْ فِي غَمَرَاتِهِمْ
حَتَّىٰ حِينٍ * أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا يُنْمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَيَنْتِنَ * تُسَارِعُ لَهُمْ
فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ *

اللمة :

المراد باللمة هنا الملة . وتقطعوا نفرقوا . وزبراً جمع زبور وهو الكتاب أي
افترقوا في اتباع الكتب والمراد بالغمرة هنا الجهل والضلال، وأصلها من غمرة الماء .

الإعراب :

هذه اسم ان ، وأمتكم خبرها ، وأمة حال ، وواحدة صفة لأمة . وزبراً
حال من أمرهم . وانما كلمتان أن وما بمعنى الذي وما اسم أن، وجملة تسارع
خبر ، والمصدر من أن واسمها وخبرها مفعول بحسبون .

المعنى :

في الآية ١٧٢ من سورة البقرة قال سبحانه للمؤمنين : « يا أيها الذين آمنوا
كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون » . وفي هذه
الآية قال للرسول : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً اني بما تعملون
عليم) . والفرض ان يبين سبحانه ان الدين الحق هو التقوى والعمل الصالح ،
لا التفتش والامتناع عن الملذات والطيبات .. وكل ما تستلذه وتميل اليه نفسك
فهو طيب وطاهر عند الله اذا لم ينه عنه ، تماماً كما هو طيب عندك .. وفي
الحديث : ان الله جميل يحب الجمال ، وان رسول الله (ص) كان يلبس ما تيسر
من الصوف والقطن والبرود البانية .. ولم يكن يرد طيباً ولا يتكلفه ، وقد أكل

سورة المؤمنون

الخلوى والعسل ، وكان يحبها ، وأكل لحم الجزور والضان والدجاج ، وأكل الفشاء والبطيخ بالرطب ، والتمر بالزبد وكان يحبه ، وأكل الخبز باللحم والكبد المشوية ، والثريد بالسمن .. وعلى الاجمال كان هديه (ص) أكل ما تيسر، وليس ما تيسر ، فان أعوزه صبر .. وأطيب الأشياء على الاطلاق هو الأكل من كد اليمين وعرق الجبين، قال الرسول الأعظم : من أطيب ما أكل الرجل من كسبه .

(وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) . لكلمة الأمة معان ، منها الجماعة كقوله تعالى : « كلما دخلت أمة لعنت أختها - ٣٨ الأعراف » ، ومنها الحين كقوله : « وادعكم بعد أمة - ٤٥ يوسف » أي بعد حين، ومنها الملة كما في الآية التي نحن بصدددها . وهذه في الآية اشارة الى ملة الأنبياء أجمعين ، والخطاب في أمتكم لكل الناس بدليل قوله تعالى بلا فاصل : « فتقطعوا أمرهم المنع ، والمعنى لماذا يتباغض الناس ويتفرقون شعباً ، فطائفة تنتسب الى موسى ، وثانية الى عيسى ، وثالثة الى محمد مع ان ربهم واحد ، ودينهم واحد ، والهدف منه واحد ؟ وفي الحديث : الأنبياء اخوة من علات ، أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد .

وتسأل : ان شرائع الأنبياء متعددة ومتفاوتة ، فكيف يكون دينهم واحداً ؟ .
الجواب : ان الاختلاف في الشريعة لا يستدعي الاختلاف في الدين ، ما دامت الأصول واحدة - مثلاً - قوانين الدول المسيحية كثيرة ومتفاوتة، ومع هذا تجمعهم عقيدة دينية واحدة .

(فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون) . ضمير تقطعوا وما بعده يعود الى أنباغ الأنبياء ، والمراد بالزبر الكتب ، والمعنى ان الأنبياء على دين واحد ، ولكن أتباعهم على أديان شتى ، فقد اتبع كل فريق كتاباً يؤمن به ويكفر بسواه ، فاليهود آمنوا بالتوراة بعد أن حرفوها، وكفروا بالانجيل والقرآن ، والنصارى حرفوا الانجيل وآمنوا به وبالتوراة المحرفة ، وكفروا بالقرآن . أنظر ما كتبناه بعنوان « كل يعزز دينه » ج ١ ص ١٨١ .

(فذرهم في غرثهم حتى حين) . بعد ان بلغهم النبي (ص) رسالات ربه ، وألقى اليهم المعلنة بما حذر وأنبأ أمره الله سبحانه ان يعرض عنهم ، ويدعهم بما هم فيه من الغفلة والضلال .. وهذا تهديد ووعيد بدليل قوله تعالى بلا فاصل

(أبحسون انما ندمهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون).
لقد اغتروا بالاولاد والأموال ، وظنوا انها تلومهم ، وما دروا ان الله يمتحنهم بها ، وانها الى أجل معلود ، ثم يأخذهم أخذة العزيز المقتدر .

أيضاً صفات المؤمنين ٥٧ - ٦٢ :

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا
وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي
الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ * وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا
كِتَابٌ يُنْطَقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ *

اللغة :

الوسع القدرة والطاقة . والمراد بالكتاب هنا صحائف الأعمال .

الإعراب :

وقلوبهم وجلة مبتدأ وخبر ، والجملة حال من واو يؤتون . والمصدر من انهم
الى ربهم مجرور بمن محذوفة أي من رجوعهم الى ربهم . وأولئك يسارعون خبر
ان الذين . ووسعها مفعول ثانٍ لنكلف .

سورة المؤمنون

المعنى :

بعد ان ذكر سبحانه الذين يعيشون في غمرة ، ويحسبون ان الله يسارع لهم في الخيرات - ذكر المؤمنين وانهم يتصفون بالخصال التالية :

١ - (ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون) . وتساءل : ان الخشية هي الخوف ، والاشفاق يتضمن معنى الخوف ، أو هو أقصى حدوده ودرجاته كما قيل ، وعليه يكون المعنى انهم خائفون من الخوف ، وهو غير مستقيم ؟
الجواب : المراد بالاشفاق هنا الحرص على طاعة الله ، وتقدير الكلام هكذا : هم يحرصون على طاعته تعالى خوفاً من عذابه .

٢ - (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) . المراد بالآيات هنا الدلائل على وجود الله وعظمته ، ونبوة أنبيائه ، وصدق كتبه .

٣ - (والذين هم بربهم لا يشركون) .
وتساءل : ان الذين يؤمنون بآيات الله هم الذين لا يشركون ، فوجه العطف والتعدد ؟.

وأجاب الرازي بأن المراد بالشرك هنا الشرك الخفي كالرياء وعدم الاخلاص في العمل ، والمراد بالايمان في الآية السابقة مجرد التصديق .

٤ - (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة أنهم الى ربهم راجعون) . ينفقون بما أعطاهم الله ، ويؤدون حقوقه وحقوق الناس كاملة ، ومع هذا يخافون الله ان لا يتقبل منهم .

(أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) . اللام في لها للتعليل ، والهاء تعود الى الخيرات ، وسابقون أي الى الجنة ، والمعنى ان هؤلاء الذين توافرت فيهم هذه الخلال يسرعون الى طاعة الله ، ولا يتوانون ، وهم من أجل ذلك يسبقون الناس غداً الى الجنة (ولا نكلف نفساً الا وسعها) لأن تكليف ما لا يطاق ظلم ، والله الذي نهى عن الظلم لا يفعله (ولدينا كتاب ينطق بالحق) سجل لا يتغير ولا صغيرة إلا أحصاها ، ويميزي الله عليها ، ان خيراً فخير وان شراً فشر (وهم لا يظلمون) . بنقص ثواب من أحسن ، ولا بزيادة عذاب من أساء .

بل قلوبهم في غمرة الآية ٦٣ - ٧٢ :

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا
عَامِلُونَ * حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ * لَا تَجْتَرُوا
الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنْثَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ
عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ * أَفَلَمْ
يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا
رُسُلَهُمْ فهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ
وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ
وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ *
أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ *

اللفظ :

الغمرة الجهل والضلال . وجار صاح . ونكص أدبر . وسامراً أي تسمرون وقد
استعمل هنا لفظ الفرد في الجمع . وتهجرون من المهجر في الكلام ، وهو الهذيان
أو الفحش في المنطق . والجنة الجنون . والمراد بالخروج هنا الجمل والمطاء .

الإعراب :

ولهم أعمال مبتدأ وخبر ، ومثله هم لها عاملون ، والجملة صفة لأعمال . حتى
إذا (حتى) للابتداء وإذا شرطية . وإذا هم (إذا) هذه للمفاجأة وقعت في جواب

سورة المؤمنون

إذا الشرطية . ومستكبرين حال من واو تنكصون . وبه الضمير للقرآن . وسامراً حال أي سامرين .

المعنى :

(بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك). ضمير قلوبهم للمشركين، وهذا إشارة الى ما ذكره سبحانه في الآيات السابقة من صفات المؤمنين ، وهي الايمان بآيات الله ، والخوف منه ، والمسايرة الى الخيرات ، والمعنى ان المشركين في غفلة عن هذه الصفات .. وأيضاً لهم سيئات غير الشرك والغفلة ، فانهم يسخرون من القرآن ، ويفترون على رسول الله ، ويقولون : ساحر مجنون (هم لها عاملون) . وتساءل : ان ضمير لها يعود الى الأعمال ، وعليه يكون المعنى هم عاملون للأعمال ؟ الجواب : المراد بالأعمال هنا السيئات : فكانه قال ، عظمت كلمته : هم يعملون السيئات .

(حتى اذا أدخلنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون) . هذا هو دأب المترفين، يتأدون في النفي والفضلال (انظر تفسير الآية ١٦ من سورة الإسراء) ولا يحسبون للمفاجآت والمخبات، ولا يعتبرون بالسابقين من أمثالهم ، حتى اذا وقعت الواقعة ، وأن أوان الحساب والجزاء رفعوا أصواتهم بالبكاء والويل خاضعين متضرعين حيث لا ناصر ولا معين ، ولا كلمة تواسي أو تنجّع إلا قول العزيز القهار : (لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون) . لا تستغيثوا ولا تنضرعوا فهذا يوم حساب وجزاء ، لا يجدي فيه تضرع واستغاثة ، ولا ينجو من عذابه إلا من عمل له .

(قد كانت آياتي تنزل عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون) . حذرهم سبحانه بلسان رسله من هذا اليوم مرات وبشئ الأساليب ، فأبوا إلا التكذيب والعناد ، فجزاهم بما أسلفوا ، ولا يظلم ربك أحداً (مستكبرين به سامراً تهجرون) . ضمير به للقرآن ، ومستكبرين أي مكذبين، لأن الاستعلاء يتضمن معنى التكذيب ولذا تعدى بالباء ، والمعنى انهم كذبوا بالقرآن ، واتخذوا منه ومن نزل عليه موضوعاً للسمر والهديان (أفلم يدبروا القول) وهو القرآن وما فيه من الدلائل على التوحيد وصدق محمد (ص) . (أم جاءهم - محمد - ما لم يأت آباءهم

الجزء الثامن عشر

الأولين) كيف وفي القرآن تصديق من سبق من الأنبياء ، وخبر ما حدث لهم مع أقوامهم .. هذا ، الى ان مشركي العرب يعرفون ابراهيم وهوداً وصالحاً وشعيباً ، وهؤلاء الأنبياء الثلاثة من العرب ، اذن ، فأني بدع في نبوة محمد ؟ . (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) . أم يعتبر مشركو قريش بأنهم لا يعرفون محمداً ، وهو منهم وفيهم ، وكانوا يلقبونه بالصادق الأمين (أم يقولون به جنة) وهم يعلمون انه أعقل الناس وأكملهم ، ومن هنا وصفوه بالصدق والأمانة .. اذن ، هناك سر ، يتلخص بما يلي :

نور الشمس وأهواء المترفين :

(بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) . جاء محمد (ص) بالحق ، وكفى به ذنباً عند المبطلين .. وما هو هذا الحق الذي جاء به محمد؟ هل هو النطق بالشهادتين وكفى ، ولو كان هذا هو هدفه الأول والأخير لكان على من حاربه وقاومه من الرؤساء والمترفين أن يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله .. ولكن محمداً (ص) لم يكتف بهذا وحده ، بل أراد أيضاً أن يقيم الحياة الاجتماعية على أساس العدل والمساواة ، لا ظالم فيها ولا مظلوم ، وان يعيش كل انسان كجزء من كل ، وفرد من جماعة ، له ما لها وعليه ما عليها ، لا يخشى أحداً إلا الله وحده ، ولا فضل لمخلوق عليه إلا بالتقوى والعمل الصالح .. ومن هنا ظهرت شراسة الطغاة وضراوتهم ضد رسول العدل والرحمة ، وحاربوه بكل سلاح، ولكن النبي (ص) كان على يقين من أمره وان العاقبة لمبدته ورسالته ، ومن أجل هذا كان ينظر الى خصومه كما ينظر الى غمامة صيف أو ظل زائل .

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) . المراد بالحق هنا الله ، وأهواؤهم الباطل والضلال والقوضى والفساد .. ونظام الكون بأرضه وسمائه يقوم على الحق والعدل ، اذن ، فساد الكون لا مفر منه لو اتبع الحق أهواءهم .. وما من شك لو ان الله سبحانه يستجيب الى ما يبتغون ويهون لمنعوا الشمس عن المستضعفين ، واحتكروا الكون بما فيه لأنفسهم وأولادهم وأصهارهم .

سورة المؤمنون

(بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) . أتى محمد (ص) العرب بعامة ، وبالخصوص قريشاً ، أتاهم بذكرهم أي بسلطانهم ومجدهم وتاريخهم ، فأذكروهم ، بل قاوموه وحاربوه ، ولولاه لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، قال تعالى : « وانه - أي القرآن - لذكر لك ولقومك - ٤٤ الزخرف » . (أم تسألهم خراجاً فخراج ربك خير وهو خير الرازقين) . أتاهم الرسول بعز الدنيا والآخرة فأعرضوا عنه مع العلم بأنه ما ابغى منهم جزاء ولا شكوراً ، لأن الله قد كفاه أمر آخرته ودنياه .

لندعوهم الى صراط مستقيم الآية ٧٣ - ٨٠ :

وإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاَكِبُونَ * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا
فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ
وَمَا يَتَضَرَّعُونَ * حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ
فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ *
وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ *

اللغة :

ناكبون زالفون . ولجسوا تبادوا . ويعمهُون يتحيرون . واستكانوا خضعوا
وتواضعوا . ومبلسون آيسون . وأنشأ وذرأ بمعنى خلق . والمراد بالأفئدة هنا العقول .

الإعراب :

قليلًا ما تشكرون (قليلًا) صفة لمفعول مطلق محذوف أي شكرًا قليلًا ، وما زائدة إعراباً .

المعنى :

(وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) . بعد أن بين سبحانه ضلال المشركين ، وانه لا عذر لهم في تكذيب محمد (ص) ، بعد هذا خاطب جل وعز نبيه الكريم بأنه يملك الحجج الكافية الوافية على انه محق في دعوته ، وان المشركين الذين كفروا به وباليوم الآخر قد زاغوا عن الحق ، وضلوا طريق الخير والهداية ، وانهم ما يضررون بذلك إلا أنفسهم ، أما أنت يا محمد فما يضررونك من شيء .

(ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون) . بعد أن هاجر رسول الله (ص) من مكة الى المدينة ضيق على قريش، فبعث السرايا تقطع عليهم الطريق ، وكان يقود بعضها بنفسه ، وأمر بمقاطعتهم كل من آمن به ، فوقعوا في شدة وحرج ، ولكنهم ظلوا على بغيهم وكفرهم، ولو ان الله سبحانه كشف عنهم ما هم فيه لما اعتبروا وما رجعوا عن ضلالهم (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) . ان حذرهم وأنذرهم يعرضون، وان أخذهم بالعذاب لا يعتبرون ، وان كشفه عنهم يتحدون .. وهكذا الى يوم يبعثون حيث ينكشف الغطاء لهم ويشاهدون جزاء غفلتهم وتمردهم ، وعند ذلك ينقطع منهم الأمل في النجاة ، ويبأسون من كل خير ، ويندمون على ما فات وولات ساعة منهم .

(حتى اذا فتحنا عليهم باباً فا عذاب شديد اذا هم فيه مبلسون) أي آيسون، وقد حذرهم سبحانه من هذا العذاب الشديد ، وتقدم اليهم بالوعيد، ولكن هانت عليهم أنفسهم فأوردوها مورد الهلكة والهوان (وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة) لتتفموا بما تسمعون وتبصرون وتذكرون من خير وصلاح .. ان نعم

سورة المؤمنون

الله تعالى على الانسان لا يبلغها الاحصاء، وأعظمها العقل ، وبعده السمع والبصر ،
وانما قدم السمع في الذكر لأن المولود يسمع منذ ولادته ، ولا يبصر إلا في اليوم
الرابع - هكذا يقال - أما تأخر العقل فواضح . (قليلاً ما تشكرون) أي تطيعون
(وهو الذي ذرأكم في الأرض واليه تحشرون) خلقنا في هذه الأرض ثم يحشرونا
اليه بعد الموت (وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون)
ان هذا صنع القدير العليم . أنظر المجلد الأول ص ٧٦ والثاني ص ٣٧ .

قالوا مثل ما قال الأولون الآية ٨١ - ٩٠ :

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا
أَنبَا لِمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ يَدِيرُ مَلَكُوتُ
كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِيهِ وَيُمِيتُهُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ
قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *

اللغة :

أساطير أكاذيب . وملكوت مبالغة في ملك الله وسلطانه . وتُسحرون تخدعون
عن الحق .

الإعراب :

مثل صفة لمفعول مطلق محذوف أي قولاً مثل ما قالوا . وان هذا (ان) نافية .
ولله في جميع الآيات متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف يقدر بما دل عليه السياق
أي الأرض ومن فيها لله ، والسماوات والعرش لله ، وملكوت كل شيء لله .
فأنتي تسحرون (أنتي) بمعنى كيف في موضع نصب على أنها حال ، وقيل :
بمعنى أين أي من أين تسحرون .

المعنى :

(بل قالوا مثل ما قال الأولون) . ضمير قالوا يعود الى المشركين الذين
كانوا في عهد رسول الله (ص) ، فقد أنكروا البعث ، وتلغوا بأمرين : الأول
الاستبعاد الذي عبروا عنه بقولهم : (أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون) .
الأمر الثاني : أنهم ما رأوا أحداً مات ، ثم عاد ثانية الى الحياة ، وهذا المعنى
هو المراد من قولهم : (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا أساطير
الاولين) . لقد سمعنا هذا من قبلك يا محمد ، وأيضاً سمع به آباؤنا ، ولكن
لم يظهر له أثر ، فمن الذي مات ، ثم ظهر وأخبر ؟.. ولو تأملوا النشأة الأولى
لما أنكروا النشأة الآخرة . وتقدم مثله في الآية ٥ من سورة الرعد و ٤٩ من
سورة الاسراء .

وقد جادل سبحانه منكري البعث بالحسنى ، وكشف لهم عن أخطائهم بأسلوب
علمي حكيم في ثلاث آيات :

١ - (قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون) . أمر نبيه أن يوجه
اليهم هذا السؤال لأنهم يقرون ويعترفون بأن الله هو خالق الكون بدليل قوله
تعالى : (يقولون لله) أي ان الأرض بما فيها ملك له ، ولا معنى للملكية إلا
الخلق والانشاء ، وإذا كان سبحانه قادراً على خلق الأرض فهو أيضاً قادر على
أن يحيي الموتى (أفلا تذكرون) تفهمون وتتدبرون هذه الحقيقة ، وهي : ان من

سورة المؤمنون

يقدر على النشأة الأولى يقدر على الثانية .. وكل قادر غير الله يقدر على شيء ،
ويعجز عن أشياء ، ويعلم قليلاً ، ويجهل كثيراً ، أما هو فانه على كل شيء
قدير ، وبه عليم .

٢ - (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله) . ولا فرق
بين أن يقولوا : الله رب السموات ، وبين أن يقولوا : السموات ملك لله لأن
اللام هنا للملك ، ورب الشيء مالكة وصاحبه ، والعرش كناية عن سلطانه تعالى
وسيطرته .. ومن كانت السموات طوع وأمره يهون عليه اعادة من مات (قل
أفلا تتقون) غضب الله وعذابه . وتكلمنا عن السموات السبع عند تفسير الآية ١٧
من هذه السورة .

٣ - (قل من بيده ملكوت كل شيء) . المراد بملكوت كسل شيء ان
كل شيء خاضع له تعالى ، ومفتقر اليه ، وانه غني عن كل شيء (وهو يجير
ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون) هو رحمة لمن استرحمه ، وغوث لمن استغاث به ،
ولا راحم ومغيث لمن حققت عليه كلمة غضبه وعذابه (سيقولون لله) ملك الكون
بأرضه وسماؤه (قل فأنى تسحرون) أي ما دمتم تعترفون بذلك فكيف
أنكرتم البعث ، وخدعتم عن الحق ؟ . (بل أتيناهم بالحق) كلا لم يُخدعوا عن
الحق ، ولم يلتبس عليهم بالباطل بعد أن قامت عليه الدلائل الجلية الواضحة (وأنهم
لكاذبون) . انهم لم يُخدعوا عن الحق ، ولكنهم تخادعوا عنه ، وأظهروا كذباً
وزوراً انهم لم يقتنعوا بالبعث ، محتجين ان دليله خفي عليهم .

وتسأل : من أين جاء العلم بأنهم أنكروا البعث ، وقلوبهم مطمئنة بالايمان ،
بل ان كثيراً من الآيات قد دلت بصراحة على أنهم انكروا البعث لمجرد الاستبعاد
غفلة عن النشأة الأولى ، وجهلاً بقياس الاعادة على الابتداء ؟

الجواب : أجل ، ولكن من أنكر ما قامت عليه الحجج القاطعة الساطعة بحيث
لا يكون له أي مبرر في الجحود والانكار اطلاقاً فهو تماماً كمن أنكر الشيء ،
وهو به مؤمن .

مَا اخْتَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيْكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ * أَذْفَعُ بِالْإِنِّ هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيَّةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمٍ يُنْعَثُونَ *

اللغة :

همزات الشيطان وسأوسه التي تدفع بالانسان الى معصية الله . والبرزخ الحاجز بين الشيتين .

الإعراب :

إذا زائدة اعراباً . ولذهب اللام وقعت في جواب لو المحذوفة أي لو كان معه إله لذهب الخ . وعالم الغيب بالجر صفة لله . وإما تريني (إما) كلمتان (ان) الشرطية ، وما الزائدة وهي التي سوغت دخول نون التوكيد على تريني . فلا

سورة المؤمنون

تجعلني جواب ان الشرطية . والمصدر من ان نريك مجرور بعلى ، ومتعلق بـ «يقادرون» .
وبالتي على حذف مضاف أي بالطريقة التي . وأصل يحضرون يحضروني فحذفت
احدى النونين مع الباء تخفيفاً ، وواو الجماعة للشياطين . وأصل أرجعون أرجعوني ،
وواو الجماعة يعود اليه تعالى تعظيماً . وكلا حرف ردع وزجر . ومن ورائهم
متعلق بمحذوف خبراً مقدماً ، وبرزخ مبتدأ مؤخر ، والى يوم متعلق بالخبر المحذوف ،
وجملة يعثون مجرورة باضافة يوم .

المعنى :

(ما اتخذ الله من ولد) . ليس لله شريك ولا ولد .. ولو كان له ولد
لكان شبيهاً به ، والله سبحانه ليس كمثله شيء (وما كان معه من إله إذا
لذهب كل إله بما خلق) . لو كان للكون خالقان لاختص كل واحد بجزء من
الكون ، له حدوده ونظامه وخصائصه المتميزة عن الجزء الآخر ، مع ان نظام
الكون واحد ، وخصائصه واحدة ، فخالقه - اذن - واحد .

(ولعلا بعضهم على بعض) . وأيضاً لو تعدد الخالق لاستدعى ذلك أن يكون
كل واحد غالباً ومغلوباً ، وقاهراً ومقهوراً في آن واحد ، اذ المفروض انه إله ،
ومن صفات الإله أن يكون هو الأعلى على كل شيء ، وإلا لم يكن إلهاً ..
بالإضافة الى التنافس والتناحر بين الآله على السيطرة والسطان ، كما يحدث بين
الحكام ، وهذا هو الفساد بعينه (سبحانه الله عما يصفون) من ان له ولداً أو
شريكاً . وتقدم الكلام مفصلاً عن ذلك عند تفسير الآية ٥٠ من سورة النساء
ج ٢ ص ٣٤٤ .

(عالم الغيب والشهادة) . المراد بعالم الغيب ما غاب علمه عن الخلق ، وعالم
الشهادة ما أمكنهم العلم به ، وتجدر الإشارة الى ان هذا التقسيم يصح بالنسبة الى
الخلق دون الخالق لأن جميع الأشياء لديه سواء ، علماً وقدره (فتعالى عما
يشركون) مما لا علم له به ، واذا لم يعلم الخالق بوجود شيء فعنا ان هذا
الشيء غير موجود (قل رب إما تريني ما يوعدون رب فلا تجعلني في القوم

الظالمين) . أمر الله نبيه الكريم أن بدعوه وبساله السلامة والنجاة من سخطه وعذابه الذي يحل بالمجرمين والظالمين مع العلم بأنه (ص) في أمن وأمان .. ولكن الغرض من هذا الدعاء هو تهديد أهل الشرك والبيغي، وكثيراً ما يستعمل المرشدون هذا الأسلوب تعريضاً بمن غضب الله عليه ، وأعد له عذاباً مهيناً .

(وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون) . أنذر النبي (ص) قريباً بالعذاب على تكذيبه وانكار نبوته ، فضحكوا وسخروا ، فقال سبحانه لنبيه : لا تحزن ، نحن قادرون على أن نريك أهلاكهم واستئصالهم ، ولكن نؤخر ذلك لحكمة ومصلحة لك وللإسلام .. وقد تكون هذه الحكمة أن الله يعلم بأن بعضهم أو بعض أبنائهم سيؤمنون بالله ورسوله ، ويكونون قوة ودعامة للإسلام والمسلمين، كما حدث ذلك بالفعل .

الدفاع بالأحسن :

(ادفع بالتي هي أحسن السبئية نحن أعلم بما يصفون) . ما هو الدفاع بالأحسن؟ هل هو الصبر على الأذى والسكوت عن المؤذي كما قال كثير من المفسرين ؟ .

إن الدفاع يختلف باختلاف الموارد ، فقد يكون استعمال القوة والعنف لردع المعتدي دفاعاً بالأحسن وذلك إذا كان المعتدي عليه يملك القوة الرادعة ، وكان السكوت عن المسيء يغريه بالإساءة والعدوان ، قال الإمام علي (ع) : الوفاء لأهل الغدر غدر ، والغدر بأهل الغدر وفاء .. وقد يكون السكوت عن المعتدي والصبر على أذاه دفاعاً بالأحسن إذا أدى الإغضاء عنه إلى ندمه وتوبته من إساءته ، أو كان المعتدي عليه عاجزاً عن الردع .. فإن المقاومة - وهذه هي الحال - تحدث ما لا تحمد عقباه من تمادي المعتدي في غبه وغير ذلك من ردود الفعل .

ومن أجل هذا صبر رسول الله (ص) على الأذى ، وهو في مكة لعجزه عن الردع ، وأدب المعتدين بعد هجرته إلى المدينة لأنه كان يملك القوة الرادعة .

(وقل رب اعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) . همزات الشياطين وسأوسهم . وإن يحضرون أي إن يقربوا مني .. وبداهة أنه لا سلطان

سورة المؤمنون

لشياطين على الأنبياء لقوله تعالى : « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين - ٤٢ الحجر » .

وتسأل : اذا لم يكن للشياطين على الأنبياء سلطان فلماذا أمر الله نبيه ان يتخذ منهم ؟

الجواب : ان الاستعاذة من الشيء لا تستدعي امكان وقوعه ، فان المعصومين يتعوذون بالله من غضبه وعذابه أكثر من غيرهم مع انهم في أمن وأمان .. وبكلام آخر ان الالتجاء الى الله دعاء ، والدعاء يجوز لدفع السوء والبلاء مع العلم بعدم وقوعه .. وأشرنا فيما تقدم الى ان الانتقاء كثيراً ما يُعرضون بالاشقياء في أدعتهم . (حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي اعمل صالحاً فيها تركت) . حين أمكنته الفرصة من العمل الصالح ضيعها وأهملها ، وبعد ان حضره الموت وعابنه طلب الرجعة الى الحياة ليعمل .. وهكذا كل مقصر يضيع الفرصة حين يتمكن منها ، فإذا فاتته تلهف عليها ، ومات أسفاً (كلا انها كلمة هو قائلها) . كلا حرف ردع وزجر ، والمراد بالكلمة قوله : « ارجعون لعلي اعمل صالحاً » والمعنى لا رجوع أبداً .. حتى لو استجاب الله لطلب هذا المقصر وأرجعه ثانية الى الحياة لعاد الى طغيانه وعصيانه ، أما قوله : لعلي اعمل صالحاً فهو مجرد كلام بلا معنى ولا وفاء ، وقد أوضح سبحانه ذلك في الآية ٢٨ من سورة الأنعام : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون » . انظر ج ٣ ص ١٧٩ .

(ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون) . من ورائهم كناية عن جميع الجهات . والبرزخ الحائل ، والمعنى انهم طلبوا الرجعة الى الحياة الدنيا ، وبينهم وبينها حائل يبقى الى يوم القيامة ، وحينذاك ينتهي البرزخ ويرتفع الحائل ، ولكن لنذهب الخلائق الى ربها وتقف بين يديه للحساب والجزاء .

فلا انساب بينهم يومئذ الآية ١٠١ - ١١١ :

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ* فَمَنْ

تَقُلْتُ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ
الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ
فِيهَا كَالِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ *
قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا
مِنْهَا فَإِنْ عُذْنَا فَإِنَّهَا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ * إِنَّهُ
كَانَ قَرِيبٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ
خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ
تَضَعَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ *

اللغة :

تلفح تحرق . كالحون مكشرون في عيسوس . احسنوا كلمة تستعمل في زجر
الكلاب .

الإعراب :

فأولئك مبتدأ ، والذين عطوف بيان وعاللون خبر أولئك ، وفي النار متعلق
بـ «عاللون» ويجوز أن يكون الذين خبر أولئك وعاللون خبر بعد خبر . وسخرياً
مفعول ثان لاتخذتموهم . والمصدر من أنهم هم الفائزون مفعول ثانٍ لجزيتهم ،
قال تعالى : وبجزاهم بما صبروا جنة وحريراً .

(فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) . النفخ في الصور كناية عن بعث من في القبور، ولا أنساب بينهم أي لا تعاطف ولا تراحم بين الأرحام والأقارب ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وبالأولى عن غيره .. أبداً لا شيء في ذلك اليوم الا الايمان والعمل الصالح : ، وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً- ٩٧ مريم . وفي الحديث : ان الله يقول يوم القيامة: اليوم أضع نسبكم ، وأرفع نسبي ، أين المتقون ؟ والنسب مأخوذ من المناسبة ، والقرباة مأخوذة من القرب. ولا قرب من الله إلا بالتقوى . أنظر المجلد الثاني ص ١٣٧ فقرة التقوى، والرابع ص ١٣٦ فقرة : أين المتقون ؟ .

(فن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون) تقدم في الآية ٨ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٠٣ فقرة : ميزان الأعمال ، وأيضاً تكلمنا ثانية عن هذا الميزان عند تفسير الآية ٤٧ من سورة الأنبياء فقرة : الميزان يوم القيامة وصاحب الاسفار . (ترفع وجوههم النار وهم فيها كالحون) . كلحت الوجوه كشرت في عبوس ، وعبر سبحانه هنا بالوجه عن جميع البدن لأنه أشرف ما فيه ، وعن رسول الله (ص) انه قال : (ترفع وجوههم النار) لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم (ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون) . هذا توبيخ وتقريع لأنهم كذبوا بحجج الله وبياناته (قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين) . اعترفوا بذنوبهم بعد أن انقطع التكليف ، وانسد باب التوبة . وتقدم مثله في الآية ٤ من سورة الأعراف و ١٤ من سورة الأنبياء (ربنا أخرجنا منها فان عدنا فإنا ظالمون) . قالوا هذا بعد أن برزوا لفصل القضاء. وبعد أن حقت عليهم الحقائق، وقد كانوا من قبل في طغيانهم يعمهون ، ومن أجل هذا (قال - الله لهم - اخشوا فيها ولا تكلمون) وهي كلمة يُزجر بها الكلاب، وقد تجلى فيها غضب الله وجبروته .

(انه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير

الراحين فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون . بعد ان ويخ سبحانه المجرمين ، وزجرهم عن الكلام بين لهم انهم كانوا يسخرون ويضحكون من عباد الله الصالحين الذين طلبوا من الله الرحمة والغفران ، حتى شغلهم الهزء والضحك عن ذكر الله تعالى ، وهذا هو المعنى المقصود من قوله تعالى : (حتى أنسوكم ذكري) أي نسيتموني لأنكم كنتم في شغل شاغل بالسخرية من المتقين (اني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون) . صبر المؤمنون الصالحون على أذى المجرمين ، فأنعم الله على أولئك ، وانتقم من هؤلاء : « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون - ٣٤ المطففين » .

كم لبثتم في الأرض الآية ١١٢ - ١١٨ :

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ * وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ *

اللفظ :

العادين جمع عاد : وهو من يحصى العدد ، وأحصى كل شيء عدداً . حساباً محاكمته أو جزاؤه .

الإعراب :

كم خبرية تتضمن معنى ظرف الزمان ، وعملها النصب بليثم . وعدد منصوب على التمييز ، وجاز نصب مميز (كم) هنا لوجود الفاصل بينها وبينه ، ولولاه لوجب الجر ، لأن مميز الخبرية واجب الخفض إلا إذا فصل بينها فاصل . وسنن مجرورة بالإضافة ، وقرئ عدداً سنن وعليه تكون سنن بدلاً من عدد . وقليلاً صفة لمفعول محذوف أي زمناً أو لبثاً قليلاً . والمصدر من انكم تعلمون فاعل لفعل محذوف أي لو ثبت علمكم . وعبثاً مصدر في موضع الحال من خلقناكم أي عابثين . وأنما خلقناكم (أنما) كلمتان أن المشددة وما الكافة عن العمل . وانكم عطف على أنما خلقناكم . وهو بدل من الضمير المستتر في الخبر المحذوف أي لا إله موجود إلا هو ، ورب العرش خبر بعد خبر . ومن يدع (من) شرطية . وجملة لا برهان له صفة وإلهاء . فأنما حسابه جواب الشرط .

المعنى :

(قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين) . ضمير قال يعود الى الله عز وجل ، أو الى الملك المأمور غداً بالسؤال . والخطاب لمنكري البعث ، والمسؤول عنه المدة التي قضوها في الكفر والفساد ، وهم في الحياة الدنيا ، والفرض من هذا السؤال التبكيت والتوبيخ على جحودهم هذا اليوم وسخريتهم ممن كان يحذرهم من هوله وعذابه (قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فأسأل العاديين) أين نحن من هذا السؤال ؟ . كفانا ما نحن فيه .. وان كان لا بد من الجواب فقد مكثنا ساعات .. ومن أراد معرفة ذلك فليسال من كان يحصي علينا أعمارنا وأعمالنا ، ولا يدع منها صغيرة ولا كبيرة ، أما نحن ففي ذهول عن كل شيء . تقدم نظيره في الآية ١٠٣ من سورة طه .

(قال ان لبثتم إلا قليلاً لو انكم كنتم تعلمون) قال لهم سبحانه : مكثتم سنوات لا يوماً واحداً أو بعض يوم كما قلتم .. ولكن هذه السنوات قليل لأنها الى زوال ، وكل زائل قليل ، وان طال به الزمن ، ولو عرفتم هذه الحقيقة

وانتم في دار الدنيا ، وآمنتم بهذا اليوم ، وتزودتم له لكنتم الآن في أمن وأمان ، ولكن كفرتم به فحققت عليكم كلمة العذاب (أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم اليينا لا ترجعون) . الخطأ ما وجه بظاهرة لمن أنكروا البعث ، والمراد منه في الواقع كل من عصى الله وأفسد في الأرض ، سواء أجهل البعث من الأساس ، أم آمن به ولم يعمل له . والعبث ما لا فائدة فيه ، ولا حكمة من وجده ، والله سبحانه منزّه عن العبث ، ولو لم يبعث الانسان بعد الموت ، ويميز الخبيث من الطيب ، ويميز كلاً بما يستحق لكان خلق الانسان عبثاً لا جدوى منه (فتعال الله الملك الحق) الملك أي القادر القاهر ، والحق يزهق العبث والباطل ، وإذا كان الحق بالذات هو الذي خلق الانسان وأوجده فكيف يكون خلقه سدى ؟ وكيف يتركه عبثاً دون تكليف وحساب، ودون سؤال وجواب ، أساء أو أحسن؟ (لا إله إلا هو رب العرش الكريم) هو الواحد في ملك الكون يدبره وبصره بلا شريك في خلقه وتدبيره، وفي علمه وحكمته - اذن - فمن أين يأتي العبث والفساد في خلق الانسان وغير الانسان ؟ (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به) . ومن أين يأتي بالبرهان على الشرك ، وكل شيء يدل على انه واحد ؟ وكفى دليلاً على الوحدة نظام هذا الكون الذي لا خلل فيه ولا فساد لو كان فيها آفة إلا الله لفسدتا .. وما أنكروا هذه الحقيقة إلا من كفر بالبداهات وجحد جميع الدلائل والبيّنات ، ومثله يهمل ولا يجادل (فلانما حسابه عند ربه) وهو موافق ما يستحق (انه لا يفلح الكافرون) لأنهم عن الصراط ناكبون . وكما افتتح سبحانه هذه السورة بـ (قد أفلح المؤمنون) فقد ختمها بهذا الأمر: (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) . وهو وحده المسؤول ان يسعنا برحمته ومغفرته ، ولا يقطع رجاءنا من منته وكرمه بالنبي وآله صلوات الله عليه وعلى كل من استنّ بسنته .

سُورَةُ النُّورِ

قال الرازي : مدنية كلها ، وقال الطبرسي : بلا خلاف ، وآياتها ٦٤ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حكم الزنا والظف الآتية ١ - ٥ :

سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *
الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ
بِهَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَتَدَّ
عَذَابُهَا طَائِفَةًٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً
وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ *
وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ
مِائَتِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا
الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

اللغة :

سورة من سور البناء ومنعته وارتفاعه . وفرضناها أوجبنا العمل بها . ويرمون
المحصنات أي يغلّفون العيقات بالزنا .

الإعراب :

سورة خبر لمبتدأ محذوف أي هذه سورة . وتذكرون أي تتذكرون . والزانية والزاني مبتدأ والخبر فاجلدوا ، ودخلت عليه الفاء لأن الألف واللام في الزانية بمعنى التي ، وفي الزاني بمعنى الذي . ومئة مفعول مطلق أو قائمة مقامه لأنها مضافة إلى الجلد ، وكذلك ثمانين فإن المميز الجلد أيضاً .

المعنى :

(سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات) . أنزل سبحانه هذه السورة على نبيه الكريم ، وفيها تعاليم إلهية أوجب العمل بها على كل مكلف لأنها تهدف إلى بناء المجتمع الانساني بكامله على أساس مصلحته ونموه ، وهذه التعاليم بينة واضحة لا تقبل النقاش والجدال في كل ما تهدف إليه من صيانة الانسانية من الفساد والضلال ، ومن أجل هذا أو غيره سميت بسورة النور وكل القرآن هدى ونور (لعلكم تذكرون) أنزل سبحانه هذه السورة بينة واضحة لتعلموا وتعموا .

(الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) . الخطاب في اجلدوا لمن يقيم الحدود ، وهو الإمام أو نائبه العالم العادل ، وظاهر الآية يدل على ان من زنى يُجلد، محصناً كان أو غير محصن ، لأن الـ ' الجنسية اذا دخلت على المفرد أفادت الاستغراق ، وشملت جميع الأفراد ، ونعني بالمحصن البالغ العاقل المتزوج المتمكن من وطء زوجته متى شاء ، فلو وطأ ، وهو صغير أو مجنون أو كان عترباً أو متزوجاً ، ولكن غابت عنه زوجته أو كان بها مرض يمنع من الوطء فهو في حكم غير المحصن .. وكذلك المرأة ، وسئل الإمام أبو جعفر الصادق (ع) عن معنى المحصن ؟ فقال : من كان له فرج يغدو عليه ويروح فهو محصن .

هذا ما دل عليه ظاهر الآية ، وهو ان الجلد للزاني المحصن وغير المحصن ، ولكن قد ثبت بالسنة المتواترة واجماع المذاهب الاسلامية ان حكم المحصن والمحصنة الرجم بالحجارة حتى الموت ، وعليه يكون الجلد لغير المحصن والمحصنة ، ولهما

الرجم لأنها قد خرجا عن عموم الآية بالسنة القطعية وقيام الاجماع ، بل جاء في صحيح البخاري وصحيح مسلم ان عمر بن الخطاب قال : « ان الله بعث محمداً بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان مما أنزل آية الرجم ، فقرأناها وعقلناها ووعيناها » . (البخاري ج ٨ ص ٢٠٩ طبعة سنة ١٣٧٧ هـ ومسلم ص ١٠٧ القسم الأول من الجزء الثاني طبعة سنة ١٣٤٨ هـ) . وفي رواية ثانية للبخاري ج ٩ ص ٨٦ ان عمر بن الخطاب قال : لولا ان يقول الناس : زاد عمر في كتاب الله لكتبت آية الرجم بيدي .

وتسأل : قال تعالى في الآية ١٥ من سورة النساء : « واللذان يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سيلاً » فقد أوجب سبحانه في هذه الآية ان تحبس الزانية في البيت ولا تخرج منه إلا ميتة أو يجعل الله لها سيلاً آخر ، ثم أوجب عليها الجلد في الآية التي تفسرها ، فما هو وجه الجمع بين الآيتين ؟ .

الجواب : قلنا عند تفسير آية النساء في ج ٢ ص ٢٧١ : ان المراد بقوله تعالى : « يجعل الله لهن سيلاً » انه جل وعز لم يجعل عقوبة الحبس في البيت حكماً دائماً ، بل لفترة محدودة ، ثم يحدث التشريع النهائي ، وهكذا كان . حيث تسخت عقوبة الحبس في البيت وحلت محلها عقوبة الرجم للمحصنة ، والجلد لغيرها .. وقال بعض العلماء : لا نلجأ الى النسخ إلا بورود النص ، أو اذا تعذر الجمع بين الحكمين ، والمفروض ان الشارع لم ينص على نسخ عقوبة الحبس ، وان الجمع بينها وبين عقوبة الجلد ممكن ، وعليه يكون مفاد الآيتين ان الزانية غير المحصنة يجب ان تجلد مئة ، وان تحبس في البيت أيضاً .

ونحن مع هذا القائل إذا أقنعنا بأن المراد بالسبيل في قوله تعالى : (يجعل الله لهن سيلاً) : المراد به شيء غير تشريع الحكم النهائي الذي يتبادر الى الأذهان ، أما تفسير السبيل بالزواج كما ذهب اليه هذا العالم فبعيد عن الافهام .

(ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) لا تعطلوا الحد عن الزاني والزانية ، بل أقيموه واشتدوا عليها ، وأوجعوهما ضرباً ورجماً ، ولا تمتدكم من ذلك شفقة ولا رحمة فإنه لا هوادة في دين الله .. ان غضب الإيمان لا يطفئه شيء إلا لارضى

الرحمن ، قال الرسول الأعظم (ص) : « لو سرق قاطبة لقطعت يدها » . وفي نهج البلاغة : فرض الله القصاص حقاً للدماء ، وإقامة الحدود إعظاماً للبحارم .. (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) . هذا تأكيد وتحريض على اقامة الحدود وان التهاون بها استخفاف بالدين (وليشهد عذابها طائفة من المؤمنين) . والغرض من ذلك ان يشيع حديث العقوبة بين الناس فيتعظوا ويزدجروا .. وقيل : أقل ما تصدق عليه كلمة الطائفة ثلاثة أفراد ، وقيل : بل يكفي الواحد بدليل قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا - ٩ الحجرات » . وتكلمنا مفصلاً في الجزء السادس من فقه الإمام جعفر الصادق (ع) عن تعريف الزنا وشروطه وأقسامه وطرق اثباته وحده وكيفية اقامته وعن توبة الزاني وغيرها مما تعرض له الفقهاء .

(الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك) . قيل : هذه الآية من مشكلات القرآن ومتشابهاته لأن ظاهرها الإخبار بأن الزاني لا ينكح إلا زانية مثله أو مشركة ، وان الزانية لا ينكحها إلا زان مثلاً أو مشرك ، مع ان الزاني قد يتزوج عفيفة شريفة ، والزانية قد تتزوج عفيفاً شريفاً ، فكيف جاء ظاهر الآية على خلاف الواقع ؟.

وفي رأينا ان الآية من المحكمات الواضحات ، فليست هي إخباراً عن الواقع كي يقال : انها تنافره وتناقضه ، ولا حكماً شرعياً يحرم على الزاني ان يتزوج مسلمة عفيفة ، وعلى الزانية ان تتزوج مسلماً عفيفاً ، بل عليهما إذا أرادا الزواج أن يتزوج هو بزانية مثله أو مشركة ، وان تتزوج هي بزاني مثلاً أو مشرك . كما زعم كثير من المفسرين .. كلا ، ليس هذا هو المراد ، لأن المسلم تحرم عليه المشركة ، وان ثبت عليه الزنا من قبل ، وكذا المسلمة فلانها تحرم على المشرك حتى ولو ثبت عليها الزنا من قبل .. كلا ، ليست الآية إخباراً عما هو كائن ، ولا حكماً شرعياً ، بل معناها الظاهر - بصرف النظر عما قيل في سبب نزولها - ان الزنا من أفحش القبائح وأشنعها ، ولا يفعله إلا عاهر فاجر ، فاذا رغب فيه راغب فلا نجد أحداً يستجيب لرغبته إلا من هو مثله في الفسق والفجور رجلاً كان أو امرأة . وبكلمة أخصر ان معنى الآية أشبه بقولك للمجرم : لا يفرك

على جرميتك إلا مجرم مثلك لا دين له ولا ضمير . وابن هذا من الإخبار عما وقع أو من تشريع الأحكام ؟

وقوله تعالى : (أو مشركة .. أو مشرك) يومئذ إلى أن الزنا بمنزلة الشرك بالله .. وقد ساوى سبحانه في الحكم بين الشرك وقتل النفس المحترمة والزنا حيث قال : « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلقِ أثاماً » - ٦٨ الفرقان ، وسئل النبي (ص) عن أعظم الذنوب فذكر هذه الثلاثة (وحرم ذلك على المؤمنين) وأيضاً على المؤمنين ، وانما اكتفى بذكر المؤمنين تغليهاً .. وذلك إشارة إلى الزنا بدليل ظاهر السياق .

(والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة) . المراد بالرمي القذف بالزنا ، وقوله : الذين يرمون ظاهر بخصوص الرجال ، ولكن النساء مثل الرجال في هذا الحكم ، والمراد بالمحصنات العفيفات ، سواء أكن متزوجات أم غير متزوجات ، وقد ألحق العلماء بهن في الحكم الرجل المحصن ، تماماً كما ألحقوا النساء بالرجال في الرمي ، وبكلمة ان حكم الجلد يشمل الرجل والمرأة ، سواء أقدفها هو بالزنا ، أم هي التي قدفته به .. ويُجلد القاذف أو القاذفة اذا لم يأت أحدهما بأربعة شهود ، يشهد كل واحد منهم أنه رأى الميل في المكحلة يدخل ويخرج .. والغرض من كثرة الشهود والتشدد في شهادتهم ان لا يشهد أحد بالزنا حرصاً على السر وحماية الأسرة من الشتات والضياع .

(ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحو فإن الله غفور رحيم) الضمير في لهم يعود إلى من رمى المحصنين أو المحصنات دون أن يأتي بأربعة شهود ، والمعنى ان من قذف محصناً أو محصنة ولم يثبت ذلك بأربعة شهود فهو فاسق لا تقبل له شهادة في أي شيء على الإطلاق إلا بعد أن يتوب ويعمل صالحاً ، وبعد التوبة وحسن السيرة تقبل شهادته ، سواء أتاب قبل الحد أم بعده . وقال أبو حنيفة : لا تقبل شهادته وان تاب لأن ردها من جملة الحد والتأديب .. وهذا اشتباه لأن قوله تعالى بلا فاصل : (فان الله غفور رحيم) يومئذ إلى قبول شهادته مطلقاً ، حتى ولو تاب بعد الحد، وأصرح

من الآية في الدلالة قول الرسول الأعظم (ص) : التائب من الذنب كمن لا ذنب له .

اللعان بين الزوجين الآية ٦ - ١٠ :

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنْ الْكَاذِبِينَ * وَيَذَرُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ *

اللغة :

يدراً يدفع . والمراد بالعذاب هنا الحد .

الإعراب :

أنفسهم بدل من شهداء . فشهادة أحدهم أربع .. قرئ بنصب أربع ورفعها ، وعلى النصب تكون شهادة أحدهم خبراً مبتدأ محذوف وأربع قائم مقام المفعول المطلق لشهادة ، والتقدير فالحكم ان يشهد أحدهم أربع شهادات ، وعلى الرفع تكون شهادة مبتدأ ثانياً وأربع خبره، والجملة خبر المبتدأ المحذوف، والمبتدأ المحذوف

سورة النور

وخبره خبر الذين يرمون . وبالله متعلق بشهادات . والخامسة الأولى مبتدأ وما بعدها خبر . والمصدر من أن تشهد فاعل يدرأ . والخامسة الثانية بالنصب معطوفة على أربع شهادات الثانية وبالرفع مبتدأ وما بعدها خبر . ولولا فضل الله جواب لولا محذوف أي هلككم .

المعنى :

في كتب الفقه باب يسمى باب اللعان ، ومصدره هذه الآيات ، وهو أشبه بالمباهلة بين زوج يقذف زوجته بالزنا ولا شهود لديه على دعواه ، وبين الزوجة التي تنفي تهمة الزنا عن نفسها ، والغاية من هذا اللعان سقوط الحد عن الزوج بسبب القذف ، أو نفي الولد عنه ، ولا يُشرع اللعان إلا في موردين :

الأول : ان يقذف الزوج بالزنا زوجته الشرعية التي عقد عليها بالعقد الدائم ، وأن تكون الزوجة سالمة من الصمم والحرس ، وان يدعي الزوج المشاهدة ، وان لا تكون له بيعة شرعية على الزنا ، فاذا انتفى واحد من هذه الشروط فلا يجوز اللعان .

الثاني : ان ينكر الزوج من ولده على فراشه ، ويمكن أن يلحق به ، وذلك بأن تضعه لسته اشهر فصاعداً من حين الوطء ، ولم يتجاوز أقصى مدة الحمل ، والا انتفى عنه الولد من غير لعان .

ومتى توافرت كل هذه الشروط ، ورمى الزوج زوجته بالزنا أو نفى الولد عنه ، فعليه حد القذف إلا ان يقيم البيعة أو يلاعن ، وصورة الملاعة ان يقول عند الحاكم الشرعي : اشهد بالله اني لمن الصادقين فيما رميت به زوجتي فلانة ، يقول ذلك أربع مرات ، ثم يقول في الخامسة بعد ان يعظه الحاكم : وعليه لعنة الله ان كان من الكاذبين .

ثم تشهد الزوجة بالله أربع مرات انه لمن الكاذبين فيما رماها به ، ثم تقول في الخامسة : ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين . ويجب ان يكونا قائمين عند الملاعة ، ومتى تمت الملاعة بشروطها المتقدمة لحقتها الأحكام التالية :

- ١ - انفساخ عقد الزواج .
 - ٢ - تحريم المرأة على الزوج الملاعن حرمة مؤبدة .
 - ٣ - يسقط حد القذف عن الزوج .
 - ٤ - ينتفي الولد عن الزوج شرعاً ، فلا يتوارثان ، ولا تجب نفقة أحدهما على الآخر ، أما بالنسبة الى المرأة فهو ولدها الشرعي ، وهي أمه الشرعية .
- وإذا عرفنا اللسان بين الزوجين وشروطه وأحكامه اتضح لدينا المقصود من الآيات ، ولذا تقتصر في تفسيرها على ذكر الكلمات التي يشير إليها سياق الكلام:
- (والذين يرمون أزواجهم) بالزنا (ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم) على ما يدعون (فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين) . يقول الزوج عند الحاكم الشرعي أربع مرات : أشهد بالله اني لمن الصادقين فيما رميت به زوجتي فلانة (والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين) . ثم يقول الزوج في الشهادة الخامسة : عليه لعنة الله ان كان من الكاذبين في دعواه .
- (ويدبراً عنها العذاب) أي يدفع الحد عن الزوجة بشرط (ان تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين) فتقول عند الحاكم أربع مرات : اشهد بالله انه لمن الكاذبين فيما قذفني به (والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) فيما رماني به من الفاحشة (ولولا فضل الله عليكم) لهلكتم (وأن الله تواب رحيم) وفي هذا إيماء الى الحكمة من تشريع اللعان ، وان الغاية منه السر ودفع الحد عن الزوج بسبب القذف ، وافساح المجال أمام الزوجة لدفع التهمة عنها .

جاموا بالآية ١١ - ٢٠ :

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ

وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِنَّ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلَا جَاهُوا عَلَيْهِ
بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ *
وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا
أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنَنِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ
مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا
إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ
عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *
وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ
تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ
اللَّهُ رَوْفٌ رَحِيمٌ *

اللفظ :

الإفك أشد الكذب . والعصية الجبابة . والذي تولى كبره أي تحمل معظم
الإفك . وأفضتم فيه خضتم فيه . تلقونه أي تتلقون الإفك ويرويه بعضكم عن بعض .
والبهتان كذب يحير المكذوب لفظاعته . وتشيع تنتشر .

الإعراب :

عصية خبر ان . لا تحسبه كلام مستأنف . لولا أداة تخفيض بمعنى هلا .

والمصدر من ان نتكلم اسم يكون . والمصدر من أن تعودوا مفعول من أجله ليعظكم . والمصدر من أن تشيع مفعول يحبون .

ملخص قصة الإفك :

اتفق المفسرون والرواة من جميع الطوائف والمذاهب الاسلامية الا من شذ ، اتفقوا على أن هذه الآيات نزلت لبراءة عائشة من تهمة الزنا ، وسبب التهمة ان النبي (ص) كان اذا أراد سفراً أفرع بين نسائه ، فمن أصابتها القرعة أخرجها معه ، وفي السنة الخامسة الهجرية غزا رسول الله (ص) بني المصطلق ، وجاءت القرعة على عائشة ، فصحبها معه ، ونصر الله نبيه الكريم على بني المصطلق ، وتزوج بنت زعيمهم الحارث بعد ان أسلمت بدعوة منه، وكان اسمها برة فغيره الرسول الى جويرية ، وأسلم أبوها ومعظم رجال القبيلة ، وعاد النبي الى المدينة بموكبه الظافر يسير الليل والنهار، حتى اذا كانت الليلة الثانية نزل بالجيش ليستريح قليلاً .

ولما أذن بالرحيل ذهبت عائشة لحاجتها ، وحين عادت فقدت عقدها، فرجعت تلمسه وتبحث عنه في الموضع الذي فقدته فيه ، حتى اذا وجدته رجعت الى منازل الجيش فلم تر أحداً ، فانتظرت لعلهم يرجعون في طلبها حين يفقدونها ، وكان صفوان بن المعطل وراء الجيش ، فربها وعرفها لأنه كان يراها قبل نزول الحجاب ، فأناخ راحلته وتحنى جانباً حتى اذا ركب قادها وأوصلها الى الجيش أو الى المدينة ، وهنا سنحت الفرصة لأهل الإفك فأشاعوه وأذاعوه، ورموا عائشة بالخيانة مع صفوان .. وأول من أطلق لسانه بهذا الإفك رأس النفاق عبد الله بن أبي ، وروج له حسان بن ثابت ومسطح وآخرون من المنافقين .. فأنزل الله هذه الآيات لبراءة عائشة .

وبهذه المناسبة نشر الى أمرين : الأول ان الشيعة الإمامية يعتقدون ويؤمنون ان نساء الأنبياء جميعهن عفيفات طاهرات ، وان النبي ، أي نبي لا بضع مائه إلا في أرحام مطهرة ، وان زوجته قد تكون كافرة ولن تكون بغياً، لأن الرسول

أكرم على ربه وأعز من أن يجعل تحته بغيًا ، قال العالم الإمامي الطبرسي في مجمع البيان : « ان نساء الأنبياء يجب أن يتزهنَّ عن مثل هذه الحال لأنها تشين ، وقد نزه الله أنبياءه عما هو دون ذلك توقيراً لهم وتعظيماً عما ينفر من قبول قولهم والعمل بدعوتهم » ، وقد روي عن ابن عباس انه قال : ما زنت امرأة نبي قط ، وكانت الخيانة من امرأة نوح انها كانت تنسبه الى الجنون ، والخيانة من امرأة لوط انها كانت تدل على اضيافه .

الأمر الثاني قال البعض : ان النبي (ص) استشار الإمام علي (ع) مع من استشار في أمر عائشة : فأشار عليه بطلاقها ، وان هذا هو الدافع لخروجها على الإمام يوم الجمل ، وقد استند هذا القائل الى رواية لا نعرف مكانها من الصفحة .. بالاضافة الى أن النبي لا يحتاج الى أحد يشير عليه ، لأنه أعلم وأفضل الخلق أجمعين ، وكيف يشك النبي في زوجته ، وهو يعلم انه أكرم على الله من أن يجعل تحته بغيًا ؟ .. ولو شك رسول الله في عائشة لكان مقصوداً في قوله تعالى : (ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم) . كلا ، ان محمداً (ص) لم يشك في عائشة ، ومن نسب اليه هذا الشك فقد جاء ببهتان عظيم .

هذا ، الى ان هناك رواية ثانية تقول : ان الإمام قال لرسول الله : ان نعلك منزّه من النجاسة فكيف بزوجتك ، وان النبي سُرَّ بذلك . قال اسماعيل حقي في تفسيره روح البيان : « استشار النبي علياً في أمر عائشة . فقال يا رسول الله انها بريئة ، وقد أخذت براءتها من شيء حدث معك ، وهو اننا كنا نصلي خلفك في ذات يوم ، وأنت تصلي بنعليك ، ثم انك خلعت احدهما ، فقلنا ليكن ذلك سنة لنا ، فقلت : لا ، ان جبريل قال لي : ان في تلك النعل نجاسة ، واذا لم تكن النجاسة في نعلك فكيف تكون بأهلك ؟ فسرّ النبي بذلك » . ولم نذكر هذه الرواية إيماناً بها بل لنعارض بها رواية النصح بالطلاق .

المعنى :

(ان الذين جاموا بالإفك عصبه منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم) .

الذين رموا عائشة بالخيانة هم جماعة تظاهروا كذباً وزوراً بأنهم على ملة الاسلام، وليسوا منه في شيء .. وقد عز ذلك علي النبي وصحابته ، فقال لهم عز وجل : لا تظنوا ان هذا الإفك شر وضرر .. كلا ، بل فيه نفع كثير ، منه تمييز المؤمن الطيب من المنافق الخبيث الذي يحب ان تشيع الفاحشة في الأبرياء ، ومنه ابتلاء رسول الله (ص) وأمنه ، فيزيد الذين اهتدوا هدى ، ولا يزيد المنافقين إلا خساراً .

(لكل امرئ منهم ما اكتسب من الأثم) . ضمير منهم يعود الى أهل الإفك ، والمعنى ان لكل واحد من هؤلاء من العذاب بقدر ما أشاع وأذاع من الكذب والافتراء، وفي ان تهمة القذف ثبتت على حسان بن ثابت ومسطح وامرأة من قريش ، فأقام النبي (ص) عليهم الحد ، وجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة ، أما عبدالله بن أبي فقد دبر الحملة وأفلت من حد القذف لشدة حذره بعد ان أوقع فيها غيره ، وهو المقصود بقوله تعالى : (والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) في الدنيا بافتضاحه واطهار كبله وزيقه على الناس ، حتى طالب برأسه من أجل ذلك أحد سادة الخزرج ، وأيضاً طالب بها أحد سادة الاوس ، وألح في طلبها كثير من شباب الانصار ، ومنهم ابنه بالذات ، أما عذابه في الآخرة فألم وأعظم .

(لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين) . الهاء في سمعتموه تعود إلى الإفك . وبأنفسهم أي ظن بعضهم ببعض لأن بسني الانسان جميعاً متكافلون متضامنون ، وبالحصوص المؤمنين فإن الإيمان عهد وذمام ، وفي الحديث : المؤمنون كنفس واحدة : وفي الآية ١٠ من الحجرات : انما المؤمنون اخوة . هذا النحو من الاستعمال كثير في القرآن ، منه : « ولا تقتلوا أنفسكم - ٢٩ النساء » . ومنه : « فسلموا على أنفسكم - ٦١ التور » . وتشير الآية الى ان المؤمن حقاً لا يجوز له اذا سمع الإفك والباطل ان يسكت عنه . أما القول المشهور : اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب فان المراد به الكلام من غير علم ، وكلام اللغو والباطل كالكذب والغيبة والنميمة .

وتسأل : ان قوله تعالى : (وقالوا هذا إفك مبين) يدل على ان المؤمن

يجب أن يحزم بتكذيب الفاحشة وحديث الزنا بمجرد سماعه ، ودون أن يثبت ، ولا يتفق هذا مع المبدأ العقلي والاسلامي القائل : ان النافي بلسان الجزم تماماً كالإثبات ، كل منهما يحتاج الى دليل قاطع ؟ .

الجواب : أجل ، لا شك في هذا المبدأ ، وانه عام لكل شيء ، ولكن ليس المراد بالنفي هنا نفي الزنا في الواقع وفي علمه تعالى ، كلا ، بل المراد نفي حكمه وآثاره كاقامة الحد واللغو فيه ، واعتباره كأن لم يكن في الواقع الا اذا ثبت بالطريق الشرعي ، فاذا انتفى طريق الاثبات انتفى الحكم قطعاً ، ولذا يحمد القاذف ثمانين جلدة مع عدم الاثبات ، وبعبارة ثانياً ان عدم الدليل الشرعي على الزنا دليل على عدمه حكماً وآثراً ، وأقوى الشواهد على ذلك قوله تعالى : (لولا جاءوا عليه - أي على الزنا - بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) أي كاذبون في حكم الله بالدنيا ، أما علمه تعالى الذي يتعلق بالأمشياء على حقيقتها فينتهي عليه حكم الآخرة .

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) . أفضتم خضتم ، وضمير فيه للإفك وحديثه ، ورحمته تعالى في الدنيا على من عصى هي السر والامهال لكي يتوب ، وفي الآخرة العفو اذا تاب وأتاب ، ثم بين سبحانه سبب استحقاقهم العذاب العظيم دنيا وآخرة ، بيّنه بقوله : (اذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم) . تديرون حديث الافك بالسنتكم ، وينقله بعضكم عن بعض من غير دليل ، وتظنون ذلك سهلاً وهو من أعظم الذنوب والآثام عند الله ، ومن أقوال الإمام علي (ع) : اللسان سبع إذا خُلّي عنه عقر .

(ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا ان نتكلم بهذا) من الأساس فضلاً عن الشك فيه ، بل ينبغي تنزيه اللسان عن حديث الزنا ، حتى ولو ثبت بالبيئة الشرعية إلا في مقام الردع والزجر عنه .. والذين يتحدثون ويتلذذون بحديث الزنا والفجور هم اراذل الناس وشرارهم (سبحانهك هذا بهتان عظيم) وأي شيء أعظم بهتاناً وأثماً من الافتراء على الأبرياء ؟ والمؤمن الحق يذب عن أخيه المؤمن ، ولا يتهمه بالسوء والشر ما وجد له في الخير سبيلاً .

(يعظكم الله ان تعودوا لمثله أبداً ان كنتم مؤمنين) . يعظكم بهاكم ، ولما
أي مثل حديث الإفك ، فلا يجوز اللغو فيه والاستماع اليه .. وفي تعليق الاطاعة
على الايمان اشارة الى ان المؤمن إذا نهاه الله عن شيء أو أمره به امثل وأطاع
(ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) . يفصل ويوضح لنا الحلال والحرام في
كتابه وعلى لسان نبيه ، ويعلم العاصي منا والمطيع ، ويعامل كلا بعلمه وعدله
وحكمته .

(ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا
والآخرة) الفاحشة على حذف مضاف أي حديث الفاحشة .. ولا فرق بين من
فعل الفاحشة ومن أشاعها ، فكل منهما يقام عليه الحد إذا ثبت عليه الفعل أو
القذف ؛ وله في الآخرة عذاب الحريق .. وكل ناقص يود ان يكون له أشباه
ونظائر ، لأن من يحمل علامات النقص لا يطبق رؤية الكمال على غيره (والله
يعلم وأنتم لا تعلمون) والمؤمن لا يقول ولا يفعل بغير علم ، بل يرد ما يجهل
الى من يعلم (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) لمسكم فيها أفضتم فيه عذاب عظيم (وان
الله رؤوف رحيم) بعباده يريد لهم الخير ، وان أرادوا الشر لأنفسهم .

لا تتبعوا خطوات الشيطان الآية ٢١ - ٢٥ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ
الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا
أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا
أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ

الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ
هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ *

اللفظة :

لا يأتل لا يحلف ، من قولك : آليت إذا حلفت . والمراد بالمحصنات هنا
ذوات العفة والصون وبالغافلات سليات الصدور اللاتي لا يفكرن في الفاحشة .

الإعراب :

من احد (من) زائدة لإعراباً وأحد مفعول زكى . والمصدر من ان يؤتوا
منصوب بترع الخافض أي على الايتاء . واللام في ليعفوا وليصفحوا لام الأمر .
والا تحبون (الا) هنا للتخصيص مثل هلا . والمصدر من أن يغفر مفعول تحبون .
يوم تشهد: (يوم) متعلق بما تعلق به لهم عذاب اليم . ويومئذ متعلق بيوفيههم .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) بإشاعة الفحشاء في الذين
آمنا ، ولا بشيء مما يوسوس به ويدعوكم اليه (ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه
يأمر بالفحشاء والمنكر) . من أمكن الشيطان من نفسه قاده الى كل قبيحة ورذيلة
(ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً) . لقد دلنا سبحانه على
طريق الخير وطريق الشر ، ونهانا عن هذا ، وأمرنا بذلك ، وزودنا بالقدرة على

الفعل والترك ، وفتح باب التوبة لمن عصى وأذنب ، وهذا هو فضله ورحمته ، أما تركيته فلا تمنحها إلا لمن سمع وأطاع (ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم) وحكيم أيضاً لا يزكي إلا أصحاب الأعمال الزاكية ، والقلوب الصافية .

(ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة ان يؤثروا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله) . روي ان هذه الآية نزلت في أبي بكر حين حلف ان لا ينفع مسطح بن اثانة أبداً بعد أن اشترك مع من اشترك في اشاعة الفاحشة في ام المؤمنين . وقد اجتمعت هذه الصفات الثلاث في مسطح أي القربى من أبي بكر ، والمسكنة والمهجرة في سبيل الله ، فهو ابن خالة أبي بكر ، وهو مسكن لا مال له ، وهو من المهاجرين والبدريين (وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) . هذا وعد من الله سبحانه ان يعفو ويرحم من عفا وصمح عن أساء اليه .. وكان الإمام زين العابدين (ع) يعفو عن سيء اليه ، ثم يخاطب الله بقوله : ربنا انك أمرتنا بالعفو عن ظلمنا ، وقد عفونا كما أمرت ، فاعف عنا ، فانك أولى بذلك منا ومن المأمورين .

(ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم) . في الآية ٤ من هذه السورة بين سبحانه ان من يقذف امرأة بالزنا ، ولم يأت بأربعة شهداء فعقوبته في الحياة الدنيا أن يجلده الحاكم الشرعي ثمانين جلدة كائناً من كان القاذف ، وسكت سبحانه عن عقوبة القاذف وعذابه في الآخرة ، وفي الآية التي نفسرها بين جل وعز ان عقاب القاذف في الآخرة هو العذاب العظيم اذا كانت المذنب عفيفة بريئة مما رميت به ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : الغافلات أي الداهيات عن الزنا ، لا يفكرون فيه ، أو لا يفعلنه والأمر كذلك فيمن قذف بالزنا عفيفاً بريئاً .

(يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) . في الدنيا يحتاج المدعى الى شهود - مثلاً - اذا ادعت امرأة ان فلاناً قذفها بالزنا ، وأنكر المدعى عليه ، فعليها الاثبات ، فان عجزت ردت دعواها ، أما في الآخرة فلا تحتاج الى شهود ، ولا تطالب بهم لأن الفاعل لا سبيل له الى الانكسار ، ولو افترض انه أنكر أو حاول شهدت عليه جوارحه وأعضاؤه ، فكل عضو يشهد

على المهمة التي أداها ؛ فإسائه يشهد على الكلام ، ويده على البطش ، ورجله على المشي وهكذا (بومثل يوفيههم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين). المراد بدينهم هنا جزاءهم الواجب ، والمعنى ان الله سبحانه يحاسبهم غداً، ويجزيهم جزاء الحق والعدل ، وعند ذلك يعلمون ان ما وعدهم به من البعث والحساب والجزاء حق لا مهرب منه .

الحيثات للخيئين الآية ٢٦ - ٢٩ :

الْحَيْثَاتُ لِلْخَيْثِينَ وَالْخَيْثُونَ لِلْخَيْثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ *

اللفظ :

تستأذنون تستأذنون . والجناح المخرج والائتم . والمتاع ما يتمتع به الإنسان في العاجل .

الإعراب :

تستأنسوا منصوب بأن مضمرة بعد حتى ، ومثله حتى يؤذن . وتذكرون أصله تذكرون . والمصدر من ان تدخلوا مجرور بفي محذوفة .

المعنى :

(الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) . الخبيث هو القبيح من كل شيء ، فيشمل العقيدة والنوايا والصفات والأقوال والأفعال بشئ أنواعها ، ولا يختص بالزنا ، والطيب هو الحسن من كل شيء ، وأطلق القرآن الكريم كلمة الخبيث على الرديء من الأرض والمال والكلام والمأكول المحرم ، وعلى كل من استحق سخط الله وعذابه من شياطين الانس والجن .. وقال جماعة من المفسرين : المراد بالخبيثات هنا من خبت من النساء ، وبالخبيثين من خبت من الرجال ، وبالطيبات من طاب منهن ، وبالطيبين من طاب منهم ، وان معنى الآية : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، والخبيثون منهم للخبيثات منهن ، وكذلك الطيبون والطيبات .

وهذا القول لا يتفق مع الواقع ، فلقد رأينا الخبيثة يتزوجها الطيب ، والطيبة يتزوجها الخبيث ، بل لا يتفق هذا مع صريح القرآن ، قال تعالى : « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما » الى قوله « وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله - ١١ التحريم » . ومعلوم ان نوحاً ولوطاً نبيان معصومان ، وان فرعون هو القاتل : أنا ربكم الأعلى .

والذي نراه ان المراد بالخبيثات في الآية ما خبت من الأقوال والأفعال ، وبالطيبات ما طاب منها ، وبالخبيثين من خبت من الرجال والنساء تغليبا للذكور على الاناث ، وبالطيبين من طاب منهم ومنهن أيضاً من باب التغليب ، وعليه يكون المعنى ان ما خبت من الأقوال والأفعال لا يصدر إلا ممن خبت من الرجال

والنساء وما طاب من الأقوال والأفعال لا يصدر إلا ممن طاب منهم ومنهن ،
تماماً كما قال الشاعر : « وكل اناء بالذي فيه ينضح » .

(أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) . أولئك اشارة الى
الطيبين والطيبات ، وضمير يقولون يعود الى الخبيثين والخبيثات ، وان الله سبحانه
ينعم بالغفران والجنان على من طاب نفساً وفعلاً .

(يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على
أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون) . حتى تستأنسوا أمر بالاستئذان قبل الدخول
الى بيت الغير تماماً كقوله تعالى : « واذا بلغ الأطفال منك الحلم فليستأذنوا - ٥٩
النور » ، فكل من يريد الدخول الى بيت الغير فعليه أن يستأذن أولاً ، لأن
الدخول تصرف في مال الغير ، فلا يحل إلا بإذن صاحبه ، ومن هنا قال الفقهاء :
الاستئذان واجب ، والسلام مستحب ، وكفي في الاستئذان والاذن كل ما دل
عليها ، فقرر الباب استئذان ، وأهلاً وسهلاً إذن ، وبعد الاذن يدخل ويسلم .
(فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) . وتساءل : ان لم
يكن في الدار أحد فمن الذي يأذن بالدخول ؟ .

وأجاب الشيخ المراغي وغيره بأن المراد « ان لم يكن فيها أحد يملك الاذن
بأن كان فيها عبد أو صبي » . والأرجح في الجواب ان الدار ان كانت خالية
من أهلها فلا يجوز للغريب عنها أن يدخلها إلا إذا رأى صاحبها أولاً ، وأذن ،
كما لو قال له : اذهب الى داري واتني منها بكذا ، أو اسقيني بها وأنا لاحق بك .

(وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أركى لكم) ولا تلحوا في طلب الدخول ،
ولا يكن في أنفسكم أية غصاصة على صاحب البيت ، واحملوه على الأحسن وقولوا :
له عذر مشروع . انظر تفسير قوله تعالى : « وقولوا للناس حسناً - ٨٣ البقرة »
ج ١ ص ١٤١ فقرة : « أصل الصحة » (والله بما تعملون عليم) . هذا تهديد
ووعيد لمن يشتم ويستغيب من لا يأذن له بدخول بيته .

(ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم) . المراد
بهذه البيوت الأماكن العامة كالغنادق والخوانيت ، فمن كان له متاع في فندق أو
في حانوت فله ان يدخله ويأخذ متاعه منه دون أن يستأذن صاحبه إذناً خاصاً لأن

من فتح بابه للجميع فقد اذن لهم اذنأ عاماً ، وأيضاً لا أسرار لصاحب الصندوق والханوت فيها ، فلا موجب - اذن - للاستئذان (والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) . فيه إيماء الى أن الانسان لا يحل له أن يدخل بيت غيره بقصد الحياة والاساءة الى أهله ، وان من قصد ذلك فإن الله يعلم قصده ، ويؤاخذه عليه .

الحجاب وغض النظر الآية ٣٠ - ٣١ :

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَغَضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَغُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْتَبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *

اللفظ :

الخمر جمع خمر ، وهو ما تغطي به المرأة رأسها . والجيوب جمع جيب ، وهو فتحة في أعلى القميص ، والمراد به هنا الصدر . والإربة الحاجة والمراد بها الحاجة

الى النساء . ولم يظهروا على عورات النساء أي لا يدرون ما هي ، ولا يفرقون بينها وبين غيرها من أعضاء الجسم .

الإعراب :

يغضوا مضارع مجزوم بلام الأمر المحذوفة أي ليغضوا . والا ما ظهر بدل من زيتتهن . والا ليعولتهن بدل باعادة حرف الجر من لأحد المحذوف أي ولا يبدن زيتتهن لأحد الا ليعولتهن . وغير اولى الإربة صفة للتابعين .

المعنى :

هاتان الآيتان من آيات الاحكام ، وقد تضمنتا وجوب غض النظر على النساء والرجال ، وحفظ الفروج من الزنا، والحجاب ، والتفصيل فيما يلي :

١ - (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) . أمر سبحانه الرجال أن يكفوا عن النظر ، ولكنه أطلق ولم يذكر متعلق الفعل ، ويبين عن أي شيء يكفون أبصارهم ، سكت سبحانه عن ذلك معولاً على دلالة السياق ، فان الظاهر منه تحريم النظر الى الأجنبية .. وقد اتفق أكثر الفقهاء على ان الرجل لا يجوز له النظر الى شيء من بدن الأجنبية إلا الى وجهها وكفيها شريطة أن يكون النظر من غير تلذذ ، وان لا يخشى معه الوقوع في الحرام .. هلما اذا كانت المرأة مسلمة يحرم دينها السفر، أما غيرها التي لا يحرم دينها السفر فقد اختلف الفقهاء في جواز النظر الى غير الوجه والكفين منها ، فأجازته جماعة منهم، وأجازوا أيضاً النظر الى شعور المسلمات من أهل البوادي لأنهن لا يتنهين اذا نهين .

٢ - (ويحفظوا فروجهم) من الزنا ، وأدخل سبحانه كلمة « من » على الأبصار دون الفروج لأن الفرج يجب صيانته إلا في حالة واحدة ، وهي خلوة الزوجين على عكس النظر فانه لا يحرم إلا في بعض الحالات (ذلك أركى لهم ان الله خبير بما يصنعون) . ذلك إشارة الى الغض عن المحرمات ، وهو أظهر للنفس ، وأقرب للتقوى ، وأبعد عن الذنوب والآثام .

٣ - (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) . قال فقهاء الشيعة الإمامية : يحرم على المرأة أن تنظر من الرجل ، ما يحرم عليه أن ينظر منها ، ويحل لها أن تنظر منه ما يحل له أن ينظر منها أي إلى الوجه والكفين فقط ، ومعنى هذا أن المرأة لا يحل لها أن تنظر إلى شعر الرجل ، تماماً كما لا يحل له أن ينظر إلى شعرها ، وقال غيرهم : بل يجوز أن تنظر إلى جميع بدنه إلا ما بين السرة والركبة . والتفصيل في كتابنا الفقه على المذاهب الخمسة ، فصل ما يجب ستره وما يحرم النظر إليه من البدن .

٤ - (ولا يبدین زینتهن إلا ما ظهر منها) . المراد بالزينة هنا موضعها لأن الزينة بما هي لا يحرم النظر إليها ، والمراد بالظاهر من موضع الزينة الوجه والكفان فقط ، وقد استدلل الفقهاء بهذه الآية على وجوب الحجاب ، وأن جميع بدن المرأة عورة إلا ما استثنى منه أي الوجه والكفين ، فقد سئل الإمام جعفر الصادق (ع) عن الذراعين : هل هما من الزينة التي قال الله عنها : ولا يبدین زینتهن ؟ فقال : نعم ، وما دون الوجه والكف من الزينة . أي المحرمة . وفي أحكام الآيات للجصاص أحد أئمة الأحناف : « المراد بما ظهر الوجه والكفان » . وفي تفسير الرازي الشافعي : « انفقوا على أن الوجه والكفين ليسا بعورة » .

(وليضربن بخمرهن على جيوبهن) . يضربن أي يلقين . والخمار غطاء الرأس . والجيب فتحة القميص ، والمراد به هنا الصدر من باب اطلاق اسم الحال على المحل ، والمعنى يجب على النساء أن يسدلن الأخرى من الأمام ليسترن الصدور والنحو . وكان نساء الجاهلية يغطين رؤوسهن بالآخرة ، ويسدلنها من وراء الظهر ، فتبدو صدورهن ونحوهن ، وبقين على ذلك حتى نزلت هذه الآية ، فأسدلن الآخرة إلى الأمام يسترن بها الصدور والنحو .

سفور أو متجر ليع اللحوم ؟

رخص الاسلام للمرأة أن تكشف عن الوجه والكفين لأن ضرورة الحياة تستدعي ذلك، واعتبر ما عداها عورة لأنه طريق المخاطر والمهالك، قال الرسول الأعظم (ص):

« من رعى غنمه حول الحمى نازعته نفسه أن يرعاها فيه .. وهذا هو الواقع المشهود ، فأتى اتجهت ببصرك رأيت له العديد من الصور .. فما ان اسفرت المرأة عن شعرها حتى ذهبت الى الحلاق ، ومنه الى كشف الصدر والكشف والساق ، الى « الميني جيب والمكريجيب » الى الأزياء التي تتطور يوماً فيوماً ، وتجمعم الأنوثة وتحكيها عضواً عضواً ، وتعرضها في الشوارع والأسواق كأنها لحم في متجر جزار .. والسر ان أكثر النساء لا يذهبن الى أبعد من اظهار زيتنهن وعرض جملهن .

وأعجب ما قرأته في هذا الباب ان في مدينة هامبورغ بألمانيا الغربية شاعراً رهيباً يصطف على طول جانبيه محلات ، وفي كل محل تعرض في واجهاته نساء على الزبائن والناظرين ، وهن عرايا في أوضاع شاذة لا تخطر على بال .. وان كل ما يبدو مستحيلاً فهو متحقق بالفعل ، ويستمر هذا العرض طوال الليل والنهار .. هذه هي عاقبة الحرية الزائفة .. قرأت هذا ، وأنا أرتجف من هول ما قرأت ، وأول شيء أوحى به اليّ هذا الشارع العاري انه في المستقبل القريب أو البعيد سيتقل الى بلادنا ، تماماً كما انتقل الميني جيب وغيره ، ما دمنا مستمرين في محاكاة الغرب .. نستجير بالله مما يحبته الغد .

وبهذه المناسبة نشير ان المرأة اذا كانت مولعة باظهار زيتنها وجملها، وتنجيم أنوثتها بكل أسلوب فان كثيراً من الرجال مولعون باظهار شخصيتهم وإلصاق الشهرة بهم ، ولو كذباً وخداعاً ، واذا كانت المرأة تحقد وتحسد من ينافسها في الزينة والجمال فان الرجال المولعين بالشهرة أكثر حسداً ، وأشد حقداً على من له اسم يذكر .. في سنة ١٩٥٧ نشر كاتب مصري كلمة يسخر فيها من فتوى شيوخ الأزهر بتحريم لبس « المايو » للمرأة ، وقال فيها قال : ان الاسلام بريء من هذه الفتوى .. فنشرت كلمة في الرد عليه، وأثبت ان شيوخ الأزهر نطقوا بكلمة الاسلام والقرآن ، واستشهدت بآية : « ولا يبدن زيتنهن » .

وبعد أيام صادف ان زرت شيخاً مع أحد الزملاء ، ولما استقر بنا الجلوس أقبل عليّ الشيخ وقال : كيف تحلل لبس « المايو » وترد على شيوخ الأزهر الذين أفتوا بتحريمه ؟

قلت : بالعكس ، أيدت فتوى الشيوخ ، وفندت رأي من رد عليهم .
قال : كلا ، وقد احتفظت بالصحيفة التي نشرت فيها كلمتك لأجابهك بها .
قلت : هاتها .. فقام مسرعاً ، وجاء بالصحيفة وشرع يقرأ بحماس كالظافر المنتصر .

قلت : ماذا رأيت ؟.. فهيت وأسقط في يده .. وحضر هذا المشهد - والله الحمد - رفيقي السيد وشيخ من أقارب الشيخ - على الهامش ما زال الشاهدان من الأحياء ، نحن الآن في صيف سنة ١٩٦٩ .

ولا أجد تفسيراً لاقدام هذا الشيخ على تكذيب نفسه بنفسه إلا انه - غفر الله له - كان يتمنى لي العثرات واللعنات ، فأخذ يبحث بالسراج والفيلة - كما يقول العاملون - ليشيعها ويذيعها ، ولما قرأ اسمي في الصحيفة تحرك حقه الكامن المكبوت ، وطفى حبه للشهير بي على بصره وبصيرته ، فأراه البياض سواداً ، والحق باطلاً .. ولا بدع فان البغض تماماً كالحب يعمي ويصم ، وصدق الله العظيم : ه لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون - ١٧٨ الأعراف .
وما ذكرت هذا الحديث شاكياً أو متبرماً .. كلا ، فقد علمتني التجارب ان لا أبالي بالكواذب ، ولكن أملاه علي القلم ، ولم يدع لي سبيلاً للاختيار، وهذا شأنه معي كلما انصرفت اليه .

وبعد أن نهى سبحانه النساء المسلمات عن كشف مواضع الزينة إلا الوجه والكفين، بعد هذا رخص لمن يابدها غيرها لاثني عشر صنفاً :

١ - (ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن) فلكسلسل من الزوجين ان يرى من صاحبه ما يشاء .

٢ - (أو آبائهن) ويدخل فيهم الأجداد من الأب والأم .

٣ - (أو آباء بعولتهن) ويدخل في آباء الأزواج الأجداد من الأب والأم .

٤ - (أو أبنائهن) وولد الولد ولد ذكراً كان أو أنثى .

٥ - (أو أبناء بعولتهن) وان نزلوا .

٦ - (أو اخوانهن) من الأم والأب أو من أحدهما .

٧ - (أو بني اخوانهن) وان نزلوا .

٨ - (أو بني اخوانهن) كذلك .

٩ - (أو نسائهن) يحرم على المسلمة ان تتجرد من عورتها أمام مثلها حتى ولو كانت أمها أو ابنتها ، كما يحرم عليها أن تنظر الى عورتها .. ويحل لها ان تتجرد عما عدا السوء أمام مسلمة مثلها ، ولا يحل ذلك أمام غير المسلمة ، هذا ما دلت عليه الآية ، وما خالفها فترك . وفي بعض الروايات ، ان المسلمات اذا تجردن أمام غير المسلمات وصفن ذلك لأزواجهن .

١٠ - (أو ما ملكت أيمانهن) من الاماء والجواري ، أما العبد فلا يجوز له ان ينظر الى سيده إلا الوجه والكفين ، ولو كال خصياً ، وما خالف ذلك الأقوال والروايات فترك .. وعلى أية حال فإنه لا موضوع اليوم لهذا الحكم ، حيث لا إماء ولا عبيد .

١١ - (أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال) وهم الذين يخالطون الأسرة ، ويتبعونها في أكثر الأحيان ، ولا شهوة لهم في النساء لسبب بدني كالهرم والعن أو عقلي كالعتة .

١٢ - (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) المراد بالطفل الجنس ، وهم الصبيان الذين لا يفرقون بين العورة وغيرها من أعضاء البدن .
(ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) كان النسوة يلبسن الخلاخل ، وما زالت هذه العادة في كثير من البلدان العربية ، وكان بعضهن يضربن الأرض بأرجلهن لتقعق خلاخلهن لتبيح الرجال أو الإشعار بأنهن من ذوات الخلاخل ، فنهاهن الله عن ذلك . وفيه إيماء الى ان على المرأة أن لا تأتي بأية حركة تثير الشهوة وتوقظ المشاعر (وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) . انتهوا عما نهى الله ، ومن سبقت منه الخطيئة فليتداركها بالتوبة فإنها مسموعة عند الله .

وانكحوا الايامى منكم الآية ٣٢ - ٣٤ :

وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا

فَقَرَأَ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَلَيْسَتَغْنِفِ الَّذِينَ لَا
يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ
بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ
اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا
لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْمُنَّ فَوَانَّ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ
إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا
مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ *

اللغة :

الأيامى جمع ايم ، وهو غير المتزوج رجلاً كان أو امرأة بكرة كانت أو
ثيباً . والإماء جمع أمة ، وهي المملوكة . والمراد بالكتاب هنا مكانة العبد مع
سيده على مال معين فإن أداه كاملاً يصبح حراً . والبغاء الزنا . والتحصن العفة .

الإعراب :

منكم متعلق بمحذوف حالاً من الأيامى ، ومن للبيان . ومثلها من عبادكم .
وحتى يغنيهم الله الفعل منصوب بأن بعد حتى . والمصدر المجرور بلام لتبتغوا
متعلق بتكروهوا .

المعنى :

(وأنكروا الأيامى منكم) . الخطاب للمسلمين جميعاً ، والأمر هنا للاستحباب ،

لا للوجوب ، والايام من لا زوج له ، ويطلق على الأعزب والعزباء .. بعد أن أمر سبحانه الرجال والنساء بحفظ الفروج ، والكف عن النظر المحرم ، ونهى النساء عن التبرج وابداء الزينة أمام الأجانب — بعد هذا أمر بالتعاون على تسير الزواج لكسل من احتاج اليه من النساء والرجال ، لأن العزوبة مصدر القبايح والردائل كالزنا واللواط، والزواج وقاية من ذلك، ولذا قال الرسول الأعظم (ص): شراركم عزابكم .. الزواج من سنتي ، فمن رغب عن سنتي فليس مني .

(والصالحين من عبادكم وامائكم) . المراد بالصالحين هنا المؤمنون . والعباد جمع عبد . والإماء جمع أمة، والمعنى وأيضاً زوجوا ما تملكون من العبيد والإماء إذا كانوا مؤمنين .. ولا موضوع اليوم لهذا الحكم (إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله) . أكثر الناس لا ينظرون الى دين الخاطب وأخلاقه ، بل ينظرون الى جاهه وماله .. فتد سبحانه بمن يفعل ذلك ، وقال : ان الله قادر على ان يغني الفقير ، ويفقر الغني ، والفقر عنده تعالى هو فقر الدين والأخلاق ، وفي الحديث : إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير (والله واسع عليم) بسع فضله ورحمته من سأله ومن لم يسأله .

(وليستغفف الدين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله) . وتساءل : قال سبحانه في الآية السابقة : (ان يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله) . وهذا بظاهره وعد منه تعالى بالغنى للفقير ، وانه لا ينبغي له أن يمتنع عن الزواج لمجرد الفقر لأن الله يكفيه ويغنيه .. ثم قال جل وعز بلا فاصل : من لا يجد المهر والنفقة للزواج فلا يدخل في الفاحشة ، وعليه أن يصبر حتى يوسع الله .. فاهو وجه الجمع بين الآيتين ؟ .

الجواب : لا تنافر بينهما كي يسأل عن وجه الجمع ، لأن المقصود بالآية الأولى أولياء المرأة ، وانه لا ينبغي لهم أن يردوا الخاطب لفقره، والمقصود بالآية الثانية الفقير بالذات ، وان الناس اذا ردوه ولم يزوجه لفقره فعليه أن يصبر ويسمى متكللاً على الله حتى تنهيا له أسباب الزواج .

(والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) . من كان عنده مملوك قادر على الكسب عبداً

كان أو أمة فله أن يكاتبه، أي يتفق معه على أن يؤدي المملوك مبلغاً من المال في وقت معين قسماً واحداً ، أو أقساطاً ، فان أداه كاملاً الى سيده يصبح المملوك حراً ، وإذا أدى البعض أعْتَق منه بقدر ما أدى ان كان العقد مطلقاً غير مشروط بتأدية الجميع ، والا لم يعتق منه شيء ، وقيل : العبد لا يتبع بعض، إما ان يتحرر كاملاً ، واما ان يكون رقاً كذلك ، ويستحب للسيد ان يحط عن المملوك شيئاً من المال المتفق عليه ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : (وآتوهم من مال الله) وقد اصطلح الفقهاء على تسمية هذه المعاملة بين المملوك وسيده بالمكاتبه لقوله تعالى: يبتغون الكتاب .. فكاتبوهم .

(ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) . المراد بالفتيات هنا الاماء ، ولا وجود لمن في هذا العصر ، والبغاء الزنا.. وكان أهل الجاهلية يُكرهون الاماء والجواري على الزنا التماساً للمال، فنهى سبحانه عن ذلك. وتساءل : ان الظاهر من قوله تعالى : (ان أردن تحصناً) ان اكراه الأمة على الزنا انما يحرم اذا أرادت العفة والصون ، أما اذا أرادت الزنا ورغبت فيه فلا بأس أن تزني ، مع العلم بأن الزنا محرم في شتى الأحوال ؟.

الجواب : ان المعنى المراد من أداة الشرط يختلف باختلاف المقاصد والقرائن، فقد يكون المراد بأداة الشرط مثل (ان) و (إذا) القيد والتعليق حقيقة وواقعاً أي ان يقصد المتكلم تحقيق المشروط عند وجود شرطه ، وعدمه عند عدمه ، ومثال ذلك أن تقول لصاحبك : ان فعلت أنت هذا فعلت أنا مثله . فقد علقْتَ فعلك على فعل صاحبك ، وجعلت فعله شرطاً لفعلك بحيث إذا لم يفعل هو لم تفعل أنت .

وقد يقصد المتكلم بأداة الشرط مجرد بيان الموضوع من غير تعليق شيء على شيء ، مثل ان تقول لصاحبك : ان رزقت ولداً فلا تشتري له دراجة ، فأنت لا تريد بكلمة (ان) هنا القيد والتعليق ، وإنما أردت ابداء رأيك وكرهيتك أن يركب الأولاد الدراجة ، ولو أردت الشرط والقيد لكان المعنى ان لم ترزق ولداً فاشتر لوليك دراجة .. وهذا هو الهذيان بعينه ، وقوله تعالى : (ان أردن تحصناً) من هذا الباب أي ان كلمة (ان) لا يراد بها القيد والشرط ، بل

ذُكرت لمجرد بيان الواقع ، وإنه اذا أرادت الأمة العفة والصون فبالأول ان تريدوها أنتم .. ولو أريد بكلمة (ان) التعليق والشرط حقيقة لكان المعنى : عليكم أن تكرموها الفتيات على فعل الزنا ان اردن الزنا .. وبداهة ان الاكراه لا يتصور مع وجود الارادة،تماماً كما لا يتصور ركوب الدراجة من الولد مع عدم وجوده .

المنطوق والمفهوم :

وبتعبير ثانٍ ان كلمة (ان) و (اذا) وما اليها تدل على شيء واحد في مقام ، وتدل على شيئين في مقام آخر ، وتُسمى احدى الدالتين بدلالة المنطوق ، والثانية بدلالة المفهوم في اصطلاح أهل الاصول ، والمنطوق هو النص الحرفي الذي يتضوه به التكلم ، والمفهوم هو الذي لم ينطق به ، ولكن يدل عليه بالتلويح والاشارة ، لا بالنص والعبارة ، ومثال ذلك ان تقول لصاحبك : ان أكرمتني أكرمتك ، فالمنطوق هنا يدل على اكرامك له عند اكرامه لك .

أما المفهوم فهو الذي يشير اليه المنطوق ، ويستفاد من مضمونه لا من نصه ، وهو في المثال المذكور ان لم تكرمني فأنا لا أكرمك ، فهذه الجملة لم ينطق بها المتكلم ، ولكنها مفهومة من منطوق كلامه المشتمل على (ان) . والآية التي نحن بصدددها من النوع الأول أي لها دلالة واحدة ، وهي دلالة المنطوق والعبارة فقط ، وليس لها دلالة المفهوم والاشارة اطلاقاً .. والمنطوق الذي دلت عليه الآية هو علم جواز الإكراه على الزنا مع ارادة السر ، ولا شيء وراء هذه الدلالة على الاطلاق ، لأن هذا الشيء الذي وراء المنطوق لا يخلو ان يكون واحداً من اثنين: إما جواز الاكراه على الزنا مع ارادته والرغبة فيه ، وهذا محال لأن الاكراه على الشيء لا يجتمع مع ارادته والرغبة فيه ، وهذا واضح ، واما جواز الاكراه مع عدم ارادته ، وهذا محال من الله لأنه تعالى لا يميز الفحشاء بحال من الأحوال .

(ومن يكرههن فإن الله من بعد اكراههن غفور رحيم) للمكرهات على الزنا لأن العقاب على من أكره ، لا على من استكره ، قال الرسول الأعظم (ص): رفع عن أمي ما استكرهوا عليه .. ومن أكره غيره على الحرام يفر له الله إذا

تاب وأتاب (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين) . المراد بالآيات أحكام القرآن وتعاليمه ، وهي ظاهرة واضحة و (مثلاً) إشارة الى أخبار الماضين وقصصهم ، وموعظة للمتقين أي هدى لمن طلب الهداية ، والمعنى ان الله سبحانه أنزل القرآن تبياناً واضحاً لما نحتاج اليه من الأحكام ، ونبأ عن الماضين ، وهدى لمن اتبع به ، وعزاً لمن تولاه .

الله نور السموات والأرض الآية ٣٥ - ٣٨ :

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُدْخِلُونَ فِيهَا أَنْفُسَهُمْ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ *

اللغة :

المشكاة تطلق على الكوة في الحائط غير نافذة بوضع فيها المصباح ونحوه ،

سورة النور

وأبصاراً تطلق على العمود الذي يكون المصباح على رأسه . درئي أي يشبه الدر في صفائه . والغدو جمع غدوة ، وهي الصباح ، والآصال جمع أصيل ، وهو المساء .

الإعراب :

زيتونة بدل من شجرة ، وما بعدها صفة . نور على نور (نور) خبر مبتدأ محذوف أي ذلك نور على نور و (على نور) متعلق بمحذوف صفة لنور . والمصدر من ان ترفع منصوب بترع الخافض أي بأن ترفع . وفي بيوت متعلق بيسبح ، وفيها بدل من في بيوت مثل : « وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها - ١٠٨ هود » . ورجال فاعل يسبح . وليجزئهم متعلق بمحذوف أي فعلوا ذلك ليجزيهم . وأحسن مفعول ثانٍ ليجزيهم لأنه بمعنى يعطيهم .

المعنى :

أشار سبحانه في كتابه العزيز الى عظمة الكون وما فيه مئات المرات ، معبراً عنه في العديد من آياته بالسموات والأرض .. والغرض من ذلك ان يستدل الانسان بعظمة الكون على وجود المكون وعظمته ، وأن يكون على يقين من ربه وخالقه ، وقد ذكر سبحانه في بعض الآيات ان خلق الكون أشد وأكبر من خلق الانسان على ما فيه من بديع الصنع ، وجبال الخلق ، قال تعالى : « أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها - ٢٧ النازعات » . وقال : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون - ٥٧ غافر » .

فالسموات والأرض بإحكامها وترتيبها ونظامها هي أعظم الأدلة وأظهرها على عظمة الخالق في قدرته وعلمه وحكمته .. ولأن الكون أوضح الأدلة على وجود الله، ولأن النور أظهر من كل ظاهر قال سبحانه : (الله نور السموات والأرض) . والمراد بنور الله عظمته في قدرته وعلمه وحكمته ، وتتجلى هذه العظمة في خلق

الكون ، فكل شيء في أرضه وسمائه يدل دلالة صريحة واضحة على وجود الله وعظمته ، وبهذا يتبين معنا انه لا فرق بين ان نقول : السموات والأرض نور الله ، وبين ان نقول : الله نور السموات والأرض ، لأن معنى الجملة الأولى ان عظمة الكون تدل على عظمة الله ، ومعنى الثانية ان عظمة الله تتجلى في عظمة الكون ، فهو تماماً مثل قولك : اتقان هذا البناء يدل على مهارة الباني ، ومهارة الباني قد تجلت في اتقان هذا البناء .

(مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار نور على نور) . هذا مثال ضربه الله سبحانه على وضوح الأدلة وظهورها على وجوده ، وانها قائمة في كل جزء من أجزاء الكون ، ويتلخص هذا المثال بسراج وضع في كوة بجدار البيت تحصر نوره وتجمعه ، ولا ينفذ اليه الهواء، وهذا السراج داخل قنديل من الزجاج الشفاف الصافي الذي يتلألأ كالكوكب المضيء ، أما الزيت الذي فيه فهو من زيتونة لا هي شرقية تصيبها الشمس عند شروقها فقط ، ولا هي غربية تصلها الشمس عند غروبها فقط ، بل هي شرقية غربية لأنها تواجه الشمس صباحاً ومساءً ، لا يظلمها جبل ولا شجر ولا حائط ، ومن هنا جاء زيتها نقياً صافياً ، يكاد يضيء من غير احراق ، فإذا مسته النار أشرق نوره وتألّق (نور على نور) . نور المصباح ، ونور الزجاج الصافي ، ونور الزيت النقي . وبكلام أحصر زاد المصباح إنارة لنقاء الزيت، وصفاء القنديل وحصر الكوة لنور المصباح ووقايتها له من تلاعب الأرياح .

(يهدي الله لنوره من يشاء) إذا سلكوا السبيل الذي نصبه للهداية لأن الله سبحانه حكيم لا يفعل الشيء اعتباطاً ، والذين يهديهم ويثبتهم هم الذين يرون دلائله ويعملون بها ، وقد أشار اليهم في الآية التالية بقوله : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) الخ . (ويضرب الله الامثال للناس) ومنها هذا المثال البليغ ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة (والله بكل شيء عليم) يعلم الجحود العنود لدلائله الساطعة وبياناته القاطعة ، وبجزية جهنم وبئس المهاد . (في بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه) . المراد بالبيوت هنا المساجد ،

ويرفعها بناؤها .. بعد ان ذكر سبحانه أنه يهدي لنوره من يشاء ذكر المساجد وانه تعالى قد رخص بينهاها لأن المؤمنين يعبرونها بالصلوات صباحاً ومساءً (يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) . التجارة والبيع هنا كناية عن مطلق العمل للدنيا من أي نوع كان، وإنما خص التجارة بالذكر لأنها أكثر ربحاً وأقوى صارفاً من جميع الأعمال ، والمعنى ان المؤمنين يعملون للدنيا في الأسواق والحقول والمصانع وغيرها ، وأيضاً يعملون الآخرة ، فيصلون ويصومون ويزكون ويحجون ، ولا تشغلهم الدنيا عن الآخرة ، ولا الآخرة عن الدنيا عاملين بقوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا - ٧٧ القصص » .

(يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) هذا كناية عن هلع المجرمين وفزعهم، أما الطيبون فهم بأمان من الفرع الأكبر (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا) من الصالحات والمبرات ، قال الإمام علي (ع) : لن يفوز بالخير إلا عامله ، ولن يجزي جزاء الشر إلا فاعله (ويزيدهم من فضله) أضعافاً مضاعفة (والله يرزق من يشاء بغير حساب) أي بغير استحقاق ، بل تفضلاً منه وكرماً . قال صاحب الأسفار : من خلت صحيفته من السيئات دخل الجنة بغير حساب ، ومن خلت صحيفته من الحسنات دخل النار بغير حساب : وأما الذين يحاسبون فهم الذين خلطوا عملاً صالحاً ، وآخر سيئاً .

أعمالهم كسراب الآية ٣٩ - ٤٢ :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ

يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ* أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ
صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ* وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ*

اللفظ :

السراب شعاع من ضوء الشمس في الهجيرة يتخيله الرائي ماء يجري على الأرض .
وقية جمع قاع ، وهو المنبسط من الأرض . ولحيّ عظيم الماء تتراكم أمواجه .
ويغشاه يغطيه . وصافات باسطات أجنحتها في الهواء . والمصير المرجع .

الاعراب :

بقية الباء حرف جر ، وقية مجرور بها متعلقاً بمحذوف صفة لسراب . أو
كظلمات معطوف على سراب . من فوقه موج مبتدأ وخبر والجملة صفة موج .
من فوقه سحاب مثله . وظلمات خبر لمبتدأ محذوف أي هذه ظلمات . من نور
(من) زائدة اعراباً ونور مبتدأ . والطير عطف على من في السموات . وصافات
حال من الطير .

المعنى :

(والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم
يجده شيئاً) . المراد بالكافرين هنا من جحد نبوة محمد (ص) تعصباً وعناداً ،
أو عن امال وتقصير ، أي لم يبحث عن الحقيقة ، وهو قادر على البحث

سورة النور

والنظر .. بعد أن ذكر سبحانه الذين لا تلهيهم تجارة عن ذكر الله ، وأنه يجزيهم أحسن ما عملوا ذكر هؤلاء الجاحدين ، وأنهم وثقوا بالباطل ، واعتقدوه حقاً ينفعهم عند الله ، تماماً كالظالم يثق بالسراب الغرّار الخدوع ، فإذا أراد أن ينهل منه وجده هجيراً يزيدُه ظمأً على ظمأ .. ولا يختص هذا الوصف بمن كفر بالله أو بنوبة محمد (ص) .. كلا ، فإنه ينطبق على الكثيرين من أمة محمد (ص) الذين يظنون بأنفسهم الخبير والتقوى ، وهم مغطية الشيطان ، وأعداء الرحمن .. وهل يجتمع الخبير والتقوى مع الغرور والحقد على عباد الله ، والتكالب على الدنيا وحطامها ؟ .

(ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) . وجد الله أي وجد حسابه وجزاه ، وضمير عنده يعود الى العمل ، أو الى المجيء الذي دلت عليه كلمة جاءه ، والمعنى أن الكافر يعتقد ، وهو في دار الدنيا انه سوف ينجو من عذاب الله بما قدم من صالح الأعمال.. ولكنه حين يقف بين يدي الله لنقاش الحساب لا يجد شيئاً مما توهم وتخيل ، بل يجد ذنباً وآثاماً ، وحساباً وعقاباً ، وخاب منه الأمل تماماً كما خاب من وثق بالسراب .

(أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها) . بحر عميق الغور ، تراكب فوقه الأمواج الواحدة فوق الأخرى ، وفوق الجميع سحاب ثقيل كثيف .. وهذا أبلغ تشبيه لأهل الشهوات والأهواء الذين غرقوا في بحر القبايح والذائل : كذب ورياء وحقد ودس وغرور وكبرياء وطمع وحرص .. الى ما لا نهاية ، ومن عاش في هذه الظلمات التي لا يرى فيها شيئاً كيف يرى الحقيقة ويدركها ؟

(ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) . قال الطبرسي : المراد من لم يجعل الله له نعمة في الآخرة فلا نعمة له . والذي نفهمه نحن ان الذين لا يهتمون الى طريق الحق الذي أرشدهم الله اليه فإنهم يعيشون في حيرة الجهل والضلالة .

(ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون) . انظر الآية ٤٤ من سورة الإسراء ،

فقرة : كل شيء يسبح بحمده ، (وقته ملك السموات والأرض) لأنه خالقها ،
والخالق هو المالك الحق (وإلى الله المصير) للحساب والجزاء .

الماء الآية ٤٣ - ٤٦ :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ
يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ
بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَآ بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ *
يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ * وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ
دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَيَسْجُدُ لَهُمْ مَنْ يَمْسِكُ عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ
مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *
لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *

اللغة :

يزجي بسوق سوقاً رقيقاً . ركاماً متراكماً بعضه فوق بعض . ويؤلف يجمع .
والودق المطر والقطر . من خلاله من بينه . السَّنا بالقصر الضوء وبالمد المجد .
يقلب الليل والنهار يتصرف فيها .

الإعراب :

من جبال بدل اشمال من السماء مع اعادة حرف الجر . وقال الطبرسي : فيها

متعلق بمحذوف صفة لجبال ، ومثلها من برد أي صفة بعد صفة . من يمشي على بطنه ، ومن يمشي على أربع (من) استعملت هنا فيمن لا يعقل .

المعنى :

(ألم تر ان الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد) . يرسل سبحانه الرياح ، فتثير سحاباً يسوقه من بلد الى بلد ، ثم يجمع بعضه فوق بعض على هيئة الجبال ، وفي هذا السحاب ماء سائل ، ومتجمد في قطع ثلجية تسمى برداً يخرج من السحاب (فيصيب به من يشاء ويصرفه عن يشاء) . يتصرف سبحانه في البرد على موجب حكمته ، فان اقتضت اهلاك زرع أو أي شيء أرسل عليه البرد ، والا صرفه عنه . وتقدم مثله في الآية ١٢ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٨٨ وقلنا هناك وفي مناسبات شتى : ان الظواهر الكونية تستند الى أسبابها الطبيعية مباشرة ، وتنتهي اليه تعالى بالواسطة لأنه خالق الكون بما فيه .

(يكاد سنا برقه يذهب بالابصار) . ضمير برقه يعود الى السحاب، ويذهب بها يخطفها ، قال تعالى : « يكاد البرق يخطف أبصارهم - ٢٠ البقرة » (يقلب الله الليل والنهار) طولاً وقصراً (أن في ذلك) الثقلب (لعلرة لاولي الأبصار) الذين لا يقفون عند الأسباب الظاهرة ، ويدركون مبدعها وموجدها .

(والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع) . ان لقدرة الله ووحدانيته شواهد وبيئات لا يبلغها الاحصاء ، منها ما يتجلى في خلق الجباد ، ومنها ما نشاهده في خلق النبات ، ومنها في خلق الحيوان ، وما يدب على الأرض ، واليه الاشارة في هذه الآية ، ومحل الشاهد في الدابة على قدرة الله وعظمته ان الماء عنصر أساسي في تكوين الدابة وتركيبها ، وحقيقة الماء واحدة مع ان الدابة التي خلقت منه متنوعة ، فمنها من يمشي على بطنه كالزواحف ، ومنها من يمشي على رجلين كالانسان، ومنها ما يمشي على أربع كالانعام والحيل والبغال والحمير والوحوش ..

الى غير ذلك من الأنواع التي أشار اليها سبحانه بقوله : (يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير) . ان الدواب جميعاً من أدنى نوع الى أعلاه يسير على أكمل نظام ، ويفعل ما يلائمه ويتفق مع مصلحته ، وهذا دليل قاطع على ان وراء ذلك خالقاً عظيماً ومديراً حكيماً .

(لقد أنزلنا آيات مبينات) . أقام سبحانه الدلائل على وجوده وعظمته ووحدانيته ، ومنها خلق الدابة بشق أنواعها ، ولم يدعْ عنراً لمتعلى . قال الإمام علي (ع) : ابتدعهم خلقاً عجيباً من حيوان وموات ، وساكن وذئ حركات ، فأقام من شواهد البينات على لطيف صنعه ، وعظيم قدرته ما انقادت له معرفة به مسلمة له (والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم) . لا شك ان من سلك الصراط المستقيم الذي أمر سبحانه بسلوكه فهو مهتد عند الله ، أما من عصي أمره تعالى ، وحاد عن صراطه فهو ضال عند الله وعند الناس ، ما في ذلك ريب .

المنافقون الآية ٤٧ - ٥٤ :

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَّقِ اللَّهَ وَيَتَّقِ قَوْلَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ *

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ *

اللغة :

يتولى يعرض . والمراد بالمرض هنا الهوى والبغض . والحيف الجور .

الإعراب :

إذا فريق (إذا) فجائية وقعت في جواب الشرط لأنه جملة اسمية . وملتصين حال من واو يأتوا . والمصدر من أن يحيف مفعول محافون . وقول المؤمنين خبر كان ، والمصدر من أن يقولوا سمعنا اسمها ، أي انما كان قول السمع والطاعة قول المؤمنين . ويتفه الأصل يتقيه فحذفت الياء للجزم لأن الفعل المعطوف عليه مجزوم . وجهد مفعول مطلق لأقسموا لأنه مضاف الى الإيمان ، وهي بمعنى القسم . وطاعة خبر لمبتدأ محذوف أي أمرنا طاعة أو مبتدأ والخبر محذوف أي طاعة معروفة أمثل ، ومعروفة صفة طاعة .

المعنى :

(ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين) . الذين يقولون : آمنا وأطعنا على ثلاثة أنواع : الأول يقولون كلمة الإيمان بالاستئتم ، ويعرفونها بقلوبهم ، ويعملون بموجبها ، وهؤلاء غير مقصودين

من الآية التي نحن بصددھا . النوع الثاني : يقولون ويعتقدون ولكنھم يعصون ولا يفعلون ، أي يؤمنون نظرياً لا عملياً . النوع الثالث : يقولون بالسنتھم ما ليس في قلوبھم ، وھم المنافقون ، والآية تشمل النوع الثاني والثالث ، ولا تختص بالمنافقين فقط ، كما قيل . لأن الإيمان بلا عمل لا يجدي نفعاً بدليل قوله تعالى : لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً - ١٥٧ الانعام .

(وإذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون) . قال أكثر المفسرين : وقعت خصومة بين منافق ، ويھودي على أرض ، فقال المنافق : أخاصمك الى كعب الاحبار الیھودي لعلھم بأنه یقبل الرشوة .. وقال الیھودي : بل نتحاكم عند محمد (ص) ليقينه بأنه لا یقبل الرشوة . فرفض المنافق ، فترلت الآية ، وسواء أصبحت الرواية أم لم تصح فلینا أوضح تفسیر للآية .

امتنع دينك وإيمانك :

(وان يكن لهم الحسنى يأتوا اليه مذعنين) . انھم لا يعرفون الحق إلا إذا وافق أهواءھم ، فإن خالفھا تنكروا له . وهذه الأنانية البشعة الجشعة لا تختص بالمنافقين وحدهم ، فلینا تطيع أيضاً حياة الكثير من المؤمنين ، أو الذين يرون أنفسهم مؤمنين .. انھم يجاهرون بالحق : وينكرون الباطل ، ولكن أي باطل ينكرون ؟ وبأي حق يجاهرون ؟ ان الحق في مفهومهم وإيمانهم ما يتفق مع مصلحتهم ، والباطل ما يخالفھا ، ولكنھم يذھلون عن باطن أنفسهم وواقعهم .. هم يؤمنون بأنھم لا يفعلون إلا الحق ، ولا ينطقون إلا بالصدق ، وفي الوقت نفسه لا ينبعثون ولا يتحركون إلا بدافع من أهوائهم ومصلحتهم .

وهؤلاء أسوأ حالاً من المنافق الذي يخدع الناس ، ولا تخدعه نفسه لأنه على يقين من كذبه وريائه ، أما أولئك فلانھم يسيئون وھم يحسبون انھم يحسنون صنعاً .. ولا يظلمهم من ينفي عنھم صفة الإيمان لأن المؤمن حقاً لا يتخدع بحيل الشيطان وأباطيلھ ، ويتهم نفسه إذا زينت له عملاً من أعماله .. فإن الشيطان لا مهمة له إلا أن يزين للناس سوء أعمالهم ، وإلا ان يريھم الباطل حقاً ، والضلال صلاحاً ..

قيل : ان رجلاً قال لابليس : لا سبيل لك على المؤمنين من أمثالي ، فضحك ابليس وقال له : ان كلامك هذا هو الشاهد على انك وأمثالك مطية لي .. ان غرورك هذا هو المنفذ الذي أدخل منه الى قلبك ، فأفسده وأعميه حتى عن الواضح المحسوس .

وبعد ، فمن أراد أن يتمتع دينه وإيمانه فلينظر : هل ينهم نفسه أو يزكيها من كل عيب ؟ وهل تقبل الحق حتى ولو كان عليها ، فإن اتهمها وقبلت الحق منها كانت النتائج فهو من المؤمنين وإلا فهو من الهالكين .

(أي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون) . رفضوا أن يتحاكموا عند الرسول ، ولا موجب لهذا الرفض إلا البغض والكراهية لرسول الله ، أو الشك والريب في نبوته ، أو الخوف من ظلمه وجوره . وأياً كان السبب الموجب فانه لا يأبى حكم الرسول الأعظم (ص) إلا كافر أو ظالم لنفسه ولغيره (انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) . بعد أن ذكر سبحانه المنافقين ، وانهم الذين يمتنعون عن المحاكمة عند الرسول اذا دعوا اليها ذكر المؤمنين ، وانهم الذين يستجيبون لكل من دعاهم الى الله ورسوله ، ويلبون دعوته خاضعين طائعين . وهؤلاء هم حزب الله الذين عناهم بقوله : أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون - ٢٢ المجادلة ، .

(ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) برضوان الله وجنانه .. وعطف الخوف من الله وتقواه على طاعته تعالى هو من باب عطف التفسير لأن من أطاع الله فقد خافه واتقاه ، ولكن المفسرين أبوا إلا أن يفرقوا بين هذه الأفعال ، فقالوا : أطاع الله فيما أمر ونهى ، وخافه فيما عصى ، واتقاه فيما يأتي (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن) . ضمير أقسموا للمنافقين ، والمعنى انهم حلفوا الايمان المغلظة لئن أمرهم الرسول بالخروج من ديارهم وأموالهم ليسمعوا ويطيعوا . فزجرهم سبحانه عن الايمان الكاذبة بقوله : (قل لا تقسموا طاعة معروفة ان الله خبير بما تعملون) . قل يا محمد للمنافقين لا تخلفوا ، فان الله يعلم ان طاعتكم هذه طاعة كذب ورياء ، وانكم أعداء الله ورسوله ، وقد أعد لكم من أليم العذاب ما تستحقون .

(قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) ظاهراً وباطناً ، لا نفاقاً ورياء (فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم) . ضمير عليه للرسول ، والخطاب في عليكم للمنافقين ، والمعنى ان الرسول مكلف بالتبليغ ، وأنتم مكلفون بالطاعة ، ومن أهل فعله يقع حساب الامل وتبعته ، سواء أكان رسولاً ، أم مرسلأ اليه (وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين) . من أدى ما كلف به فعلى الله أجره وثوابه ، وقد بلغ الرسول وأدى ما عليه ، وبقي ما عليكم .

استخلاف المؤمنين في الأرض الآية ٥٥ - ٥٧ :

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ
كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ
فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِي النَّارِ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ *

الإعراب :

اللام في ليستخلفنهم وما بعسله جواب لقسم محذوف . وكما استخلف الكاف بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق أي استخلفاً مثل استخلاف الخ . وجملة يعبدونني حال من ضمير ليدلنهم . وشيئاً مفعول مطلق .

المعنى :

(وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) . ظاهر الآية يدل على ان أمة تؤمن بالله ورسوله ، وتلتزم العمل بشريعته فان الله يستخلفها ويمكن لها في الأرض كان على ربك حتماً مقضياً.. وقد أخذ بعض المفسرين بهذا الظاهر ، ثم شرع يشرح ويفسر معنى الايمان والعمل الصالح وحدودهما وقبودهما .

أما نحن فع الذين قالوا : ان المقصود بالآية هم النبي والصحابة خاصة ، فإنهم لا قوا الكثير من الأذى والعناء في ذات الله قبل الهجرة وبعدها ، ورامهم المشركون واليهود عن قوس واحدة ، وكانوا ، وهم في المدينة الى عام الفتح ، لا يصبحون ولا يمسون إلا مع السلاح ، حتى قال قائلهم - كما في تفسير الطبري - ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ، ونضع عنا السلاح .. فقال له النبي (ص) : لا تعبرون يسيراً حتى يجلس الرجل ليس معه سلاح . وتحقق وعد الله ورسوله ، فما مضت الأيام حتى عاشوا آمنين على أنفسهم وأموالهم ، وحكموا البلاد العربية كلها ، وفتحوا الكثير من بلاد المشرق والمغرب .

(وليمكنهم دينهم الذي ارتضى لهم) . يشير سبحانه الى انتشار الاسلام وسلطانه في شرق الأرض وغربها (وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً) . وهذه هي نتيجة الصبر والتوكل على الله ، وتقدم ذلك بصورة أوسع في الآية ٢٦ من سورة الأنفال ج ٣ ص ٤٦٩ . (يعبدوني لا يشركون بي شيئاً) . والشرك لا يختص بعبادة الأصنام ، فن أطاع المخلوق في معصية الخالق فهو في حكم الشرك .

(ومن كفر بعد ذلك) اشارة الى الاستخلاف والتمكين في الأرض ، والأمن بعد الخوف (فأولئك هم الفاسقون) والله لا يهدي القوم الفاسقين (واقموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون) . هذا بيان وتفسير لقوله تعالى في الآية السابقة : الذين آمنوا وعملوا الصالحات (لا تحسن الذين كفروا معجزين في الأرض وأموالهم النار ولبئس المصير) . الخطاب في لا تحسن لرسول الله (ص) ، والغرض منه تهديد من خالف رسالته وعاندتها ، وأيضاً هو

تهديد لكل من بدل نعمة الله كفراً ، وفي نهج البلاغة : أقل ما يلزمكم لله أن لا تستعينوا بنعمته على معاصيه .

وجه آخر لاعجاز القرآن :

في ج ١ ص ٦٥ فقرة ١ من الاعجاز في القرآن ، أشرنا اشارة سريعة الى أقوال العلماء في اعجاز القرآن ، وعند تفسير آية المباهلة ٦١ من سورة آل عمران قلنا : ان لإقدام النبي (ص) على المباهلة وثقاً بالنصر الذي أخبره به القرآن ، وتحققه كما أخبر ، ان هذا من أعظم الأدلة على صدق القرآن ومن أوحى اليه ، وعند تفسير الآية ٥٣ من سورة النساء قلنا : ان كشف القرآن عن طبيعة اليهود ، وأنهم لو ملكوا لفعلوا كما فعلوا الآن بفلسطين — دليل قاطع على اعجاز القرآن وصدقه ، حيث تحقق ما أخبر به بعد أكثر من ألف وثلاثمئة سنة .

والآن ، ونحن نفكر في تفسير هذه الآية : وعد الله الذين آمنوا السخ تنبها الى وجه آخر لاعجاز القرآن ، وهو ان كلمات القرآن عربية تتداولها الناس كتابة ومشافة قبل القرآن وبعده ، ولا تختلف عن غيرها في الحروف والتركيب ، ومع ذلك فان الجملة من القرآن تحمل من المعاني الكثيرة ما لا تتحمله في غير القرآن حتى الحديث النبوي يفقد هذه الميزة ، ولذا قال الإمام علي (ع) لابن عباس : لا تخاصم الخوارج بالقرآن ، فان القرآن حمال ذو وجوه تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنة ، فانهم لن يجدوا عنها محبصاً.

والسر في ذلك يكمن في سعة المتكلم ، لا في سعة الكلام نفسه ، وإلا لجاء على نسق واحد في القرآن وغير القرآن .. ان الكلام جامد لا حياة فيه ، والمتكلم هو الذي يبعث فيه الحياة والأبهاء، ومن هنا اختلف ابحاء الكلام باختلاف المتكلم ، فان ما يوحيه كلام العالم غدير ما يوحيه كلام الجاهل ، وان تشابهت الجمليل والكلمات ، حتى آيات القرآن تختلف ابحاؤها باختلاف من يتلوها .. وكذلك الحال بالنسبة الى كلام المخلص والنافق .. وعلى هذا فإن اتساع القرآن للعديد من الوجوه والمعاني دليل قاطع على انه من وسع كل شيء علماً .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا
الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ
ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوَرَاتٍ لَكُمْ
لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ
عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *
وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَالْقَوَاعِدُ
مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ
غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *

اللغة :

ملكتم ايمانكم العبيد والاماء . والحلم البلوغ . وكل شيء يشتره الانسان من
أعضائه حياة فهو عسورة . والجناح الأثم والقواعد من النساء العجائز . وتبرج
المرأة اظهار محاسنها .

الإعراب :

ثلاث مرات مفعول فيه ليستأذنكم لأن المراد بالمرات هنا الأوقات . وثلاث

عورات برفع ثلاث خبر مبتدأ محذوف أي هي ثلاث عورات ، وبالنصب بدل من ثلاث مرات . وطوافون خبر مبتدأ محذوف أي هم طوافون .. وبعضكم على بعض (بعضكم) فاعل لفعل محذوف دل عليه طوافون أي يطوف بعضكم على بعض أو خبر لمبتدأ محذوف أي بعضكم يطوف على بعض . والقواعد مبتدأ ، واللائي صفة ، وجملة فليس عليهن جناح خبر . والمصدر من ان يضعن مجرور بفي مخلوطة . والمصدر من ان يستغفرن مبتدأ، وخبر خبر، أي الاستغفار خير لمن .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات) في الآية ٢٧ من هذه السورة نهي سبحانه عن دخول بيوت الآخرين إلا بعد الاستئذان ، وفي الآية ٢٨ أمر بالرجوع مع عدم الإذن ، وفي الآية ٣١ نهى المرأة عن ابداء زينتها إلا ما ظهر منها ، واستثنى بعض الأقارب والعبد والتابع الذي لا مأرب له في النساء والطفل الذي لم يظهر على عورة النساء ، وفي الآية التي نحن بصدددها قال سبحانه : مروا عبيدكم واماءكم والصغار الذين لم يبلغوا ويميزوا بين العورة وغيرها ذكراً كانوا أو إناثاً ، مروهم أن يستأذنوا قبل الدخول عليكم في ثلاثة أوقات لأنها مظنة انكشاف العورة ، وهذه الأوقات هي :
١ - (من قبل صلاة الفجر) حيث يقوم الانسان من فراشه ، وهو في ثياب النوم .

٢ - (وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة) أي وقت القبلولة والاستراحة لأن الانسان يتخفف من ملابسه التي يستقبل الناس بها .

٣ - (ومن بعد صلاة العشاء) حيث يتجه الانسان الى شأته الخاص .

(ثلاث عورات لكم) . هذا بيان للفرق بين الأوقات الثلاثة وغيرها، وليبيان السبب للاستئذان فيها ، وأنها مظنة انكشاف العورة (ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) . لا إثم عليكم أيها المؤمنون الأحرار ، ولا على الخدم والصبيان اذا دخلوا من دون استئذان في غير هذه الأوقات (طوافون عليكم بعضكم على

بعض) تترددون عليهم ، ويترددون عليكم ، ولا غنى لأحدكما عن الآخر (كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) لقد بين لكم هذه الأحكام ، وأمركم بالتراما ليؤدبكم بعلمه وحكمته .

(وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا) في جميع الأوقات، لا في الأوقات الثلاثة فقط ، لأن الرخصة في غيرها انما هي للذين لم يبلغوا الحلم ، أما من بلغه فلا فرق بينه وبين غيره من الكبار ، وهذا هو معنى قوله تعالى : (كما استأذن الذين من قبلهم) أي كما يجب الاستئذان على الكبار في جميع الأوقات كذلك يجب على من بلغ الحلم من غير فرق ، ويبلغ الصبي الحلم بالانزال ، أو ببلوغ خمس عشرة سنة ، وتبلغ العصبية بالحيض أو الحمل أو بلوغ تسع على قول ، وخمس عشرة على قول (كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم) . ولا نفهم وجهاً لهذا التكرار من دون فاصل بين الآيتين إلا التأكيد والمبالغة في الأمر بالاستئذان .

(والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً) . وهن اليائسات من الحيض والولد ، ولا يطمعن في الرجال ، ولا الرجال فيهن (فليس عليهن جناح ان ان يضمن ثيابهن غير متبرجات بزينة) . لا بأس للمعجوز ان تخلع ثوبها الظاهر الذي تلبسه في الشوارع والأسواق على ان لا تقصد بذلك اظهار زيتها للرجال لينظروا اليها ، وان لم تكن لذلك أهلاً ، ولكن عسى من لا يلقط او قائل : كانت في الزمان الغابر ..

(وأن يستعففن خير لهن) . الأولى للمعجوز أن لا تخلع ثيابها أمام الأجانب، حتى الظاهر منها، وان جاز لها ذلك ، لأن الترك أبعد عن التهمة . وفي الحديث: دع ما لا بأس به حذراً مما به البأس (والله سميع عليم) يسمع الأقوال ، ويعلم ما توسوس به الصدور .

ليس على الأعمى حرج الآية ٦١ :

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ يُبُوتِكُمْ أَوْ يُبُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ يُبُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ يُبُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ يُبُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ يُبُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ يُبُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ يُبُوتِ أُخْوَالِكُمْ أَوْ يُبُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *

اللغة :

يطلق الحرج على الضيق وعلى الإثم ، وهذا المعنى هو المراد هنا . وأشتاتاً متفرقين .

الإعراب :

جميعاً حال من واو تأكلوا . وتحية مفعول مطلق لسلموا .

المعنى :

المخاطب في قوله تعالى : (ملكتم مفاتيحه) من كان له السلطة على المال

بالولاية أو الوصاية أو الوكالة . وقوله : (فسلموا على أنفسكم) أي ليسلم بعضكم على بعض ، والمعنى الظاهر من الآية أن لا بأس على الأعمى والأعرج والمريض ولا على غيرهم أن يأكلوا دون أن يستأذنوا من بيوتهم وبيوت أقاربهم المذكورين مجتمعين مع أصحاب البيوت أو غير مجتمعين . وأيضاً لا بأس أن يأكل بالمعروف الوكيل وأمثاله من المال الموكل به ، وكذا للصديق أن يأكل من بيت صديقه ، فكل واحد من هذه الأصناف له أن يأكل من هذه البيوت شريطة أن لا يعلم بعدم الرضا من أصحابها .. وقال كثير من الفقهاء : انه يتناول شيئاً من الفاكهة أو الخضار أو الطعام المعتاد الذي أعد للغداء أو العشاء أو الفطور دون الشيء العزيز الذي يدخر لحالات خاصة .

وتسأل : ان قوله تعالى : (ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم) يدل على ان للانسان أن يأكل من بيته دون ان يستأذن من نفسه، وهذا كلام غير مستقيم ؟
الجواب : ان المراد من بيوتكم بيوت أزواجكم وأولادكم على حذف مضاف لقوله تعالى : « جعل لكم من أنفسكم أزواجا » ١١ الشورى ، . وفي الحديث : ان أطيب ما يأكل المرء كسبه ، وان ولده من كسبه . وفي حديث آخر : أنت ومالك لأبيك . فصح إطلاق النفس على الزوج والزوجة لأن كلا من الآخر ، وعلى الولد لأنه من والده ولوالده .

سؤال ثان : لماذا خص سبحانه بالذكر الأعمى والأعرج والمريض مع العلم بأنهم يدخلون في قوله : (على أنفسكم) لأن المخاطب جميع المكلفين ، ولا أحد يتوهم ان السلامة من العمى والعرج والمرض شرط لجواز الأكل كي يُنبه الى خطئه وتوهمه ؟ .

وتعددت الأقوال في الجواب عن هذا السؤال ، وأنهاها بعض المفسرين الى خمسة ، وأقربها ان الصحابة كانوا يتخرجون من الأكل مع الأعمى ، لأنه لا يستطيع معرفة الجيد من الطعام ، فيلحقه الحيف ، والأعرج وان أبصر الطيب من الطعام لكنه يعجز عن الجلوس مع الجاعة للأكل حيث كانت تمد الموائد على الأرض . والمريض يعجز عن مشاركة الصحيح في الأكل ، حيث ينتهي هذا قبله ، ويبقى المريض وحده على المائدة فيخجل من الانفراد .. وأيضاً امتنع الصحابة

عن الأكل من البيوت المذكورة دون استئذان بعد ان نزل قوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ١٨٧ البقرة » . فأباح سبحانه لهم الأكل من هذه البيوت من غير استئذان ، والأكل مع الأعمى والمريض والأعرج .

لم يذهبوا حتى يستأذنه الآية ٦٢ - ٦٤ :

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لَوْ أَدَّا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيَنْبِتُهُمْ إِنَّمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *

الآية :

الأمر الجامع هو الأمر الهام الذي يستدعي أن يجتمع الكل للتعاون عليه . والسلة بفتح السين وتشديد اللام السرقة الخفية ، والتسلل الخروج في خفية ، وهذا المعنى هو المراد من يستلون . ولو أذا يلوذ بعضهم ببعض ويستتر به مخافة أن يراه الرسول (ص) . والمراد يخالفون يعرضون أو يخرجون، ولذا جاء بعن .

الإعراب :

المؤمنون مبتدأ ، والذين آمنوا باله ورسوله خبر . كدعاء بعضكم بعضاً دعاء مصدر مضاف الى فاعله وبعضاً مفعول، والمعنى لا تدعوا الرسول كما يدعو بعضكم بعضاً . ولوإذاً مصدر في موضع الحال أي ملاوذين . والمصدر من أن تصيبهم مجرور بمن محذوفة ويتعلق بيحذر . ويوم معطوف على ما أنتم أي يعلم ما أنتم عليه ويعلم يوم يرجعون .

المعنى :

(انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) كان المنافقون يتهربون ، ويتسلل من يكون منهم في مجلس الرسول كلما دعا المسلمين الى أمر هام ، فترلت هذه الآية لتبين ما يجب للنبي على أمته من الطاعة ، وما يجب للإسلام على المسلمين من التعاون لإعلاء شأنه وكلمته ، وان المسلم الحق هو الذي يستجيب لدعوة الرسول ، ويتعاون مع الجماعة بمبلغ جهده على كل ما فيه خيرهم وصلاحهم بجهة من الجهات ، ولا يتهرب من هذا الواجب متعللاً بالمعاذير ، وإذا كان صادقاً في عنده أبداه للرسول (ص) ، واستأذن منه ، وهذا الانقياد يجب لكل إمام وحاكم يؤدي حق الرعية وينصح لها باخلاص .

(ان الذين يستأذنونك) وهم صادقون في أقوالهم، ومضطرون لقضاء مصالحهم (أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) حقاً وواقعاً، أما الذين يتعللون بالاعتذار المكافئة فأولئك هم المنافقون الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم .. ان المؤمن كالجندى يلزم قائده منتظراً منه الإشارة ، ولا يفارقه بحال لأنه لا يلزم متى تدعو اليه الحاجة ، فإذا عرض له ما يضطره الى البعد عن قائده طلب منه الاذن (فإذا استأذنتك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ان الله غفور رحيم) . فوض سبحانه أمر الإذن للرسول (ص) ، ان شاء أذن ، وان شاء منع ، وأمره

بالدعاء لمن استأذنه صدقاً وإخلاصاً ، لا كذباً ونفاقاً .

وتسأل : قال تعالى لنبيه الكريم في الآية ٤٣ من سورة التوبة : « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » وفي آية النور فوض أمر الإذن إليه ، فما هو وجه الجمع بين الآيتين ؟

الجواب : أمر الله نبيه في آية التوبة بالتثبت حتى يميز الكاذب من الصادق ، وفي آية النور ترك له حرية التقدير بعد أن يعرف حقيقة طالب الإذن وأهدافه والنتائج المترتبة على الإذن مؤمناً كان الطالب أو منافقاً ، وعلى هذا الأساس يأذن أو يمنع ، فقد تستدعي المصلحة الإذن للمنافق لأن وجوده مع الجماعة المسلمة مضرة ، وقد تستدعي المصلحة أن لا يأذن للمؤمن لأن المصلحة تستدعي بقاءه مع المسلمين .

(لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) . الخطاب لمعاصري النبي (ص) ، يؤدبهم به تعالى مع نبيه الكريم بأحسن الآداب حيث أمرهم أن لا يدعوه عند الاستئذان وغير الاستئذان باسمه أو كنيته ، مثل يا محمد ويا أبا القاسم كما يدعو بعضهم بعضاً بل أن يدعوه بأكرم صفاته وأجلها ، وهي النبوة والرسالة ، مثل يا نبي الله ويا رسول الله .. فإن توقيعه من توقيعه تعالى ، فلقد قرن طاعته بطاعته في العديد من الآيات ، وقال في الآية ١٥٦ من سورة الاعراف : « فالذين آمنوا به وعزروه - أي وقروه - ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » وقال : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » - ٢ الحجرات .

(قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً) . قد هنا للتحقيق ، والمعنى أن الله لا يخفى عليه تسلل المنافقين من مجلس الرسول خفية حين يذكر الجهاد ونحوه من الأمور العامة التي تهتم المسلمين . وفي بعض الروايات أنهم كانوا ينصرفون من مجلس الرسول (ص) مستتراً بعضهم ببعض ، وإلى هذا تشير كلمة (لواذاً) .. (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) . للتصغير في أمره يعود إلى الله تعالى ، والمراد بالفتنة هنا البلاء في الدنيا .. وهذا تهديد

سورة النور

ووعيد بعلاب الدنيا والآخرة لمن يعصي الله ورسوله .

(ألا ان الله ما في السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون اليه
فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم) . ان الله خفي عن العالمين لا تنفعه طاعة
من أطاع ، ولا نضره معصية من عصى ، وهو عليم بما تكن الصدور ، وباليوم
الذي يجمع الناس فيه ، ويقفون بين يديه للحساب ، فيخبرهم بأعمالهم ومقاصدهم
ويعاملهم بما يستحقون ، ولا يظلم ربك أحداً .

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نزل الفرقان على عبده الآية ١ - ٦ :

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا * وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَطِيطِرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فِيهَا تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأُصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا *

اللغة :

تبارك عظمت بركته . والفرقان ما يفرق بين الحق والباطل ، والمراد به هنا القرآن . والإفك الكذب . وأساطير خرافات سطرها الأولون . واكتتبها كتبها . وبكرة صباحاً ، وأصيلًا مساءً .

الإعراب :

اسم ليكون ضمير مستتر يعود الى عبده لأنه أقرب من الفرقان ، والمصدر من ليكون مجرور باللام ويتعلق بنزل . والذي له ملك السموات بدل من الذي نزل . وظلماً مفعول جاءوا لأنها بمعنى أتوا . وأساطير خبر لمبتدأ محذوف أي هذه أساطير . وجملة اكتتبها حال من أساطير على حذف قد، أي قد اكتتبها . وبكرة وأصيلاً مفعول فيه لتعلم، أي تعلم عليه في الصباح والمساء .

المعنى :

(تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) . ان بركات الله عظيمة ، ونعمه كثيرة ، وفي طليعتها هذا القرآن الذي نزل على عبده محمد (ص)، فإنه يهدي للتي هي أقوم ، وينذر من خالفه بعذاب أليم .. وقد وصف سبحانه محمداً بالعبودية مضافاً الى الله تعظيماً له وإجلالاً ، لأن أعظم الناس من لا يذل ولا يخضع إلا لمن يستحيل في حقه الذل والخضوع .. وأحق الناس وأذلهم من خضع لغير الله أو اعتر بغير الله . وتقدم نظير هذه الآية في أول سورة الكهف . الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك) . هذا رد على عرب الجاهلية الذين أشركوا بالله ، وعلى النصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله، ووجه الرد ان الكون بما فيه ومن فيه مملوك لله ، والمملوك لا يكون شريكاً للمالك ، ولا ولداً له (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) بأسبابه وانتقائه ونظامه بحيث يؤدي وظيفته على أكمل وجه .. وبداهة انه لا مكان للصدقة في الانتقان والاحكام ، وانه ما لجأ اليها إلا جاهل أو مكابر .

(واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً) . ان البديهيات يشترك في معرفتها العالم والجاهل ، لأن الانسان يدركها بفطرته ، ولا يحتاج في معرفتها الى دليل ، بل هي دليل على غيرها ، ومن أوضح البديهيات ان الإله يجب أن يكون قادراً على الخلق والنفع والضر والإحياء والامانة والبعث والنشر بعد الموت ..

والأصنام التي تعبدها أيها المشركون لا تقدر على شيء من ذلك فكيف تكون آلهة ؟ .
ولما كان هذا الرد حجة واضحة تدمغ المشركين ، ولا تدع لهم مجالاً للإنكار
والجدال فقد لجأوا الى المناورات والافتراءات (وقال الذين كفروا ان هذا إلا إفك
افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) . هذا اشارة الى القرآن ، وفاعل افتراه ضمير
مستتر يعود الى محمد (ص) ، والهاء تعود الى القرآن .. لمسا ضاق أعداء الحق
بالقرآن ومن أنزل على قلبه قالوا : ألفاظ القرآن وصياغتها من صنع محمد ، أما
محتواه من أحكام ومواظ وقصص وغيرها فهو من أهل الكتاب ، فلقد كانوا
يمدون بها محمداً ، وهو بدوره يصوغها ببلاغته ، وينسبها الى الله .. ولا هدف
له من وراء ذلك إلا شهوة الرياسة ، وحب التفوق والامتياز على الناس .. والذين
ابتدعوا هذه الفرية هم بالذات أصحاب المناصب والامتيازات الذين غلبت عليهم
شقتهم وشهوتهم للسيادة والسيطرة على الفقراء والمستضعفين ، ابتدعوا هذه الفرية
وهم على يقين من ان محمداً هو الصادق الأمين ، وان القرآن لا يشبه كلام
الآدميين ، فلقد تحذاهم به محمد من قبل ، وحاولوا فجعزوا .. ولو سمح ان
رسول الله (ص) استعان على القرآن بأهل الكتاب لكان الأولى أن يستعين المشركون
باليهود ويأتوا بسورة من مثله ، لأن المشركين واليهود قد تحالفوا وتكاتفوا ضد
محمد والمسلمين ، ولكن ماذا يصنعون ، وقد صجزوا عن مقابلة الحجة بالحجة ؟
هل ينقادون ويسلمون ؟ كيف ، والاسلام يساوي بين السيد القرشي والعبد
الحبشي ، ولا يرى فضلاً لمخلوق على مثله إلا بالتقوى ، ويحرم الظلم والاستغلال
الذي تقوم عليه حياة المقترين والمعاندين ؟ .. اذن ، لا وسيلة للاحتفاظ بحياتهم
هذه إلا الاشاعات والافتراءات ، والا ان يُقال عن محمد (ص) : انه ساحر ..
كذاب .. مجنون .. وعن القرآن : انه أساطير الأولين ، جمعها محمد من هذا
وذاك .

(فقد جاءوا ظلماً وزوراً) . أتوا ظلماً عظيماً لله ولرسوله ولأنفسهم التي
ساقوها الى موارد التهلكة ، وأتوا زوراً واضحاً بنسبة الإفك الى القرآن .. وكلمة
الظلم والزور تُشعر بأنهم نسبوا الافتراء الى الرسول الأعظم (ص) وهم يعلمون
انهم لكاذبون .. وتجدر الاشارة الى ما يجتره اليوم أعداء الاسلام ، ورددوه قبل
اليوم — من ان محتوى القرآن مصدره التوراة والانجيل — فهذا امتداد لما قاله الظالمون

سورة الفرقان

والمزورون في عهد رسول الله (ص) ، وان الدافع على هذا الظلم والتزوير واحد ، وهو الخوف من الحق الذي يفضح هؤلاء وأولئك ، ويظهر للملأ مساوئهم ومقاصدهم .

(وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً) . اختار المفكرون ماذا يقولون ؟ هل يشيعون ان محمداً درس علوم القرآن على غيره ؟ ومن يصدق ، وكل الناس يعلمون ان محمداً أمي لا يقرأ ولا يكتب ؟ وأخبراً خُيِّلَ اليهم أنهم وجدوا المخرج ، وهو ان يقولوا ويكذبوا ان القرآن لا شيء فيه سوى أساطير كُتِبَتْ لمحمد ، وتليت عليه مراراً وتكراراً حتى حفظها ، ثم صاغها بأسلوبه وأذاعها على الناس على أنها من عند الله لا من عنده .. وهكذا يفعل أرباب الأهداف والأغراض في كل زمان ومكان ، يشيعون ويفترون على الطيبين الأحرار لا شيء إلا حرصاً على عدوانهم وطفيتانهم ، وإلا خوفاً على مكاسبهم الظالمة من الحق وأهله .. ولكن أين المفر ؟ وهل تُطفأ أنوار الشمس بالنفخ من الأفواه ؟ . وهل الكواذب تغير الحقائق ؟ ان الكاذب مفضوح وملعون على كل لسان ، وان تستر بألف حجاب وحجاب ..

(قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض) . قل يا محمد : كلا ، ليس القرآن خرافة وأساطير ، ولا هو مأخوذ من التوراة والانجيل .. انه علم ونور أنزله الله على قلبك لتهدي به الأجيال الى نهج الحق والخير والعدل ، انه من الله الحكيم العليم بأسرار الكون ، وما يصلح الخلاق ويفسدهم ، وأنت تبلغهم عن الله ما فيه خيرهم وشرهم ، ونجاتهم وملاكهم (انه كان غفوراً رحيماً) يرحم العاصي بالأمهال ، مع التحذير والانذار ، ولا يعالجه بالعقوبة على خطيئته عسى أن يرجع الى ربه ، ويتوب من ذنبه ، فإن فعل غفر له ، وعفا عما سلف ، وإلا لقي جزاءه وما يستحق من أليم العذاب .

ياكل الطعام ويمشي في الأسواق الآية ٧ - ١٦ :

وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ

إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُبَلِّغُ إِلَيْهِ كَظْرًا أَوْ تَكُونُ لَهُ
جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * أَنْظِرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * تَبَارَكَ الَّذِي
إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ
لَكَ فُصُورًا * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا *
إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْفُوا مِنْهَا
مَكَانًا ضَيْقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا
وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا * قُلْ أَذِلَّكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي
وَعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ
كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْنُورًا *

الذِّكْر :

مسحوراً مغلوباً على عقله . وأعدنا هبناً . والسعير شدة اللهب . والتغيظ الهيجان
والغليان . والزفير مد النفس وترديده . ومقرَّبين مقبدين . والثبور الهلاك .

الإعراب :

ما مبتدأ ولهذا خبر والرسول عطف بيان من هذا . وجملة يأكل حال من
الرسول . ولولا أداة تخصيص . فيكون منصوبة بأن مضمرة بعد الفاء الواقعة في
جواب لولا . أو يلقى وما بعده عطف على أنزل إليه . وجنات بدل من (خيراً) .

ويجعل بالجزم عطفاً على جعل لأنها جواب ان الشرطية فهي مبنية لفظاً مجزومة محلاً . ومنها متعلق بمحذوف حالاً من (مكاناً) ومكاناً ظرف لألقوا . ومقرنين حال من واو ألقوا . وثبوراً مفعول به . وخالدين حال من واو يشاءون . واسم كان على ربك ضمير مستتر يعود الى ما يشاءون أي كان الذي يشاءونه وعداً على ربك .

المعنى :

ان حكمة الله في ارسال رسله الى الناس هي أن يبينوا لهم ما يصلحهم وما يفسدهم ليكونوا على بصيرة من أمرهم ، ويكون لهم على الله الحجة حين الحساب والجزاء ، ولا تتحقق هذه الحكمة إلا اذا كان الرسول واحداً من الناس في حياته وطبيعته وغرائزه ، ولو كان من غير جنسهم وطبيعتهم لفروا منه ، ولم يركنوا اليه ركونهم الى من هو مثلهم يتكلم كما يتكلمون ، ويفعل كما يفعلون ، ويتأثرون ويتأثرون به .. أجل ، يجب أن يبلغ الرسول من الكمال أقصى ما يبلغه انسان في حدود الانسانية وصفاتها وطاقاتها ، لأن الكمال هو القوة التنفيذية لرسالته وتعاليمه . أنظر تفسير الآية ٣٥ من سورة طه فقرة « حقيقة النبوة » .. وبعد هذا التمهيد ننظر الى أقوال المشركين واعتراضاتهم على نبوة محمد (ص) وهي :

١ - (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) . يريدون من رسول الله أن يحتجب في برج من العاج ، ودونه الحراس والحجاب ، تماماً كما يفعل الملوك والجبابرة .. وجهلوا أو تجاهلوا ان صاحب الرسالة أياً كان، نبياً أو غير نبى، لا يمكنه أن يؤدي رسالته إلا اذا كان مع الناس في تجاربهم وأعمالهم، وكيف يستجيبون له ، وهو عنهم في حجاب ، أو من عالم غير عالمهم .

٢ - (لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً) . من مقترحات المشركين على محمد (ص) أن يكون معه أحد الملائكة .. ولا بدع ، فن جعل الله شريكاً في خلقه فبالأولى أن ينكر نبوة محمد اذا لم يكن معه شريك في تأدية الرسالة ، ومن قبلهم قال فرعون عن موسى : « فلولاً ألقى عليه اسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين - ٥٣ الزخرف » .

منطق أرباب المال : بنك وعقار :

٣ - (أو يلقى اليه كثر أو تكون له جنة يأكل منها) . هذا هو منطق أرباب المال .. بنك وعقار ، فكيف يؤمنون بمن يقول : لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ؟ ان الفضل والحرية عندهم بالمال .. بالبذخ والترف من غير كد وعمل ، أما من يكد ليعيش فهو عبد ، عليه أن يسمع ويطيع .. فكيف يختار الله محمداً ، ويفضله على الأغنياء ، وهو يعاني الفقر والعوز ؟. ولو اختاره الله واصطفاه ، كما يدعي ، لأنزل عليه كثرًا من السماء ، أو كان له بستان يعيش منه من غير كد وعناء .. وما زال هذا المنطق يسيطر حتى اليوم، والحكم والسלטان في أكثر البلاد أو الكثير منها لأصحاب الشركات والمصارف، أو لمن يختارونه حارساً لمكاسبهم وثرواتهم . أنظر تفسير الآية ٩٠ من سورة الاسراء ، فقرة « التفكير من خلال المال » .

(وقال الظالمون - للمؤمنين - ان تبعون إلا رجلاً مسحوراً) . تقدم نظيره في الآية ١٠٣ من سورة الاسراء (أنظر كيف ضربوا لك الأمثال) بأنك فقير ومسحور (فضاؤوا فلا يستطيعون سبيلاً) لابطال نبوتك وردك بالحجة والدليل .

شأن الجاهل المفرور :

كذبوا برسالة محمد (ص) ، وعتوه بالافتراء فكانوا هم المفترين ، لأن من قال للعالم : أنت جاهل، وللمخلص: أنت خائن - فقد شهد على نفسه بالجهل والخيانة. وعلى هذا فان الأمثال التي ضربوها لرسول الله (ص) هي شواهد وأمثال لجهلهم وافتراءهم وعنادهم للحق ، ولكنهم لا يشعرون ، تماماً كمن رأى قبح وجهه في المرأة فظن القبح فيها ، لا في وجهه .. وهذا هو شأن الجاهل المفرور . (تبارك الذي ان شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً) . ان الذي خلق الكون بأرضه وسماؤه قادر على ان يهب نبيه الكريم الكثير من المال والعقار ، ولكن العظمة عند الله لا تقاس بالمال ، وإنما تقاس بالتقوى وصالح الأعمال، وجزاء المتقين والصالحين نعيم قائم ، وهناء دائم، أما الحياة الدنيا فهي أهون من ان يجعلها الله ثواباً لأوليائه وأهل طاعته ، وفي

الحديث : « لو كانت الدنيا ترن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء » .

(بل كذبوا بالساعة) . أنكروا نبوة محمد (ص) ونظروا بأنه فقير ومسحور ، وهم كاذبون حتى عند أنفسهم ، والدافع الأول هو الخوف على مصالحهم ومنافعهم .. وقالوا : لا حشر ولا نشر كيلاً ينكر عليهم منكر بأنهم يؤثرون الفاني على الباقي .. وكل من قاس الفضيلة بالمال ، وآثره على مرضاة الله فهو في حكم من كذب بلفظه الله ، وإن آمن به نظرياً (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً إذا رأته من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً) . قيل : إن الرؤية والتغيظ والزفير هي صفات لحزنة النار الموكلين بها ، وعليه يكون في الكلام حذف مثل « وأسأل القرية » . وقيل : إن الله يخلق في النار غداً حياة وعقلاً .. وقال ثالث : بل هي صفات لأهل النار ، ونسبت إلى النار مبالغة . وفي رأينا أنها كناية عن ألم العذاب وشدة الهول .

(وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً ، لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً) . إن نار الله لا تضيق بشيء ، كما صرح بذلك الآية ٢٩ من ق : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت ونقول هل من مزيد » . والمراد من الضيق أن أهل النار يضيقون بها ويستكثرون على الدخول فيها ، فقد سئل رسول الله (ص) عن هذه الآية : فقال : « والذي نفسي بيده أنهم يستكثرون في النار كما يستكثرون التودد في الحائط » أي يدخل فيه بالضرب والضغط . وتقدم مثل هذه الآية في سورة إبراهيم الآية ٥١ ، فقرة « جهنم والألمحة الجهنمية » . (قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزءاً ومصبوراً لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعداً مسؤولاً » . تدل كلمة « على » في الآية على أن الله سبحانه قد كتب على نفسه الوفاء بالوعد كما كتب عليها الرحمة . ومسؤولاً أي إن المطيع له الحق في أن يسأل الله الوفاء بوعده .. وفي تفسير الرازي : « إن قيل : كيف يقال : العذاب خير أم جنة الخلد ؟ وهل يجوز أن يقول العاقل : السُّكر أحل أم العلقم ؟ قلنا : هذا يحسن في معرض التقرير ، كما إذا أعطى السيد عبده مالاً ، فتمرد واستكبر ، فضربه ضرباً موجعاً ، وهو يقول له على سبيل التوبيخ : هذا أطيب أم ذلك ؟

ويوم يحشرهم وما يعبدون الآية ١٧ - ٢٠ :

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا * وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا *

اللغة :

بوراً هلكى . والصرف بفتح الصاد الدفع . والمراد بالفتنة هنا الامتحان .

الإعراب :

هؤلاء بدل من عبادي . وسبحانك منصوب على المصدرية . ومن أولياء (من) زائدة اعراباً وأولياء مفعول أول لتتخذ، ومن دونك مفعول ثان مقدم ، والمصدر من أن نتخذ فاعل ينبغي . والجملة من أنهم لياكلون الخ حال من المرسلين أي إلا وهم يأكلون ، ولا وجه لجعل الجملة مستثنى كما قال صاحب مجمع البيان لأن جميع الرسل يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق دون استثناء .

المعنى :

(ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم

هم ضلوا السبيل) . ذكر سبحانه في الآيات السابقة المشركين وأقوالهم عن رسول الله (ص) وما يلاقونه غداً من عذاب الحريق ، وفي الآيات التي نحن بصددھا ذكر جل وعز انه يوم القيامة يجمع بين المشركين والذين اتخذوهم شركاء الله ، ثم يسأل سبحانه الفريق المعبود على مسمع ومرأى من الفريق العابد المشرك، يسألهم: أنتم غررتم هؤلاء الضالين ، وقلم لهم : نحن شركاء الله ؟ والغرض من هذا السؤال تبيك المشركين وتأكيد الحق التي لزمهم بلسان الأنبياء والرسل .

(قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) . أجاب الفريق المعبود : تنزهت يا إلھنا وتعاليت عن الشريك .. كيف ندعو الى عبادتنا ونحن نوحلك ونعبدك بصدق وإخلاص ، ونخاف عقابك ، ونرجو ثوابك ، ولا نستعين بأحد سواك .. وفي هذا الجواب تقريع وتوبيخ للمشركين تماماً كما في السؤال (ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً) ما زال الكلام للفريق المعبود ، ومعناه نحن ما أضلنا المشركين، ولكن حكمك يا إلھ العالمين قضت أن تمهلهم وآباءهم ، وأن تنعم عليهم بطول العمر والأموال والأولاد عسى أن يتوبوا ويستغفروا ، ولكنهم انصرفوا عنك الى الدنيا وملذاتها ، فكانوا من المالكين بتقصيرهم وسوء اختيارهم .

(فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً) . الخطاب من الله للمشركين ، والمعنى كنتم أيها المشركون تقولون : نحن نعبد من نعبد ليشفعوا لنا عند الله ، ويقربونا منه زلفى .. فإذا رأيتم ؟ لقد تبرأوا منكم ، وكذبوكم في أقوالكم وأباطيلكم ، وهذا العذاب ينزل بكم ، ولا دافع يدفعه عنكم أو ناصر ينصركم من الله (ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً) ولا شيء أكبر وأعظم من نار جهنم ، وهي الجزاء لكل ظالم وعجرم .

(وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) . نفى المشركون النبوة عن محمد (ص) لأنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، فقال سبحانه رداً عليهم : أية غرابة في ذلك ؟ فجميع الأنبياء من قبله كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، ومنهم من تعتقدون انتم أيها المشركون بنبوهم كإبراهيم وإسماعيل (ع) . أنظر تفسير الآية ٧ من هذه السورة . (وجعلنا بعضهم لبعض فتنة) . المراد بالفتنة هنا الامتحان والاختبار .. ان

الله سبحانه يخبر عباده ، وهو أعلم بهم من أنفسهم ، ولكن لتظهر الأفعال التي يستحق بها الثواب والعقاب كما قال الإمام علي (ع) ، ومن الأشياء التي امتحن الله بها عباده ، بل من أظهرها إرسال الرسل إليهم مبشرين ومنذرين ، فمن آمن بهم ، وسمع لهم وأطاع فقد استحق الثواب ، ومن كفر وعاند استحق العقاب ، فوجود النبي كمنذر ومبشر هو امتحان للمؤمنين والكافرين ، وسبب لإظهار ما يكتنه كل من الفريقين .. وأيضاً وجود الكافرين والمنافقين هو امتحان وابتلاء للأنبياء الصالحين ، لأن أهل الشر والفساد لا يدعون أهل الصلاح وشأنهم ، بل يحاولون إيذاءهم بكل سبيل ، بالاشاعات والافتراءات ، والفساد والمؤامرات ، تماماً كما فعل المشركون مع رسول الله (ص) ، ويفعل الآن العملاء المأجورون مع الأحرار المخلصين .. ويتبدى تاريخ الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل بتاريخ الإنسانية ، فلقد قتل قابيل هايل ، وهما من نطفة واحدة ، وخرجا من رحم واحد ، قتله لا لشيء إلا لأن الله تقبل عمل هايل لصلاحه ، ولم يتقبل عمل قابيل لفساده (أنصرون) أي اثبتوا على الحق أيها المؤمنون ، ولا تكثرثوا بالمنافقين وأكاذيبهم (وكان ربك بصيراً) بمن يفترى على الأبرياء الصالحين ، ومن يثبت على الحق مهما تكن النتائج ويجزي كلاً بما يستحق .

الجزء التاسع عشر

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَتَوَتَّعُوا عُنُقًا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا * وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَبَجَلْنَا لَهُ بِأَنَّهُمْ مَنُورًا * أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا * وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالسَّعَابِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا * وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا *

اللغة :

الرجاء الأمل والتوقع ، وقيل : المراد به هنا الخوف . والعنق التمرد ونجاء
الحد . وحجراً محجوراً حراماً محرماً . وقلمنا قصداً . والهباء الغبار الدقيق .
والمشور المضرق . والمستقر مكان القرار كالبيت . والمقيل مكان القيلولة .

الإعراب :

لولا بمعنى هلا . ويوم يرون الملائكة (يوم) متعلق بفعل محذوف ، تقديره
اذكر أو يحزنون يوم يرون الملائكة . وبشرى اسم لا النافية للجنس ، وللمجرمين

خبرها ، ويومئذ تأكيد ليوم يرون . وحجراً محجوراً منصوب على المصدر بفعل لا يذكر لفظاً مثل معاذ الله . وأصحاب الجنة مبتدأ وخبر خبر ويومئذ متعلق به . ومستقراً ومقبلاً تمييز . الملك مبتدأ ، والحق صفة، وللرحمن خبر ، ويومئذ متعلق بما تعلق به للرحمن . وكان يوماً عسيراً اسم كان ضمير مستتر يعود الى يوم تشقق السماء . وبأيتني (يا) للتنبيه اي ليتني . يا ويلتنا تقدم في الآية ٣١ من سورة المائدة .

المعنى :

(وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا) . ما زال الكلام عن المشركين الذين لا يرجون ثواب الآخرة ، ولا يخافون عقابها ، وقد حكى سبحانه في هذه الآية أنهم اقترحوا إنزال الملائكة عليهم لتخبرهم بأن محمداً (ص) نبي ، أو يأتي الله بنفسه ويخبر هو مباشرة . وتقدم نظيره في الآية ٩٢ من سورة الإسراء .

(لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً) . وأي استكبار وطفيان وجهل وغرور أعظم من هذه الجرأة واقترحهم أن يروا الله جهرة ، ويكلمهم مشافهة؟ ولا فرق بينهم وبين من قالوا : لا نؤمن بالله لأننا لا نراه .. ولكنهم في الوقت نفسه يؤمنون بأشياء لا تقع تحت حاسة من الحواس .

لقد زعم الماديون انه لا شيء إلا الطبيعة العمياء ، فهي التي أوجدت نفسها ، أو أوجدتها الصدفة ، وهي نظمت ورتبت هذا الكون العجيب ، وهي التي خلقت العقل والسمع والبصر ، أي ان الطبيعة - في منطقهم - قادرة على كل شيء ، ولكنها لا تدرك شيئاً ، وبهذا ناقضوا أنفسهم ، لأن اعترافهم بوجود النظام هو بذاته اعتراف بوجود قوة قادرة عالمة ، وقولهم : لا شيء إلا الطبيعة العمياء هو انكار ونفي لهذه القوة ، ومعنى هذا ان الطبيعة تدرك ولا تدرك ، وتعلم ولا تعلم .

(يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) اقترح المشركون أن تنزل عليهم الملائكة ، فأجاب سبحانه بأن لهم يوماً يرون فيه الملائكة ، وهو يوم القيامة

ولكن لا شيء فيه يبشرهم بخير ، بل هو وبال عليهم وعلى أمثالهم من المجرمين :
 • يوم يشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون
 - ٥٥ العنكبوت • (ويقولون حجراً محجوراً) ضمير يقولون يعود الى الملائكة ،
 والمعنى ان الملائكة يقولون للمجرمين : حراماً محرماً عليكم اليوم أن تروا أو تسمعوا
 ما تحبون ، وقيل : يعود الضمير الى المجرمين لأنه أقرب ، وعليه يكون المعنى
 ان المجرمين يقولون للملائكة : حراماً محرماً عليكم ابداؤنا وتعليننا ، وكل من
 التفسيرين جائز ، ويرجع الى معنى واحد ، وهو خوف المجرمين من شر يوم
 القيامة وهوله .

(وقدمنا الى ما عملوا من عمل) كانوا يظنون أنه ينفعهم في هذا اليوم
 (فجعلناه هباء منثوراً) لأنه أسس على غير الإيمان والاخلاص ، ومثله قوله
 تعالى : • مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتمد به الريح في يوم عاصف
 لا يقدرّون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد - ١٨ ابراهيم . ج ٤
 ص ٤٣٥ (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً) . ذكر سبحانه
 المؤمنين عند ذكر الكافرين - على عادته - وقال : هؤلاء عندنا منازل الشر
 والجحيم ، ولأولئك منازل الخير والنعم .. وليس المراد هنا من كلمة خير وأحسن
 التفضيل ، بل المراد ان كلاً من المستقر والمقبل هو خير وحسن في نفسه ، مثل
 الله أكبر أي كبير في ذاته وصفاته .

(ويوم تشقق السماء بالغمام) . المراد باليوم يوم القيامة ، والغمام ان الكواكب
 تتحلل الى ذرات صغيرة لا تقع تحت العين والوزن ، وبها يمتلئ الفضاء كما يمتلئ
 بالغمام والضباب . وقد أشار سبحانه الى خراب الكون وتناثر الكواكب في العديد
 من الآيات ، منها : • اذا الشمس كورت • ذهب نورها • وإذا النجوم اندثرت •
 تساقطت : ومنها • وإذا الكواكب انثرت • تفرقت (ونُزل الملائكة تزيلاً)
 بما يسر المحسنين ، ويسوء المجرمين (الملك يومئذ الحق للرحمن) وحده ولا
 أحد يملك معه شيئاً من الأمر والتصرف (وكان يوماً على الكافرين عسراً) .
 وأي يوم أعظم عسراً على المجرم من يوم محاكمته ونقاشه الحساب على جرميته
 وصدور الحكم عليه بالحق والعدل . ولو كان حكماً بالاعدام لانتهى بذهاب وقته ،

ولكنه حكم بخلود العذاب : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها لينوقوا العذاب - ٥٥ النساء » .

(ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً) . هذا كناية عن شدة الحسرة والندامة ، وهي نهاية كل مغرور ومفتري كذاب . وفي الدعاء المروي عن النبي (ص) : أعوذ بك من الذنوب التي تورث الندامة (يا ويلتا ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً) . المراد بفلان هنا كل متبوع أضل تابعيه وقادهم الى الهلاك . وفي الحديث : « يحشر المرء على دين خليله » . وقال جماعة من المفسرين : ان هذه الآية نزلت في «عقبة بن أبي معيط ، وأبي ابن خلف ، وان الظالم الذي يعرض على يديه هو الأول ، وفلاناً هو الثاني .. وعلى افتراض صحة هذا القول ، فإن سبب النزول لا يخص عموم الآية .

(لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خلولاً) . المراد بالذكر هنا القرآن لأن الله سبحانه قد أطلق عليه هذه الكلمة في العديد من الآيات ، منها : « والقرآن ذبي الذكر - ١ ص » ، وتدل الآية على ان الذين استمعوا للقرآن قد اقتنعوا به فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولكن شياطين الانس قد غرروا بهم ، وصرفوهم عن الحق ، فكان مآلهم الهوان والخذلان .. وهذا مآل كل من فعل وترك بوحى من أرباب الأهواء والأغراض ، لا بوحى من إيمانه وضميره .

اتخذوا هذا القرآن مهجوراً الآية ٣٠ - ٤٠ :

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ

وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا * الَّذِينَ يُخْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَذْمِيرًا * وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرُّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْمِيرًا * وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوْءَ أَفْلَمَ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلًا كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا *

اللغة :

نُشِبْتُ نقوي . والتريل المهمل والثاني . والمراد بالمثل هنا كل ما يعترضون به على النبي (ص) . ويخشرون على وجوههم يسحبون عليها . والتدمير الاهلاك . ويطلق الرس على البشر ، وأصحابه قوم شبيب - على قول - وقرونًا جماعات . والتبیر الاهلاك . لا يرجون لا يأملون ولا يتوقعون . والنشور البعث .

الإعراب :

مهجوراً مفعول ثانٍ لا تخفوا . وهادياً ونصيراً تمييز وقيل : حال . ولولا بمعنى هلا . وجملة حال من القرآن أي مجتمعا . وكذلك ، الكاف بمعنى مثل صفة للمفعول مطلق محلوف أي نزلناه تنزيلاً مثل ذلك أي مضرراً . والمصدر من نشبت متعلق بالفعل المحلوف ، وهو نزلناه . وأحسن غير منصرف للوصف ووزن الفعل ،

وهو معطوف على الحق ، وتفسيراً تمييز . وعلى وجوههم متعلق بمحذوف حالاً من وار يحشرون أي منكبين . ومكاناً تمييز وسبيلاً مثله . وأخاه مفعول أول لجعلنا، وهرون بدل منه ، ووزيراً مفعول ثان . وقوم نوح مفعول لفعل محذوف أي وأغرقنا قوم نوح . وعاداً وما بعده عطفت على (هم) في جعلناهم للناس آية . وكلاً ضربنا (كلاً) مفعول لفعل محذوف أي ضربنا كلاً أو عذبنا كلاً . وكلاً تبرنا (كلاً) مفعول تبرنا المذكورة .

المعنى :

(وقال الرسول يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) . أي أعرضوا عنه ، وأبوا أن يؤمنوا به ، أو ينظروا اليه نظيرة الفاحص والباحث عن الحق ليكون على بصيرة منه ويقين .. كذب صناديد قريش بنبوة محمد (ص) ، وقالوا عنه وعن القرآن ما قالوا حرصاً على مناصبهم ، وخوفاً على مكاسبهم، فرفع النبي شكواه منهم الى ربه الذي بيده مقاليد الأمور وتديرها ، وهكذا العاقل لا يشكو حاجته إلا لمن بيده قضاؤها .. أجل ، قد يشكو الى صديق يواسيه أو يسليه، أو يتوجع . قال الإمام جعفر الصادق (ع) : « من شكك الى أخيه فقد شكك الى الله ، ومن شكك الى غير أخيه فقد شكك الى الله » . يريد بأخيه أخاه في الإيمان ، وان المؤمن اذا شكك الى مؤمن مثله دعا الله أن يفرج عنه، وأمره بالصبر والتوكل على الله ، ولا يؤيسه من رحمته تعالى ، أما غير المؤمن فانه يشمت به ، أو يشبر عليه بما بصرفه عن الله .

(وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين) . مصلح يقول للطاغية : يا مجرم ، ويدمغه بالفساد والضلال ، وبالعديوان على حقوق الناس ومقدساتهم ، ويحجده من سلطانه وكيانه ، يفعل هذا وغير هذا ، ثم يقف الطاغية جامداً لا يحرك ساكناً؟ كلاً. وتقدم نظير هذه الآية في سورة الأنعام الآية ١١٢ ج ٣ ص ٢٤٩ . وأجبنا هناك عن سؤال من يسأل : اذا كان الله هو الذي جعل لكل نبي عدواً من الأشرار فلماذا يعاقب من نصب العداة للأنبياء ؟.

(وكفى بربك هادياً ونصيراً) . الخطاب لرسول الله (ص) ، وفيه وعد

منه تعالى أن يمد رسوله بالنصر على أعدائه ، كما أمدّه بالهداية الى الحق ، وإن يُظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون .

(وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) . نزل القرآن على مكث وفقاً لحاجات الناس ، وكان مبدأ نزوله والرسول الأعظم (ص) في الأربعين من عمره الشريف ، واستمر الوحي آنأ فآنأ الى ان انتقل الرسول الى الرفيق الأعلى ، وهو في سن الـ ٦٣ ، وحاول المشركون أن يصرفوا الناس عن القرآن بكل سبيل فقالوا : هو أساطير الأولين .. ولكنهم لم ينسكوا بهذه القرية ، ويصروا عليها ، لأنها تكذب نفسها بنفسها ، فابتدعوا دعابة أخرى وقالوا : لو كان القرآن من عند الله لأنزله دفعة واحدة لأن الله لا يحتاج الى تأمل وتفكير كالمؤلفين .. وما من شك لو نزل القرآن دفعة واحدة لقالوا — كما هو شأن المعاندين — لولا نزل على مكث لتفهمه ونتأثر به ونعتاد عليه .. ولكن الحقائق تفرض نفسها على رغم المعاندين والمعارضين (كذلك لثبت به فؤادك ورتلتنا ترتيلاً) أي نزلنا القرآن على التوالي ليقوى قلبك يا محمد على حفظه ، وفهم معناه ، وضبط احكامه .

(ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً) . الخطاب لرسول الله (ص) ، والواو في يأتونك ويحشرون لأعدائه المشركين ، والمراد بالمثل كل ما يعترضون به على الرسول الكريم .. في الآية ٥ من هذه السورة حكى سبحانه اعتراضهم على القرآن بأنه أساطير الأولين ، وفي الآية ٧ حكى قولهم عن الرسول انه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وفي الآية ٨ قالوا : هو رجل مسحور ، وفي الآية ٢١ قالوا : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، وفي الآية ٣٢ قالوا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة .

وبعد ان أبطل سبحانه كل ما قالوه خاطب نبيه الكريم : (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) أي ان المشركين يخاصمونك ويجادلونك يا محمد بالباطل ، ونحن نمدك بالحق الواضح ، والحجة التي تدحض أقوالهم ، وتفضحهم في أباطيلهم .. هذا في الدنيا ، أما جزاؤهم في الآخرة فان الزبانية تسحبهم على وجوههم ، ومن كانت هذه حاله فهو شر خلق الله وأشقاهم في مقره ومكانته ، وعمله وسيرته .

سورة الفرقان

(ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيراً فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً) . تقدمت قصة موسى وفرعون في العديد من الآيات ، منها الآية ١٠٣ الى الآية ١٤٥ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٧١ الى ص ٣٩٢ ، وعند تفسير الآية ٩ من سورة طه ذكرنا سبب التكرار لقصة موسى (ع) .

(وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً) . أيضاً تقدمت قصة نوح أكثر من مرة . أنظر تفسير الآية ٢٥ الى الآية ٤٩ من سورة هود ج ٤ ص ٢٢٢ الى ٢٣٧ .

(وعاداً) أنظر تفسير الآية ٥٠ الى ٦٠ من سورة هود ج ٤ ص ٢٣٧ الى ٢٤٣ (وثمود) أنظر تفسير الآية ٦١ الى ٦٨ من سورة هود ج ٤ ص ٢٤٣ الى ٢٤٧ (وأصحاب الرس) اسم بئر وأصحابه قوم شعيب ، وتقدمت قصته في سورة هود من الآية ٨٤ الى ٩٥ ج ٤ ص ٢٥٦ الى ٢٦٤ (وقروناً بين ذلك كثيراً) وأيضاً أهلكنا أئماً وجماعات كثيرة بين عادٍ وأصحاب الرس لأنهم كذبوا الأنبياء والرسل .

(وكلاً ضربنا له الأمثال وكلاً تبرنا تنبيراً) . أهلكناهم بعد البيان والانذار والمواعظ بالقصص وضرب الأمثال ، ولكنهم أصروا على الكفر والضلال ، فكان جزاؤهم الخراب والدمار (ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفسلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشوراً) . المراد بالقرية هنا قرى قوم لوط لقوله تعالى : « ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث - ٧٤ الأنبياء » . وقوله : « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود - ٨٢ هود » . والمعنى ان المشركين كانوا يمرون في أسفارهم بقرى لوط ، ويرون آثار الملاك والدمار ، وكان عليهم أن يتعظوا بها ويؤمنوا بنبوتهك يا محمد ، ولكنهم جحدوا وعاندوا لأنهم لا يوقنون بالبعث والحساب والجزاء .

أهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ٤١ - ٤٤ :

وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُوكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِنْ
كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ
الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا * أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ
عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُكُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْلَمُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا
كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا *

الإعراب :

هزؤاً مصدر بمعنى اسم المفعول أي مهزؤاً به . ومفعول بعث ضمير محذوف
أي بعثه ، رسولاً حال منه . وإن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف
أي أنه ، واللام في ليضلنا للتأكيد، وجملة يضلنا خبر إن . وفي كاد ضمير مستتر
يعود إلى الرسول . لولا تدل على امتناع شيء لوجود شيء آخر . والمصدر من
صبرنا مبتدأ ، وخبره محذوف أي لولا صبرنا موجود لأضلنا الرسول .

بين موقفين لعيسى ومحمد :

(وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا) . أقام
النبي (ص) ثلاث عشرة سنة يمكة يدعو قومه إلى الإيمان بإله واحد بأمر بالعدل،
وينهى عن الجور ، ويستوي عنده الأسود والأبيض ، والغني والفقير ، ولا فضل
إلا بالتقوى .. فلا غرابة بعد هذا أن يضيق بمحمد (ص) عتاة قريش ، ويؤذوه
ويسخروا منه ومن دعوته .. وقد كان مبدأ المساواة مادة خصبة لهزئهم وسخريتهم..
بلال العبد الذليل الفقير مثل أبي جهل صاحب الجاه والمال ، بل أفضل عند

الله لأنه أبر وأتقى .. ان هذا لشيء عجاب !.. ولكن النبي (ص) صبر على الأذى ، ومضى في دعوتيه وأدى مهمته لأن ما يدعو اليه يهون كل شيء من أجله .. وهكذا يصمد العظيم للسفهاء وقوى الشر والضلال ، وهو واثق ان الله معه ، وان الغد له لأن الباطل الى زوال وان طال أمده .

وقارن مصطفى صادق الرافعي بن عيسى (ع) حين سخر منه بنو اسرائيل ، وبين محمد (ص) حين سخرت منه قريش ، وقال فيما قال :

« لقد هزئوا بالسيد المسيح من قبل ، فقال للساخرين منه : ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته ، وبهذا رد عليهم رد من انسلخ منهم .. أما نبينا (ص) فلم يجب المستهزئين ، اذ كانت القوة الكامنة في بلاد العرب كلها كامنه فيه . انه سكوت سكوت المشتزع الذي لا يريد من الكلمة إلا عملها حين يتكلم ، وكان في سكوته كلام كثير في فلسفة الارادة والحرية والتطور ، وان لا بد أن يتحول القوم ، وان لا بد أن ينفطر هذا الشجر الأجرد عن ورق جديد أخضر ينمو بالحياة .. انه لم يتسخط ولم يقل شيئاً ، وكان كالصانع الذي لا يرد على خطأ الآلة بسخط ويأس ، بل يرسل يده في اصلاحها . »

وعلينا نحن المسلمين أن نتعلم من هذا الدرس النبوي الثبات والصمود على الحق والتضحية في سبيله بكل عزيز ، وان لا نياس من انتصار الحق على الباطل ، وان كثر أنصاره ، فان منهم من خدعته الكواذب التي تتكشف وتبخر مع الأيام ، ومنهم من غلبت عليه شقوته في ساعة ذهل فيها عن ربه وضميره ، ثم يعود اليه ، ويتوب من ذنبه .. وأيضاً لا ينبغي أن نثق ونطمع في كل من طلب الحق وأقبل عليه ، فأكثر الناكثين والمارقين ، ومن يتاجرون بالقيم والدين .

(إن* كاد ليضلنا عن آلفتنا لولا ان صبرنا عليها) . هذا من كلام المشركين الذين سخروا من الرسول الأعظم (ص) وقالوا : « أهذا الذي بعث الله رسوله » قالوا هذا منكروين جاحدين ، ثم اعترفوا من حيث لا يشعرون بأن محمداً كاد يشككهم في أصنامهم ، وبصرفهم عن عبادتها بما ظهر على يده من المعجزات ، وأقام من الدلائل والبيانات ، واعترفوا أيضاً بأنهم قاوموا عقولهم وتغلبوا عليها بشهواتهم وأهوائهم » إن* كاد ليضلنا عن آلفتنا لولا ان صبرنا عليها . انها لوقاحة

مفضوحة ، وتناقض ظاهر بينها وبين السخرية من محمد .. سخروا منه ، واعترفوا له بقوة الحججة في آن واحد .. وهكذا كل مبطل: تتضارب أقواله من حيث لا يشعر .. والسر ان الحق يفرض نفسه ، ويبرزها جلية واضحة في أقوال المعاندين والجاحدين رغم أنوفهم .

(وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً) . قالوا : كاد محمد يضانا . فأجابهم سبحانه: ستعلمون غداً يوم تواجهون الهول الأكبر انكم الضالون الخاسرون ، لا محمد ومن آمن به (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) . كل من تغلب هواه على دينه فقد اتخذ إلهه هواه ، أراد ذلك أم لم يرد ، ومن كان كذلك فلا أمل في هدايته ، لأن كل آية لا تعكس رغبته وهواه فهي عنده سخف وهراء (أفأنت تكون عليه وكيلاً) تحفظه من الضلال والفساد ؟ دعه فلا خير فيه ، وقد انلرت واعذرت ، وعلينا حسابه وعقابه .

أضل من الأنعام :

(أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً) . قال سبحانه : أكثرهم ، لأن البعض منهم عاندوا في البداية ، ثم رجعوا عن ضلالهم ، وآبوا الى رشدهم ، وانقادوا الى الحق ، وأبلوا البلاء الحسن في سبيل الله ، ونفى جل وعز السمع والعقل عن الذين أصروا على الجحود والضلال لأنهم لم ينتفعوا بأوامرهم وعقوبهم ، وكل ما لا جدوى من وجوده فهو بحكم العلم ، وشبههم ، جلّت حكمته ، بالأنعام لأنهم لم يتدبروا الأدلة والبراهين ولم ينتفعوا بالحكمة والعبر ، بل هم أضل من الأنعام لأن الأنعام تؤدي ما عليها كاملاً بحسب تكوينها وخصائصها ، وتنقاد الى صاحبها أمراً وزجراً ، وتعرف ما يضرها فتتقي ، وما ينفعها فتبتغيه ، وهم لا يؤدّون ما عليهم ، ولا يتقادون لحاقهم ، ولا يتقون عذابه ، ولا يعملون لثوابه .. وفوق هذا كله فان الأنعام والبهايم لا تضر أحداً من جنسها وغير جنسها ، بل ينتفع الناس بظهورها وألبانها وأصوافها ، أما أهل الفساد والضلال فانهم شر ووبال على مجتمعهم، وسبب لأدوائه وبلائه ، ومصدر لتأخره وانحطاطه .

وتجدر الإشارة الى ان هذا الوصف لا يختص بمن كفر بالله أو أشرك به ، فكل من جحد الحق مع قيام الدليل عليه فهو أضل سبيلاً من الأنعام ، سواء أجهده مكابرة وعناداً، أم عن إهمال وتقصير في البحث عن أدلة الحق ومصادره .

وراء الظواهر الطبيعية الآية ٤٥ - ٥٤ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا * وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُخْضِيَ بِهِ بَلَدَةً مِثْنَا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِي كَثِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا * فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا *

الطبعة :

لباساً أي سائراً كاللباس . وسباتاً سكوناً ضد النشور أي جعل سبحانه الليل

الجزء التاسع عشر

لسكون الناس ، والنهار لحركتهم . وأناشي جمع انسي ككرسي وكراسي .
وكفوراً من كفران النعم . ومرج خَلَطَ . والفرات العننب جداً . والاجاج
المالح أو المرّ جداً . والبرزخ الحاجز ، وحجراً محجوراً أي حراماً محرماً أن يفسد
الاجاج الفرات . والنسب والصهر يمان كل قريبي بين الذكور والاناث .

الإعراب :

كيف، حال من الضمير المستتر بمد . وبُشراً حال من الرياح . وانعاماً وأناشي
مفعول ثانٍ لنسقيه .

المعنى :

ذكر سبحانه في هذه الآيات طرفاً من النعم التي أسبغها على عباده ، ودلت
على وجوده وعظمته ، نبهنا إليها جل وعلا لثؤمن به ونعبده مخلصين له الدين ،
وفيها يلي التفصيل :

١ - (ألم تر اني ربك كيف مد الظل) وهو الفيء وجمعه ظلال ، قال
تعالى : « يتغيأ ظلاله - ٤٨ النحل » . وقيل الظل أعم من الفيء حيث يقال :
ظل الجنة ، ولا يقال : فيؤها ، ومها يكن فإن القصد التذكير بنعمة الظل الذي
يمجد الانسان فيه الراحة والمتعة، وبأن الله هو الذي يسطه ويقبضه (ولو شاء لجعله
ساكناً) أي جعل الأرض ساكنة، وبسكونها يسكن الظل ويثبت على حال واحدة،
لأن الظل لا استقلال له في ذاته واسمه يدل عليه، وانما هو تبع لصاحبه إن تحرك
تحرك ، وان سكن سكن .

(ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً) لولا وجود الشمس لم يكن للأرض ظل ،
فوجودها يدل على وجوده ، تماماً كما يدل وجود العلة على وجود المعلول (ثم
قبضناه لينا قبضاً يسيراً) بسط سبحانه الظل رويداً رويداً ، وأزاله أيضاً رويداً
رويداً بحسب حركة الأرض .

سورة الفرقان

ونسب إليه تعالى الظل ومده وقبضه مع ان ذلك يستند الى الأرض مباشرة كما ذكرنا لأنه جل وعز هو المؤثر الأول في الوجود ، وان الفيض كله من عنده ، وليست الظواهر الكونية إلا وسائط .

٢ - (وهو الذي جعل لكم الليل لباساً) . وصف سبحانه هنا الليل باللباس ، وفي الآية ٩٦ من سورة الأنعام وصفه بالسكن : « وجعلنا الليل سكناً » والمعنيان متقاربان لأن اللباس يحجب الأبصار ، ولا صوت للسكون يصل الى الأسماع .

٣ - (والنوم سباتاً) سكوناً وانقطاعاً عن العمل ، يقال : سبت القوم اذا استراحوا وانقطعوا عن العمل .

٤ - (وجعل النهار نشوراً) حركة وعملاً ، وأوضح تفسير لهذه الآية قوله تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون - ٧٣ القصص » أي لتسكنوا في الليل ، وتعملوا في النهار طلباً للعيش .

٥ - (وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً) . المراد برحته هنا المطر ، والمعنى ان الرياح تبشر بتزول الماء من السماء وهو طاهر في نفسه مطهر لغيره على حد تعبير الفقهاء (لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا انعاماً وأناسي كثيراً) . قال سبحانه هنا بلدة ، وفي الآية ٥٦ من سورة الأعراف قال : « سقناه لبلد ميت » . ويدل هذا على ان البلدة والبلد بمعنى واحد ، ولذا قال : بلدة ميتاً ولم يقل ميتة . أنظر تفسير الآية ٥٦ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٤٢ ، وأيضاً تفسير الآية ٣٠ من سورة الأنبياء (ولقد صرفناه بينهم ليدذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً) . ضمير صرفناه يجوز أن يعود الى القرآن ، وعليه تكون الآية بمعنى قوله تعالى : « ولقد صرفنا في هذا القرآن ليدذكروا وما يزيدهم إلا نفوراً - ٤١ الاسراء » . ويجوز أن يعود ضمير صرفناه الى المطر ، ويكون المعنى ان الله سبحانه أرسل المطر من مكان الى مكان لأنه لو دام واستمر في مكان واحد هلك أهله غرقاً ، ولو انقطع عنهم كلية لامتوا عطشاً ، وعلى كل عاقل أن يتدبر هذه الحكمة والنعمة ويشكر الله عليها ، ولكن أبى أكثر الناس إلا الجحود بالله ، والكفران بأنعمه .

(ولو شئنا لبغنا في كل قرية نذيراً) . قبل ان يبعث الله محمداً (ص) جعل لكل أمة رسولاً : « ولكل أمة رسول - ٤٧ يونس » ، ومنذ عهد محمد (ص) الى آخر يوم أقفل سبحانه باب ارسال الرسل الى الخلائق ، واكتفى برسول واحد لجميع الأمم في جميع الأجيال ، وهو محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله ، فدينه هو الدين الأخير للانسانية كلها ، ومن أجل هذا أخذ الله عهداً على كل نبي أن يبشر به وبصفاته : « وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلك إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين - ٨١ آل عمران » ج ٢ ص ٩٨ . وليس فوق هذه المنزلة إلا الله وحده ، وقد ذكر الله صاحبها بهذه النعمة العظمى حيث قال له : (ولو شئنا لبغنا في كل قرية نذيراً) ولكننا لم نفعل ، وأوكلنا انذار الأمم كلها اليك وحدك تعظيماً لشأنك لأن العظمة على مقدار التكليف وثقله .

القرآن والاذاعة :

(فلا تطع الكافرين وجاهدكم به جهاداً كبيراً) . الخطاب في لا تطع لرسول الله (ص) ، ويجوز النهي عن الشيء حتى مع العلم بأن المكلف لا يفعله إطلاقاً ، وبالنصوص اذا كان الناهي هو الله تعالى ، وضمير به يعود الى القرآن ، والمعنى لا تستجب يا محمد لشيء مما يدعوك اليه الكافرون ، ولا تدع فرصة إلا وبلغت القرآن ، وتلوته على مسامعهم ، أحبوا ذلك أم كرهوا ، وإذا لاقيت منهم الأذى في هذه السبيل فاصبر ، ولا يصدنك أذاهم عن اعلانه واذاعته ، فإن إذاعة آيات الله هي الجهاد الأكبر في سبيل الحق والانسانية .

وليس الغرض من هذا التأكيد والترغيب هو تحدي العتاة والطغاة ببلادة القرآن وكفى ، وانما الغرض توعية المستضعفين والجاهلين ، وإرشادهم الى حريتهم التي اعتدى عليها الأقوياء ، وان العدالة والمساواة حق إلهي وطبيعي لكل فرد ، وانه لا قوي ولا غني ولا شريف إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وان القرآن هو الذي يضمن هذا الحق ، ولا يؤدي تأديته في ذلك دين ولا شريعة إلا اذا قامت على

سورة الفرقان

ما قام عليه من العدل والمساواة ، وبهذا نعرف السر في قوله تعالى : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » - ٢٠٣ الاعراف .

لقد أمر الله نبيه الكريم أن يجاهد الجهاد الأكبر بقراءة القرآن وإذاعته لأن بها يرتفع صوت الحق والعدل ، وينشر العلم والوعي بين الناس ، ويحس كل انسان بكرامته ، فيحرص عليها ، ويدافع عنها ، وبهذا يتبين ان تلاوة القرآن من الاذاعات العالمية هي لخير الانسانية كلها ، لا للمسلمين وحدهم ، وان الدافع على هذه الاذاعات ليس البلاغة البيانية - كما يظن - وانما الدافع الأول دعوة القرآن التي ترسم قواعد العدل والمساواة بين الناس أجمعين .

(وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً) . ليس المراد بالبحرين في الآية بحران معينان ، وانما المراد بهما نوعان من الماء : أحدهما عذب ، وثانيهما مالح ، فإن كلمة بحر تطلق في اللغة على الماء الكثير عذباً كان أم مالحاً ، والمعنى ان الله سبحانه جعل الماء المالح في أرض منخفضة يركد فيها الماء ، وجعل مجاري الماء العذب كالأنهار والجداول في أرض مرتفعة عن سطح البحر ، بحيث يصب الماء العذب في الماء المالح ، فيبقى العذب على علوبته ، والمالح على ملوحته ، ولو انعكس الأمر ، وجعل سبحانه الماء الحلو في أرض منخفضة ، والماء المالح في أرض مرتفعة ، وصب المالح في العذب لأفسد المالح العذب ، وأصبح الماء كله مرأ ، ووقع الناس في العسر والحرج .. وليس هذا من باب الصدفة ، بل هو بتقدير حكيم عليم ، وقوله تعالى : (وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً) معناه ان الماءين وان التقيا عند مصب الأنهر فإن أحدهما لا يطنى على الآخر ، بل تبقى لكل منهما خصائصه وآثاره .. فسبحان الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً .

٦ - (وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً) . المراد بالنسب القرابة بالتوالد ، وبالصهر القرابة بالمصاهرة ، والمعنى ان الله سبحانه خلق من النطفة انساناً هو أعجب الكائنات ، وجعل بين أفرادها القرابة والتعاطف . انظر تفسير الآية ١٤ من سورة المؤمنون . (وكان ربك قديراً) ومن مظاهر قدرته ان جعل من خلية ذكراً ، ومن خلية أنثى مع ان حقيقة الخليتين واحدة ، ومصدرهما واحد .

وكان الكافر على ربه ظهيراً الآية ٥٥ - ٦٢ :

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى
رَبِّهِ ظَهِيرًا * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ
الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا * الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ
الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا
الرَّحْمَنُ أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا * تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ
بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَرَأَ مُنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ
وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا *

اللفظ

الظهير المعين . والمراد بالبروج منازل الشمس والقمر ، وقيل : المراد بها
الكواكب السيارة المعروفة عند العرب . والمراد بخلفة ان أحدهما يخلف الآخر .

الإعراب :

مبشراً ونذيراً حال من كاف أرسلناك . إلا من شاء استثناء منقطع أي لكن
من شاء . وكفى به الباء زائدة إعراباً والهاء فاعل ، وخبيراً حال ، وبذنوب
عباده متعلق بخبر . الذي خلق السموات بدل من الحي الذي لا يموت . والرحمن

خبر لمبتدأ محذوف أي هو الرحمن . ونفوراً تمييز محول عن فاعل ، والأصل زاد نفورهم . وخلفة مفعول ثانٍ للجعل ، وقال أبو حيان الأندلسي : هي حال .

المعنى :

(ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم) تقدم بالحرف الواحد في الآية ١٨ من سورة يونس ج ٤ ص ١٤٣ (وكان الكافر على ربه ظهيراً) أي يعين أهل الباطل على أهل الحق، وكل من أعان الباطل فقد أعان على الله ونصب له العداء ، وإن سبحه وقدمه بلسانه ، قال الرسول الأعظم (ص) : « من أعان ظالماً ، وهو يعلم انه ظالم فقد يرى من الاسلام » . ومهما شككت فاني لا أشك في أن من يتعمد الظلم كافر ، بل الكافر « العادل » خير منه ، والآيات القرآنية كثيرة وصريحة في ذلك ، أما الأحاديث النبوية فقد تجاوزت حد التواتر .. أجل، علينا أن نعامله في الظاهر معاملة المسلم ، لا لشيء إلا لقوله : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

(وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً) تقدم بالحرف في الآية ١٠٥ من سورة الاسراء (قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلاً) . لا مطمع لي فيكم ولا في أموالكم ، ولا أريد أن أبيعكم أذرعاً في الجنة ، إن أريد إلا الإصلاح ، فمن شاء منكم أن يتخذ السبيل الى الهداية فأجره على الله . وتقدم مثله في الآية ٩٠ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٢١ والآية ٨٨ من سورة هود ج ٤ ص ٢٦١ .

(وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبِّح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً) . بشر وأنذر يا محمد متوكلاً على الله ، مخلصاً له في أقوالك وأفعالك ، ومترهاً مقامه عن المثيل ، وعن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته ، وهو أعلم بمن ضل عن سبيله فيحاسبه ويجازيه (الذي خلق السموات والأرض وما بينها في ستة أيام ثم استوى على العرش) . المراد بالاستواء الاستيلاء ، والأرجح ان المراد بالأيام الدفعات أو الأطوار ، إذ لا أيام قبل وجود الكون والشمس ، وتقدمت هذه

الآية في سورة الاعراف الآية ٥٤ ج ٣ ص ٣٣٨ ، وفي سورة يونس الآية ٣ وفي سورة هود الآية ٧ . (الرحمن فاسأل به خبيراً) به متعلق بخير ، والهاء تعود الى خلق السموات والأرض المفهوم من السياق ، وفي الكلام حذف وتقديم وتأخير أي هو الرحمن فاسأل عن خلق السموات والأرض خبيراً به ، وهو الله . (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن انسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً) . اذا قال النبي (ص) للمشركين : اعبدوا الرحمن ولا تعبدوا الأصنام قالوا متجاهلين ساخرين : ما هو الذي تدعون لعبادته ، وتسميه بالرحمن ؟ . أتريدنا ان نطيعك ، ونعصي آباءنا فيما كانوا يعبدون ؟ . وتذكروا هذه الجهالة والسفاهة بجهالة الشباب الذين اذا قيل لهم : صلوا وصوموا قالوا : أصلاة في القرن العشرين ؟ والغريب ان هؤلاء الشباب يتغنون بالحرية والانسانية .. وكأن الحرية هي الزندقة والتهتك ، والانسانية هي التحرر من قيمها ومثلها .. وما دروا ان الحر هو الذي يعبد الله ولا يخضع لسواه ، وان الانسانية هي دين الله الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر .

(تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقرراً منيراً) . المراد بالبروج منازل الشمس والقمر. انظر تفسير الآية ١٦ من سورة الحجر ج ٤ ص ٤٧٠ ، والمراد بالسراج هنا الشمس لقوله تعالى : « وقرراً منيراً » . وقال سبحانه في الآية • من سورة يونس : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا » . وفرق البعض بين الضوء والنور بأن الضوء يستند الى الكواكب مباشرة وبلا واسطة كضوء الشمس ، والنور يستند الى الكواكب بالواسطة كنور القمر فإنه مكتسب من الشمس ، واستدل على هذه التفرقة بآية جعل الشمس ضياء والقمر نوراً . (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً) . خلفه أي ان الليل والنهار يتعاقبان ويخلف أحدهما الآخر ، يذهب الليل ويأتي النهار ، ثم يذهب هذا ويأتي ذاك ، وهكذا دواليك ، ولا يمكث أحدهما الى ما لا نهاية أو طويلاً أكثر من حاجة الخلائق .. والتعاقب على هذه الصورة يدل دلالة قاطعة على وجود مدبر حكيم، وتعاقب الليل والنهار يستند مباشرة الى حركة الأرض ، وحركة الأرض تستند الى سببها ، ولكن سلسلة الأسباب تنتهي بجميع حلقاتها الى المبدأ الأول ، أما الحكمة من هذا التعاقب فلأنه لو استمر وجود

الظلمة أو الضياء لتعلمت الحياة على وجه الأرض .. وقوله تعالى : « لمن أراد أن يذكر » معناه ان من طلب الدليل على وجود الله وجده في جميع الأشياء ، ومنها تعاقب الليل والنهار ، وقوله : « أو أراد شكوراً » معناه ان من أراد أن يشكر الله على نعمه فليشكره أيضاً على تعاقب الليل والنهار فانه من النعم الكبرى.

عباد الرحمن الآية ٦٣ - ٧٧ :

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا
سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا
وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا *
إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ
حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ
إِلَى اللَّهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا
كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا *
وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا

لِلتَّقِيْنَ إِمَامًا * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً
وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * قُلْ مَا يَعْبُؤُ بِكُمْ
رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِإِمَامًا *

اللغة :

المون الرفق واللين . والاسراف مجاوزة الحد . والتقير التضييق . والقوام وسط
بينها . ومتاباً مرجعاً حسناً . وقرة العين كناية عن السرور لأن العين تستقر عنده .
والغرفة كناية عن الدرجة الرفيعة . ولزماً لازماً .

الإعراب :

عباد الرحمن مبتدأ، والذين يمشون خبر . وهوناً حال من واو يمشون . وسلاماً
نصب على المصير . وسجداً وقياماً حال . ومستقر ومقاماً تمييز . وكان بين ذلك
أي وكان الانفاق . وبضاعف بالجزم بدلاً من يلقى . ومهانساً حال . وكذلك
كراماً وصماً وعمياناً . ودعاؤكم مبتدأ محذوف الخبر أي لولا دعاؤكم موجود .

المعنى :

بعد أن ذكر سبحانه صفات الكافرين ، وتوعد لهم عليها ذكر - على عادته -
صفات المؤمنين وما أعد لهم عليها من الأجر والثواب ، وهذه هي صفاتهم :
١ - (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً) قال الإمام جعفر الصادق
في تفسير ذلك : « هو الرجل يمشي على سجيته التي جبل عليها ، لا يتكلف ولا
يتصنع » . أجل ، على سجيته يمشي من غير تصنع .. ومنفرداً ، لا حواشي
وأتباع من خلفه ، ولا خلم وحشم من أمامه يركبون الخيول أو الدراجات النارية

تزعج الناس بأصواتها اعلاناً عن مقدمه ليفسحوا له ويصفقوا اجلالاً وتعظيماً .

٢ - (واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) . المراد بخطاب الجاهلين سفاهة السفهاء ، كهزئهم أو شتمهم أو جدالهم بالهوى والغرض .. وسلاماً كناية عن تجاهلهم والإعراض عنهم استخفافاً بشأنهم ، وترفعاً عما لا يليق بالرجل الكريم ، والمعنى ان المؤمن اذا سمع كلمة السوء تجاهلها حتى كأنه لم يسمعها أو كأن المقصود بها غيره ، وهذا هو الهجر الجميل المراد بقوله تعالى : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً » - ١٠ المزمل . وليس من شك ان الإعراض عن السفهاء إنما يحسن حيث لا قوة تردعه وإلا وجب تأديبه ، ولا بد من تقييد الآية بذلك .

٣ - (والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً) . يبيتون أي يدركهم الليل . والمؤمنون ينصرفون في ظلمة الليل الى الله وعبادته ، لأنها أبعد عن الرياء ، ولا يقضون الليالي في المقاهي والملاهي ، وتبذير الأموال ، وتدبير المؤامرات ضد المؤمنين والمخلصين ، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأكساح هم يستنفرون » - ١٩ الذاريات .

٤ - (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراماً) لازماً لا مفر منه ، ودائماً لا تحوّل عنه (انها ساءت مستقراً ومقاماً) . آمنوا بالجنة والنار إيمانهم بما شاهدوا وعابنوا ، فخافوا من هذه ، وطمعوا في تلك ، قال الإمام علي (ع) في وصفهم : فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون .

٥ - (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) لا افراط ولا تفريط ، لا تقتير ولا تبذير ، بل وسط واعتدال ، وهذا هو نهج الاسلام الاعتدال في كل شيء ، لا إلحاد ولا تعدد آله ، ولا دكتاتورية ولا فوضى ، ولا إلغاء ملكية ولا ملكية طاغية . انظر تفسير الآية ٢٩ من سورة الإسراء ، فقرة « الاسلام ونظرية الأخلاق » .

٦ - (والذين لا بدعون مع الله إلهاً آخر) ومن عمل رياء أو أطاع مخلوقاً

في معصية الخالق فهو كمن دعا مع الله إلهاً آخر. (ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق) . والنفس التي تُقتل بالحق والعدل هي التي قتلت نفساً بغير الحق ، أو زنت عن إحصان ، أو ارتدت عن دين الحق ، أو سعت في الأرض فساداً والتفصيل في كتب الفقه. (ولا يزنون) لأن الزنا من أكبر الكبائر ، ولذا ساوى الله سبحانه بينه وبين الشرك بالله ، وقتل النفس ، وجعل حكم الثلاثة القتل بالشروط التي ذكرها الفقهاء (ومن يفعل ذلك يلق أثاماً) . ذلك إشارة الى الشرك والقتل والزنا ، والاثم العقوبة (يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً) . وأي عذاب وهوان أشد من عذاب جهنم ؟ فكيف اذا كان مضاعفاً مع الخلود الى ما لا نهاية .

(إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً) . من تاب عن الذنب كمن لا ذنب له ، وفوق ذلك يشبه الله على التوبة ، ويعطيه من الحسنات ما يعادل سيئات ذنوبه ، بحيث تمحو حسنات التوبة سيئات الذنوب : « ان الحسنات يذهبن السيئات - ١١٦ هود » ، وهذا هو معنى قوله تعالى : (يبدل الله سيئاتهم حسنات) فإن السيئة بما هي لا تستحيل إلى حسنة ، ولا الحسنة بما هي تستحيل إلى سيئة (ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب الى الله متاباً) بعد ان بين سبحانه في الآية السابقة انه يشيب التائب ثواب المحسنين أننى عليه في هذه الآية بأنه قد رجع الى خالفه رجوعاً حسناً ، وتدارك ما كان منه .

٧ - (والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً) . المراد بالشهادة هنا الحضور مثلها في قوله تعالى : « فنشهد منكم الشهر فليصمه - ١٨٤ البقرة » . والمراد بالزور الباطل ، وباللغو كل ما لا خير فيه ، والمعنى ان المؤمنين لا يحضرون مجالس الباطل ، ولا يعينون أحداً عليه ، وبالأولى أن لا يفعلوه ، ولا يشتركوا في كلام لا خير فيه ، وإذا مروا به كرموا اسماعهم عنه ، كما نزهوا أنفسهم عن التفسوه به ، تماماً كالنحلة تسرع اذا مرت بالجيف والروائح الكريهة .

٨ - (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً) . الشاعر

يصني الى الشعر ، ويتذوقه ، ويقبل عليه بكله .. وهكذا كل صاحب مهنة إذا حدثته بمهنته واختصاصه ، فإنه يُقبل عليك بقلبه وسمعه وبصره .. وإذا حدثت انساناً بما هو بعيد عنه ، ولا يمت الى مهنته بصلة تحول عنك وعن حديثك ، وان كان هدى ونوراً .. وبهذا يتبين لك السر في اقبال المؤمن على القرآن ، وادبار الكافر عنه ، يقبل المؤمن على كتاب الله لأنه يؤمن به ، ويدرك معناه ومرماه ، ويجد فيه نفسه وعقيدته وصالح أعماله، وما أعدّه الله له من الأجر والثواب، ويُدبر الكافر عن كتاب الله لأنه يجهل أهدافه وأسراره ، ولا يجد فيه إلا الهم والتنديد به وبعقيدته وصفاته ، والا التهديد على كفره وفساده .

٩ - (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً) . يتمنى الشقي الفاجر أن يقتدي به الناس لا اقتناعاً منه بأنه على هدى من ربه .. كلا ، بل لتخف عنه الملامة والملازمة ، ويرر خطيئته بكثرة المخطئين ، ولذا لا يحب ان يكون أولاده وزوجته على شاكلته ، تماماً كما لا يحب المريض أن يصاب أهله بدائه .. أما البر التقي فهو على يقين من دينه وبصيرة من أمره ، ولذا يتمنى من أعماق قلبه مبدأ وعقيدة أن يسير جميع الناس على نهجه ، وان يكون أولاده على شاكلته يفرح بدينهم وسلوكهم ، ويتضاعف بهم عدد المتقين والمطيعين .. فالمخلصون يسألون خالقهم أن يجعلهم قدوة لمن يرغب في تقوى الله لا ليبرروا أعمالهم عند الناس ، ولا طلباً للجاه في الدنيا وقبض الأموال باسم حقوق الله ، بل رغبة في عظيم المنزلة عند الله وحده .

(أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً) . بعد أن بيّن سبحانه أوصاف المتقين ذكر ان جزاءهم عنده الخلود في الهناء والنعيم ، والأمن والأمان مع التوقير والاحترام .. وخص الصبر بالذكر للإشارة الى ان كل حق لا بد أن يلاقي الأذى والعناء من المبطلين ، وان ثواب الله لا يظفر به إلا من صمد وصبر واستمر على مبدئه وعقيدته مهما كان الثمن ويكون .

(قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً) . المراد بالدعاء هنا ان الله سبحانه دعا المشركين بلسان نبيه الى الإيمان والطاعة ، والدليل

الجزء التاسع عشر

على ان هذا هو المراد بالدعاء قوله تعالى : (فقد كذبتم) فهو مثل : ه فدعوهم فلم يستجيبوا لهم . والمعنى لستم عند الله أيها المشركون بشيء يستحق العناية والذكر لولا شيء واحد ، وهو دعوتكم الى الايمان والطاعة كي تلزمكم الحجة عند الحساب والجزاء اذا لم تسمعوا وتطيعوا ، وقد أعرضتم عن الدعوة وكذبتم الداعي ، فحققت عليكم كلمة العذاب ، وأصبح عقابكم لازماً ، لا مفر منه .

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

قال الطبرسي : هي مكية إلا قوله تعالى : والشعراء يتبعهم الغاؤون الى آخر السورة فانه نزل بالمدينة . وآياتها ٢٢٧ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لعلك باجع نفسك الآية ١ - ٩ :

طَسْمٌ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَاجِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ * إِنْ تَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا
خَاضِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ
مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * أَوْ لَمْ
يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *

اللغة :

الباجع المهلك، وبجع نفسه أهلكتها . والاعناق الرقاب ، وتطلق على الجماعات .
والزوج الصنف .

الإعراب :

تلك مبتدأ وآيات الكتاب خبر . ولعل تتضمن هنا معنى الاشفاق . ونفسك مفعول به لباخع . والمصدر من الا يكونوا مفعول من أجله . وظل للنهار، تقول: ظل أي أقام نهاراً ، وبات لليل تقول : بات أي أقام ليلاً ، وهما من أخوات كان يرفعان الاسم وينصبان الخبر ، وأعناقهم اسم ظلت وخاضعين خبر ، وأصل الكلام فظلوا لها خاضعين ، ثم حذفت واو الجماعة وأقيمت الأعناق مقامها لأنها موضع الخضوع ، وتركت كلمة خاضعين على أصلها . ومن ذكر (من) زائدة إعراباً وذكر فاعل يأتيهم ، وكم مفعول انبتنا .

المعنى :

(طسم) . تقدم الكلام عن مثله في أول سورة البقرة (تلك آيات الكتاب المبين) . تلك اشارة الى آيات هذه السورة ، والكتساب القرآن ، والمبين يبين الحق ويظهره (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) . الخطاب من الله لمحمد (ص) يعاتبه فيه على شدة حزنه وأسفه لاعراض قومه عن الهدى والحق . وتقدم مثله في الآية ٣٥ من سورة الانعام ج ٣ ص ١٨٣ والآية ٦ من سورة الكهف .

(إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) . يقول سبحانه لنبيه الكريم : هوّن عليك ، لو أردنا أن يؤمنوا قسراً وجبراً لأنزلنا عذاباً من السماء يروونه عياناً ، وقلنا لهم : اختاروا ، اما الهلاك ، واما الايمان .. وليس من شك انهم يستسلمون أذلاء خاضعين .. ولكن هل يُعَد هذا ايماناً يستحقون عليه الثواب ؟ كلا ، ان الايمان الحق ما كان بالارادة والاختيار ، لا بالاكراه والاجبار ، ولذا أقدرناهم على فعل الشر والخير ، وأمرناهم بهذا ، ونهيناهم عن ذلك ، وتركنا لهم أن يختاروا ليستحقوا الثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية .

وتسأل : لقد فعل سبحانه ذلك ببني اسرائيل في عهد موسى (ع) بدليل قوله تعالى : « واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا انه واقع بهم خلتوا ما

أتيناكم بقوة - ١٧١ الأعراف . فكيف أثبتته هناك ، ونفاه هنا ؟ .

الجواب : ان القرآن الكريم يدل بصراحة ووضوح على ان الله سبحانه عامل اليهود معاملة لا تشبه شيئاً مما عامل به سائر العباد ، لأن لهم في نظر القرآن طبيعة شاذة لا يقاس عليها .. وقد تكلمنا عن ذلك مفصلاً في ج ١ ص ١٢٢ بعنوان « لا قياس على اليهود » .

(وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا فسأنيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) . أقدرنا المشركين وأرشدناهم بلسانك يا محمد الى ما فيه خيرهم وصلاحهم ، فأعرضوا وسخروا .. فدعهم وشأنهم ، فانهم ملاقون ما وعدناهم من العذاب لا محالة . وتقدم مثله في الآية ٦٧ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٠٥ .

(أولم يروا الى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) . كفر من كفر بالله ، وهو يرى الدلائل والبيّنات على وجوده وعظمته ، ومن هذه الدلائل اخراج النبات أصنافاً وألواناً من الأرض الميتة . أنظر تفسير الآية ٩٩ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٣٤ والآية ٣ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٥ . (وان ربك هو العزيز الرحيم) . ويعزته يقهر الطغاة ، وبرحمته يمهّلهم ولا يعاجلهم بالعقاب حتى يأتيهم من عنده البشير النذير ، ويدع لهم الفرصة للتدبر والتوبة . قال الإمام علي (ع) : لا يشغله غضب عن رحمة ، ولا تلهيه رحمة عن عقاب .

موسى الآية ١٠ - ٢٢ :

وَإِذْ قَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَايَ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ *

قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ *

الإعراب :

إذ في محل نصب بفعل محذوف أي اذكر . وإن انت (ان) مفسرة بمعنى أي . وقوم فرعون يدل من القوم الظالمين . ويضيق صدري عطف على أخاف ، ومثله لا ينطلق . وأفرد الرسول مع أنها اثنان لأن المرسل واحد، والرسالة واحدة، والمرسل إليه واحد ، بالإضافة إلى أن موسى هو الأصل. ان أرسل (ان) بمعنى أي مفسرة لمضمون الرسالة المفهومة من كلمة الرسول . واذن حرف جواب وجزاء معاً ، ولكن المراد بها هنا الجواب فقط أي نعم فعلتها . والمصدر من ان عبدت في محل رفع بدلاً من نعمة .

المعنى :

هذه الآيات إلى الآية ٦٨ هي في قصة موسى (ع) التي تقدمت مرات، وعند تفسير الآية ٩ من سورة طه ذكرنا السبب الموجب لتكرارها (وإذ نادى ربك موسى ان انت القوم الظالمين قوم فرعون) . تقدم في الآية ٢٤ من سورة طه . (الا يتقون) . هذه جملة مستأنفة ، ومعناها لقد آن الأوان ان يضاف فرعون

وقومه عاقبة البغي والطغيان (قال رب اني أخاف أن يكذبون) . وفي الآية ٤٥ من سورة طه : « اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » أي يجعل علينا بالعقوبة قبل أن نبلغه الرسالة (ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل الى هرون). أمر الله سبحانه موسى أن يحمل رسالته الى فرعون .. وهذا تكليف شاق وعسير لطغيان فرعون وقوة سلطانه من جهة ، ولأن الرسالة بذاتها حمل ثقيل من جهة ، قال تعالى يخاطب نبيه الكريم محمداً (ص) : « انا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » - ٥ المزل . وموسى سريع الغضب للحق ، وفي لسانه عقدة تمنعه من الانطلاق في الكلام ، فخاف ان يقصر في أداء الرسالة الكبرى والقيام بواجبها .. ولا أحد كالأنبياء يخاف من التقصير في حق الله ، وبالأخص أولي العزم ، وهذا من العصمة ، ومن ثم طلب موسى من الله ان يرسل جبريل الى أخيه هرون ليكون عوناً له على هذه المهمة .

(ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون) . يشير بهذا الى ما حدث له من قتل الفرعوني حين استغاثه العبري كما في الآية ١٥ من سورة القصص : «فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فضضى عليه»..خاف موسى ان هو حمل رسالة الله الى فرعون أن يقتلوه قبل أن يبلغ الرسالة ويفوت الغرض منها ، أما اذا كان معه أخوه هرون، وحدث ذلك فيقوم مقامه في التبليغ .

(قال - الله - كلا فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بني اسرائيل) . خاف موسى من ضيق الصدر ، وحبس اللسان ، والقتل ، فأمنه الله وقال له : لن يكون شيء من ذلك لأنني أنا الناصر لكما والمعين . وتقدم مثله في الآية ٤٦ و ٤٧ من سورة طه .

(قال ألم نريك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين) . انطلق موسى وهرون الى فرعون ، ودخلا عليه ، وهما يلبسان مدارع الصوف ، ويديهما العصي ، ودعّاه الى الله ، وشرطا له بقاء ملكه ودوام عزه ان أسلم وأطاع .. وسخر فرعون من هذين اللذين يشترطان له دوام العز وبقاء الملك ، ولا جأه لها ولا مال .. ولكنه تمالك ، ولم يأمر بقتلها خشية أن يقال :

لما عجز عن مقارعة الحجة بالحجة لجأ الى السيف .. ولكن بأية حجة يتذرّع فرعون ؟ وبأي منطق يجادل ويناقش ؟ .. لا شيء سوى أن يلف ويدور ، وان يذكر موسى بالماضي والإنعام عليه .. ألم تحضنك رضيعاً ، ونربك غلاماً . وأقت في بيتنا أعواماً ، ثم قتلت منا رجلاً ، وهربت خائفاً تترقب ؟ أهكذا تحسد نعمتنا ، وتكفر باحساننا ؟ وفوق ذلك تدعي انك رسول الله الينا ؟ وكيف تجمع بين ماضيك ، وهو فقر وتشريد ، وبين ادعائك الرسالة من عند الله ؟ أتريدنا أن نسمع لك ونطيع ، ونحن سادتك وأولياء نعمتك ؟ . ثم التفت فرعون الى جلسائه وقال : « فلولا ألقى عليه اسورة من ذهب » .. ان في الذهب وحده يكمن السر كل السر في منطق الطغاة .. فلا نبوة ولا سيادة ولا فضل إلا للذهب وبالذهب .

وأجاب موسى (ع) عن قتل الفرعوني (قال فعلتها اذاً وأنا من الضالين) أي من الجاهلين بأن وكرتي تؤدي الى القتل .. اني قصدتُ بها الردع والتأديب فأخطأت القصد ، فأبي ذنب لي في ذلك ؟ وبالمناسبة فإن العمد ركن أساسي من أركان الجناية عند أهل التشريع (ففررت منكم لما خفتكم) . ما فررت من وجه العدالة ، بل فررت من الظلم والخوف ان تعاملوني معاملة المجرم القاتل المتعمد .. وكان قد قال قائل لموسى : « ان الملاء يأثمرون بك ليقتلوك فاخرج اني لك من الناصحين - ٢٠ القصص » .

(فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين) . ذكره فرعون بالفقر والتشريد فقال له موسى : ان الكرامة لا تقاس بالمال والسلطان ، وإنما هي بيد الله يهبها من يشاء من عباده ، وقد وهب لي العلم بدينه وشريعته ، وبأوجه الخير والصواب ، وكرمني بالرسالة اليك وإلى قومك .

وقال موسى رداً على قول فرعون : ألم نربك فينا وليداً ، قال يرد عليه : (وتلك نعمة تمنها عليّ ان عبّدت بني اسرائيل) . أتمن علي يا فرعون بتريتك لي ، وتجاهل ان السبب هو طغيانك وعدوانك ، وانك ذبحت أبناء قومي ، واستعبدت نساءهم ، ولما خافت عليّ أمي من جورك قذفتني في البحر .. وكان الذي كان من حياتي في بيت غريب بعيداً عن حنان الأم ، وعطف الأب ؟ ..

أهذا هو فضلك عليّ ؟ ما كان أغناك عن الخالين ؟ فأتقم فرعون حجراً، وراح يلتمس لأباطيله ما تقرأه فيما يلي :

قال فرعون وما رب العالمين الآية ٢٣ - ٣٧ :

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ
وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ *
قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ لَئِنْ
اتَّخَذَتِ إلهَا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتِكَ
بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ
فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ * قَالَ
لِلْعَلَّاءِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ
بِسِحْرِهِ فَآذًا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ
حَاشِرِينَ * يَا تَوَكُّ بِكُلِّ صَحَّارٍ عَلِيمٍ *

حوار بين موسى وفرعون :

— (قال فرعون وما رب العالمين) .. زعمت يا موسى انك رسول رب
العالمين . ألا تبين لنا ما جنس هذا الرب ؟ وما هي حقيقته ؟

- (قال رب السموات والأرض وما بينها ان كنتم موثقين) . قال موسى : ان الله لا يُعرف إلا بأوصافه وآثاره ، ومنها خلق هذا الكون العجيب في ترتيبه ونظامه .. فتفكروا وتدبروا ان كان لكم حقول تدرك ان هذا النظام لا يكون إلا بقدره عليم حكيم .

- (قال - فرعون - لمن حوله ألا تستمعون) . اسمعوا وتعجبوا .. ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين .

- (قال ربكم ورب آبائكم الأولين) . قال موسى مصراً ومؤكداً : ان الله هو خالق الكون ، وخالقكم ، وخالق آبائكم ، وخالق فرعون هذا الذي تريبون وتعبدون .

- (قال - فرعون - ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون) .. موسى مجنون في منطق فرعون .. ولماذا ؟ لأنه يقول : فرعون مربوب وليس برب ، وخلق لا خالق .. وعلى هذا المنطق الفرعوني كل من ادعى شيئاً ليس فيه ، فن يدعي العلم وهو جاهل ، أو الإخلاص وهو خائن ، أو الصدق وهو كاذب فإنه على ملة فرعون وسسته .. ولو وجد هذا الدعي من يصدقه لقال : أنا ربكم الأعلى .. ما علمت لكم من إله غيري تماماً كما قال فرعون .

(قال رب المشرق والمغرب وما بينها ان كنتم تعقلون) . أصر موسى على موقفه وان الله هو خالق كل شيء ، وأشار الى شروق الشمس وغروبها ، حيث لا يجرأ فرعون أن يقول : انه يأتي بها من المشرق ، ويرسلها الى المغرب .. ولذا بهت حين سمع هذه المقالة من موسى ، تماماً كما بهت نمرود من قبله حين تحداه ابراهيم الخليل (ع) بقوله : « فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر - ٢٥٨ البقرة » .

ولما أفرغ فرعون ما في كنانته اضطربت نفسه ، وأخذ يهدد ويتوعد (قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين) .. السجن والتنكيل والتعذيب هو السلاح الوحيد لكل طاغ وباغ منذ القديم ضد الحق والعدل والحريّة .. ولكن جهاد المحقّين الأحرار وصمودهم يجعل سلاح الطغاة يرتد الى نحورهم وصدورهم ،

تماماً كما ارتد سلاح فرعون الى نحره وصدره ، وقديماً قيل : من سل سيف البغي قُتل به ، قال تعالى : « وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين فكللاً » أخذنا بذيئهم فنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا - ٤٠ العنكبوت .

(قال أوكلو جشك بشيء مبين قال فأت به ان كنت من الصادقين) . لم يخش موسى من تهديد فرعون ، وقال له في ثقة واطمئنان : أتجعلني من المسجونين ، حتى ولو كنت محقاً بالدليل الذي يزيل الشك عنك وعن غيرك ؟ . وبماذا يجيب فرعون عن هذا الاحراج ؟ هل يقول له : نعم أسجنتك وان كنت محقاً .. كيف وهذا اعتراف صريح بأن موسى رسول رب العالمين ، وان فرعون مفتر بدعواه الربوبية ، ولذا اضطر مرغماً أن يقول لموسى : « فأت به ان كنت من الصادقين » .

(فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين) . هذه الآية وما بعدها الى قوله تعالى : « سحار علم » تبلغ ست آيات ، وبها ينتهي المقطع الذي نحن بصدده ، وقد ذكرت هذه الآيات الست في سورة الاعراف من الآية ١٠٧ حتى الآية ١١٢ ج ٣ ص ٣٧٥ ، وهي واحدة هنا وهناك في ترتيبها ونصها الحرفي إلا في شيئين : الأول قال هنا « سحار » . وقال في الاعراف « ساحر » . والمعنى واحد في حقيقته ولا فرق إلا في المبالغة .

الثاني جاء في الآية ١٠٩ من سورة الاعراف « قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر علم » وجاء هنا في الآية ٣٤ من سورة الشعراء « قال للملأ حوله ان هذا لساحر علم » والفرق كبير بين المعنيين - كما يبدو - لأن آية الاعراف نسبت هذا القول الى جماعة فرعون ، لا الى فرعون ، وآية الشعراء نسبت الى فرعون بالذات ، لا الى جماعته ، فما هو وجه الجمع ؟ .

وما وجدت أية إشارة الى ذلك فيما لدي من التفسير والمصادر ، ولا أدري ما هو السبب .. وأياً كان فالذي أراه في الجواب ان فرعون هو الذي ابتدأ وقال لجماعته : « ان هذا لساحر علم » . ثم أخذ جماعته يتداولون قوله هذا فيما بينهم ،

ويقول بعضهم لبعض : حقاً ان موسى لساحر عليم .. كما هو شأن المرءوسين في تقليدهم لرؤسائهم بكل شيء ، وعنايتهم بأقوالهم وحفظها والاستشهاد بها .. وعليه فلا تنازع بين الآيتين .. قال فرعون ذلك لجماعته ، وجماعته أيضاً قالوه تقليداً له .

جاء السحرة الآية ٣٨ - ٥١ :

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمِهِمْ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُنْجِمُونَ *
لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا
لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَّا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا
لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ
وَعَصْيَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا
آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ
لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا أَقْطَعُ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَبُكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا
إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَاَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ
الْمُؤْمِنِينَ *

اللغة :

تقطع الأيدي والأرجل من خلاف ان تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ،
والعكس بالعكس . ولاضرب : لا ضرر .

الإعراب :

أن كنا (ان) مصدرية ، والمصدر المنسبك مجرور باللام المحذوفة ، والمعنى
نطمع في غفران ربنا لكوننا أول من آمن بالله في هذا المشهد الحافل .

المعنى :

(فجمع السحرة لميقات يوم معلوم) هو يوم العيد كما في الآية ٥٩ من سورة
طه : « قال موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى » . (وقيل للناس هل
انتم مجتمعون) لتشهدوا هذه المباراة ؟ والجاهل لا يحتاجون الى من يحشهم على
حضور هذا المشهد وأمثاله ، فإنهم يتلهفون عليه ، وينساقون اليه بفطرتهم .. وهذا
ما يريده موسى ويتمناه ليحق الحق ، ويبطل الباطل بمراى من الناس (لعلنا
نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين) . والذين قالوا هذا للناس هم فرعون وملأه ،
وظاهر قولهم هذا يومىء الى أنهم على شك من دين السحرة ، وانهم يبحثون
عن الحق ليتبعوه ، ولكن هذا غير مراد لأنهم والسحرة على دين واحد، والمعنى
المقصود لعلنا نبقى ثابتين على ديننا ، ولا نتبع دين موسى .

(فلما جاء السحرة قالوا لفرعون ائنا أجراً ان كنا نحن الغالبين) . هذه
الآية وما بعدها الى آخر آيات هذه المقطع قد ذكرت في سورة الاعراف من الآية
١١٣ حتى نهاية الآية ١٢٦ ج ٣ ص ٣٧٧ . ولا فرق هنا وهناك إلا في بعض
التعابير ، مثل قوله تعالى في سورة الاعراف : « وجاء السحرة فرعون قالوا إن
لنا لأجراً » . وقوله هنا في سورة الشعراء : « فلما جاء السحرة قالوا لفرعون
ائنا لأجراً » .

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ* فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي
الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ* إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ* وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ*
وَأَنَا لَجَمِيعُ حَافِرُونَ* فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ
كَرِيمٍ* كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ* فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ* فَلَمَّا
تَرَامَى الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْرُكُونَ* قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ
رَبِّي سَيَهْدِينِ* فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ
فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ* وَأَزَلَّغْنَا فِئْمَ الْآخِرِينَ* وَأَنْجَيْنَا
مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ* ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ* إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ*

اللغة :

سرى سار ليلاً . والشردمة الطائفة القليلة من الناس ، وفي البحر المحيط
شرذمة كل شيء بغيره الخبيسة . وغائظون جمع غائظ ، وهو الغاضب ، وفي
بعض كتب اللغة لا يقال : أغاظه وأغاظ فلان من كذا . وحافرون جمع حافر ،
وهو المحرّز المتيقظ ، وقال الطبرسي : الحافر فاعل الحذر ، والحذر المطبوع
على الحذر . ومشريقين داخلين في وقت شروق الشمس . وتراعى الجمعان تقابلا
ورأى كل منها صاحبه . والفرق بكسر الفاء الجزء . والطود الجبل . وأزلقنا
قربنا .

الإعراب :

حاذرون صفة لجميع . ومشرقين حال من واو اتبعوهم . وكلا حرف ردع وزجر .

المعنى :

(وأوحينا الى موسى ان أسر بعبادي انكم متبعون) . أمر الله موسى أن يخرج ليلاً هو وبنو اسرائيل من أرض مصر ، وأخبره ان فرعون وجنوده للاحقون بهم لارجاعهم (فأرسل فرعون في المذائن حاشرين) . لما علم فرعون بخروج موسى وقومه جمع لهم ليرغمهم على الرجوع الى سلطانه ، وينكل بهم ما شاء له التنيكيل وقال : (ان هؤلاء لشرذمة قليلون وانهم لنا لغائظون وانا لجميع حاذرون) . من هو موسى وقوم موسى ؟ انهم ليسوا بشيء بالنسبة اليها ، وقد حاولوا إزعاجنا والتمرد على أمرنا .. ولكن نحن لهم بالمرصاد : وسيلوقون وبال أمرهم .. ولكن فوق تدبير فرعون لله تدبير .. حشد فرعون جيوشه لموسى ، فكان مصيره ومصيرهم الى الاغراق والاهلاك .. قال الإمام علي (ع) : تذل الأمور للمقادير حتى يكون الختف في التدبير .

(فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم) . خرج فرعون وجنوده ليتنقموا من موسى ومن معه ، فانتقم الله منهم ، وأخرجهم مما كانوا يملكون وبه يتنعمون .. قصور عالية ، وأنهار جارية ، وقطوف دانية ، وكنوز غبأة ، ونواد ، وجنينات ، ومسابع ومنتزهات ، كل هذه وما اليها تركوها الى غير رجعة (وكذلك أورثناها بني اسرائيل) . قال الطبري والطبرسي : ان الله سبحانه أورث بني اسرائيل ديار فرعون وقومه . وقال أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط ، وهذا المعنى هو الظاهر لأن آية أورثناها جاءت بعد آية أخرجناهم . وقال آخرون : ان الله أورث بني اسرائيل مشل ما كان لفرعون وقومه لأن الاسرائيليين لم يعودوا الى مصر بعد أن خرجوا منها .

ومها يكن فان محل الشاهد في الآية ان الله لا يدع الظالمين وظلمهم ، وانه ينتقم منهم على أيدي المخلصين أو بأي سبب من الأسباب ولو بعد حين ، وهذا ما نعتقده ونؤمن به ، أما تحقيق المسائل التاريخية، وغيرها فندعه لأهل الاختصاص إلا اذا كنا على يقين منه .

(فأنبئهم مشرقين) خرج فرعون بخيله ورجله في طلب موسى وأصحابه ، فأدركهم حين شروق الشمس (فلما تراءى الجمعان) جمع موسى وجمع فرعون رأى كل منهما الآخر (قال أصحاب موسى إنا لمدركون) قالوا فرعاً وهلمأ : لحق بنا العدو ، ولا طاقة لنا به (قال كلا ان معي ربي سيهدين فأوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) . قال موسى لقومه : لا تخافوا من فرعون وقوته ، ان الله أقوى وأعظم ، وهو معي وسترون .. وما أنتم كلامه حتى أمره الله أن يضرب البحر بعصاه ، ولما ضربه انشق اثني عشر طريقاً على عدد الأسباط الاسرائيليين، وارتفع الماء بين طريق وطريق كالجبل العظيم ، وتجاوز موسى وقومه البحر الى الشاطئ الثاني . وتقدم مثله في الآية ٧٧ من سورة طه .

(وأزلفنا ثم الآخريين وأنجبنا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين) . أزلفنا أدبنا ، وثم بفتح الاء أي هناك ، والمراد بالآخرين جمع فرعون، والمعنى ان الله سبحانه بعد ان جاوز بني اسرائيل البحر الى الضفة الثانية ، وأصبحوا بمنجاة وصل جمع فرعون، وشاهدوا المعجزة الكبرى في وقوف مياه البحر كالجبال ومسالكة المهددة ، ففرح فرعون وقال لجمعه : انظروا كيف استجاب البحر لرغبتني ، وفتح لي الطريق الى الخارجين على ارادتي : ثم اقتحموا تلك المسالك ، وساروا في أمان واطمئنان .. وما ان توسطوا البحر حتى انطبق عليهم أجمعين ، ولم ينبج واحد منهم بعد ان حنروا كثيراً وأمهلوا طويلاً، ولكن لجوا في طغيانهم يعمهون .

(ان في ذلك لآية) معجزة خارقة ، وعبرة وعظة (وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك هو العزيز الرحيم). ضمير أكثرهم يعود الى بني اسرائيل الذين أنجاهم الله من فرعون ، لا الى المغرقين كما قال جماعة من المفسرين أخذاً بظاهر السياق .

والدليل على ان المراد بنو اسرائيل ، لا المفرقون ان أتباع فرعون كلهم كافرون دون استثناء ، وبالنصوص من كان معه ، وان بني اسرائيل لما أنجاهم الله من فرعون وتجاوز بهم البحر وأهلك عدوهم قالوا لموسى : نريد صنماً نعبد من دون الله : « وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة - ١٣٨ الاعراف ، . وعليه يكون معنى الآية ان الاسرائيليين شاهدوا انفلاق البحر وغيره من المعجزات ، ومع ذلك أصر أكثرهم على الكفر والتمرد .

ابراهيم الآية ٦٩ - ٨٩ :

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أفرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا * وَالْخِطْيَ الصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاعْفُ عَنِّي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَا تُخْزِنِي

يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ *

الإعراب :

كلمة عدو تطلق على الواحد والاثنتين والجماعة ، ومثلها كلمة الصديق . ورب العالمين مستثنى منقطع . والذي خلقني مبتدأ أول و (فهو) مبتدأ ثان ويهدين خبره ، والجملة خبر المبتدأ الأول ، كما قال أبو البقاء في كتاب الاملاء . ويوم لا ينفع بدل من يوم يبعثون . ومن أتى الله (من) مفعول لا ينفع المحذوف أي لا ينفع مال ولا بنون أحداً إلا من أتى الله الخ .

المعنى :

ذكر سبحانه قصة ابراهيم موزعة فيما تقدم من السور حسبما اقتضته المناسبة .. وفي هذه الآيات أعاد سبحانه الحوار الذي دار بين ابراهيم (ع) وقومه في سورة الأنبياء ، أعاده بأسلوب آخر .

(وائل عليهم نبأ ابراهيم) . الخطاب لرسول الله (ص)، وضيمر عليهم يعود لقريش الذين زعموا انهم من نسل ابراهيم وعلى دينه .

(اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون) ؟ . عند تفسير الآية ٧٤ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١١٢ ذكرنا اختلاف المفسرين في ان ابراهيم هل قال هذا لأبيه الحقيقي أو المجازي أي أخيه .

(قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين) . نداوم على عبادتها وتقديسها ، واعترفهم بعبادة الأصنام يشعر بأن كلمة صنم لم تكن تعني في مفهومهم النم كما نفهم منها نحن بل تعني العظمة والجلال .

(قال هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون) ؟ . من شأن المعبود

أن يسمع ويرى ، وينفع ويضر، فهل تتوافر هذه الصفات فيما تعبدون؟ والاستفهام هنا للانكار .

(قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) . هذا اعتراف صريح بأنهم مقلدون.. ولا عجب فقد رأينا في القرن العشرين وعصر الفضاء ، رأينا أتباع الأحزاب والمنظمات يشي أنواعها يقلدون رؤساءهم ، ويستدلون بأقوالهم ، ويأخذونها أخذ البدهييات من غير تحقيق وتمحيص .

(قال أفرأيت ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فانهم عدو لي إلا رب العالمين) . اذا قلتم أنتم آباءكم فأننا لا أقلد أحداً ، وأعلن براءتي من ألتكنم وعداوتي لها ، ولا أعبد إلا رب العالمين ، فهو وليي في الدنيا والآخرة ، فان كانت أصنامكم آلهة كما تزعمون فلتنزل كيدها بي وسخطها، فإني أنحداكم وأنحداها. (الذي خلقني فهو يهدين) . لقد وهبني الله عقلاً أهتدي به الى الحق ، وأنا أتبعه وأحسن استعماله ، ولا أقلد أحداً كما تزعمون (والذي هو يطعني ويسقين) بتيسير الأسباب لي ولجميع خلقه ، فلقد خلق سبحانه هذه الأرض ، وأودعها ما محتاجون اليه ، وقال : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه - ١٥ الملك » (واذا مرضت فهو يشفين) بما خلق من الدواء ، قال رسول الله (ص) : ان لكل داء دواء ، فاذا أصاب الدواء الداء برىء باذن الله . وفي حديث ثان : ان الله أنزل الداء والدواء ، فتداووا، ولا تتداووا بحرام (والذي يميتني ثم يحييني والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) . الموت والحياة وغفران الذنوب بيد الله وحده ، ما في ذلك ريب . وابراهيم (ع) معصوم من الخطأ والخطيئة ، ومن عصمة كل معصوم أن يعظم خوفه من الله .

(رب هب لي حكماً) . ليس المراد بالحكم هنا السلطان ، بل الحكمة وفصل الخطاب : « وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب - ٢٠ ص » (وألحقني بالصالحين) . وفقني لأن أأخذ حذوهم ، وأعمل عملهم (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) . المراد بالآخرين ما يأتي بعده من الأمم ، والمعنى اجعل ذكري حسناً بين الناس من بعدي : وقد استجاب الله دعاءه ، حيث اتفقت على تقديره وتعظيمه أهل الأديان السماوية كلها .

(واجعلني من ورثة جنة النعيم) . ومن أولى بها من ابراهيم ؟ (واغفر لأبي انه كان من الضالين) . انظر ج ٤ ص ١١١ تفسير قوله تعالى : (وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها لياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) . (ولا تخزني يوم يبعثون) . هذا دعاء ومناجاة يتعبد بها فيما يتعبد الأنبياء والصلحاء (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) من آفة الكفر والنفاق ، والحقد ، الرياء ، وغيره من الآفات والأمراض ، ومنى سلم القلب من الرذائل سلمت معه جميع الجوارح ، فيسلم اللسان من الكذب والغيبة ، والسمع من الاصغاء الى اللغو والباطل ، واليد من ممارسة الحرام ، والفرج من الزنا وفجور الخ .

الجنة للمتقين والجهنم للغاوين الآية ٩٠ - ١٠٤ :

وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرَزَتْ الْجَهَنَّمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ * فَكُتِبُوا فِيهَا * وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَتَجْعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نَسَوْنَكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * قُلُوا أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *

الآية :

أزلفت قربت . وبرزت بتشديد الراء من التبريز وهو الاظهار . والغاوين

جمع غاو وهو من ضل عن طريق الهداية والحق . وكبكبوا تكرار لكب، ومعناه الطرح والإلقاء . ونسويكم نجعلكم سواء معه . والحميم خالص الود .

الإعراب :

جنود ابليس عطف على (الغاوون) . ان كنا (ان) مخففة من الثقيلة، واللام في لقي ضلال اللام الفارقة . واذا ظرف متعلق بمبين . فنكون منصوبة بأن مضمرة لوقوعها بعد لو المتضمنة معنى التثني ، والمصدر المنسبك عطف على كرة .

المعنى :

(وأزلقت الجنة للمتقين) . أنها قريبة ممن اهلدى واتقى ، بعيدة عن ضل وغوى (وبرزت الجحيم للغاوين) أظهرها الله للذين جحدوها وكذبوا بها (وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله) وترجونهم لهذا اليوم، وتقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى (هل ينصرونكم أو ينتصرون) ؟ . انهم لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون .

(فكبكبوا فيها هم والغاوون و جنود ابليس أجمعون) . ضمير (هم) لأنهم ، والغاوون الذين عبدوها ، و جنود ابليس كل ضال ومضل ، يجمع الله بعضهم الى بعض ، ثم يلقي بهم في قعر جهنم ، وبشس المهاد (قالوا وهم فيها يخنصمون تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا إلا المجرمون) . يقول الغاوون غداً، وبعد فوات الاوان ، يقولون لأنهم وشباطينهم: كان دليلنا العمى والضللال حين عبدناكم وجعلناكم سواء مع الله ، وما صدنا عن سبيل الحق والهداية إلا المجرمون ، وهم الرؤساء والعلماء أرباب المنافع والمصالح أصل الفساد والبلاء .

(فإنا من شافعين ولا صديق حميم) . لا شافع غداً ولا جازع .. ولا يجدي الانسان نقماً إلا قلب سليم ، وعمل صالح ، والشقي من حُرِم منها (فلو ان لنا كرة فنكون من المؤمنين) . بعد أن يشوا من كل شيء تمنوا الرجعة الى الدنيا

ليؤمنوا ويعملوا .. وتقول الآية ٢٨ من سورة الأنعام : ه ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون . أنظر ج ٣ ص ١٧٩ (ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك هو العزيز الرحيم) . تقدم بالنص الحرفي الآية ٦٧ و ٦٨ من هذه السورة .

نوح الآية ١٠٥ - ١٢٢ :

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ *
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا *
قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ
الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ
بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَانْجِئْنَا وَمَنْ
مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *

الإعراب :

نوح بدل من (أخوهم) . وان اجري (ان) نافية، ومثلها ان حسابهم، وان

سورة الشعراء

انا . وما علمي (ما) نافية وعلمي مبتدأ والخبر محذوف أي ما علمي ثابت وبما متعلق بعلمي . وبتطارد الباء زائدة إعراباً وتطارد خبر أنا .

المعنى :

(كذبت قوم نوح المرسلين) . المرسل اليهم واحد ، وهو نوح (ع) ، ولكن من كذب رسولاً واحداً من رسل الله فقد كذب جميع رسله بالنظر الى ان المرسل واحد ، والرسالة واحدة (اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون) ومن أخذ بالتقوى كان في أمن وأمان من غضب الله وعذابه (اني لكم رسول أمين) وصفت نفسه بالأمانة التي عرفوه بها صغيراً وكبيراً ، تماماً كما عرفت قريش محمداً (ص) بالصدق والأمانة في جميع أحواله وحالاته (فاتقوا الله وأطيعون) فلاني أدعوكم الى ما فيه خيركم وصلاحكم دنياً وآخرة (وما أسألكم عليه من أجر إن أجرينى الا على رب العالمين) . كل رسول أجره على المرسل ، لا على المرسل اليه . وهل يستجيب الناس ويشقون بمن يطمع فيهم وفي أموالهم ؟ تقدم مثله في الآية ٩٠ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٢١ والآية ٢٩ من سورة هود ج ٤ ص ٢٢٥ (فاتقوا الله وأطيعون) لا سبب لتكرار الأمر بالتقوى إلا لأنها العمدة والأصل . (قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون) . طعنوا برسالة نوح لا لشيء إلا لأن الفقراء قد آمنوا بها والفقراء لا قيمة لهم — اذن — رسالة نوح لا قيمة لها .. وبكلام آخر ان المترفين لا يحبون حياة الفقراء ، فكيف يؤمنون بما آمنوا به ؟ .. وهكذا يفعل الترف في النفس المجرمة ، يعميها عن الحق ، ويخلق فيها الطغيان والكبرياء .

(قال وما علمي بما كانوا يعملون ان حسابهم الا على ربي) . قال نوح للذين جادلوه في الفقراء : ان قيمة المرء بمقاصده وأعماله ، لا بالجاه والمال ، وما علمت من الذين تزدرى أعينكم انهم أساءوا الى أحد في قول أو فعل ، والسرائر الى الله ، فهو وحده يعلمها ويحاسب عليها (لو تشعرون) ان قيمة الانسان بالأعمال لا بالأموال ، وان الظاهر للناس ، والباطن لله (وما أنا بتطارد المؤمنين ان انا إلا نذير مبين) . تقدم في الآية ٢٩ من سورة هود ج ٤ ص ٣٢٦ .

(قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين) . عجزوا عن الجدل بالحق فلجأوا الى التهديد واستعمال القوة .. وهذا دأب أشداء الباطل في كل زمان ومكان (قال - نوح - رب ان قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحاً) لما هددوه بالقوة استعان عليهم بالله وقوته ، وتضرع اليه ان يحكم بينه وبينهم حكماً ينتصر به للمحق ، وينتقم به من المبطل (ونجني ومن معي من المؤمنين) حين تنزل العذاب على الكافرين (فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون) بمن آمن معه من أهله وغيرهم ، وبالكائنات من كل زوجين اثنين (ثم أغرقنا بعد الباقين) . تقدم في سورة الاعراف الآية ٦٤ ج ٣ ص ٣٤٦ والآية ٤٠ من سورة هود ج ٤ ص ٢٣٢ (ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك هو العزيز الرحيم) . تقدم بنصه الحرفي مع التفسير في الآية ٦٧ و ٦٨ من هذه السورة .

هود الآية ١٢٣ - ١٤٠ :

كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ* إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا* وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ* أَتَنْبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آتَتْهُمُ تَعْبَثُونَ* وَتَذْخِدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ* وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا* وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدُّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ* أَمَدُّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ* وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ* قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ* إِنْ

هَذَا إِلَّا خُلِقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ *

اللغة :

الريع بكسر الراء وفتحها المكان المرتفع وأيضاً الطريق المنفرج ، ويطلق الريع بالفتح على نمو الزرع . والمراد بالمصانع هنا القصور التي لا خير فيها . والبطش الأخذ باليد . وإذا وصف الانسان بكلمة الجبار فالمراد بها النعم وأنه متكبر متعاضم ، وإذا وصف بها ذو الجلال فالمراد بها المدح وأنه عالٍ لا يبلغه شيء .

الإعراب :

ان هذا (ان) نافية . وبمعذبين الباء زائدة ومعذبين خبر نحن .

المعنى :

تقدمت قصة هود في سورة الأعراف الآية ٦٥ - ٧٢ ج ٣ ص ٣٤٦ - ٣٤٨ وأيضاً ذكرت في سورة هود الآية ٥٠ - ٦٠ ج ٤ ص ٢٣٧ - ٢٤٣ .
(كذبت عاد المرسلين اذ قال لهم أخوهم هود الا تتقون اني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجري إلا على رب العالمين) .
تقدم مثله بالنص الحرفي في المقطع السابق الآية ١٠٥ - ١١٠ من غير تعديل إلا في الاسم ، فهناك قوم نوح ، وهنا هود وعاد ، والسر ان رسالة الأنبياء واحدة محمدًا الدعوة الى الإيمان بالله الأحد ، وطاعته في أمره ونهيه .
(أتنبون بكل ريع آية تعبثون) . الريع المكان المرتفع، والمراد بالآية هنا البناء،

وكل بناء يسد حاجة من حاجات الحياة فهو خير، ومن الدين لأن دين الله هو دين الحياة ، أما البناء الذي لا جدوى منه إلا التكاثر والتفاخر فهو شر ديناً وعقلاً ، وهذا النوع من البناء هو المقصود بالآية بدليل قوله تعالى : (تعيثون) فإن العيث هو الذي لا تدعو الحاجة اليه (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) . ليس المراد بالمصانع هنا ما نفهمه نحن من هذه الكلمة لأن المصانع التي تنتج ما ينفع الناس هي من صميم الدين ، وانما المراد بالمصانع البناء الذي لا نفع فيه من أي نوع كان .

(وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله واطيعون) . بطش الجبار أن يظلم ، ويقسو في ظلمه ، ويتعاضم لأنه قادر على ظلم الضعيف ، والثابت في دين الله ان الظلم من أكبر الكبائر ، بل هو تماماً كالكفر بالله ، وأثبتنا ذلك فيما سبق بنص القرآن .. وأفحش أنواع الظلم ظلم الضعيف .. وقد نزلت هذه الآية حيث لا أسلحة جهنمية ، ولا ملايين يخصصها تجار الحروب لقتل الناس بالجملة ... نزلت يوم كان البطش باليد ، وأقصاه بالسيف أو الرمح أو السهم ، وإذا وصف سبحانه بأفحش الصفات وأفحشها من اعتدى على الضعفاء بصفعة كف ، وهدهد بأشد العقوبات فبأي شيء يجازي الذين يطمرون الشعوب المستضعفة بالصواريخ وقنابل التابالم ، وبالأسلحة الكيميائية وغيرها من أسباب القناء والهلاك ، ويملاؤون الأرض بالقواعد العسكرية، والسماء بالسفن العدوانية لا لشيء إلا ليتحكموا بأرواح العباد، ومقدرات البلاد حسب أهوائهم ومصالحهم ؟ .

(واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بانعام وبين وجنات وعيون اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) . دعاهم هود الى طاعة الله ، وذكرهم بنعمه عليهم ، وإمهاله لهم ، وحذرهم من عاقبة التآدي في البغي ، فسا زادهم ذلك إلا فراراً واستكباراً (قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) فما نحن لك بمؤمنين ، ولا يزيدنا وعظك إلا إدباراً عنك ، فلا تتعب نفسك في غير جدوى (ان هذا الا خلق الأولين وما نحن بمعدين) . هذا إشارة إلى دينهم ، وما يعبدون من الأصنام، وانهم ليسوا بتاركيها لأنهم ورثوا عبادتها أباً عن جد .. هذه هي حججهم ، ولا شيء غيرها: انا وجدنا آباءنا على أمة ، وأنا على آثارهم

مهندون (فكذبوه فأهلكناهم) . أنذر هود قومه بالأدلة والبراهين فلم يكثرثوا فكانوا من المالكين .

صالح الآية ١٤١ - ١٥٩ :

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ *
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُرْكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِينَ *
فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْجُونَ مِنَ
الْجِبَالِ يُّوْتَا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ
الْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا إِنَّمَا
أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ *
وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا
نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ *
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *

اللغة :

طلع النخل عنقود التمر في أول تكوينه وقبل ان يخرج من كفه . والحضيم

الجزء التاسع عشر

البايع الناضج . وفارهي من الفره وهو النشاط والفرح . ومسحّرين مبالغة في المسحورين . والشرب بكسر الشين النصيب .

الإعراب :

آمين حال من واو تتركون . وفي جنات بدل من فيها هاهنا بإعادة حرف الجر . وفارهي حال من واو تنتحتون .

المعنى :

تقدمت قصة صالح (ع) في سورة الاعراف الآية ٧٣ - ٧٩ ج ٣ ص ٣٤٩ - ٣٥٢ وفي سورة هود الآية ٦١ - ٦٨ ج ٤ ص ٢٤٣ - ٢٤٦ .

(كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تنقون أناي لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر أن اجري إلا على رب العالمين) . تقدمت هذه الآيات بألفاظها في المقطع السابق الخاص بهود ، والذي قبله الخاص بنوح ، وقلنا : ان السر في ذلك وحدة الرسالة .

(أنتركون فيها هاهنا آمين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنتحتون من الجبال بيوتاً فارهي) . كانت ثمود غارقة في الترف والرخاء .. أثمار وأثمار ، وقصور وأنعام غافلين عن كل شيء إلا عن شهواتهم وملذاتهم ، فعنهم أخوهم صالح من سوء العاقبة وقال لهم : أنفعلون عن الله ، وهو غير غافل عنكم ؟ وهل أنتم المفاجآت والمخبات ؟ . (فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون) . المراد بالمسرفين المفسدين الرؤساء والزعماء لأنهم أصل الداء والبلاء إلا من ندر ، فلا دين ولا قسم في مفهومهم إلا مصلحتهم ومصلحة ذوبهم .. وكان في قوم صالح تسعة من هؤلاء المسرفين المفسدين كما في صريح الآية ٤٨ من سورة النمل : « وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون » .

(قالوا إنما أنت من المسحّرين) . لقد سحرك ساحر ، وأفسد عقلك حتى

صرت نهر ف بما لا تعرف .. وهكذا يقول أكثر شباب اليوم أو الكثير منهم لمن يقول لهم : صلوا وصوموا (ما أنت إلا بشر مثلنا) يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، فكيف يتزل عليك الوحي من دوننا ؟ . (فأتى بآية ان كنت من الصادقين) . قالوا هذا ، وهم على عزم سابق أن يصروا على الكفر والعناد حتى ولو أتاهاهم بألف دليل ودليل ، ولولا ذلك لكان طلبهم حقاً وعدلاً .

(قال هذه ناقة لما شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم) . سألوه أن يأتي بمعجزة تدل على نبوته ، فأتاهم بناقاة من الطريق غير المألوف ، واشترط عليهم أن يكون الماء بينها وبينهم مناصفة ، ترده يوماً ، ويردونه يوماً، وحلهم أن يمسوها بأذى وإلا أخذهم الله بعذابه (فغفروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب) . تقدم في الآية ٧٨ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٥١ .

لوط الآية ١٦٠ - ١٧٥ :

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ*
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي* وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ* أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنْ
الْعَالَمِينَ* وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجَكُمْ بَلْ أَنْتُمْ
قَوْمٌ عَادُونَ* قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ*
قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ* رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ* فَجَعَلْنَاهُ
وَأَهْلَهُ أَجْعِينَ* إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ* ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ* وَأَمْطَرْنَا

عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *

اللفظ :

الذكران جمع ذكر . وعادون جمع عاد وهو المعتدي . والقالون جمع القالي
وهو المبغض . والغابرين جمع الغابر وهو الباقي .

المعنى :

تقدمت قصة لوط في سورة الاعراف الآية ٨٠ - ٨٤ ج ٣ ص ٣٥٢ - ٣٥٤
وفي سورة هود الآية ٧٧ - ٨٠ ج ٤ ص ٢٥٢ - ٢٥٤ .

(كذبت قوم لوط المرسلين اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون) أخوهم
في المعاشرة والسكنى ، لا في الدين ولا في النسب ، حيث جاء وعمه ابراهيم
الخليل (ع) من بابل الى مصر ثم الى فلسطين حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ،
وأقام لوط في وادي الأردن ، وابراهيم في المرتفعات التي في الشمال (اني لكم
رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب
العالمين) . بدأ لوط بما بدأ به نوح وهود وصالح (ع) ، لأن رسالة الجميع
واحدة .. اقرأ في هذه السورة الآيات التي تحدثت عن كل واحد منهم .

(أثاثون الذكران من العالمين) . اترتكبون هذا الفعل الشنيع بالذكر من أولاد
آدم (وتلرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم) . انكم بهذا تخالفون حكم الفطرة ،
وقانون الطبيعة ، والغرض المقصود من خلق الذكر والأنثى .. ولذا تأبى عملكم
الحيوانات والوحوش وتنفر منه .. ولكن مجلس العموم البريطاني شرع اللواط ،
وأعطى الدليل بذلك على ان بريطانيا أخس من الحيوانات في أخلاقها وقيمها ..
وغير بعيد أن يكون هذا نتيجة لتاريخها الاستعماري الطويل البغيض ، فلن اللطيان

والعدوان أسوأ المواقب والآثار (بل أنتم قوم عادون) تجاوزتم كل حد في أهوائكم وسفاهتكم ، وعصيانكم ونمردكم .

(قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين) . تقدم في الآية ١١٦ من هذه السورة (قال اني لعملكم من القالين) وفي معناه : و اني بريء مما تعملون - ٢١٦ الشعراء (رب نجني وأهلي مما يعملون فنجينا وأهله أجمعين إلا عجزوا في الغابرين ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين) . تقدم مثله في الآية ٨٣ وما بعدها من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٥٣ والآية ٦٠ من سورة الحجر ج ٤ ص ٤٨٢ .

شعب الآية ١٧٦ - ١٩١ :

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ *
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا
مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ
أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْبَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ
وَالْحَبِيلَةَ الْأُولَى * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا
بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ
إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي

ذَلِكَ لآيَةٍ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ *

اللفظ :

الايكة الشجر الملتف الكثيف . والمخسرين بكسر السين والراء جمع المخسر وهو الذي اذا عامله أحد الناس خسر لأنه يأخذ منه أكثر من حقه . والقسطاس الميزان . والبخس النقص . والجبله الخلقة والطبيعة . وكسفاً جمع كسفه وهي القطعة . والظلة بضم الظاء هي السحابة التي استظلوا بها من العذاب فأحرقتهم .

المعنى :

تقدمت قصة شعيب في سورة الاعراف الآية ٨٥ - ٩٣ ج ٣ ص ٣٥٥ - ٣٦٤ وفي سورة هود الآية ٨٤ - ٩٥ ج ٤ ص ٢٥٦ - ٢٦٤ .

(كذب اصحاب الايكة المرسلين) . قال المفسرون : اصحاب الايكة طائفة من الناس كانوا يسكنون في مكان قريب من مَدْيَنَ ، فيه شجر كثير (اذ قال لهم شعيب ألا تتقون) . لم يقل سبحانه أخوهم شعيب كما قال : أخوهم هود ، وأخوهم صالح لأن شعيباً ليس من مدين نسباً ، ولا صلة له بأصحاب الايكة الا صلة الجوار ، وقد بعثه الله اليهم كما بعثه الى قومه أهل مدين (أني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان اجري إلا على رب العالمين) . تقدم هذا بالحرف في الآيات السابقة على لسان نوح وهود وصالح ولوط ، وهو كلام كل نبي دون استثناء .

(أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين) . تقدم مثله في الآية ٨٥ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٥٦ والآية ٨٤ من سورة هود ج ٤ ص ٢٥٧ (واتقوا

سورة الشعراء

الذي خلقكم والجلية الأولين) والجلية عطف على الضمير في خلقكم، والمعنى خافوا عذاب الله الذي أوجدكم وأوجد الذين من قبلكم .

(قالوا إنما أنت من المسحرين) . تقدم بالحرف في الآية ١٥٣ من هذه السورة . (وما أنت إلا بشر مثلنا وان ننظرك لمن الكاذبين) . أنت تتعمد الكذب في دعوى الرسالة بدليل انك بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، ولو نزل الوحي على البشر لكان جميع الناس أنبياء .. قال ابن هشام في كتاب المغني - اذا لم تخفي الذاكرا - ان رجلاً قال لآخر : ماذا فعل أبوك بحماره ؟ فقال له : باعه بكسر العين . فقال السائل منكراً : لماذا كسرت العين ؟ قال : لأنك كسرت الرء .. أنجمر باؤك ، وبائسي لا تجمر ؟ والى هذا وأمثاله يؤدي القياس بأهله .

(فأسقط علينا كسفاً من السماء ان كنت من الصادقين) . حلزهم من العذاب ، فسحروا منه ، وقالوا : أين هو هذا العذاب الذي تهددنا به ؟ أنزله علينا قطعاً من السماء ان كنت صادقاً في دعواك (قال ربي أعلم بما تعملون) والأمر إليه وحده ، ان شاء عجل ، وان شاء أجل (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة انه عذاب يوم عظيم) . لم يبين سبحانه ما هي هذه الظلة ، وقال المفسرون : انها سحابة استظلوا بها من حر أصابهم ، فأمطرهم نارا أحرقتهم عن آخرهم .

نزل به الروح الأمين الآية ١٩٢ - ٢١٢ :

وَلَهُ تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وَلَهُ لَئِي ذُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي

قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيهِمْ
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا
يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ *
مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا
مُنْذِرُونَ * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ * وَمَا تَزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا
يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ *

اللفظ :

الروح الأمين جبريل (ع) . والزبور الكتب . والاعجمين بياء الجمع جمع
الأعجم ، وهو الذي لا يتكلم العربية ، وقيل : هو الذي لا يتكلم إطلاقاً انساناً
كان أم بهيمة ، والاعجميين بياء النسبة وياء الجمع جمع الأعجمي . وقال الطبرسي :
العجمي ضد العربي ، والاعجمي ضد الفصيح . وممزولون ممنوعون ومصرفون .

الإعراب :

ضمير انه وبه للقرآن بدلالة سياق الكلام . وضمير لهم لقريش متعلق بمحذوف
حالة من آية ، وآية خبر يكن ، والمصدر من أن يعلمه اسم يكن . فَيَأْتِيهِمْ
بالنصب عطفاً على يروا . وبغته مصدر في موضع الحال من الضمير المستتر في
يَأْتِيهِمْ أي مباغتاً . سنين ظرف زمان منصوب بمتعناهم . ذكرى مفعول من أجله
لـ (منذرون) . وفي ينبغي ضمير مستتر يعود الى المصدر المتصيد من تزلت .

المعنى :

(وانه لتزِيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين).
ضمير انه للقرآن ، والمراد بالروح الأمين جبريل (ع) ، والخطاب في قلبك
لمحمد (ص) .. بعد أن ذكر سبحانه قصص من تقدم من الأنبياء ذكر محمد
والقرآن ، وان جبريل نزل به على الرسول الأعظم ليجاهد الكافرين والمعادين
بآياته وبيناته .. وسمي جبريل بالروح لأنه نزل بالقرآن ، وهو هدى وشفاء
للأرواح : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء - ٤٤ فصلت » ، وسمي أيضاً
بالأمين لأنه مطيع لله، حريص على تأدية رسالاته كما هي الى أنبيائه تعالى، وهو أيضاً
عليم بها وبمقاصدها (بلسان عربي مبين). أنظر تفسير الآية ٢ من سورة يوسف
ج ٤ ص ٢٨٦ . وبيننا هناك السبب لنزول القرآن باللغة العربية .

(وانه لفي زبر الأولين) أي ان بعض الكتب السابقة على محمد(ص) بشرت
به وبالقرآن .. وفيها تقدم أثبتنا بالأدلة العقابية والنقلية ان القرآن وحي من عند
الله ، فمن الأدلة العقلية ان القرآن تحسدى الجاحدين أن يأتوا بسورة من مثله ،
فحاولوا وعجزوا ، وانه أخبر عن المغيبات ، فجاءت كما هي ، وانه يتحمل
الكثير من وجوه التفسير ، ولا سر لهذا إلا لأنه ممن أحاط بكل شيء علماً ..
أنظر تفسير الآية ٢٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٦٥ وما بعدها، وتفسير الآية ٥٣
من سورة النساء ج ٢ ص ٣٥٠ وما بعدها ، وتفسير الآية ٨٢ من سورة النساء
ج ٢ ص ٣٨٩ ، وتفسير الآية ٥٥ من سورة النور، فقرة « وجه آخر لاعجاز
القرآن » .

أما الأدلة النقلية فمنها ان التوراة والانجيل الأصليين قد بشرا بمحمد (ص) كما
صرحت الآية ١٥٧ من سورة الأعراف ، وأيضاً بشرت به بعض الكتب الدينية
الموعدة بالتقدم - غير التوراة والانجيل - أنظر تفسير الآية ٤٦ من سورة البقرة
ج ١ ص ٢٣٣ ، وفقرة « هل الأنبياء كلهم شرفيون » ج ٢ ص ٤٩٢ .

(أولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل) . كان علماء اليهود قبل البعثة
يشيرون بمحمد (ص) ، ويحدثون العرب عنه ، ويلذكرونه بصفاته لقريش وغيرهم

الجزء التاسع عشر

من العرب ، ولما بُعث أسلم البعض من اليهود الذين كانوا يتحدثون عنه كعبد الله ابن سلام وأصحابه ، وأسلم أيضاً جماعة من العرب ، وتنكر له سائر اليهود وعثة قريش .. وهذه الآية تقول للذين كذبوا بمحمد (ص) بعد أن سمعوا حديث اليهود عنه ، تقول لهم : كيف كذبتم به ، وقد سمعتم علماء اليهود من قبل يبشرون به ، ويعترفون بأنه مذكور بصفاته في التوراة ؟ أليس في شهادتهم هذه دليل قاطع على صدق محمد (ص) ؟ وليس من شك ان هذا دليل كاف واف لمن طلب الحق لوجه الحق ، ولكن العتاة الذين أنكروا نبوة محمد (ص) أنكروها خوفاً على مصالحهم ، وحرصاً على مكانتهم ، ولم ينكروها لضعف الدليل وقصور الحجة : « وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون - ١٠١ يونس ».

(ولو نزلناه على بعض الاعجميين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين) . انهم لا يؤمنون بالحق وبيناته ، سواء أ جاءهم بها عربي أم أعجمي ، لأن الحق والعلم عندهم هو المصلحة ، وما عداها ليس بشيء .. وقد كررنا ذلك فيما تقدم على الرغم من وضوحه وبداهته .

(كذلك سلكتاه في قلوب المجرمين) أي ان المجرمين اذا سمعوا الحق أو القرآن جحدوه وكذبوا به ، وبكلام أوضح ان البذر الصالح إنما يحيا وينمو ويأتي ثمره إذا صادف أرضاً طيبة صالحة ، أما إذا صادف أرضاً سبخة خبيثة فإن صلاحه لا يجدي نفعاً : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً - ٥٨ الاعراف » . وكذلك الحق يأتي بأطيب الثمار والآثار إذا صادف نفساً زكية نقية ، ولا يثمر شيئاً إذا كانت النفس خبيثة مجرمة ، وعلى هذا فعني (كذلك سلكتاه في قلوب المجرمين) ان القرآن لا أثر له في نفوسهم إلا الجحود والتكذيب .

(لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) . ضمير لا يؤمنون يعود الى المجرمين ، وضمير به الى القرآن ، والمعنى ان المجرمين لا يؤمنون بالحق مهما كانت دلائله إلا اذا رأوا العذاب فجأة ، أما اذا أنذروا به من قبل فيعرضون ويسخرون .. وبداهة ان الخضوع بين يدي العذاب نفاق لا إيمان ، وإكراه لا اختيار (فيقولوا هل نحن منظرون) ؟ . استعجلوا العذاب قبل أن

يروه ، وقالوا لنبيهم ساخرين : فأنتا به ان كنت من الصادقين ، ولما رأوه عياناً ندموا ، وتمنوا لو أمهلهم الله قليلاً كي يؤمنوا ويطيعوا .. وهكذا المضيق يتمنى الرجعة أو الامهال بعد فوات الاوان .

(أفعذابنا يستعجلون) . هذا من كلامه تعالى يرد به على الذين قالوا لنبيهم : فأنتا بما تعدنا .. فأسقط علينا كسفاً من السماء . ومعناه كيف تستعجلون العذاب ، واذا نزل لا تستطيعون له صرفاً ، ولا منه مفرأ (أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) . تمنى المجرمون الامهال حين رأوا العذاب ، فأجاب سبحانه بأن الامهال والاملاء وان طال أمده فانه لا يجدي نفعاً عند نزول العذاب ، بل كلما طال أسد المجرمين في الدنيا ، وازدادوا من نعيمها ازدادوا إثمًا وجرمًا ، وتضاعف عقابهم وعذابهم .

(وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون) هذا بمعنى قوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » - ١٥ الاسراء ، (ذكرى وما كنا ظالمين) في اهلاك القرى ، حيث أرسلنا الى أهلها رسلاً مننرين بالعذاب ، مذكرين بطاعة الله ، ومزودين بالأدلة والبراهين ، فكذبوا الرسل فحق عقاب الله .

(وما تنزل به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون) . كان أهل الجاهلية يعتقدون بالكهانة ، وان لكل كاهن شيطاناً يأتيه بأخبار الغيب ، ولما نزل القرآن قالوا هذا من وحي الشيطان الى الكهنة، وهؤلاء بدورهم يوحون به الى محمد (ص) أو هو كاهن تنزل عليه الشياطين ، فرد سبحانه هذا الزعم بأن القرآن هدى ونور ، وبينات قاطعة ساطعة ، وأبين الشياطين والكهنة من الهدى والبيئات ؟ .. انهم أضعف وأحقر .. هذا ، الى (انهم عن السمع لمجزولون) ممنوعون من سماع القرآن حين يوحى الله به الى جبريل لينقله الى محمد (ص) . واذا عجز الشياطين عن انشاء آية من مثله ، وعن سماع كلمة واحدة منه فكيف ينقلونه الى الكهنة ، ويخبرونهم به ؟ .

وانذر عشيرتك الاقربين الآية ٢١٣ - ٢٢٠ :

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

الْأَقْرَبِينَ * وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ
عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ *
الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ *

المعنى :

(فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين) . ظاهر السياق يدل ان الخطاب لرسول الله (ص) ، ولكن القصد منه الإخبار بأن كل من يدعو مع الله إلهاً آخر فهو من المعذبين كائناً من كان .

(وانذر عشيرتكَ الأَقْرَبِينَ) . النبي (ص) مأمور بانذار الناس أجمعين :
« يا أيها المدثر قم فأنذر » . وفي الآية ٢ من سورة يونس : « ان أنذر الناس
وبشّر الذين آمنوا » . وخص سبحانه عشيرة الرسول بالذكر لأن المؤدب يبدأ بنفسه
ثم بأهله وعشيرته ، ثم بالآخرين ، ولأن عشيرته اذا صدقوه وآمنوا به كانوا عوناً
له على بث الدعوة وانتشارها .

وقد كثر كلام المسلمين حول هذه الآية ، فقال جماعة من السنة : انه حين
نزلت قال رسول الله (ص) : يا فاطمة ابنة محمد . يا صفية ابنة عبد المطلب .
يا بني عبد الله اعملوا فلاني لا أملك لكم من الله شيئاً .

وقال الشيعة وجماعة آخرون من السنة ، منهم الإمام أحمد بن حنبل والنسائي
والسيوطي وأبو نعيم والبغوي والثعلبي وصاحب السيرة الحلبية وصاحب كثر العمال
قالوا وغيرهم : ان النبي (ص) عندما نزلت هذه الآية دعا بني عبد المطلب ،
وهم يومئذ أربعون رجلاً ، فيهم أعمامه أبو طالب وحزرة والعباس وأبو لهب ،
وكان قد أولم لهم ، وبعد ان أكلوا وشربوا قال : يا بني عبد المطلب اني قد
جئتكم بخبر الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله أن أدعوكم اليه ، فأبكم يؤازرني على

هذا الأمر على أن يكون أنبي ووصي وخليفتي فيكم ؟ فأحجم القوم جميعاً إلا علياً قال : أنا يا نبي الله . فأخذ النبي (ص) برقبته ، وقال : ان هذا أنبي ووصي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له واطيعوا^١ وذكر هذا الحديث محمد حسين هيكل في كتابه « حياة محمد (ص) » في الطبعة الأولى ، وحذفه في الطبعة الثانية .

وقال أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط : « وروي في ذلك أحاديث عن رسول الله (ص) . » يشير بذلك الى الأحاديث التي جاء فيها ذكر الإمام علي(ع) ، والأحاديث التي لم يذكر فيها اسمه .. ولا تنافر وتعارض بين هذه الأحاديث ، فان الجمع بينها ممكن وقريب جداً .. أولم الرسول (ص) للأربعين من عشيرته ، وقال لهم : أياكم يؤازرنني على هذا الأمر الخ ، ثم قال لهم بمناسبة ثانية : اني لا أملك لكم من الله شيئاً .

(واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) . تقدم في الآية ٨٨ من سورة الحجر ج ٤ ص ٤٩٠ (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ أَنِي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) . الخطاب لرسول الله (ص) والواو في عصوك لعشيرته السذين أنذرهم . والقريب من الله ورسوله من قرابته التقوى ، والبعيد عنها من أبعدته المعصية كائناتاً من كان (وتوكل على العزيز الرحيم) دعهم وشأنهم ان عصوك ، ولا تنهب نفسك عليهم حسرات ، وتوجه الى الله وحده في جميع أمورك .

(الذي يراك حين تقوم) الى التهجس في جوف الليل : « وبالاسحار هم يستغفرون - ١٨ الذاريات » (وتقلبك في الساجدين) . قال الشيعة الإمامية : ان جميع آباء النبي موحدون ، ومن أدلتهم هذه الآية ، حيث فسروها بأن النبي تقلب في أصلاب الموحدين ، واللفظ يتحمل هذا المعنى ، ويتحمل أيضاً تفسير من قال : ان الله يراك يا محمد مع المصلين ، وظاهر السياق يدل على هذا التفسير دون ذلك (انه هو السميع العليم) بسمع الأقوال ، ويعلم السرائر والأفصال ، ويجزي عليها ان خيراً فخير ، وان شراً فشر .

١ انظر أميان الشيعة للأمين ج ٣ ص ١١٠ طبعة ١٩٦٠ ودلائل الصديق المظفر ج ٢ ص ٢٣٢ طبعة ١٩٥٢ .

الشعراء يتبعهم الغاؤون الآية ٢٢١ - ٢٢٧ :

هَلْ أَنْبَأَكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلُ الشَّيَاطِينَ * نَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ *
يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ
أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا
ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ *

اللمعة :

أنبأكم أخبركم . أفاك كذاب . وأثيم فاعل الإنم .

الإعراب :

جملة يلْقون السمع صفة لكل أفاك . وأي منقلب (أي) صفة لمفعول مطلق
مخوف أي انقلاباً أي انقلاب .

المعنى :

القرآن حرب على المبطلين ، ولكنه يحاربهم أولاً وقبل كل شيء بمنطق العقل
السليم ، وبجادهم بالتي هي أحسن ، ويدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة الى الإيمان
بالحق ، ويوضحه لهم بكل أسلوب ، ويسألهم برفق ولين أن يدلوا بما لديهم من
حجة وسلطان : « لولا يأتون عليهم بسلطان بين » - ١٥ الكهف . وإذا تدرعوا
بحجة واهية أبطلها القرآن وبين ما فيها من ضعف وخطل ... وقال المشركون

وأصحاب المصالح الكثير عن رسول الله (ص) والقرآن .. من ذلك زعمهم بأن القرآن من وحي الشيطان ، وزعمهم أيضاً بأن محمداً (ص) شاعر .. ورد سبحانه ذلك بما يلي :

(على أنبيئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفك أثيم) . هذا رد لقولهم : ان القرآن من وحي الشياطين ، ووجه الرد ان الشياطين توسوس وتوحي بالباطيل الى الكذاب الأثيم من أمثالهم : « شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول - ١١٢ الانعام » . ولا سبيل للشياطين على أهل الأمانة والصدق كالأنبياء والصلحاء .. هذا الى ان القرآن حق وخير ، ووحى الشياطين شر وزور ، فكيف يكون من وحيهم ؟ (يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) . المراد بلقاء السمع هنا الاصغاء والاستماع ، وضمير يلقون يعود الى الكافرين ، والمعنى ان الذين يستمعون الى الشياطين ، ويتلقون منهم الأكاذيب والباطيل هم الكافرون ، وأكثر الكافرين يكذبون في أحاديثهم وأقوالهم .. ومحمد (ص) صادق في جميع أقواله وأفعاله ، فكيف يقال : استمع وتلقى من الشياطين ؟

(والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون) . هذا رد لقول المشركين : ان محمداً شاعر .. وبيان الرد ان بين محمد والشعراء فرقاً كبيراً من وجوه :

أولاً : ان الذين اتبعوا محمداً (ص) انما اتبعوه ثقة به وبعظمته ، وإيماناً بالله ونبوة نبيه يرجون نجاة لن تبور في مودته ، ولذا فلدوه بالأرواح وقاتلوا من أجله الآباء والأبناء ، أما الشعراء ، وبالحصوص القدماء منهم فلأنهم كانوا يعيشون في الأحلام والأوهام .. وقدعماً قيل : « أحلام شاعر » . وقيل : أعذبه أكذبه أي الشعر ، ولا يتبع هؤلاء الشعراء إلا من كان على شاكلتهم .

ثانياً : ان أكثر الشعراء كانوا في القديم يناصرون الطغاة ، ويدعون ظلمهم وطفائهم ، فكان الشاعر يعصر عبقرته ومواهبه لينظم قصيدة أو أبيتاً يتغنى فيها بعظمة الجبارة والقيصرة ، وأين هذا من رسالة محمد (ص) التي هي ثورة على الظلم والفساد ؟.

ثالثاً : ان الشعراء يقولون كثيراً ، ويفعلون قليلاً ، ولا يستخفهم شيء إلا الأهواء والأغراض ، يندفعون وراءها انى توجهت ، أما محمد (ص) فانه ما

ينطق عن الهوى ، ولا يتبع إلا ما يوحى اليه من ربه ، فكيف يقال : هو شاعر ؟ : «وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو إلا ذكر وقرآن مبين - ٦٩ يس» .
وتسأل : ألا يدل ذم القرآن للشعراء على ان الاسلام يحارب الشعر والفن ؟
الجواب : كلا .. لأن القرآن ما ذم الشعر من حيث هو ، ولا الشعراء من حيث هم ، وإنما ذم الشعر الذي هو زور وباطل ، وذم الشعراء الذين يعرضون عن الحق ويسلكون الطرق الملتوية ، أما الشعراء الذين يعبرون عن أمانتي المستضعفين ويقفون مع المظلومين ، ويناصرون العدالة وحرية الانسان ، ويثورون على الطغاة والعتاة ، وعلى الجبل والتخلف ، أما هؤلاء فانهم في طليعة المجاهدين في سبيل الله . قيل لرسول الله (ص) : ما تقول في الشعر ؟ فقال : « ان المؤمن مجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكأنما ينفضونهم بالنبل » . وهذا النوع من الشعر الذي هو نبل في قلوب الظالمين هو مما عناه الرسول الأعظم (ص) بقوله : ان من الشعر لحكمة . وقال تعالى : « خلق الانسان علمه البيان - ٤ الرحمن » . وليس من شك ان الشعر من أصلى فنون البيان وأبلغها ، كما أنه ثروة اللغزة وكنتزها الثمين .

ولذا استثنى سبحانه الشعراء الطيبين المجاهدين ، استثناهم بقوله : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا) . أي انتصر الشعراء للحق وأهله ممن اعتدى عليه وعليهم ، ونافخوا عن الانسان وحرية وكرامته .. وهذا نص صريح من الله سبحانه على ان شعر الثورة ضد الظلم والطغيان هو من صميم الدين والايمان وصالح الأعمال ، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم - ١٤٧ النساء » (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) . هذا تهديد ووعيد بسوء العاقبة لكل من طغى وبغى .
والحمد لله رب العالمين والصلاة على محمد وآله الطاهرين .

فهرست

سورة الإسراء

٧	الإسراء الآية ١
٨	الإسراء بالروح والجسد
١٠	بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى
١١	الدرس العملي في الإسراء
١٢	وأتينا موسى الكتاب الآية ٢ - ٣
١٤	بنو اسرائيل والإفساد مرتين الآية ٤ - ٨
١٩	قضاء الله ودولة اسرائيل
٢١	القرآن يهدي للتي هي أقوم الآية ٩ - ١٢
٢٣	الاسلام دين الفطرة
٢٧	طائره في عتقه الآية ١٣ - ١٥
٢٩	أمرنا مترفيها ففسقوا فيها الآية ١٦ - ٢١
٣٠	المترفون
٣٤	فلا تقل لها أف الآية ٢٢ - ٢٥
٣٥	البر بالوالدين
٣٦	الوصايا العشر الآية ٢٦ - ٣٩
٣٩	أين العدل ؟
٤٠	الاسلام ونظرية الأخلاق

٤٣	القول بغير علم
٤٥	أفأصفاكم ربكم بالبنين الآية ٤٠ - ٤٤
٤٧	كل شيء يسبح بحمده
٤٨	واذا قرأت القرآن الآية ٤٥ - ٤٨
٥١	ألذا كنا عظاماً ورفثاً الآية ٤٩ - ٥٢
٥٣	وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن الآية ٥٣ - ٥٧
٥٦	وان من قرية الآية ٥٨ - ٦٠
٥٧	المهدي المنتظر
٦٠	فسجلوا إلا ابليس الآية ٦١ - ٦٥
٦٢	تقديم الأفضل على المفضول
٦٤	يزجي لكم الضلوك الآية ٦٦ - ٦٩
٦٥	كرمنا بني آدم الآية ٧٠ - ٧٢
٦٦	بماذا كرم الله بني آدم ؟
٧٠	هل يُخدع النبي عن دينه الآية ٧٣ - ٧٧
٧٢	أقم الصلاة لدلوك الشمس الآية ٧٨ - ٨١
٧٦	قوة الحق وقوة الباطل
٧٧	القرآن شفاء ورحمة الآية ٨٢ - ٨٥
٧٩	الروح من أمر ربي
٧٩	الله وعلم الخلايا
٨١	لئن شئنا لنذهبن الآية ٨٦ - ٨٩
٨٣	التفكير من خلال المال الآية ٩٠ - ٩٦
٨٤	حب الذات
٨٧	ومن يهد الله الآية ٩٧ - ١٠٠
٩٠	أتينا موسى نضع آيات الآية ١٠١ - ١٠٤
٩٣	وبالحق أنزلناه الآية ١٠٥ - ١١١

سورة الكهف

- ١٠٠ أنزل على عبده الكتاب الآية ١ - ٨
- ١٠٣ أصحاب الكهف والرقم الآية ٩ - ١٢
- ١٠٦ نبأهم بالحق الآية ١٣ - ١٨
- ١١١ وكذلك بعثناهم الآية ١٩ - ٢٢
- ١١٦ ان شاء الله الآية ٢٣ - ٢٦
- ١١٧ المشيئة العليا
- ١٢٠ واتل ما أوحى إليك الآية ٢٧ - ٢٩
- ١٢٣ لا نصيب أجر من أحسن الآية ٣٠ - ٣١
- ١٢٤ بين غني كافر وفقير مؤمن الآية ٣٢ - ٤٤
- ١٢٦ خلاصة القصة
- ١٣١ زينة الحياة الدنيا الآية ٤٥ - ٤٦
- ١٣٢ المال والبنون زينة الحياة الدنيا
- ١٣٣ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً الآية ٤٧ - ٤٩
- ١٣٥ سجدوا إلا لإبليس الآية ٥٠ - ٥٣
- ١٣٨ وكان الانسان أكثر شيء جدلاً الآية ٥٤ - ٥٦
- ١٤٠ ذكر بآيات ربه فأعرض الآية ٥٧ - ٥٩
- ١٤٢ موسى وجمع البحرين الآية ٦٠ - ٦٤
- ١٤٤ موسى يلتقي بصاحبه الآية ٦٥ - ٧٠
- ١٤٦ فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة الآية ٧١ - ٨٣
- ١٤٧ الوقوف عند الشبهة
- ١٥٥ فو القرنين الآية ٨٤ - ٩٢
- ١٥٨ يأجوج ومأجوج الآية ٩٣ - ١٠٠

١٦٢	جهنم والأخسرون أعمالاً الآية ١٠١ - ١٠٧
١٦٥	الذين آمنوا وعملوا الصالحات ١٠٨ - ١١١
	سورة مريم

١٦٨	ذكرى الآية ١ - ٦
١٧٠	البشارة يوحى الآية ٧ - ١١
١٧١	يحيى الآية ١٢ - ١٥
١٧٣	مريم الآية ١٦ - ٢١
١٧٥	الحمل بعيسى الآية ٢٢ - ٢٦
١٧٨	لقد جئت شيئاً فرياً الآية ٢٧ - ٣٥
١٨٠	هذا صراط مستقيم الآية ٣٦ - ٤٠
١٨٢	إبراهيم الآية ٤١ - ٥٠
١٨٦	موسى وإسماعيل وإدريس الآية ٥١ - ٥٨
١٨٧	الوفاء
١٨٩	فخلف من بعدهم خلف الآية ٥٩ - ٦٥
١٩١	لسوف أخرج حياً الآية ٦٦ - ٧٢
١٩٣	أي الفريقين خير الآية ٧٣ - ٧٦
١٩٦	أفرايت الذي كفر بآياتنا الآية ٧٧ - ٨٧
١٩٩	قالوا اتخذ الرحمن ولداً الآية ٨٨ - ٩٨
٢٠١	النصارى وبنو هاشم

سورة طه

٢٠٣	طه الآية ١ - ٨
٢٠٥	حديث موسى الآية ٩ - ١٦
٢٠٦	تكرار قصة موسى
٢٠٨	وما تلك يمينك يا موسى الآية ١٧ - ٣٥
٢١٣	حقيقة النبوة
٢١٥	علي وهارون
٢١٥	قد أوتيت سؤلك يا موسى الآية ٣٦ - ٤١
٢١٨	اذهب أنت وأخوك الآية ٤٢ - ٤٨

٢٢٠	فن ربكما يا موسى الآية ٤٩ - ٥٦
٢٢٣	فرعون يجمع السحرة الآية ٥٧ - ٦٤
٢٢٧	بين موسى والسحرة الآية ٦٥ - ٧٦
٢٣١	فاضرب لهم طريقاً في البحر الآية ٧٧ - ٨٢
٢٣٣	السامريّ والعجل الآية ٨٣ - ٨٩
٢٣٧	موسى يعتب على هرون الآية ٩٠ - ٩٨
٢٤٠	غرائب اسرائيل
٢٤١	كذلك نقصّ عليك الآية ٩٩ - ١١٢
٢٤٥	أنزلناه قرآناً عربياً الآية ١١٣ - ١٢٢
٢٤٧	أوصاف القرآن
٢٤٨	زدني علماً
٢٥٠	قال اهبطا منها الآية ١٢٣ - ١٢٩
٢٥٣	فاصبر على ما يقولون الآية ١٣٠ - ١٣٢
٢٥٥	فقر النبي معجزة كبرى
٢٥٦	لولا يأتينا بآية الآية ١٣٣ - ١٣٥
	سورة الانبياء
٢٦١	اقرب للناس حسابهم الآية ١ - ٦
٢٦٣	فاسألوا أهل الذكر الآية ٧ - ١٥
٢٦٥	محمد والعرب
٢٦٦	هل أفعاله تعالى معللة بالأغراض الآية ١٦ - ٢٣
٢٦٩	من علم حجة على من لا يعلم
٢٧٠	هاتوا برهانكم الآية ٢٤ - ٢٩
٢٧٢	وجعلنا من الماء كل شيء حي الآية ٣٠ - ٣٦
٢٧٦	خلق الانسان من عجل الآية ٣٧ - ٤٤
٢٧٩	انذرکم بالوحي الآية ٤٥ - ٥٠
٢٨٠	الميزان يوم القيامة وصاحب الأسفار
٢٨٢	ابراهيم الآية ٥١ - ٦٠
٢٨٥	قالوا فأتوا به الآية ٦١ - ٧٠
٢٨٨	ونجيناه لوطاً الآية ٧١ - ٧٧

٢٩٠	داود وسليمان الآية ٧٨ - ٨٢
٢٩٣	وأيوب اذ نادى ربه الآية ٨٣ - ٩١
٢٩٦	أمة واحدة الآية ٩٢ - ١٠٠
٣٠٠	الأرض يرثها عبادي الصالحون الآية ١٠١ - ١٠٧
٣٠٢	أيضاً المهدي المنتظر
٣٠٣	انما إلهكم إله واحد الآية ١٠٨ - ١١٢

سورة الحج

٣٠٦	البحث الآية ١ - ٧
٣٠٨	جدال الجاهل والضلال
٣١٢	أسباب المعرفة في آية واحدة الآية ٨ - ١٤
٣١٦	فليمدد بسبب الى السماء الآية ١٥ - ١٨
٣١٨	هذان خصمان اختصموا في ربهم الآية ١٩ - ٢٥
٣٢١	وطهر بيبي للطافئين والقائمين الآية ٢٦ - ٢٩
٣٢٤	حرمان الله وشعائره الآية ٣٠ - ٣٥
٣٢٨	والذين جعلناها لكم الآية ٣٦ - ٣٧
٣٣٠	ان الله يدافع عن الذين آمنوا الآية ٣٨ - ٤١
٣٣٥	وان يكذبوك الآية ٤٢ - ٥١
٣٣٩	تمني النبي وإلقاء الشيطان في أمنيه الآية ٥٢ - ٥٧
٣٤٢	والذين هاجروا الآية ٥٨ - ٦٤
٣٤٤	يمسك السماء أن تقع الآية ٦٥ - ٧٠
٣٤٧	ويعبدون من دون الله الآية ٧١ - ٧٦
٣٤٨	صفحات الوجه ونظرات العينين
٣٤٩	حول عقيدة التوحيد
٣٥١	وافعلوا الخير لعلكم تفلحون الآية ٧٧ - ٧٨

سورة المؤمنون

٣٥٧	صفات المؤمنين الآية ١ - ١١
٣٥٩	خلق الانسان والسموات الآية ١٢ - ١٧
٣٦٠	الله والانسان
٣٦٢	معنى السموات السبع
٣٦٣	وأنزلنا من السماء ماء الآية ١٨ - ٢٢
٣٦٤	نوح الآية ٢٣ - ٣٠
٣٦٧	هود الآية ٣١ - ٤١
٣٧٠	كلما جاء أمة رسولها كذبوه الآية ٤٢ - ٥٠
٣٧٢	رب واحد ودين واحد الآية ٥١ - ٥٥
٣٧٥	أيضاً صفات المؤمنين الآية ٥٧ - ٦٢
٣٧٧	بل قلوبهم في غمرة الآية ٦٣ - ٧٢
٣٧٩	نور الشمس وأهواء المترفين
٣٨٠	تدعوهم الى صراط مستقيم الآية ٧٣ - ٨٠
٣٨٢	قالوا مثل ما قال الأولون الآية ٨١ - ٩٠
٣٨٥	عالم الغيب والشهادة الآية ٩١ - ١٠٠
٣٨٧	الدفاع بالأحسن
٣٨٨	فلا انساب بينهم يومئذ الآية ١٠١ - ١١١
٣٩١	كم لبثتم في الأرض الآية ١١٢ - ١١٨

سورة التور

٣٩٤	حكم الزنا والقذف الآية ١ - ٥
٣٩٩	اللعان بين الزوجين الآية ٦ - ١٠
٤٠١	جامعوا بالإفك الآية ١١ - ٢٠
٤٠٣	ملخص قصة الإفك
٤٠٧	لا تتبعوا خطوات الشيطان الآية ٢١ - ٢٥

٤١٠	الحيثات للغيثين الآية ٢٦ - ٢٩
٤١٣	الحجاب وغض النظر الآية ٣٠ - ٣١
٤١٥	سفور أم متجر لبيع اللحوم
٤١٨	وأنكحوا الأيامى منكم الآية ٣٣ - ٣٤
٤٢٢	المنطوق والمقهوم
٤٢٣	الله نور السموات والأرض الآية ٣٥ - ٣٨
٤٢٦	أعمالهم كسراب الآية ٣٩ - ٤٢
٤٢٩	الماء الآية ٤٣ - ٤٦
٤٣١	المتناقضون الآية ٤٧ - ٥٤
٤٣٣	امتنح دينك وإيمانك
٤٣٥	استخلاف المؤمنين في الأرض الآية ٥٥ - ٥٧
٤٣٧	وجه آخر لإعجاز القرآن
٤٣٨	الطفل والمملوك والاستئذان الآية ٥٨ - ٦٠
٤٤١	ليس على الأعمى حرج الآية ٦١
٤٤٣	لم يذهبوا حتى يستأذنوا الآية ٦٢ - ٦٤

سورة الفرقان

٤٤٧	نزل الفرقان على عبده الآية ١ - ٦
٤٥٠	يأكل الطعام ويمشي في الأسواق الآية ٧ - ١٦
٤٥٣	منطق أرباب المال : بنك وعقار
٤٥٣	شأن الجاهل المغرور
٤٥٥	ويوم يحشرهم وما يعبدون الآية ١٧ - ٢٠
٤٦١	لا بشرى يومئذ للمجرمين الآية ٢١ - ٢٩
٤٦٤	اتخلوا هذا القرآن الآية ٣٠ - ٤٠
٤٦٩	أهذا الذي بعث الله رسولا الآية ٤١ - ٤٤
٤٦٩	بين موقفين لعيسى ومحمد

٤٧١	أضل من الأنعام
٤٧٢	وراء الظواهر الطبيعية الآية ٤٥ - ٥٤
٤٧٥	القرآن والاذاعة
٤٧٧	وكان الكافر على ربه ظهيراً الآية ٥٥ - ٦٢
٤٨٠	عباد الرحمن الآية ٦٣ - ٧٧
	سورة الشعراء
٤٨٦	لعلك باخع نفسك الآية ١ - ٩
٤٨٨	موسى الآية ١٠ - ٢٢
٤٩٢	قال فرعون وما رب العالمين الآية ٢٣ - ٣٧
٤٩٥	جاء السحرة الآية ٣٨ - ٥١
٤٩٧	إغراق فرعون وقومه الآية ٥٢ - ٦٨
٥٠٠	ابراهيم الآية ٦٩ - ٨٩
٥٠٣	الجنة للمتقين والجحيم للغالوتين الآية ٩٠ - ١٠٤
٥٠٥	نوح الآية ١٠٥ - ١٢٢
٥٠٧	هود الآية ١٣٣ - ١٤٠
٥١٠	صالح الآية ١٤١ - ١٥٩
٥١٢	لوط الآية ١٦٠ - ١٧٥
٥١٤	شعيب الآية ١٧٦ - ١٩١
٥١٦	نزل به الروح الأمين الآية ١٩٢ - ٢١٢
٥٢٠	وأنذر عشيرتك الأقربين الآية ٢١٣ - ٢٢٠
٥٢٣	الشعراء يتبعهم الغاؤون الآية ٢٢١ - ٢٢٧
٥٢٦	فهرست